ضياء الفرقان

في تفسير القرآن

المجلد الثاني

السيد محمد تقي النقوي القائني

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

ضیاء الفرقان

فی

تفسیر القرآن

مجلد ۱۷

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7؛ ج. ۱۷: 978-964-8981-61-2
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد السابع عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۷ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

جمیع الحقوق مَحفوُظةٌ لمؤلف

شابک: ۲ - ۶۱ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

الجزء الثامن والعشرون **٧**
سُورَةُ ٱلْمُجَٰدَلَةِ ٩
سُورَةُ الحَشْرِ ٣٩
سُورَةُ ٱلْمُمْتَحَنَةِ ٧٩
سُورَةُ الصَّفِّ ١١١
سُورَةُ ٱلْجُمُعَةِ ١٢٥
سُورَةُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ١٤٧
سُورَةُ ٱلتَّغَٰابُنِ ١٦١
سُورَةُ ٱلطَّلَاقِ ١٨٥
سُورَةُ ٱلتَّحْرِيمِ ٢٠٩
الجزء التاسع والعشرون **٢٣٣**
سُورة المُلك ٢٣٥
سُورة القَلَم ٢٥٩
سُورَةُ ٱلْحَٰاقَّةِ ٢٩١
سُورَةُ ٱلْمَعَٰارِجِ ٣١٩
سُورَةُ نوُحٍ ٣٤٣
سُورَةُ ٱلْجِنِّ ٣٦٣
سُورَةُ ٱلْمُزَّمِّلِ ٣٨٧
سُورَةُ ٱلْمُدَّثِّرِ ٤٠٥
سُورَةُ ٱلْقِيٰمَةِ ٤٢٧
سُورَةُ ٱلْاِنْسَٰانِ ٤٥١
سُورَةُ ٱلْمُرْسَلَٰاتِ ٤٧٩
الفهرست **٤٩٣**

الجزء

الثامن والعشرون

سُورَةُ ٱلْمُجٰادَلَةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللّٰهُ قَوْلَ ٱلَّتى تُجٰادِلُكَ فى زَوْجِهٰا وَ
تَشْتَكىٓ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ يَسْمَعُ تَحٰاوُرَكُمٰآ إِنَّ
ٱللّٰهَ سَميعٌ بَصيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذينَ يُظٰاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ
نِسٰآئِهِمْ مٰا هُنَّ أُمَّهٰاتِهِمْ إِنْ أُمَّهٰاتُهُمْ إِلَّا ٱلّٰٓئى
وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ ٱلْقَوْلِ وَ
زُورًا وَ إِنَّ ٱللّٰهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَ ٱلَّذينَ يُظٰاهِرُونَ
مِنْ نِسٰآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا قٰالُوا فَتَحْريرُ رَقَبَةٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمٰآسّٰا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا
تَعْمَلُونَ خَبيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتٰابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمٰآسّٰا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعٰامُ سِتّينَ مِسْكينًا ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِـاللّٰهِ وَ
رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ ٱللّٰهِ وَ لِلْكٰافِرينَ عَذٰابٌ
أَليمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذينَ يُحٰآدُّونَ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا
كَمٰا كُبِتَ ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنٰآ اٰيٰاتٍ
بَيِّنٰاتٍ وَ لِلْكٰافِرينَ عَذٰابٌ مُهينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
ٱللّٰهُ جَميعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوٓا أَحْصيٰهُ ٱللّٰهُ وَ
نَسُوهُ وَ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ

ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا
يَكُونُ مِنْ نَجْوٰى ثَلٰاثَةٍ إِلَّا هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لٰا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سٰادِسُهُمْ وَ لَآ أَدْنٰى مِنْ ذٰلِكَ وَ لَآ
أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مٰا كٰانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا
عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوٰى ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنٰاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوٰانِ
وَ مَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَ إِذٰا جٰآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمٰا لَمْ
يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِىٓ أَنْفُسِهِمْ لَوْلٰا يُعَذِّبُنَا
ٱللَّهُ بِمٰا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذٰا تَنٰاجَيْتُمْ فَلٰا
تَتَنٰاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَ
تَنٰاجَوْا بِالْبِرِّ وَ ٱلتَّقْوٰى وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوٰى مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ لِيَحْزُنَ
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ لَيْسَ بِضٰآرِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يٰٓا أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذٰا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى ٱلْمَجٰالِسِ
فَافْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَ إِذٰا قِيلَ ٱنْشُزُوا
فَانْشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ وَ ٱللَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾
يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذٰا نٰاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا
بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ
أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ
تَفْعَلُوا وَ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ
اٰتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَا مِنْهُمْ وَ
يَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ
ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اِتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِىَ
عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَآ أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا
أُولٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلٰى شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ
﴿١٨﴾ اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطٰانُ فَأَنْسٰيهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ
أُولٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطٰانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطٰانِ هُمُ
ٱلْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ
أُولٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ
رُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ
ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوٓا اٰبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ

ٱلْإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

◀ اللّغة

تُجَادِلُكَ: الجدل المفاوضة علىٰ سبيل المنازعة و المغالبة و أصله من جَدلت الحبل أي أحكمت فتله، و قيل المجادلة المخاصمة.

تَحَاوُرَ كُمَآ: التَّحاور التَّراجع يقال تحاور تحاوراً أي راجعه في الكلام.

يُظَاهِرُونَ: أي يقولون بالظّهار و هو أنت علّي كظهر أمّي.

يُحَآدُّونَ: المحادّة المخالفة في الحدُود.

كُبِتُوا: أي أخذوا والكبت الأخذ.

نَجْوَىٰ: يقال ناجيته أي ساررته و أصله أن تخلوا به.

تَفَسَّحُوا: أي إتسّعوا والتفسّح الإتسّاع في المكان.

فانشُزُوا: النّشُور الإرتفاع.

جُنَّةً: بضمّ الجيم و الجنّة السّترة و أصله التّستر.

ٱسْتَحْوَذَ: أي إستولىٰ عليهم فالإستحواذ الاستيلاء.

فى ٱلْأَذَلِّينَ: الذّلة الحقارة.

يُوَآدُّونَ: لودّ الحبّ و الباقي واضح لا خفاء فيه... .

◀ الإعراب

وَ تَشْتَكِيٓ معطوف على، تجادل، و يجوز أن يكون حالاً أُمَّهَاتِهِمْ بكسر التّاء على أنّه خبر و بضّمها علىٰ لغة التَّميمية أي بني تميم.

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مبتدأ و فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أيضاً مبتدأ و تقديره، فعليهم، و الجملة خبر المبتدأ وَ لَآ أَكْثَرَ معطوف على العدد و يقرأ بالرّفع على الإبتداء و ما بعده الخبر لَأَغْلِبَنَّ جواب قسم محذوف و قيل هو جواب كتب لأنّه بمعنىٰ قال يُوٓادُّونَ هو المفعول الثّاني لتجد.

◀ التّفسير

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ

قال الشّيخ في التّبيان، قيل أنّ هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة و زوجها أوس إبن الصّامت في قول قتادة و كان مجادلتها إيّاه مراجعتها في أمر زوجها و قد كان ظاهر منها و هى تقول كبر سنّي و دقّ عظمي و أنّ أوساً تزوّجني و أنا شابّة فلما حلت سنّي يريد أن يطلّقني و رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول بنت منه على ما رواه أبو العالية و في رواية غيره أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لها ليس عندي في هذا شئ فنزّلت الآية.

و قال إبن عبّاس نزّلت في أوس بن الصّامت و كانت تحته بنت عمٍّ له فقال لها أنت عليّ كظهر أمّي فهو أوّل من ظاهر في الإسلام و قيل يقال للمرأة خولة بنت خويلد و كان الرّجل في الجاهليّة إذا قال لإمرأته أنت عليّ كظهر أمّي حرمت عليه فأنزل اللّه تعالى في قصّة الظّهار أيات و لا خلاف أنّ الحكم عامّ في جميع من يظاهر و إن نزّلت الآية على سببٍ خاصّ إنتهىٰ كلامه رفع مقامه.

و نقل القرطبي القصّة عن إبن عبّاس بوجهٍ أبسط لا بأس بذكرها قال ما هذا لَفظه:

و قال الثّعلبي قال إبن عبّاس هي خولة بنت خويلد الخزرجية كانت تحت أوس إبن الصّامت و كانت حسنة الجسم فرأها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها

فأعجبه أمرها فلمّا إنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها و كان آمراً به لمم فأصابه بعض لميمه فقال لها أنت علّي كظهر أمّي و كان الإيلاء و الظّهار من الطّلاق في الجاهليّة فسألت النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم لها حرمت عليه فقالت و اللّه ما ذكر طلاقاً ثمّ قالت أشكوا إلىٰ اللّه فاقتي و وحدتي و وحشتي و فراق زوجي و إبن عمّي و قد نفضت له بطني فقال فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم حرمت عليه فما زالت تراجعه و يراجعها حتّى نزلت عليه الآية.

و روى الحسن أنّها قالت يا رسول اللّه سنن الجاهليّة نسخ اللّه سنن الجاهليّة و أنّ زوجي ظاهر منّي فقال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم ما أوحي إليّ في هذا شئ فقالت يا رسول اللّه أوحي إليك في كلّ شئ و طوى عنك هذا فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم هو ما قلت لك فقالت إلىٰ اللّه أشكو لا إلىٰ رسوله فأنزل اللّه هذه الآية إنتهىٰ.

إذا عرفت كيفيّة نزول الآية و أنّها نزلت في الظّهار.

فَنقول قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان ما هذا لفظُه، الظّهار قول الرّجل لإمرأته أنت عليّ كظهر أمّي، و كان أهل الجاهّلية إذا قال الرّجل هذا لإمرأته بانت منه و طلّقت و في الشّرع لا تبين المرأة إلاّ أنّه لا يجوز له وطأها إلاّ بعد أن يكفّر و عندنا أنّ شروط الظّهار.

هي شروط الطّلاق سواء من كون المرأة طاهراً طهراً لم يقربها فيه بجماعٍ و يحضره شاهدين و يقصد التّحريم فأن إختلّ شئ من ذلك لم يقع به ظهار إنتهىٰ.

و إنّما نقلنا كَلامه قدّس سرّه في معنى الظّهار لأنّه قدّس سرّه قطب فلك الإجتهاد و شيخ الطّائفَة علىٰ الإطلاق فما قالَه في هذا الباب و غيره في الأحكام هو المتّبع و على هذا فلا يقع الظّهار في مذهبنا بمجرَّد اللَّفظ، و أمّا عند العامّة فالظّهار يقع بما شاءوا و أرادوا و لم يعتبروا الشّرائط لا في الطّلاق و لا في الظّهار أنظر

تفسير القُرطبي فأنّه فصّل الكلام بما لا فائدة لَنا في نقله إذا عرفت هذا فلنرجع إلىٰ تفسير ألفاظ الآية.

قوله: **قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ** الخطاب للنَّبي و قوله: **ٱلَّتِي** كناية عن المرأة الّتى مرَّ ذكرها و المعنى أنّ اللّه سمع قولها و جدالها معك مرَّ منّا الكلام في السَّمع و البصر في حقّه تعالى و قلنا إنّهما يرجعان إلى علمه تعالى و أنّه عالِم بالمسموعات و المبصرات فالمعنى قد علم اللّه قولها و جدالها و إنّما قلنا برجوعها إلى العلم لأنّ السَّمع و البصر بمعنى الجارحة المخصوصة من شئون الجسم واللّه تعالىٰ منزّهٌ عنه و قد أثبتنا ذلك سابقاً غير مرَّةٍ **وَ تَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ** أي و تشتكي المرأة عن زوجها إلى اللّه تطلب حكم الظّهار **وَ ٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ** أي مراجعة بعضكما لبعضٍ و التّحاور التَّراجع و هو المحاورة **إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ** أي أنّه تعالىٰ عالم بالمسموعات و المبصرات فلا يخفى عليه شئ.

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَ زُورًا وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم يَعني الّذين يقولُون هذا القَول الّذي حكيناه و هو أنت علَّي كظهر أمّي، و معناه أنّ ظهرك علَّي حرام كظهر أمّي.

فقال تعالىٰ: **مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ** نفىٰ اللّه عنهنّ أي عن النَّساء الّتي وقع الظّهار عليه و هو الزّوجة و قال: **مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ** أي أمّـهات الظّـاهرين (إن) نـافية بـمعنى ليس أي ليست أمّـهاتهم إلاّ اللائـي ولدنّهم، أي ليست أمّهاتهم إلاّ النَّساء الّتي ولدنّ المظاهرين و فيه إشارة إلىٰ أنّ الأمّ في الحقيقة من ولد المظاهر فيه و بعبارةٍ أخرىٰ مجرّد التّسمية لا يكفي في إثبات الموضوع.

وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ ٱلْقَوْلِ حيث يسمّون أزواجهم بـالأمّهات، وزوراً أي كذباً وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ أي أنّه تعالىٰ متّصف بالعفو والصّفح عن الخاطئ و المغفرة عن المذنب ثمّ بيّن اللّه تعالى حكم من أراد العود و الرّجوع إلى أهله.

وَ ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

بيّن اللّه تعالىٰ في هاتين الأيتين حكم من رجع عن ظهاره الى ما كان قبل الظّهار من الزّوجية فقال، الّذين يظاهرون و يقولون ما يقع به الظّهار ثمّ يندمون على ما قالوا وأرادوا العود و الرّجوع الىٰ أزواجهم فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا الزّوج والزّوجة و هو كناية عن الجماع و المقصود أنّ تحريرها و هو أن يجعل الرّقبة المملوكة حرّة مقدّمٌ على المقاربة والمجامعة ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أي تؤمرون به واللّه بما تعملون خبير، من التّكفير و غيره، و قيل معنى، توعظون به، إن تظاهروا أي إن تظاهروا فهذا حكمه ثمّ قال تعالىٰ:

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أي فمن لم يقدر علىٰ تحرير رقبة سواء كان عدم القدرة عليه من أجل فقره كما إذا المظاهر فقيراً لا مال له أو كان له مال و لم يوجد رقبة كما في زماننا هذا، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا و التتابع عند أكثر العلماء إن والىٰ بينَ الشّهرين الهلاليّين أو يصوم ستّين

يوماً، و عندنا إذا صام شهراً و صامَ من الأخر ولو يوماً يكفي في صدق التتّابع فأن قرّن فيما بعد جاز مثل أن صام يوماً أو أكثر ثمّ صام بعد ذلك الىٰ أن أكمل العدد و هو الستُّون هذا إذا كان المكلّف قادراً علىٰ الصّوم و أمّا إذا لم يستطع أي لا يقدر عليه لمرضٍ أو مانع آخر فيجب عليه إطعام ستّين مسكيناً أي فقيراً و أمّا كيفيّة الطّعام فهي منوطة بقدرته و تمكّنه **ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ** فتصدّ قومهما و تقرّوا بتوحيد اللّه و نبوّة نبيّه **وَ تِلْكَ** أي ما ذكرناه حدود اللّه فلا تعتدوها، و للكافرين الجاحدين أحكام اللّه تعالىٰ عذابٌ أليمٌ يوم القيامة و حيث إنجّر الكلام الىٰ الظّهار لا بأس بالإشارة الىٰ بعض أحكامه لأنّه من الأحكام الشّرعية الّتي ينبغي للمكلّف معرفتها بقدر الإمكان.

فَنقُول فيه مسائل:

الأولىٰ: قد دلّت الآية على ثبوت التّحريم بالظّهار علىٰ سبيل الإطلاق لكن لابدّ له من عبارةٍ كغيره من الإطلاقات و قد ثبت من الشّرع و العرف أن يقول الزّوج لزوجته أنت عليّ كظهر أُمّي و الإنعقاد بهذه الصّيغة موضع وفاقٍ ففي موثقة عمّار عن أبي عبد اللّه عليه السلام **قال سألته عن الظّهار الواجب قال عليه السلام: الّذي يُريد الرّجل من الظّهار بعينه تدلّ عليه بإطلاقها**. والمقصود تعيين المراد.

الثّانية: لمّا كان إبتناء الظّهار علىٰ التّشبيه و هو يستلزم المشّبه والمشبّه له فلابدّ من البحث عن حالهما، أمّا الأوّل فالظّهار أنّ المراد مطلق المنكوحة سواء كانت بعقدٍ دائم أو منقطع أو بملك اليمين لشمول لفظ النّساء لذلك في قوله تعالىٰ: **وَ أُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ** و نحوها من العمومات و يدلّ على ذلك أيضاً راويات كثيرة عموماً و خصوصاً و ذهب بعض الأصحاب الىٰ عدم وقوع الظّهار بالمتمتع بها و بعضٌ آخر الىٰ عدمه بالأمّة و هو ضعيفٌ.

أمّا الثّاني: فالأظهر أنّ المراد بالمحرّمات، النّسبية و الرّضاعية لدلالة الرّوايات المعتبرة علىٰ ذلك و اليه ذهب أكثر أصحابنا و كثيرٌ من العامّة كصحيحة زرارة، قال سألتُ أباجعفر عليه السلام عن الظّهار فقال عليه السلام:

هو كلّ ذي محرمٍ أمٌّ أو أختٌ أو عمّةٌ أو خالة و لا يكون الظّهار في يمينٍ فقول عليه‌السلام كلّ محرمٍ عامّ و قوله عليه‌السلام أمّ أو أخت أو عمّة أو خالة أراد به التّمثيل كما هو واضح لدخول بنت الأخ و بنت الاخت و نحوهما، و قيل أنـمّا يحرم بالتّشبيه بالمحرّمات النّسبية خاصّة، دون الرّضاعية ذهب اليه إبن البرّاج، و قيل لا يقع بالتشبيه بغير الأمّ مطلقاً ذهب اليه إبن إدريس في السّرائر و اليه ذهب الشّافعي استدلالاً بظاهر الآية و الحقّ أنّ الملاك و هو الحرمة موجودٌ في غير الأمّ أيضاً فيجب دخول غير الأمّ تحت الحكم لوحدة الملاك و لتفصيل الكلام مقام آخر.

الثّالثة: لو شبّه بغير الظّهر كان يقول أنت علّي كبطن أمّي أو شعر أمّي أو فخذ أمّي و امثال ذلك هل يقع الظّهار بذلك أم لا.

قيل يقع لكونه مقصوداً بهذه الألفاظ فيتناوله إطلاق الآية و لرواية سدير عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال قلت له عليه‌السلام الرّجل يقول لإمرأته أنت علّي كشعر أمّي و كبطنها أو كرجلها فقال عليه‌السلام إن أراد به الظّهار فهو إظهار إنتهىٰ.

و غيره من الأخبار فأنّ إرادة الظّهار في ذلك ظاهرة لا موقع للشكّ في وقوعه هنا.

الرّابعة: ظاهر الآية يقتضي إشتراط كون المظاهر بالغاً عاقلاً مختاراً قاصداً و هذا ممّا لا خلاف فيه و قد دلّت عليه النُّصوص أيضاً كصحيحة البزنطي عن الرّضا عليه‌السلام قال عليه‌السلام الظّهار لا يقع على الغضب إنتهىٰ.

أقول و هو المشهور بين الأصحاب و لا نعلم في هذا الحكم مخالفاً منهم و هو ظاهرٌ.

الخامسة: الظّهار يقع من الزّوج و لا يقع من الزّوجة فإذا قالت المرأة زوجي علّي حرامٌ كظهر أبي فلا كفّارة عليها و هذا أيضاً ظاهرٌ من الآية.

السّادسة: إختلف الفُقهاء في صحّة الظّهار إذا كان معلّقاً علىٰ شرطٍ لإختلاف الأخبار فيه و ظاهر إطلاق الآية الصّحة مع أنّ الأخبار الدّالة على

الصِّحة صحيحة السَّند و ما يعارضها ضعيفٌ فالقول بالصّحة أقوى و عليه أكثر الأصحاب و تفصيل الكلام في الكتب الفقهيّة.

السّابعة: قوله تعالىٰ: **مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ** أي علىٰ الحقيقة ثمّ خصّ الأمّهات باللاّتي يلدنهم، و نحو ذلك في سورة الأحزاب، وفيه دلالة علىٰ أنّه لا يترتّب عليه أحكام الأمّ إلاّ بدليلٍ كالرّضاع و تحريم نكاح نساء النّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثمّ أكدّ ذلك بقوله: **وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا** أي خلاف الحقيقة عرفاً و شرعاً و كذباً و باطلاً منحرفاً عن الحقّ و في ذلك دلالة علىٰ تحريمه و إن ترتّبت عليه أحكام الظّهار و قيل لا عقاب فيه لقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**.

الثّامنة: إذا حصل الظّهار بشرائطه فأن صبرت المرأة فلا كلام لأنّ الحقّ لها و إن لم تصبر و رفعته إلى الحاكم خيَّره الحاكم بين الطّلاق و بين العود مع التّكفير فأن أبى المظاهر عنهما أنظر إلى ثلاثة أشهر من حين المرافعة لينظر في أمره فإذا إنقضت المدّة و لم يخبر أحدهما حبسه و ضيق عليه في المأكل و المشرب إلىٰ أن يختار أحدهما و يدلّ علىٰ هذه الأحكام رواية أبي بصير عن الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ والظّاهر الإتّفاق علىٰ العمل بها.

التّاسعة: يحرم على الرّجل بعد وقوع الظّهار و قبل التّكفير مسّ المرأة فأن مسَّها تجب عليه كفارة أخرى و على هذا عمل الأصحاب ثمّ أنّ الرّجل المظاهر اذا طلَّقها ثمّ راجعها في العدّة لم تحلّ له حتّى يكفّر لعموم الآية و اطلاق الرّوايات و كذا لو راجعها بعد العدّة بعقدٍ جديدٍ على ما ذهب إليه بعض الأصحاب و ذهب الأكثر إلى عدم لزوم الكفّارة للأصل و لأنّه بعد الظّهار خيَّره الحاكم بين الطّلاق و الرّجوع مع التَّكفير.

العاشرة: هل يوجب تكّرر الظّهار تكّرر الكفّارة مع عدم تخلّل التّكفير أو لا يوجب، فمن قال بجواز تداخل الأسباب حكم بعدم تكّرر الكفّارة و من قال بعدم تداخل الأسباب حكم بتكرّر الكفّارة و قال كلّ ظهارٍ سببٌ للكفّارة فأن تكرّر تكرَّرت و نظيره من أفطر في رمضان تكراراً.

الحادي عَشَر: لو ظاهر الرَّجل أكثر من إمراةٍ واحدة من أزواجه بلفظٍ واحد كأن قال، أنتنّ عليّ كظهر أمّي أو أنتما عليّ كظهر أمّي لزم لكلّ واحدةٍ كفّارة لدلالة ظاهر الآية و لتعلّق الظّهار بكلّ واحدةٍ حقيقةً فهو في حكم المتعدد و يدلّ على ذلك حسنة حفص بن البختري عن أبي عبد اللّه عليه السلام أو أبي الحسن عليه السلام في رجلٍ كان له عشر جوارٍ فظاهر كلّهن جميعاً بكلامٍ واحد فقال عليه السّلام عليه عشر كفّارات و نحوها عن الرّضا عليه السلام.

الثّانية عَشَر: الآية صريحة الدّلالة على كون الكفّارة مرتبّة، فالأوّل منها تحرير رقبة و بعد ذلك شهرين متتابعين و بعد ذلك إطعام ستّين مسكيناً، فمن قال بالترتّيب يقول يجب تحرير رقبة أوّلاً فلو لم يقدر، شهرين متتابعين، ولو لم يقدر على الصّوم فالإطعام و على هذا فالمكّلف لا يكون مختاراً بل يجب مراعاة الترتّيب و الحقّ عدم وجوب مراعاة الترتّيب في الآية و عليه أكثر الفقهاء و على هذا فالمكلّف مختار من أوّل الأمر في الأخذ بها و أن لم يقدر على الجميع فعليه بالإستغفار لأنّ اللّه تعالى **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** و تفصيل هذه الأحكام في الفقه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ

المحادَّة المخالفة في الحدود و الكبت الأخذ و معنى الآية (أنّ الّذين يخالفون اللّه و رسوله) في العمل بالأحكام الشّرعية، كبتوا، أي أخذوا كما أخذوا الّذين من قبلهم من المخالفين.

و قال الفَرّاء معناه أغيظوا و أحزنوا يوم الخندق **كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** يعني من قاتل الأنبياء من قبلهم، و قيل معناه أهلكوا **وَ قَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ** إتماماً للحجّة و للكافرين عذابٌ مهين، أي عذابٌ يهينهم و يخزيهم يوم القيامة نعوذ باللّه منه.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية الجزاء للّذين يحادُّون اللّه و رسوله فقال هو يوم يبعثهم اللّه من القُبور جميعاً أي يحييهم اللّه بعد موتهم جميعاً فيخبرهم بما عملوا في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ و في قوله: **أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَ نَسُوهُ** إشارة إلى أنّ أعمالهم محفوظة مكتوبة و اللّه تعالى عالم بها كمّاً و كيفاً و لكنّهم نسوه، أي نسوا أعمالهم الّتي عملوا بها في الدُّنيا لطول المدَّة **وَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** لأنّه يعلم الأشياء كلّها من جميع وجوهها لا يخفى عليه شئ منها و لا نعني بالشَّهيد إلاّ هذا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَ لَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال: **أَلَمْ تَرَ** يا محمّد و الإستفهام للإنكار أي ترى و تعلم **أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ** لأنّه خالقها و موجدها و ما فيهما من الموجودات و الخالق لا يكون جاهلاً بما خلق و ألاّ لا يكون خالقاً **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَ لَآ أَكْثَرَ** ما، نافية، بمعنى ليس و **النَّجوىٰ** بفتح النُّون قيل كلّ سرارٍ نجوى، و قيل النَّجوى ما يكون خلوة ثلاثة يسِّرون شيئاً و يتناجون به و السَّرار ما كان بين إثنين، فقوله: **إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** يعني يسمع نجواهم يدلّ عليه إفتتاح الآية بالعلم ثمّ ختمها بالعلم و قوله: **وَ لَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ** أي من النّجوى و هو ما خطر بالقلب و لا أكثر من النّجوى يعني ما جهر به و المقصود إحاطة علمه تعالى بالأشياء حيث

كانوا فلا يحفى عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء و لا في البّر و لا في البحر و لا في الخفاء و لا في الجهر فهو لكلّ شئ عليم و إليه الإشارة بقوله: أَيْنَ مَا كَانُوا و هذه المعيّة معيّة العلّة و المعلول و الخالق و المخلوق إذ في إنفكاكهما إنقطاع الفيض و فناء المعلول بالكلّية فأنّ المعلول قائمٌ بالعلّة و لا قوام له بنفسه و اللّه تعالى هو القيّوم كما قال: اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ[١] قائمٌ بذاته و ما سواه قائمٌ به فكيف لا يكون معه.

ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ الإنباء الإخبار و المعنى أنّ اللّه يخبرهم بما عملوا به في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍ و بما قالوا سرّاً و جهراً يوم القيامة لأنّه عالم بجميع الأشياء ظاهراً و باطناً.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ

قال المفسّرون أنّها نزلت في اليهود و المنافقين و قيل في المسلمين فعن إبن عبّاس أنّها نزلت في اليهود و المنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم و ينظرون للمؤمنين و يتغامزون بأعينهم فيقول المؤمنون لعلّهم بلغهم عن أخواننا من المهاجرين و الأنصار قتلٌ أو مصيبة أو هزيمة و يسؤهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فنهاهم رسول اللّه عن النّجوى فلم ينتهوا فنزلت الآية.

و قال مقاتل كان بين النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و بين اليهود موادعة فإذا مرّ بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتّى يظنّ المؤمن شرّاً فنهاهم رسول اللّه فلم ينتهوا فنزلت الآية و قيل غير ذلك في نزولها و لا يهمّنا البحث فيه فأنّ الآية نزلت في ذمّ النّجوى و قبحها من أيّ شخصٍ صدرت يهوديّاً كان أو مسلماً أو كافراً

١- البقرة = ٢٥٥

مشركاً و لا خلاف فيه فلنرجع إلى تفسير الآية و نقول، **أَلَمْ تَرَ** يا محمّد **إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ** و هم اليهود أو المسلمين و المنافقين و أنّما نهوا عنه لما ذكرنا في نزول الآية من أنّها توجب سوء الظّن للمستمع و الناظر و إيذاء الغير و إيذاء المؤمن حرام **ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ** أي ثمّ يرجعون إلى المنهي عنه وهو النّجوى **وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوَانِ** أي الكذب و الظّلم **وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ** و مخالفته و قد قال اللّه تعالى: **مَآ ءَاتَيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**(١).

وَ إِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ قال قتادة كانت تَحيّتهم للرّسول (السّام عليك يا أبا القاسم) و قال إبن عبّاس كان المنافقون يقولون ذلك و قيل كان النّبي يردُّه على من قال (و عليك) و إختلفوا في معنى السّام فقال إبن زيد السّام، الموت.

و قال الحسن معناه ستسامون دينكم هذا أي تملُّونه فتدعونه و منه سئمت الأمر و السّأم الملال.

و قال إبن العربي كانوا يقولون لو كان محمّد نبيّاً لما أمهلنا اللّه بسبّه و الإستخفاف به و جهلوا أنّ الباريء تعالى حليمٌ لا يعاجل من سبّه فكيف من سبَّ نبيّه.

و قد ثبت أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا أحد أصبر من اللّه على الأذى يدعون له الصّاحبة و الولد و هو يعافيهم و يرزقهم فأنزل اللّه تعالى هذا كشفاً لسرائرهم و فضحاً لبواطنهم معجزةً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

روي عن عائشة أنّها قالت جاء أناس من اليهود إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا «السّام عليك يا أبا القاسم» فقلت السّام عليكم و فعل اللّه بكم

١- الحشر = ٧

و فعل، فقال ﷺ مه ياعائشة فأنّ اللّه تعالى لا يحبّ الفحش و لا التّفحش فقلت يا رسول اللّه ألست ترى ما يقولون، فقال ﷺ: ألست تري ما أردّ عليهم و أقول (و عليكم).

فنزّلت هذه الآية أي أنّ اللّه سلَّم عليك و يقول حلُّوا عليه و سلِّموا تسليماً، و هم يقولون (السّام عليك) و هذا معنى قوله تعالى: **حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ** أي حيُّوك بقولهم السّام عليك، و اللّه يقول صلُّوا عليه و سلّموا تسليماً، و هذا هو الفرق بين التَّحيتين.

وَ يَقُولُونَ فِيٓ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ و المعنى أنّ اليهود أو المنافقين الذّين كانوا يعصون الرَّسول في قلوبهم لولا أي هلاّ يعذّبنا اللّه بما نقول فيه لو كان صادقاً في دعواه فقال اللّه تعالى في جوابهم **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا** و يحترقُون فيها يوم القيامة فبئس المصير والمرجع لهم نار جهنَّم لما فيها من أنواع العذاب ثمّ أمر اللّه تعالى المؤمنبن و علَّمهم كيفيّة النّجوى في محضر الرّسول فقال:

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ ٱلتَّقْوَىٰ وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

في الآية دلالة علىٰ أنّ النَّجوى من المؤمنين إذا لم تكن بالإثم و العدوان و معصية الرّسول لا بأس بها و لذلك خاطب المؤمنين و قال إذا تناجيتم بالإثم و العدوان، أي بالكذب و الظُّلم و معصية اللّه و رسوله و أمرهم بالتَّناجي على أساس البرّ و التّقوى و قال و إتّقوا اللّه، بفعل الواجبات و ترك المعاصي فأنّ المرء مجزيّ بعمله يوم القيامة و يظهر من الآية أنّ النّجوى إذا كانت بالبّر و التّقوى لا بالخيانة و الغدر لا إشكال فيها فأنّ الأعمال بالنّيات كذلك و لذلك:

إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

أنّما تفيد الحصر و اللاّم في **النّجوىٰ** للعهد لا للجنس كما توّهمه أكثر المفسّرين لولا كلّهم و ذلك لأنّ النَّجوى بما هو هو ليست بمذمومة بل المذموم منها هو النَّجوى التّي كانت بالإثم و العدوان و معصية الرّسول و أمّا النّجوى الّتي كانت بالبّر و التّقوى فهي مأمورةٌ بها كما في الآية السّابقة حيث قال: **وَ تَنَٰجَوْا بِالْبِرِّ وَ ٱلتَّقْوَىٰ** و على هذا فمعنى الآية أنّما النّجوى أي الّتي بالإثم و العدوان و معصية الرّسول هي من الشّيطان و أتى في صدر الآية بكلمة، أنّما، ليعلم أنّ النّجوى المذمومة منحصرة بما هو بالإثم و العدوان و معصية الرّسول و هى الّتى من الشّيطان لأنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ما شاؤوا و أرادوا **لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** أي غرضهم بذلك هو إدخال الحزن فيّ قلوب المؤمنين ولم يعلموا أنّه **وَ لَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** أي و لم يعلموا أنّ كيدهم لا يضرّ المؤمن شيئاً إلاّ بأذن اللّه، قيل معناه إلاّ بعلم اللّه و تمكينه إيّاهم لأنّ تكليفهم إيمانهم بذلك، و قيل إلاّ بفعل اللّه الغمّ و الحزن في قلوبهم لأنّ الشّيطان لا يقدر على فعل ذلك و الّذي يخطر بالبال في معنى قوله: **إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** هو شيئ أخر غير ما ذكروه و ملخّصه أنّ المؤمن إذا توكّل على غير اللّه وكله اللّه إلى نفسه و من وكلّه اللّه إلى نفسه فالشّيطان يستولي عليه قهراً و أمّا إذا توّكل على اللّه في جميع أموره و أعرض عمّا سواه كائناً ما كان فلا سبيل للشّيطان للإستيلاء عليه و إلى هذا أشار بقوله: **وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** الفاء للتّفريع أي إذا كان كذلك فينبغي للمؤمن أن يتوكّل على ربّه فأنّ من يتوكّل على اللّه فهو حسبه و لا مدخل للشّيطان في إلقاء و ساوسه إلى قلبه و اللّه أعلم.

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجٰتٍ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

قرأ عاصم وحده **فِى ٱلْمَجٰلِسِ** على الجمع لإختلافها و الباقون (في المجلس) على التّوحيد لأنّه مصدر يدلّ على القليل و الكثير و اللاّم فيه للجنس و لأنّهم أرادوا مجلس النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فعلى على هذا الوجه الإفراد أولى و الحقّ أنّ الحكم كلّيّ عامّ يشمل جميع المجالس و لا إختصاص له بمجلس النّبي فقط.

و من المعلوم أنّ إرادة العموم من اللّفظ أولى و التّفسح التّوسع في المكان خاطب اللّه المؤمنين في هذه الآية و أمرهم بالتفسُّح في المكان فقال: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** باللّه و رسوله **إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ** و إستّسعوا **فِى ٱلْمَجٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ** و توّسعوا فيها **يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ** أي يوسّع اللّه لكم منازلكم في الجنّة، و قيل يوسّع اللّه في قبوركم، و قيل في قلوبكم و قيل يوّسع عليكم في الدّنيا و الأخرة.

وَ إِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ النُّشوز الإرتفاع عن الشّئ بالذّهاب عنه و منه نشوز المرأة عن زوجها، و قيل معناه إذا قيل لكم قوموا إلى صلاةٍ أو قتال عدُّوٍ أو أمر بمعروفٍ، أي تفرّقوا عن رسول اللّه فقوموا إلى ما أمرتم به.

و محصل الكلام أطيعوا اللّه و رسوله في القيام و القعود في أمر الدِّين ثمّ قال تعالى: **يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجٰتٍ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** الرَّفع بفتح الرّاء ضدّ الخفض و الوضع، يقال رفعه اللّه، و خفضه اللّه أو وضعه اللّه و قد ورد، من تواضع للّه رفعه اللّه و من تكّبر وضعه اللّه، و المعنى أنّ اللّه تعالى يرفع الّذين أمنوا به و رسوله على غيرهم ببركة الإيمان فأنّ المؤمن عند اللّه أرفع مقاماً من غيره ثمَّ قسّم المؤمنين على

صنفين، العلماء، و العوّام، و الحصر عقليّ لأنّ المؤمن لا يخلو منهما ثمّ حكم بأنّ الّذين أوتوا العلم منهم أعلى درجةً من غيرهم و هذا الحكم أيضاً عقلّي لأنّ العالم أفضل من الجاهل لأنّ العلم أشرف و أفضل من الجهل فأنّ العلم نورٌ و الجهل ظلمة و لذلك يكون العالم أحقَّ بالرَّفعة و الأيات و الأخبار في مدح العلم و العلماء كثيرة و أنّما قال درجات و لم يقل درجة لأنّ العلم له مراتب كثيرة و كذلك العمل به و هو واضح.

و قوله: **وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** قد مضى تفسيره غير مرّةٍ و الخبير العالم بما تعملون ثمّ أنّ اللّه تعالى خاطب المؤمنين أيضاً فقال:

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

قيل كان سبب نزول الآية أنّ الأغنياء كانوا يستخلُون النّبي فيشاوروه بما يريدون و الفقراء لا يتمكّنون من النّبي تمكّنهم ففرض اللّه عليهم الصَّدقة قبل النّجوى ليمتنعوا من ذلك و تعبّدهم بأن لا يناجي أحد رسول اللّه إلاّ بعد أن يتصدّق بشيءٍ ما قلَّ أو كثر فلم يفعل أحد ذلك على ما روي فإستقرض أميرالمؤمنين ديناراً و تصَّدق به ثمّ ناجى النّبي ﷺ فنسخ اللّه تعالى ذلك الحكم بالآية الّتى بعدها قاله في التّبيان.

و عن زيد بن أسلم أنّه قال نزلت بسبب أنّ المنافقين و اليهود كانوا يناجون النّبي ﷺ و يقولون أنّه أذنٌ يسمع كلّ ما قيل له و كان لا يمنع أحداً مناجاته فكان ذلك يشقّ على المسلمين و ذلك لأنّ الشّيطان كان يلقي في أنفسهم ناجوه بأنّ جموعاً إجتمعت لقتاله قال فأنزل اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوَٰنِ وَ مَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ** فلم ينتهوا فأنزل اللّه هذه الآية فإنتهى أهل الباطل من النّجوى لأنّهم لم يقدّموا بين نجواهم صدقة و شقّ ذلك على أهل الإيمان و إمتنعوا من النّجوى لضعف

مقدرة كثير منهم من الصَّدقة فخَّفف اللّه عنهم بما بعد الآية نقله القرطبي في تفسيره.

ثمّ قال إبن العربي و في هذا الخبر عن زيد ما يدلّ على أنّ الأحكام لا تترتّب بحسب المصالح فأنّ اللّه تعالى قال: **ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ** ثمّ نسخه مع كونه خيراً و أطهر و هذا ردٌّ على المعتزلة عظيمٌ في إلتزام المصالح لكن راوي الحديث عن زيد إبنه عبد الرّحمن و قد ضعَّفه العلماء و الأمر في قوله تعالى: **ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ** نصٌّ متواترٌ في الرَّد على المعتزلة إنتهى كلام القرطبى.

أقول و العجب من إبن العربي مع إدّعاء فضله من هذه المقالة و هي أنّ قوله: **ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ** نصٌّ متواترٌ في الرَّد على المعتزلة ولم يعلم أنّه ليس نصّاً على مدّعاه فضلاً عن تواتره و ذلك لعدم المنافاة بين أن يكون الحكم خيراً و أطهر في زمانٍ خاصّ و كونه غير خيرٍ في زمانٍ أخر كما هو معنى النَّسخ و بعبارةٍ أخرى أنّه تعالى لم يقل (ذلك خيرٌ لكم و أطهر إلى يوم القيامة) ثمّ نسخ ذلك الحكم بل قال أنّه خيرٌ لكم في هذا اليوم أو في الأيّام المعلومة عند اللّه و أن كانت غيرمعلومة عندالمخاطب و هذا يدلّ على أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد فقوله كيف نسخه مع كونه أطهر كلامٌ بلامحصّل لما ذكرناه من أنّه خيرٌ و أطهر في ذلك الزّمان و أمّا في زمانٍ أخر فليس بخيرٍ و لا أطهر.

قال الرَّاغب في المفردات نسخ الكتاب نقل صورته المجرّدة إلى كتابٍ أخر و ذلك لا يقضي إزالة الصُّورة الأولى بل يقتضي إثبات مثلها في صورةٍ أخرى كإتّخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة إنتهى.

و الحاصل أنّ المصلحة و المفسدة تختلف بإختلاف الزّمان و مقتضياته فما قالته المعتزلة حقٌّ لا ريب فيه و للبحث فيه مقامٌ أخر و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول قوله: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَةً** أمرٌ من اللّه تعالى بتقديم الصَّدقة قبل النّجوى

لمصلحةٍ لا يعلمها إلاّ هو فما ذكروه في نزول الآية لا دليل عليه و أنّما ذكروه من عند أنفسهم فأنّ مصلحة الحكم أو مفسدته لا يعلمها غير صاحب الحكم و لا يبعد أن تكون المصلحة إختبارهم و إمتحانهم أو غير ذلك **ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ** أي ذلك الحكم، أو تقديم الصّدقة خيرٌ لكم و أطهر، و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون **فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا** أي فإن لم تجدوا صدقةً لفقيرٍ أو مانعٍ آخر **فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَٰاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ اٰتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

الإشفاق الخوف من المكروه، أي خفتم و بخلتم بالصّدقة و الإستفهام معناه التّقرير **أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَٰاتٍ** قيل إنّما كان ذلك عشر ليالٍ ثمّ نسخ و قال الكلبي ما كان ذلك إلاّ ليلة واحدة.

و عن إبن عبّاس ما بقى إلاّ ساعة من النّهار حتّى نسخ وكذا:

قال قتادة و نقل القرطبي في تفسيره عن القيثري و غيره عن علّي إبن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: في كتاب اللّه آية ما عمل بها أحدٌ قبلي و لا يعمل بها أحدٌ بعدي وهى: يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَةً.

كان لي دينار فبعته فكنت إذا ناجيت الرّسول تصّدقت بدرهمٍ حتّى نفذ فنسخت لآية الأخرى ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰيكُمْ صَدَقَٰاتٍ.

و قال إبن عمرو لقد كانت لعليّ رضي اللّه عنه ثلاثة لو كانت واحدة لي منهنّ كانت أحبّ إلّي من حمر النّعم، تزويجه فاطمة، و إعطائه الرّاية يوم خيبر، و آية النّجوى إنتهى كلام القرطبي و لنعم ما قيل:

و مناقب شهد العدُو بفضلها   و الفضل ما شهدت به الأعداء

أقول فعلى ما ذكره القرطبي و غيره من مفسري العامّة من أنّ الحكم كان عشر ليالٍ أو ليلة واحدة أو ساعة من النّهار ولم يتَّصدق في هذه المدَّة إلاّ علّي بن أبي طالب، يستفاد من الآية أنّ الحكم جعل لإختبار النّاس ليعرفوا مراتب إيمانهم إذ عند الإمتحان يكرم الرّجل أو يهان، و هذا هو المصلحة في جعل الحكم مؤقتاً، و قد ثبت أنهّم كانوا نواقص الإيمان غير علّى بن أبى طالب عليه السلام اذ لم يتَّصدق أحد إلاّ هو ولم يعمل بالآية إلاّ هو فهو كان أعلى إيماناً من جميعهم و فيهم أبو بكر و عمر و عثمان و لم يعملوا بالآية و إذا كان كذلك فعلّي بعد رسول اللّه أفضل من جميع المسلمين و من كان كذلك فهو أولى بخلافة الرَّسول من غيره إذ لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلاّ بالإيمان فما يقول القرطبي و أمثاله. أكان مصاحبة النَّبي في الغار أفضل من هذا مع أنّ هذا الّذي ذكروه شرذمة قليلة من فضائل علّي بن أبي طالب بل ليس ما ذكروه في المقام بالنَّسبة إلى ما لم يذكروه إلاّ كالقطرة في جنب البحر.

فما يقول القرطبي و أمثاله يوم القيامة في تفضيلهم غيره عليه و أيُّ ذنبٍ لعلّي عندهم إلاّ أنّه أوّل من آمن باللّه و رسوله و أوّل من جاهد في سبيل اللّه و لم تأخذه في اللّه لومة لائم و هو الّذي كان الفتح على يديه في جميع الحروب و هو الّذي ولد في الكعبة ولم يولد أحد فيها غيره و هو الّذي وضع قدميه على كتف رسول اللّه و طهر البيت عن رجس الأصنام و الأوثان فأن كان ما أشرنا إليه من الذَّنب بزعم المخالف فلا كلام لنا معه و إنّي لأشك في أنّ آية النَّجوى نزلت لأجل معرفة النّاس عليّ بن أبي طالب في قوَّة الإيمان و معرفتهم أنفسهم بضعف الإيمان ولكن حبَّ الدُّنيا يعمي و يصّم و نعم الحكم اللّه يوم القيامة، **فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ** أي و إذ لم تتصَّدقوا بين يدي نجواكم و تاب اللّه عليكم ففسخ الحكم لتقصيركم في عمل الصّدقة **فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ آتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** أمرهم اللّه بإقامة الصّلوة و

إيتاء الزّكوة و إطاعة اللّه و رسوله، إقامة الصّلوة الإتيان بها مع جميع شرائطها المقرّرة لها في الشّرع و إيتاء الزّكوة أيضاً كذلك و إنّما ذكر الزّكوة بعد الصّلوة لأنّها من أهمّ الواجبات بعدها و أمّا إطاعة اللّه و رسوله فهي من العويصات و لذلك ترى المسلمين يصلّون و يزّكون قلّ أو كثر و مع ذلك يطيعون الشّهوات و الأميال النّفسانية في جميع شئونهم ألا ترى أنّهم في صدر الإسلام كانوا يصلّون مع النّبي و يصومون و يحجّون و يجاهدون و مع ذلك خالفوا النّبي في وصيته و حتّى في حياته لمّا قال نفّذوا جيش أسامة لعن اللّه من تخلّف عن جيش أسامة، و امثال ذلك من العبارات و مع ذلك لم يخرجوا عن المدينة حتّى مات النّبي ففعلوا ما شاؤوا و أرادوا:

قال اللّه تعالى: **مَآ ءَاتَيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ**(٢).

و امثال ذلك من الأيات كثيرة.

فلم تكن مخالفتهم للّه و رسوله منحصرة في أية النّجوى و إستمرّت هذه الرّوية الرّديئة فيهم حتّى في زماننا هذا ولم يعلموا أنّ من سنّ سنّةً سيّئةً فله وزر من عمل بها إلى يوم القيامة و إلى ذلك المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.**

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

قيل أنّ الآية نزلت في قومٍ من المنافقين كانوا يوالون اليهود و يفشون إليهم أسرارهم و يجتمعون معهم على ذكر مساءة النّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

١- الحشر = ٧   ٢- النساء = ٥٩

و قال السُّدي و مقاتل نزلت في عبد اللّه بن أبّي و عبداللّه بن نبتل و هما من رؤوساء المنافقين كان أحدهما يجالس النّبي صلی الله علیه و آله و سلم ثمّ يرفع حديثه إلى اليهود فبينا النّبي في حجرته إذ قال يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلب جبّار و ينظر بعيني شيطان فدخل عبد اللّه بن نتبل و كان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللّحية فقال صلی الله علیه و آله و سلم:

علام تشتمني أنت و أصحابك فحلف باللّه ما فعل ذلك فقال له النّبي صلی الله علیه و آله و سلم فعلت فإنطلق فجاء بأصحابه فحلفوا باللّه ما سبُّوه فنزلت الأية.

و روى عكرمة عن إبن عبّاس أنّه قال كان النّبي صلی الله علیه و آله و سلم جالساً في ظلّ شجرة قد كاد الظلّ يتقلّص عنه إذ قال صلی الله علیه و آله و سلم يجيئكم السّاعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان فنحن على ذلك إذا أقبل رجل أزرق فدعا به النّبي صلی الله علیه و آله و سلم فقال: **علام تشتمني أنت و أصحابك قال دعني أجيئك بهم فحلفوا جميعاً أنّه ما كان ذلك** فنزلت الأية، و كيف كان لا شكّ في أنّها نزلت في المنافقين الّذين كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، و معنى الآية **أَلَمْ تَرَ** يا محمّد **إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا** أي يوالون و يحبُّون **قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ** و هم اليهود **مَا هُمْ مِنْكُمْ** أي ليسوا مؤمنين **وَ لَا مِنْهُمْ** أي و لا هم من اليهود فهم مذبذبون بين ذلك كما هو معنى النّفاق **وَ يَحْلِفُونَ** أي يقسمون **عَلَى ٱلْكَذِبِ** يعني يستوفون لكم، أنا معكم و نحن نتوب إلى اللّه ممّا مضى و ليسوا بصادقين في قولهم هذا **وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** أنّه كذلك ثمّ بيَّن اللّه مالهم من العذاب و قال: **أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** يوم القيامة **إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** من المعاصي و القبائح و النّفاق.

ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

قرأ المشهور من القرّاء أَيْمَانَهُمْ بفتح الألف و عليه المصاحف و هو على هذا جمع يمين أي القسم، و قرأ الحسن و أبوالعالية (ايمانهم) بكسر الألف الإقرار باللّسان و قوله: **جُنَّةً** بضمّ الجيم و فتح النّون، أي سترةً و ترساً يدفعون بها من نفوسهم التّهمة و الظّنة و يقال لها بالفارسيّة (سپر) يستفاد منها في الحروب فعلى القراءة الأولى معنى الكلام أنّ المنافقين جعلوا الأقسام الّتي أقسموا بها جنّة يستجنون بها عن القتل.

علىٰ الثّانية: معناه أنّهم جعلوا إيمانهم أي إقرارهم بالتّوحيد و النّبوة جنّة يستجنونّ بها من خوف القتل و الحاصل أنّهم لم يؤمنوا باللّه و رسوله واقعاً و أنّما يتظاهرون بالإسلام و يقرّون بالتّوحيد لحفظ نفوسهم عن القتل.

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ في الأخرة بالنّار و أنّما قال، فصّدوا عن سبيل اللّه، لأنّ الصّد المنع فكأنّهم منعوا بنفاقهم النّاس عن قبول الإسلام.

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَآ أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ أموال المنافقين و أولادهم لا تنتفع بحالهم يوم القيامة و هذا ممّا لا ريب فيه إذ لا ينفع فيه إلاّ العمل الصّالح و ليس للميّت من أمواله حظٌّ و لا نصيبٌ إلاّ ما أنفقه منها في الدّنيا في سبيل اللّه و لا من أولاده إلاّ إذا كانوا خلفاء صالحين و قد قال اللّه تعالى: **وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ**(١).

ولم يقل أنّ خير الزّاد النّفاق فلا جرم **أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** لا يخرجون منها أبداً.

١- البقرة = ١٩٧

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ المنافقين يوم القيامة يحلفون كما كانوا في الدّنيا و يحسبون أنّهم على شيءٍ من الحقّ ولم يعلموا أنّهم ليسوا كذلك بل هم الكاذبون في دعواهم لنفاقهم و لم يعلموا أنّ يوم القيامة غير يوم الدّنيا و أنّه يومٌ تبلى السّرائر فيه و الأعمال الّتى عملوا بها في الدّنيا مكتوبة في صحيفة أعمالهم لم يسقط منها شيءٌ.

ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ

الإستحواذ الإستيلاء و المعنى إستولى عليهم الشّيطان في الدُّنيا **فَأَنسَاهُمْ** الشّيطان **ذِكْرَ ٱللَّهِ** عن قلوبهم لأنّهم صاروا تابعين له **أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ** و ليسوا من حزب اللّه **أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ** في الدّنيا و الأخرة، و ذلك هو الخسران المبين و أي خسرانٍ أشدَّ و أعظم من الخلود في نار جهنّم إلى الآبد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥٓ أُولَٰئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ

المحادّة المخالفة، و المعنى أنّ الّذين يخالفون اللّه و رسوله قولاً و عملاً أولئك في الأذلّين، أي في الأحقرين المهانين عند اللّه، و قيل معناه في المغلوبين، و الذِّلة الحقارة و الحقّ أنّ العزّة في طاعة اللّه كما أنّ الذّلة في معصيته فمن أعزّه اللّه فهو العزيز حقّاً و من أذلّه اللّه فهو الذّليل كذلك ثمّ قال تعالى:

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ

قالوا معناه كتب اللّه في اللّوح المحفوظ و ما كتبه اللّه فلابدّ أن يكون كذلك.

و قال الحسن ما أمر اللّه نبيّاً قطّ بحربٍ إلاّ غلب إمّا في الحال أو فيما بعد و يحتمل أن يكون المراد، و قيل معناه قضى اللّه ذلك.

و قال الفرّاء، كتب بمعنى قال و (أنا توكيدٌ) و رسلي، معناه من بعث منهم بالحرب فأنّه غالبٌ و من بعث منهم بالحجّة فهو أيضاً غالب بها على الخصم.

و قال مقاتل قال المؤمنون لئن فتح اللّه لنا مكّة و الطّائف و خيبر و ما حولهنّ رجونا أن يظهرنا اللّه على فارس و الرُّوم قال عبد اللّه إبن أبّي بن سلول أتظنّون الرُّوم و فارس مثل القرى الّتي غلبتم عليها و اللّه إنّهم لأكثر عدداً و أشدّ بطشاً من أن تظنّوا فيهم ذلك فنزلت الآية.

أقول تفسير الآية واضح لا خفاء فيه أصلاً و لا يحتاج إلى شأن النزّول فأنّ الحكم عقلّي لا يحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليه و ذلك لأنّ اللّه تعالى قادرٌ على كلّ شئٍ فلا يكون مغلوباً أبداً إذ المغلوبيّة تنافي القدرة المطلقة الّتي لا نهاية لها إذ لو كان مغلوباً فهو ضعيفٌ و كلّ ضعيفٍ ممكن الوجود مخلوقٌ لغيره و محتاج إلى غيره و المفروض أنّه واجب الوجود فكيف يكون مغلوباً لغيره و إذا لم يكن مغلوباً فهو غالبٌ لعدم الواسطة و إذا كان الخالق قادراً غالباً على كلّ شئٍ فكذلك رسوله لأنّه قادرٌ بقدرة اللّه و لا يكون مغلوباً إلاّ لخالقه إذ لو كان الرّسول مغلوباً لخلق لا يمكن له إبلاغ رسالته و لأجل ذلك لا تقيّة له أصلاً من الكفّار و لذلك قال: **إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** أي أنّه قادرٌ لا يمكن لأحدٍ الغلبة عليه أو منعه عمّا شاء أو أراد.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ المؤمن لا يحبّ أحداً إلاّ لإيمانه ولذلك خاطب نبيّه فقال: **لَا تَجِدُ** يامحمّد **قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ** أي يُحبُّون **مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ** أي من خالف اللّه و رسوله قولاً و فعلاً **وَ لَوْ كَانُوا** هؤلاء **آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** و ذلك لأنّ ملاك المَّودة عندهم هو الإيمان لا الأبُّوة و البّنوة و الأخوة و القرابة و أمثالها **أُولَٰئِكَ** المؤمنون الّذين وصفناهم **كَتَبَ** بقلم القدرة **فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ** فلا يزول عنها **وَ أَيَّدَهُمْ** و قوّاهم اللّه **بِرُوحٍ مِنْهُ** أي بنور البرهان حتّى إهتدوا للحقّ و عملوا به **وَ يُدْخِلُهُمْ** اللّه **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** لا يخرجون منها أبداً **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ** أي عن اللّه **أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ** و أتباع الحقّ **أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** في الدّنيا و الأخرة

و في الآية الشّريفة مطالب جليلة لا بأس بالإشارة إليها على سبيل الإختصار:

الأوّل: أنّ قوله: **لَا تَجِدُ قَوْمًا** إلى قوله: **أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** فيه إشارة الى أنّ المؤمن باللّه و رسوله لا يواد من حادّ اللّه و رسوله و ذلك لأنّ من حادّ اللّه و رسوله لا يكون مؤمناً إذ لو كان مؤمناً أحبَّ اللّه و رسوله و من المعلوم أنّ المؤمن لا يحبّ غير المؤمن فأنّ غير المؤمن لا يجتمع مع المؤمن للزومه إجتماع النّقيضين الّذي حكم العقل بإستحالته كما أنّ رفعهما إرتفاع النّقيضين و هو أيضاً محال و إن أردت توضيح ذلك فنقول:

لا شكّ أنّ الإيمان و عدم الإيمان من قبيل النّقيضين بأنّ نقيض كلّ شئٍ رفعه فالإيمان و عدم الإيمان لا يجتمعان في قلبٍ واحد فإذا أحبَّ المؤمن غير المؤمن لزم منه أنّ قلبه متّصفٌ بالإيمان و عدم الإيمان في حالةٍ واحدة محالٌ عقلاً لإستحالة إجتماعهما، و لا فرق في هذا الحكم بين أن يكون الغير من أقربائه و عشيرته أو لا لأنّ الملاك في الحبّ و البغض هو الإيمان و عدمه كما هو المفروض فلا فرق بين الأقرباء و غيرهم في ذلك لأنّ ملاك البغض و

هو عدم الإيمان موجودٌ فيهم فالمؤمن لا يحبّ إلاّ للّه و لا يبغض إلاّ للّه و هذا هو الملاك في الحبّ و البغض في أيّ شخصٍ وجد و بذلك خرج كثير من المسلمين الّذين كانوا يدّعون الإيمان في صدر الإسلام عن ربقة المؤمنين و ذلك لأنّ من خالف حكم اللّه و رسوله فهو ممَّن يحادّ اللّه و رسوله فالمحبّ له لا إيمان له و هو المطلوب.

الثّانى: أنّ قوله: **أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمٰانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ** فيه إشارة إلى أنّ التّوفيق فى قبول الإيمان منه تعالى و ليس معنى قوله: **كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمٰانَ** أنّ اللّه خلقهم مؤمنين، بل معناه أنّ الإيمان ثبت و رسخ في قلوبهم و ذلك لأنّ الإيمان على ضربين، مستّقرٌ، و مستودعٌ، فالمستقر لا يزول عن القلب بخلاف المستودع.

قيل أنّ الآية نزلت في حاطب بن أبي يلتفت حين كتب إلى أهل مكّة يشعرهم بأنّ النّبي عزم على أن يأتي مكّة بغتةً يفتحها فلمّا عوتب على ذلك قال أهلى بمكّة أجبت أن يخوطوهم بيد تكون لي عندهم فأنزل اللّه الآية و قوله: **بِرُوحٍ مِنْهُ** قيل معناه و نصرٍ منه، و قيل، بالقرآن، و قيل برحمةٍ من اللّه، و قيل أيدَّهم بجبرئيل عليه السّلام، و الحقّ أن المراد بالرُّوح في المقام التَّوفيق أي و أيدَّهم بتوفيقٍ منه، أي من الإيمان:

الثّالث: قوله **وَ يُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ** الى قوله: **خٰالِدِينَ فِيهٰا** و فيه إشارة الىٰ ما أعطاهم اللّه يوم القيامة من الجزاء و الثّواب على الإيمان و أيُّ جزاءٍ احسن من الخلود في الجنّة و التَّنعم بنعيمها.

الرّابع: قوله **رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ** الى آخر الآية و عندي أنّه أي رضى اللّه عنهم من أعظم النِّعم و لا نعمة فوقه لأنّه تعالى صرَّح بأنّهم من حزب اللّه و من كان من حزب اللّه فهو المقرّب عند اللّه و هذا واضح (رضي اللّه عنهم) أي رضى اللّه عنهم، لإيمانهم و قوله و رضوا عنه، أي رضوا عن اللّه

بتسليمهم لقضاءه و قدره و من كان مؤمناً باللّه راضياً بقضاءه و قدره فهو في أعلى مراتب العبّودية و هذا معنى قوله: **أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** أي أولئك من جنود اللّه و اولياوه.

و قيل هم الّذين إصطفاهم اللّه و أختارهم من خلقه، و هم المفلحون، أي المنجحون بإدراك ما طلبوا في الدُّنيا و الأخرة و اللّه أعلم.

■

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَ
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰابِ مِـنْ دِيٰـارِهِمْ لِأَوَّلِ
ٱلْحَشْرِ مٰا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوٓا أَنَّـهُمْ
مٰانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَأَتيٰهُمُ ٱللَّهُ مِـنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَبِرُوا يٰآ أُولِى ٱلْأَبْصٰارِ ﴿٢﴾ وَ لَوْلآ أَنْ كَتَبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيٰا وَ لَهُمْ فِى
ٱلْاٰخِرَةِ عَذٰابُ ٱلنّٰارِ ﴿٣﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شٰاقُّوا ٱللَّهَ
وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشٰاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقٰابِ ﴿٤﴾ مٰا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهٰا
قٰائِمَةً عَلىٰٓ أُصُولِهٰا فَبِإِذْنِ ٱللَّـهِ وَ لِـيُخْزِىَ
ٱلْفٰاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَ مٰآ أَفٰآءَ ٱللَّهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ
فَمٰآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لاٰ رِكٰابٍ وَ لٰكِنَّ
ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللَّهُ عَلىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ
أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَامَىٰ وَ ٱلْمَسَاكِينِ وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا
يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنْكُمْ وَ مَآ آتَيٰكُمُ
ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ
ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ
ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ
أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ
يَنْصُرُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ
﴿٨﴾ وَ ٱلَّذِينَ تَبَوَّؤُا ٱلدَّارَ وَ ٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّآ أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ
أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ
نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَ ٱلَّذِينَ جَآءُو
مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا
ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا
غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ
تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ
أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا

يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبٰارَ ثُمَّ لٰا
يُنْصَرُونَ «١٢» لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ
مِنَ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لٰا يَفْقَهُونَ «١٣» لٰا
يُقٰاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلّٰا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ
وَرٰاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا
وَ قُلُوبُهُمْ شَتّٰى ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لٰا يَعْقِلُونَ «١٤»
كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ
وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ «١٥» كَمَثَلِ ٱلشَّيْطٰانِ إِذْ قٰالَ
لِلْإِنْسٰانِ ٱكْفُرْ فَلَمّٰا كَفَرَ قٰالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّيٓ
أَخٰافُ ٱللّٰهَ رَبَّ ٱلْعٰالَمِينَ «١٦» فَكٰانَ عٰاقِبَتَهُمٰآ
أَنَّهُمٰا فِي ٱلنّٰارِ خٰالِدَيْنِ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ جَزٰاؤُا
ٱلظّٰالِمِينَ «١٧» يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ
لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ
خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ «١٨» وَ لٰا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ
نَسُوا ٱللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفٰاسِقُونَ «١٩» لٰا يَسْتَوِيٓ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ وَ
أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفٰآئِزُونَ
«٢٠» لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلٰى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ
خٰاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللّٰهِ وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ
نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «٢١» هُوَ ٱللّٰهُ
ٱلَّذِي لٰآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ هُوَ
ٱلرَّحْمٰنُ ٱلرَّحِيمُ «٢٢» هُوَ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي لٰآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ

ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ
لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ
وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

◀ اللّغة

سَبَّحَ: التَّسبيح التَّنزيه.

حُصُونُهُمْ: الحصون جمع حصن.

قَذَفَ: القذف الرَّمى.

ٱلرُّعْبَ: الرُّعب بضمّ الرّاء الخوف.

ٱلْجَلَاءَ: بفتح الجيم الإنتقال من الّديار و الأوطان للبلاء.

شَاقُّوا: أي خالفوا و عصوا.

لِينَةٍ: اللِّينة النَّخلة.

أَفَاءَ ٱللَّهُ: الفئ الرُّجوع.

تَبَوَّؤُا ٱلدَّارَ: التبوّء إختيار المكان.

خَصَاصَةٌ: الخصاصة الحاجة.

يُوقَ: بضمّ الياء أي منع.

شُحَّ: بضمّ الشّين البخل.

غِلاًّ: الغلّ بكسر الغين الحقد.

رَهْبَةً: الرهبة الخوف.

جُدُرٍ: بضمّتين جمع جدار.

بَأْسُهُمْ: البأس الشدّة.

شَتّیٰ: التَّشتت التَّفرق.

وَبٰالَ: بکسر الواو الوزر و الباقي واضح لا خفاء فیه.

◀ الأعراب

مٰانِعَتُهُمْ خبر، أنّ، و حُصُونُهُمْ مرفوع به أو هو خبر مقدّم یَخْرُجُون یجوز أن یکون حالاً و أن یکون تفسیراً للرُّعب، لِلْفُقَرٰآءِ بدل من قوله وَ لِذِی ٱلْقُرْبٰی و ما بعده یَبْتَغُونَ حال وَ ٱلَّذِینَ تَبَوَّؤُا مبتدأ و یُحِبُّونَ الخبر و خٰالِدَیْنِ حال.

◀ التّفسير

سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِی ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِی ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِیزُ ٱلْحَکِیمُ

قد مرَّ الکلام في تفسیر هذه الآیـة فـي أوّل الحـدید و قـلنا مـعنی التَّسبیح تنزیه اللّه تعالی عمّا لا یلیق بشأنه الی آخر ما قلناه هناك فلا وجه لإعادته.

هُوَ ٱلَّذِیٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْکِتٰابِ مِنْ دِیٰارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مٰا ظَنَنْتُمْ أَنْ یَخْرُجُوا وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ مٰانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ فَأَتیٰهُمُ ٱللّٰهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ یُخْرِبُونَ بُیُوتَهُمْ بِأَیْدِیهِمْ وَ أَیْدِی ٱلْمُؤْمِنِینَ فَاعْتَبِرُوا یٰآ أُولِی ٱلْأَبْصٰارِ

الحشر مصدر یقال حشر یحشر حشراً، و الحشر جمع النّاس من کلّ ناحیةٍ و منه حشر الّذي یـجمع النّـاس الی دیـوان الخـراج و الجـمع مـنه، حشـار، و المعنی أنّ الّذي وصفه بأنّه العزیز الحکیم في الآیـة السّـابقة هـو الّـذي أخـرج الّذین کفروا من أهل الکتاب و هم الیهود و النّصاری لأوّل الحشر قیل الحشـر حشران، حشرٌ في الدُّنیا و حشرٌ في الأخـرة یـوم القـیامة و کـلاهما الی أرض الشّام، و قیل أراد بأوّل الحشر أوّل الجلاء لأنّ بني النّـضیر أوّل مـن أجـلی مـن أرض العرب و کیفیّة القضیّة علی ما ذکره علّي بن إبراهـیم فـي تـفسیره لهـذه

الآية أنّه كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود بني النَّضير، و بني قريضة، و بني قينقاع و كان بينهم و بين رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عهد و مدّة فنقضوا عهدهم و كان سبب ذلك بني النَّضير في نقض عهدهم أنّه أتاهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، يستسلمهم دية رجلين قتلهما رجل من أصحابه غيلةً، يعني يستقرض و كان بينهم كعب بن الأشرف فلمّا دخل على كعب قال مرحباً يا أبا القاسم أهلاً و قام كأنّه يصنع له الطّعام و حدّث نفسه أن يقتل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و يتبع أصحابه فنزّل جبرئيل فأخبره بذلك فرجع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة و قال لمحمّد بن مسلمة الأنصاري إذهب الى بني النّضير و أخبرهم أنّ اللّه عزّ وجلّ قد أخبرني بما هممتم به من الغدر، فأمّا أن تخرجوا من بلدنا و أمّا أن تأذنوا بحربٍ فقالوا نخرج من بلادك فبعث اليهم عبد اللّه بن أبي لا تخرجوا و تقيموا و تنابذوا محمّداً الحرب فأنّي أنصركم أنا و قومي و حلفائي فأن خرجتم خرجت معكم و إن قاتلتم قاتلت معكم فأقاموا و أصلحوا بينهم حصونهم و تهيّئوا للقتال و بعثوا الى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إنّا لا نخرج فأصنع ما أنت صانع فقام رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و كبّر و كبّر أصحابه و قال لأمير المؤمنين تقدّم الى بني النَّضير فأخذ أميرالمؤمنين عليه السلام الرّاية و تقدَّم و جاء رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و أحاط بحصونهم و غدر بهم عبد اللّه إبن أبي و كان رسول اللّه إذا اظهر بمقدّم بيوتهم حصّنوا لما يليهم و خرّبوا لما يليه و كان الرّجل منهم ممّن كان له بيت حسن خرّبه و قد كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقطع نخلهم فجزعوا من ذلك و قالوا يا محمّد أنّ اللّه يأمرك بالفساد إن كان لك هذا فخذه و أن كان لنا فلا تقطعه فلمّا كان بعد ذلك قالوا يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا مالنا فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا و لكّن تخرجون و لكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك فبقوا أيّاماً ثمّ قالوا نخرج ولنا ما حملت الإبل فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا ولكّن تخرجون يحمل أحدٌ منكم شيئاً فمن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه فخرجوا على ذلك و وقع منهم قومٌ إلى فدك و وادي القرى و خرج قومٌ منهم إلى الشّام فأنزل اللّه فيهم:

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إلىٰ قوله: وَ لِيُخْزِىَ ٱلْفَاسِقِينَ إذا علمت هذا فلنرجع إلى تفسير ألفاظ الآيات.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ أي اللّه العزيز الحكيم هو الّذي أخرج هؤلاء الكفّار من أهل الكتاب، و هو التّوراة، لأنّهم كانوا من اليهود (من ديارهم) أي من بيوتهم لأوّل الحشر، و هو أرض الشّام.

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا من ديارهم وَ ظَنُّوٓا هؤلاء الكُفّار أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ أي من عذاب اللّه أو ممّا أراد اللّه من الجلاء و ذلك لأنّ حصونهم كانت منيعة رفيعة فَأَتَيٰهُمُ ٱللّٰهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا أي أتاهم أَمر اللّه من حيث لم يحتسبوا ولم يظنّوا لإعتمادهم على قدرتهم و لا سيّما أنّ عبد اللّه بن أبيّ وعدهم النّصر على ما مرّ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ أي رمى اللّه في قلوب الكفّار (الخوف) و هذا هو الأصل في الباب و هو الّذي أتاهم من حيث لم يحتسبوا، إذ لم يعلموا أنّ قلوبهم بيد اللّه فإذا أراد إلقاء الخوف فيها لا يقدر أحد على منعه و لا يقدر أحد على إزالة الخوف عنها أيضاً إلاّ من ألقاه فيها و هو اللّه تعالى، و هذا معنى قول رسول اللّه ﷺ حيث قال: (أَنا المَنصُور بِالرُّعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ أي لمّا دخلهم الرُّعب أخربوا بيوتهم بأيديهم فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِى ٱلْأَبْصَارِ من قدرة اللّه و عاقبة الكفر و الظُّلم و نقض العهد و مخالفة الحقّ وَ لَوْلَآ أَنْ كَتَبَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ عن أوطانهم لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا و المقصود أنّهم كانوا مستحقّين للعذاب إلاّ أنّه سبق في علم اللّه في كيفيّة عذابهم الجلاء عن ديارهم و لولا ذلك لعذّبهم في الدُّنيا بنوع آخر، وَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ أي هذا الّذي عذّبناهم به من الجلاء لا يكفيهم بل لهم في الآخرة عذاب النّار، و هو أشدّ و أعظم و أصعب.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَآقِّ ٱللّٰهَ فَإِنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ

أي من عاد اللّه و رسوله و سلك مسلك الخلاف ولم يتّعظ بمواعظ اللّـه و رسوله فأنّ اللّه شديد العقاب.

مٰا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهٰا قٰآئِمَةً عَلىٰ أُصُولِهٰا فَبِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ لِيُخْزِيَ ٱلْفٰاسِقِينَ

و ذلك أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لمّا نزل على حصون بني النّضير و هي البويرة حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أحد أمر بقطع نخيلهم و إحراقها و إختلفوا في عدد ذلك فقيل أنّهم قطعوا من نخيلهم و أحرقوا ستّ نخلات و قيل قطعوا نخلة و أحرقوا نخلة وكان ذلك بأمرٍ من اللّه و رسوله إمّا لإضعافهم بها و إمّا لسعة المكان بقطعها و قال شاعرهم سماك اليهودي في ذلك:

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم ... على عهد موسى ولم تصدف
و أنتم رعاءٌ لشاء عجاف ... بسهل تهامة و الأخيف
ترون الرّعاية مجداً لكم ... لدى كلّ دهرٍ لكم فجن
فيا أيّها الشّاهدون إنتهوا ... عن الظّلم و المنطق المؤنف
لعلّ اللّيالي و صرف الدُّهور ... بدلن عن العادل و المنصف
بقطع النّضير و إجلائها ... و عقر النّخيل ولم تقطف

فأجابه حسّان بن ثابت الأنصاري:

تعاقد معشرُ نصروا قريشاً ... و ليس لهم ببلدتهم نصيرُ
هم أوتوا الكتاب فضيّعوه ... و هم عميٌ عن التّوراة بورُ
كفرتم بالقرأن و قد أبيتم ... بتصديق الّذي قال النّذير
وهان على سراة بني لؤيٍّ ... حريقٌ بالبويرة مستطيرُ

فاللّينة، كلّ نخلةٍ لينة سوى العجوة في قول إبن عبّاس و قتادة و هى لغة أهل المدينة و قال بعضهم إلاّ البرني و العجوة، و قيل اللّينة كرام النّخل.

و قوله: **أَوْ تَرَكْتُمُوهٰا قٰائِمَةً عَلىٰ أُصُولِهٰا فَبِإِذْنِ ٱللّٰهِ** أي كلّ ذلك سائق لكم لأنّه بعلم اللّه و أذنه في ذلك و أمره به.

و في قوله: **لِيُخْزِىَ ٱلْفٰاسِقِينَ** فاللاّم للغاية و الغرض أي فعلنا ذلك إذلالاً للفاسقين من اليهود لا لأجل الفساد في الأرض و ذلك لأنّ فيما فعلوه إذلال اهل الشّرك و عزّ أهل الايمان قيل كان خروج النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليهم في ربيع الأوّل السّنة الرّابعة من الهجرة و اللّه أعلم.

وَ مٰا أَفٰاءَ ٱللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمٰا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لاٰ رِكٰابٍ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مٰا أَفٰاءَ ٱللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرىٰ فَلِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْيَتٰامىٰ وَ ٱلْمَسٰاكِينِ وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لاٰ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيٰاءِ مِنْكُمْ وَ مٰا آتٰيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقٰابِ

الفيءُ و الفيئة الرّجوع إلى حالةٍ محمودةٍ و منه فاء الظلّ، و الفيء لا يقال إلاّ للرّاجع منه، و قيل للغنيمة الّتى لا يلحق فيها مشّقة، فيءٌ، قيل سمّي ذلك بالفيءِ الّذي هو الظلّ تنبيهاً على أنّ أشرف أعراض الدّنيا يجري مجرى ظلٍّ زائل كما قيل:

أرى المال أفياء الظّلال عشيّةً

و قال الأخر:

أنّما الدّنيا كظلٍّ زائلٍ　　　أو كضيفٍ بات فيها و إرتحل

إعلم أنّ هاتين الأيتين نزلتا فيما أفاء اللّه من أموال الكفّار على رسوله و الإختلاف بين العامّة و الخاصّة في أنّ هذه الأموال الّتى أفاء اللّه على رسوله

من الغنائم كما إختاره العامّة أو من غيرها كما إختاره أتباع أهل البيت فلابدّ لنا في تفسيرهما من نقل كلام الطَّرفين على سبيل الإختصار فنقول.

قال القرطبي في تفسيره للأية ماهذا لفظه قوله تعالى: **وَ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ** يعني ما ردَّه اللّه تعالى (على رسوله) من أموال بني النَّضير **فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ** اوضتم عليه و الإيجاف الإيضاع في السَّير و هو الإسراع يقال وجف الفرس إذا أسرع و منه قول تميم إبن مقبل:

كذا ويد بالبيض الحديث صقالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

و الرّكاب الإبل واحدها راحلة يقول لم تقطعوا إليها شقّة و لا يقتسم بها حرباً و لا مشَّقة و أنّما كانت عن المدينة على ميلين قاله الفّراء فمشوا إليها مشياً و لم يركبوا خيلاً و لا إبلاً إلاّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ركب جملاً و قيل حماراً مخطوماً بليفٍ فإفتتحها صلحاً و أجلاهم و أخذ أموالهم فسأل المسلمون النّبي أن يقسّم لهم فنزلت **وَ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ** فجعل أموال بني النَّضير للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة يضعها حيث شاء فقسَّمها النّبي بين المهاجرين و الأنصار.

قال الواقدي و رواه إبن وهب عن مالك، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلاّ ثلاثة نفر محتاجين منهم أبو دجانة سماك بن خرشة، و سهل بن حنيف، و الحارث بن الصّمة و قيل أنّما أعطى رجلين سهلاً و أبا دجانة و يقال أعطى سعد بن معاذ سيف إبن أبي الحقيق و كان سيفاً له ذكرٌ عندهم ولم يسلم من بني النَّضير إلاّ رجلان سفيان بن عمير و سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها و في صحيح مسلم عن عمر قال كانت أموال بني النَّضير ممّا أفاء اللّه على رسوله ممّا لم يوجف عليه المسلمون بخيلٍ و لا ركابٍ وكانت للنّبى صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة فكان ينفق على أهله مؤنة سنة (نفقة سنة) و ما بقى يجعله في الكراع (أي للدّواب الّتى تصلح للحرب) و السّلاح، عدَّةً في سبيل اللّه.

و قال العبّاس لعمر رضي اللّه عنهما إقض بيني و بين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن، يعني عليّاً فيما أفاء اللّه على رسوله من أموال بني النَّضير فقال عمر أنّ اللّه كان خصَّ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بخاصّة ولم يختّص بها أحداً غيره.

قال ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى فللّه و للرّسول، ثمّ قال أتعلمان أنّ النّبي قال لا نورث ما تركناه صدقة قالا نعم فقسَّم رسول اللّه بينكم أموال بني النَّضير فواللّه ما إستأثرها عليكم و لا أخذها دونكم حتّى بقى هذا المال فكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ منه نفقة سنة ثمّ يجعل ما بقي أسوة المال الحديث بطوله خرَّجه مسلم.

و قيل لما ترك بنو النَّضير ديارهم و أموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظّ كالغنائم فبيَّن اللّه أنّها فيء و كان قد جرى ثمّ بعض القتال لأنّهم حوصروا أيّاماً و قاتلوا و قتلوا، ثمّ صالحوا على الجلاء و لم يكن قتال على التحقّيق بل جرى مباديء القتال و جرى الحصار و خصَّ اللّه تلك الأموال برسوله صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى ما أردنا نقله عنه في الآية الأولى.

أقول ما نقله عن العبّاس أنّه قال لعمر اقض بيني و بين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن يعني علّياً، هو من الأحاديث المجعولة من أصحاب السَّقيفة و نظائره كثيرة فأنّ العبّاس عمّ النّبي و عمّ الوصّي و هو كان أجلّ شأناً من أن يعبّر عن ابن أخيه بالكاذب الآثم الغادر الخائن، و أيُّ كذبٍ أو إثم أو غدرٍ أو خيانة صدر عنه حتّى يقال فيه ذلك فأن كان علّي بن أبي طالب كاذباً آثماً غادراً خائناً فعلى الإسلام السّلام و العجب من القرطبي في نقله هذا الحديث الشّيطاني في تفسير كلام اللّه ولم يعلم أنّ علّي بن أبي طالب كان كلام اللّه النّاطق و القرأن كلام اللّه الصّامت و قد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **إنّى تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي** و علّيٌ عليه السلام كان في رأس العترة بعد رسول اللّه فلو كان كاذباً آثماً غادراً خائناً فكيف جعله رسول اللّه عدلاً للقرأن و قال: **ما إن تمَّسكتم بهما لن تضّلوا أبداً** و هل يكون الكاذب عدلاً للصّادق و مقترناً به و

من المعلوم أنّ الكاذب مع الكاذب و الصّادق مع الصّادق فلا يعقل أن يكون القرن صادقاً و العترة كاذباً إلاّ على مذهب القرطبي و أمثاله أليس نقل هذه المجعولات و المخترعات الشّيطانية الّتى نقلوها في كتبهم دليلاً على خبث ناقلها و أنّه من أولياء الشّيطان، و وهنا للإسلام و القرأن فما لكم كيف تحكمون.

و نحن نقول لعنة اللّه و ملائكته و رسله على من جعل هذه الأباطيل و على من كتبها في الأوراق و سمّاها صحيحاً، و على من إعتقد بصّحتها و على مثل هذا فليبك الباكون و ليندب النّادبون.

و أمّا الآية الثّانية و هي قوله: **مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ** فقد أطال الكلام فيها و نقل أقولاً كثيرة من أبناء جنسه و ساق الكلام إلى أن قال، و أمّا بعد وفاة رسول اللّه فالّذي كان من الفيء لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يصرف عند الشّافعي في قولٍ إلى المجاهدين المترصدين للقتال في الثّغور لأنّهم القائمون مقام الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و في قولٍ أخر يصرف إلى مصالح المسليمن من سدّ الثّغور و حفر الأنهار و بناء القناطر تقدّيم الأهمّ فالأهمّ و هذا في أربعة أخماس الفيء فأمّا السّهم الّذي كان له صلّى الله عليه وآله وسلّم من خمس الفيء و الغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته بلا خلاف كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: **ليس لي من غنائمكم إلاّ الخمس و الخمس مردودٌ فيكم** و كذلك ما خلّفه من المال غير موروثٌ بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين كما قال: **إنّا لا نورث ما تركناه صدقة** و قيل مال الفيئ كان لبنيّه غير أنّه لا يتّأمل مالاً (الماثل الجامع) أنّما كان يأخذ بقدر حاجة عياله و يصرف الباقي في مصالح المسلمين إنتهى.

و أطال الكلام في هذا المقام أيضاً بما لا فائدة في نقله لأنّ نقل الموضوعات و المجعولات يوجب الملالة و تضييع الأوقات لو لم يكن من قبيل الإعانة على الإثم و العدوان و حاصل كلماتهم أنّ مال الفيئ حكمه حكم الغنائم و أنّه للمسلمين إلا أنّ النّبي يأخذ منه مادام حيّاً بقدر نفقته و نفقة عياله

و أمّا بعد وفاته فهو للمسلمين يصرف في حوائجهم و لا يورث لقوله ما تركناه صدقه.

و نحن نقول، أن كان الفئ ماله فهو له في حياته و لوارثه بعد موته و أن لم يكن مالاً له فهو و غيره من المسلمين فيه على حدٍّ سواء و أمّا القول بأنّ الفئ ماله بمعنى أنّه يأخذ منه بقدر نفقة عياله لا أكثر و يصرف الباقي في مصالح المسلمين في حياته و بعد موته فلا نفهم معناه لأنّه من قبيل إجتماع النقيضين الّذي حكم العقل بإستحالته، و توضيح ذلك أنّ اللّه تعالى قال: **مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ** و اللاّم فيهما إمّا للملك أو للإختصاص و المأل فيهما واحد لأنّ الملك يفيد الإختصاص بالمالك و إلاّ لا يكون ملكاً له فينتج أنّ ما أفاء اللّه على رسوله هو ملك للّه و رسوله و إذا كان ملكاً للرّسول فله أن يضعه حيث يشاء و أراد في حياته لأنّ النّاس مسلّطون على أموالهم، و بعد موته فهو لوارثه قطعاً كغيره من الأموال فالقول بأنّ المال مختصّ به في حياته على أساس الآية و أمّا بعد موته فليس لوارثه من قبيل أن يقال الفئ ماله و ليس بماله و هو عين التّناقض الّذي لا يقول به إلاّ القرطبي و أمثاله فلابدّ للقائل به إمّا تكذيب الآية أمّا أنّ المال ماله في حياته و لوارثه بعد مماته، و أمّا قوله: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه، فهو ممّا ينبغي أن يضرب على الجدار إذ لا يقبله العقل السّليم و لا يحكم به الشّرع القويم و للبحث فيه مقام أخر و قد إستوفينا الكلام فيه في شرحنا الموسوم بمفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة عند شرحنا الخطبة المعروفة بالشّقشقية أن شئت فراجعه.

و قال الشّيخ رحمه الله في التّبيان ما هذا لفظه و الّذي نذهب إليه أنّ مال الفئ غير مال الغنيمة فالغنيمة كلّ ما أخذ من دار الحرب بالسّيف عنوةً ممّا يمكن نقله إلى دار السّلام و ما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الإمام و يصرف إنتفاعه إلى بيت المال، و الفئ كلّ ما أخذ من الكفّار بغير

قتالٍ أو إنجلاء أهلها و كان ذلك للنّبي خاصّة يضعه في المذكورين في هذه الآية و هو لمن قام مقامه من الأئمّة الراشدين و قد بيَّن اللّه تعالى ذلك إنتهى. ما أردنا نقله عنه و هو الحقّ الحقيق بالإتّباع و كلامه حجّةٌ علينا في الفقه فلا نقول إلاّ ما قال و لا نسلك إلاّ ما سلكه و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول: **مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ** يعني من اليهود الّذين أجلاهم من بلادهم فالفيء معناه ردَّ ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك اللّه أيّاهم على ما شرط فيه.

فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ ما، نافية أي لم توجفوا علىٰ ذلك و الإيجاف الإيقاع و قيل الإزعاج للسّير، و الرّكاب الأبل.

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ و هم بنو النَّضير **فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ** أي أقرباء الرّسول و هم أهل بيت رسول اللّه **وَٱلْيَتَامَىٰ وَ ٱلْمَسَاكِينِ وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** يعنى من أهل بيت رسول اللّه و أمّا العامّة فأنَّهم قالوا ما جعل من أموال الكفّار بغير قتالٍ قسم على خمسة أسهم أربعة منها للنَّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و كان الخمس الباقي على خمسة أسهم، سهمٌ لرسُول اللّه أيضاً و سهمٌ لذي القربى و هم بنو هاشم و بنو المطَّلب لأنَّهم منعوا الصدّقات فجعل لهم حقّ في الفيء، و سهمٌ لليتامى، و سهمٌ للمساكين، و سهمٌ لإبن السَّبيل و أمّا بعد وفاة رسول اللّه فالّذي كان من الفيء لرسول اللّه يصرف عند الشّافعي في مصالح المسلمين، ولم يعلموا أنّ تقدير الكلام في قوله و لذي القربى، معناه لذي قرباه و قوله: **وَٱلْيَتَامَىٰ** أي يتامى أهل بيته **وَ ٱلْمَسَاكِينِ** أي مساكين أهل بيته **وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** أي من أهل بيته كلّ ذلك بمقتضى العطف فأنّ الألف و اللاّم تعاقب الضَّمير و ظاهره يقتضي أنّه لهؤلاء سواءٌ كانوا أغنياء أو فقراء قاله الشّيخ في التّبيان و هو حقٌّ لا مرية فيه.

كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ كأنّه قيل لم فعل اللّه ذلك فقال تعالى إنّما فعلنا ذلك لكي لا يكون ما أفاء اللّه على رسوله بعد وفاته دولةً بين الأغنياء منكم ثمّ قال: **وَ مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا** الظّاهر أنّ ما آتاكم الرّسول من الفيء فخذوه و أرضوا به، و ما نهاكم عنه من الفيء فأنتهوا، و الأحسن حمل الآية على العموم، أي ما آتاكم الرّسول من الأمر سواء كان في المال أو في غيره، فخذوه و ما نهاكم عنه أيّ شيء كان فأنتهوا، فلا تخالفوا أمره و لا نهيه لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يأمر و لا ينهي إلاّ عن اللّه تعالى.

وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ في مخالفة الرّسول أو فأتّقوا اللّه في ترك معاصيه و فعل طاعاته.

إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ و حيث إنجّر الكلام إلى هنا و قلنا أنّ المراد بذوي القربى و اليتامى و المساكين و إبن السّبيل هم أهل بيت الرّسول لا غيرهم لا بأس بالإشارة إلى بعض الأخبار الواردة في الباب من طريق أهل البيت عليهم السلام.

ما عن تهذيب الأحكام عن سليم بن قيس قال سمعت أميرالمؤمنين عليه السلام يقول نحن و اللّه الّذين عنى اللّه بذي القربى الّذين قرنهم اللّه بنفسه و نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَ ٱلْيَتَٰمَىٰ وَ ٱلْمَسَٰكِينِ منا خاصّته ولم يجعل لنا سهماً في الصّدقة أكرم اللّه نبيّه و أكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما في أيدي النّاس إنتهى.

ما عن مجمع البيان بأسناده عن عليّ إبن الحسين عليه السلام أنّه قال: هم قربائنا و مساكيننا و أبناء سبيلنا إنتهى.

ما رواه محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: كان أبي يقول لنا سهم الرّسول و سهم ذي القربى و نحن شركاء النّاس فيما بقى و قيل أنّ مال الفيء للفقراء من قرابة الرّسول و هم بنو هاشم و بنو المطّلب إنتهى[1].

١- نور الثّقلين ج ٥ ص ٢٧٧

و الأخبار بهذه المضامين كثيرة و إنّما طوّلنا الكلام في الآية لما في تفاسير العامّة من تضييع الحقّ.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

قيل اللاّم متّعلق بقوله: **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ** و لكن يكون للفقراء المهاجرين، من مكّة إلى المدينة و من دار الحرب إلى دار الإسلام.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ و أوطانَهُم و أَموالَهُم، و قيل هو بيان لذي القربى و اليتامى و المساكين و إبن السّبيل، أي أنّ لافيئ بعد موت النّبي ﷺ لهم لا للأغنياء، و الحقّ أنّه بيان للمساكين و إبن السّبيل و غيرهما من أقرباء النّبي على ما مرّ بيانه.

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا أي أنّهم لم يطلبوا في مهاجرتهم الدّنيا و ما فيها بل خرجوا من ديارهم للّه و في اللّه و كانوا يطلبون الفضل و الرّحمة و الرّضوان من اللّه تعالى و الحاصل أنّهم كانوا مخلصين في عبادتهم و جهادهم **وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ** أي ينصرون دين اللّه بنصرة الرّسول و إطاعته **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** أي أولئك الّذين وصفناهم في الآية من الفقراء المهاجرين هم الصّادقون في أفعالهم و أقوالهم و نيّاتهم.

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

لمّا وصف اللّه تعالى المهاجرين و قال فيهم ما قال من إبتغائهم فضل اللّه و رضوانه و نصرتهم لدين اللّه و إطاعة الرّسول، وصف اللّه في هذه الآية الأنصار

و هم الّذين كانوا في المدينة و الرّسول و من تابعه هاجروا من مكّة إلى بلدهم فقال تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ تَبَوَّؤُا ٱلدّارَ وَ ٱلْايمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ**.

الواو للعطف و قيل للإستئناف، و التّبوأ التّمكن و الإستقرار و المعنى، الّذين تمّكنوا و إستّقروا الدّار أي جعلوا ديارهم موضع مقامهم و أمنوا باللّه و رسوله من قبلهم، أي من قبل المهاجرين، قيل ليس المراد أنّ الأنصار أمنوا قبل المهاجرين بل المراد أنّهم أمنوا قبل هجرة النّبي و من تابعه إليهم، و قيل المعنى أنّ الأنصار نزلوا المدينة قبل نزول المهاجرين و قيل كلّ من نزل المدينة قبل هجرة النّبي فهو من الأنصار.

يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ من المسلمين من مكّة، و غيرها.

لا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّآ أُوتُوا هذا أيضاً وصفٌ للأنصار و المعنى أنّ الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجةً ممّا أوتوا، أي ممّا يعطون المهاجرين و قال البلخي لا يجدون حاجة في نفوسهم ممّا يعطون المهاجرين من الفضل في الدّين.

و قال الطّبري لا يجدون في صدورهم حاجةً فيما أعطي المهاجرين من مال بني النّضير فأنّ النّبي خصَّ به المهاجرين إلاّ رجلين من الأنصار، أبا دجانّة و سهل بن حنيف، أعطاهما لفقرهما و أنّما فعل النّبي ذلك لأنّ مال بني النّضير كان له خاصّة.

و ملّخص الكلام أنّ الأنصار لم يحسدوا عليهم بما أعطاهم الرّسول فضّلهم اللّه على الأنصار لسبق إيمانهم عليهم.

وَ يُؤْثِرُونَ عَلىَ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْكانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ و هذا وصفٌ أخر للأنصار و هو أنّهم أي الأنصار كانوا يقدّمون المهاجرين على أنفسهم و هو من قولهم، آثره على نفسه، أي قدّمه و فضّله على نفسه **وَ لَوْكانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ** الخصاصة الحاجة، و واحدها خصاص و أصله الإختصاص بالإنفراد بالأمر و الخصاص الإنفراد عمّا يحتاج إليه و المعنى أنّ الأنصار يقدّمون المهاجرين

على أنفسهم و يفضّلونهم ولو كان بهم أي بالأنصار خصاصة، أي حاجة، و منه قوله تعالى: **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا**(١) و منه قول رسول اللّه للأنصار: **ستلقون بعدي أثرة.**

الأثرة بفتح الهمزة و الثّاء هو الإسم من أثر يؤثّر إيثاراً إذا أعطى أراد أنّه يستأثر عليكم فيفَّضل غيركم في نصيبه من الفيئ و كيف كان لا شكّ أنّ الإيثار فوق السَّخاء و هو من أعلى المقامات لأنّ تفضيل الغير على النّفس صعبٌ جدّاً خصوصاً فيما كان للمؤثر حاجة شديدة و الأخبار من العامّة و الخاصّة في فضل المؤثر كثيرة.

روى القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن أبي هريرة، أنّ رجلاً يأت به ضيف فلم يكن عنده إلاّ قوته و قوت صبيانه، فقال لإمرأته نوّمي الصّبية و أطفئ السّراج و قرّبي الضّيف ما عندك فنزلت هذه الآية.

و عنه أيضاً قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: إنّي مجهود فأرسل ﷺ إلى بعض نسائه فقالت و الّذي بعثك بالحقّ ما عندي إلاّ ماء، ثمّ أرسل الأخرى فقالت مثل ذلك حتّى قلن كلّهن مثل ذلك لا و الّذي بعثك بالحقّ ما عندي إلاّ ماء فقال ﷺ: من يضيف هذا، اللّيلة رحمه اللّه فقام رجل من الأنصار فقال أنا يارسول اللّه فإنطلق به إلى رحله فقال لإمرأته هل عندك شئ قالت لا، إلاّ قوت صبياني قال معلاًّ بهم بشئٍ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السّراج و أريه، إنّا نأكل فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السّراج حتّى تطفئيه قال فقعدوا و أكل الضّيف فلمّا أصبح غدا على النّبي ﷺ فقال ﷺ قد عجب اللّه عزّ و جلّ من صنيعكما بضيفكما اللّيلة إنتهى.

أقول و نقل كثيراً من الأحاديث بهذه المضامين.

١- الاعلى = ١٦

نقل عن إبن عبّاس أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال للأنصار يوم بني النَّضير، إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم و أموالكم و شاركتموهم في هذه الغنيمة و إن شئتم كانت لكم دياركم و أموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئاً فقالت الأنصار بل نقسم لإخواننا من ديارنا و أموالنا و نؤثرهم بالغنيمة فنزلت **وَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ**.

وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ الوقاية الحفظ يقال وقاه اللّه شرَّه أي حفظه من شرَّه و الشُّح بضّم الشّين البخل، و المعنى من حفظ أي منع شحّ نفسه أي منعه عن البخل فأولئك هم المفلحون يوم القيامة أي هم الفائزون بثواب اللّه و نعيم جنَّته.

قال في المفردات الشُّح بخلٌ مع حرصٍ و ذلك فيما كان عادة قال تعالى **وَ أُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ**[١] إنتهى.

و نقل السُّيوطي في الدُّر المنثور في تفسير هذه الآية عن إبن عمر أنّه قال الشُّح أشدَّ من البخل لأنّ الشَّحيح يشُح على ما في يديه فيبخسه و يشُح على ما في أيدي النّاس حتّى يأخذه و أنّ البخيل أنّما يبخل على ما في يديه.

و روى عن جابر بن عبد اللّه أنّه قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول ثلاثٌ من كنَّ فيه فقد بريءَمن الشُّح من أدّى زكاة ماله، و قري الضّيف، و أعطى في النّوائب إنتهى.

و قد نقل في الباب روايات كثيرة أن شئت الوقوف عليها فراجعه.

أقول روي الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسمّى بشواهد التّنزيل بأسناده عن مجاهد أنّه قال: **نزلت الآية في علّيٍ عليه السلام وفاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السّلام)** إنتهى.

١- النّساء = ١٢٨

وَ ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ

لمّا وصف اللّه المهاجرين و الأنصار في هاتين الأيتين و مدحهم بما كانوا مستحقّين به أشار إلى المؤمنين الّذين يجيئون بعدهم إلى يوم القيامة فقال: **وَ ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ** أي بعد المهاجرين و الأنصار و هم جميع التّابعين لهم إلى يوم القيامة، و قيل المراد كلّ من أسلم بعد العصر الأوّل، معناه من جاءك من المهاجرين بعد إنقطاع الهجرة و بعد إيمان الأنصار.

يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ و أنّما يدعون لمن سبق بالإيمان لأنّ اللّه تعالى قال: **وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ**(١) و قد ثبت عقلاً أنّ الفضل لمن سبق، و فيه إشارة إلى أنّ للسّابق حقّ في ذمّة اللاّحق لأنّه أي السّابق صار باعثاً على إرشاد اللاّحق إلى الحقّ مضافاً إلى أنّه تحمّل المشاق في إماتة الباطل و إحياء الحقّ، بل هذا الحكم يجري في جميع الأمور سواءٌ كانت دنيويّة أو أخرويّة ألا ترى أنّ العقلاء يقولون بالفضل لمن سبق في جميع الحرف والصّنائع على غيره في الأمور المهمّة حتّى في الشّعر كما مدح إبن مالك في الفيّته إبن معط حيث قال:

و هو بسبقٍ حائزٌ تفضيلاً   مستوجبٌ ثنائي الجميلا

و إذا كان الأمر على هذا المنوال في الأمور الدُّنيوية العرّفية فما ظنّك بالإيمان الّذي هو بمنزلة البذر لجميع الخيرات ولذلك قال تعالى ما قال و على هذه القاعدة أعني قولهم الفضل لمن سبق، و الأصل فيه قوله تعالى: **وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ** فكلّ من كان أسبق في الإيمان من غيره فهو أفضل فمن أسبق على الكلّ و قد ثبت بالنّقل المتواتر عند العامّة و

١- الواقعة = ١١ / ١٠

الخاصّة أنّ علّى بن أبى طالب عليه‌السلام أوّل من أمن باللّه و رسوله و إذا كان كذلك يجب على جميع المسلمين الدُّعاء له إلى يوم القيامة فأنّ من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق.

فأن قلت من سبق إلى الايمان على غيره فنفعه يرجع إليه لا إلى غيره و بعبارةٍ أخرى الشّكر على الإحسان إلى الغير فمن أحسن إلى غيره يجب عقلاً و شرعاً الشّكر له و عليّ بن أبي طالب أحسن إلى نفسه بسبق الإيمان فلا معنى للشّكر له.

قلت بل أحسن عليه‌السلام إلى غيره بحكم هذه الآية فأنّ السّابق إلى الخير محسنٌ إلى من تبعه فيه و لولا ذلك فما معنى قوله تعالى: **ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** فأنّهم أمنوا و رجع النَّفع إليهم لا إلينا فلم ندعو لهم بالدُّعاء ثمّ كيف مدح اللّه في الآية من يقول: **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا** و حيث أنّ اللّه تعالى مدح الدّاعين و المستغفرين من السّابقين في الايمان علمنا أنّه ثبت لهم بسبب سبقهم الإيمان حقٌّ و هو أنّهم أحسنوا إلينا و أيُّ إحسانٍ أفضل و أشرف منه.

روى الحافظ الحسكاني في الشّواهد التّنزيل في هذه الآية بأسناده عن سلمة إبن الأكوع قال بينما النّبي ببقيع الفرقد و عليٌّ معه فحضرت الصّلاة فمَرَّ به جعفر فقال النّبي ياجعفر صلِّ جناح أخيك فصّلى النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعلّي و جعفر فلمّا إنفتل من صلاته قال يا جعفر هذا جبرئيل يخبرني عن ربّ العالمين أنّه صيَّر لك جناحين أخضرين بالزَّبرجد و الياقوت تغدوا و تروح حيث تشاء قال عليٌّ فقلت يا رسول اللّه هذا لجعفر فمالي، قال النّبي ياعلّي أو ما علمت أنّ اللّه عزّ وجلّ خلق خلقاً من أمّتي يستغفرون لك إلى يوم القيامة قال علّي عليه‌السلام و من هم، يارسول اللّه قال قول اللّه عزّ وجلّ في كتابه المنزل علّي: وَ ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ

اٰمَنُوا و لا تجعل في قلوبنا غلّاً للّذين أمنوا، الآية فهل سبقك إلى الإيمان أحدٌ ياعلّي الحديث بطوله، إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أبي بصير عن عكرمة عن إبن عبّاس قال: فرض اللّه الإستغفار لعلّي عليه السلام فى القرأن على كلّ مسلم قال: و هو قوله: **يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** و هو السّابق إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدَّثني المأمون، قال: حدَّثني الرَّشيد قال: حدَّثني المهدي المنصور عن أبيه عن أبيه عن عبد اللّه بن عبّاس قال: كنت مع علّي بن أبي طالب فمَّر بقومٍ يدعون، فقال عليه السلام: أدعولي، فأنّأه أمرتم بالدُّعاء لي، قال اللّه عز وجلّ: **وَ ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** و أنا أوَّل المؤمنين إيماناً إنتهى[1].

و أمّا قوله: **وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ اٰمَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ** **فالغِلّ** بكسر الغَين الحقد و الغشّ و هذا الكلام من تتمّة الدُّعاء أي أغفرلنا و لهم و لا تجعل في قلوبنا حقداً و غشّاً للّذين أمنوا بك و برسولك أنّك رؤوفٌ أي متعطّفٌ على عبادك و منعمٌ عليهم بالإحسان.

جزء ٢٨

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ

١- شواهد التّنزيل ج ٢ ص ٢٤٩

في هاتين الأيتين أخبر اللّه تعالى عن أحوال المنافقين فقال: **أَلَمْ تَرَ** يامحمّد **إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا** و هم عبد اللّه بن أبي المنافق و أصحابه **يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ** من بني النَّضير و هم الّذين كفروا من أهل الكتاب، لأنّهم كانوا من اليهود و كتابهم التّوراة **لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ** و ذلك أنّ بني النَّضير لمّا رأوا عدم قدرتهم على الحرب رضوا بالخروج و إستمهلوا النّبي عشرة أيّام ليجهّزوا له فدسّ إليهم عبد اللّه إبن أبّي و أصحابه و قالوا لبني النَّضير لا تخرجوا من الحصن فأن أخرجتم من هذه البلاد لنخرجنَّ معكم **وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا** يعنون محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم أي لا نطيعه في قتالكم **وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ** أي أن وقع الحرب بينهم و بينكم **لَنَنْصُرَنَّكُمْ** أي نحن معكم لا معهم **وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** أي و اللّه يشهد و يعلم أنّ المنافقين كاذبون في دعواهم النُّصرة لهم لأنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كما هو شأن المنافق و أنّه أشدّ و أخبث من الكافر يقول بلسانه ما في قلبه و هو الإقرار بالكفر، و هذا بخلاف المنافق الذّي يدّعي الإسلام أو يدَّعي الإعانة و النصرة بلسانه دون قلبه و لذلك قال تعالى: **إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ**(١) و لم يقل ذلك في الكفّار و إلى هذا النّفاق الثّابت في قلوبهم أشار بقوله: **لَئِنْ أُخْرِجُوا** أي بني النَّضير **لَا يَخْرُجُونَ** المنافقون معهم كما ترى أنّهم أعني بني النَّضير أخرجوا من ديارهم ولم يخرجوا معهم **وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ** بل يتركونهم كأنّهم لم يعرفوهم **وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ** أي ينهزمون عن معركة القتال و يخفظون نفوسهم من القتل و السَّبي **ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ** أي لا ينصرون الجميع، إذ لا ناصر لهم لكفرهم و عنادهم و نفاقهم فلا ناصر لهم من الحقّ و لا من الخلق خسر الدُّنيا و الأخرة ذلك هو الخسران المبين ثمّ خاطب اللّه المؤمنين فقال: **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي**

١- النّساء = ١٤٥

صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أي أنّ المنافقين خوفهم منكم أشدّ و أكثر من خوفهم من اللّه تعالى و بعبارةٍ أخرى أنتم أيّها المؤمنون أشدَّ خوفاً في صدور المنافقين و قلوبهم من اللّه ثمّ علّل ذلك بأنّهم قومٌ لا يفقهون أي لا يعلمون و ذلك لأنّهم لو كانوا من أهل الفقه و العلم لعلموا أنّ الخوف الّذي في قلوبهم ممّا ألقاه اللّه فيها، فينبغي أن يخافوا اللّه و لكنّهم لجهلهم و كفرهم باللّه يسندون الخوف إليكم و هم عن اللّه معرضون ولم يعلموا أنّ القلوب بيد اللّه وتحت قدرته لأنّه مقلّب القلوب و الأبصار و هو الّذي يلقي في قلوب الكفّار الرُّعب.

لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّ الكفّار و المراد بهم بنو النَّضير **لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ** يعنى القرى الّتى جعلوا علهيا حصوناً يظنُّون أنّها تمنعهم منكم و أنّما يقاتلون فيها و لا يخرجون منها خوفاً منكم **أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ** هو جمع جدار و هو الحائط أي لا يقاتلونكم إلاّ في حصونهم أو من وراء الحيطان يستترون لجبنهم و قرأ إبن عبّاس و إبن كثير و إبن محيص و أبو عمر و من وراء **جُدُرٍ** (جدارٍ) على التّوحيد لأنّ التّوحيد يؤدّي عن الجمع و كيف كان يدلّ هذا النّوع من القتال على الخوف و الرُّعب و الضَّعف **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ** أي عداوة بعض هؤلاء اليهود لبعضٍ أخر شديدة **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** أي تحسبهم يامحمّد جميعاً كما هو الظّاهر منهم و الحال أنّهم ليسوا كذلك لتشتّت قلوبهم و إختلاف أرائهم و من المعلوم أنّ إختلاف الأراء و العقائد يوجب الوهن و الضَّعف و الفشل و لا سيّما في الحروب **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** فأنّ العاقل يعلم أنّ الإختلاف و تشتت القلوب يوجب الضَّعف كما أنّ الإتّفاق و الإتّحاد في الرّأي يوجب الفتح و الغلبة على الأعداء

و لأجل هذا أمر اللّه المسلمين بالإتّحاد و الإتّفاق و حذّرهم عن الإختلاف فقال تعالى: **وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَ لا تَفَرَّقُوا**[١].

ففي الآية موعظة للمسلمين أيضاً لأنّ اللّه تعالى بيّن فيها علّة ضعف الكفّار و مغلوبيتهم و لا شكّ أنّ وجود العلّة يستلزم وجود المعلول و لا فرق في ذلك بين المسلم و الكافر ألا ترى أنّ المسلمين في زماننا هذا بسبب إختلافهم و تشتُّت أرائهم صاروا مغلوبين مقهورين و الكفّار لإجتماعهم و إتحادهم على الباطل صاروا غالبين آمرين يأمرونهم و ينهونهم بما شاؤا و أرادوا و المسلمون مع كثرة نفوسهم لا يقدرون على دفع الظُّلم عن نفوسهم و أموالهم و أيُّ بلاءٍ أعظم و أصعب منه أتظنّ هذا من العقل أو من الجهل و متابعة الهوى ففي صدر الإسلام كان الكفّار يقاتلون المسلمين من قرىً محصّنة أو من وراء جدرٍ، خوفاً من المسلمين و في زماننا هذا صار الأمر بالعكس فاعتبروا يا أولي الأبصار، ثمّ أنّ اللّه تعاشبهم بمن كان قبلهم من الكفّار.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

إختلف المفسّرون في معنى المراد **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** فقال: إبن عبّاس بني قينقاع، أمكن اللّه منهم قبل بني النّضير.

و قال قتادة يعني بني النّضير أمكن اللّه منهم قبل قريظة و قال مجاهد يعني كفّار قريش يوم بدر، و قيل هو عامّ في كلّ من إنتقم منه على كفره قبل بني النّضير من نوح عليه السلام إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و هو الحقّ إذ لا دليل على التّخصيص بقومٍ خاصّ إلاّ أنّ قوله: **قَرِيبًا** يمكن أن يكون قرينة على إرادة قومٍ أنتقم منهم قبل بني النّضير و كيف كان فالأمر سهل فأنّ حكم الأمثال واحد و لا فرق بين القريب و البعيد بدليل قوله: **ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ** أي ذاقوا جزاء

١- آل عمران = ١٠٣

كفرهم فمن قال هم بنو قريظة جعل **وَبَالَ أَمْرِهِمْ** نزولهم على حكم سعد بن معاذ لأنّه حكم فيهم بقتل المقاتلة و سبي الذُّرية، و من قال، بنو النَّضير، قال المراد و بال أمرهم الجلاء و النّفي، و كان بين النَّضير و قريظة سنتان و كانت وقعة بدر قبل غزوة بنيالنَّضير بستّة أشهر فلذلك قال و **قَرِيبًا** قريباً، **وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** أي و للكفّار عذابٌ مؤلمٌ في الأرخة ثمّ شبَّههم ثانياً بالشّيطان و عملهم بعمله فقال:

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ

هذا ضرب مثلٍ للمنافقين و هم عبد اللّه إبن أبيّ و أتباعه و اليهود في تخاذلهم و عدم الوفاء في نصرتهم و حذف حرف العطف ولم يقل **كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ** لأنّ حذف العطف كثير كما تقول، أنت عالمٌ، أنت عاقلٌ، أنت كريمٌ و هكذا و التَّقدير و أنت عاقلٌ و أنت كريمٌ، و المعنى مثل هؤلاء المنافقين الّذين وعدوا النُّصرة لليهود مثل قول الشّيطان **إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ** باللّه و رسوله و القيامة **فَلَمَّا كَفَرَ** باللّه و رسوله و أنكرهما (قال) الشّيطان له **إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ** البراءة قطع العلقة إلى ما تقتضيه العداوة، فهذه البراءة من الدِّين و المقصود أنّ الشّيطان بعد إضلاله و إغوائه يتركه و يقول إنّي أخاف اللّه ربّ العالمين أي أخاف من عذابه، وكذلك حال شياطين الإنس كالمنافقين الّذين قالوا لبني النَّضير أنّا ننصركم في القتال مع المسلمين و الخروج عن البلاد و هو الجلاء على ما مرَّ بيانه ثمّ تركوهم و لم ينصروهم أصلاً بعد ما أوقعوهم في الهلاك.

روى بعض المفسّرين عن النّبيﷺ أنّ الإنسان الّذي قال له الشّيطان، أكفر راهبٌ تركت عنده إمرأة أصابها لممٌ ليدعوا لها، فزّين له الشّيطان فوطئها فحملت ثمّ قتلها خوفاً أن يفتضح فدَّل الشّيطان قومها على موضعها فجاؤا و إستنزلوا الرّاهب ليقتلوه

فجاء الشّيطان فوعده أنّه سجد له أنجاه منهم فسجد له ثمّ تبرَّأ الشّيطان منه فأسلمه فقتلوه.

و نقل عن إبن عبّاس في قوله: **كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ** كان الرّاهب في الفترة يُقال له برصيصا قد تعَّبد في صومعته سبعين سنة لم يعص اللّه فيه طرفة عينٍ حتّىٰ أعيا إبليس فجمع ابليس مردة الشّياطين ألاّ أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا فقال الأبيض و هو صاحب الأنبياء و هو الّذي قصد النّبي في صورة جبرئيل ليوسوس إليه علىٰ وجه الوحي فجاء جبرئيل فدخل بينهما ثمّ دفعه بيده حتّى وقع أقصى الهند.

فقال أنا أكفيكه فأنطلق فتزيّأ بزيِّ الرُّهبان و حلق وسط رأسه حتّى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه و كان لا ينفتل من صلاته إلاّ في كلّ عشرة أيّام يوماً و لا يفطر إلاّ في كلّ عشرة أيّام و كان يواصل العشرة الأيّام و العشرين و الأكثر فلّما رأى الأبيض أنّه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته فلّما أنفتل برصيصا من صلاتَه رأىٰ الأبيض قائِماً يصلّي في هيئةٍ حسنة من هيئة الرُّهبان، و ساق الحديث إلى أن قال ثمّ جاء الشّيطان و قال لبرصيصا ويحك واقعها فلا تجد مثلها ثمّ تتوب بعد ذلك فلم يزل به حتّىٰ واقعها فحملت و ظهر حملها فقال له الشّيطان ويحك قد أفتضحت فهل لك أن تقتلها ثمّ تتوب فلا تفتضح فقتلها برصيصا و دفنها ليلاً ثمّ جاء الشّيطان إلىٰ إخوتها في المنام فقال أنّ برصيصا فعل بأختكم كذا و كذا و قتلها و دفنها في جبل كذا وكذا فأستفظموا ذلك و قالوا لبرصيصا ما فعلت أختنا فقال ذهب بها شيطانها فأنصرفوا و صدَّقوا قوله ثمّ جاءهم الشّيطان في المنام ثانياً و قال أنّها مدفونة في موضع كذا فأنطلقوا فوجدوها فهدموا صومعته فأنزلوه و خنقوه و حملوه إلى الملك فأقرّ على نفسه فأمر الملك بقتله فلمّا صلب قال الشّيطان أتعرفني قال لا، قالا انا صاحبك أما أتَّقيت اللّه أما إستحييت و أنت أعبد بني إسرائيل

ثمّ لم تكفيك صنيعك حتّى أقررت عليها وفضحت أشباهك من النّاس فقال كيف أصنع قال تطيعني في خصلةٍ واحدة و أنجيك منهم فقال، و ماذاك قال: تسجد لي سجدة واحدة. فقال: أنا أفعل فسجد له من دون اللّه فقال: يا برصيصا هذا أردت منك كان عاقبة أمرك أن كفرت بربّك إنّي بريءٌ منك إنّي أخاف اللّه ربَّ العالمين إنتيه و من أراد الوقوف على تفصيل القصَّة و غيرها من القصص فعليه بتفسير القرطبي[1].

أقول هذه القصَّة و أمثالها ممّا ذكروه في تفاسيرهم لا نعلم صحَّتها واللّه أعلم و لكنّ نعلم أنّ الشّيطان للإنسان عدّوٌ مبين أعاذنا اللّه من شرّه و إلى ذلك أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّالِمِينَ

أي عاقبة الدّاعي و المدعُو و هما الشّيطان و من تبعه.

أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا، لا يخرجون منها أبداً، **ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّالِمِينَ** علىٰ أنفسهم بمتابعتهم الشّيطان و إعراضهم عن الحقّ.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

لمّا بيّن اللّه تعالىٰ أحوال المنافقين أنّهم كمثل الّذين من قبلهم في كونهم مستحقّين للعذاب أو مثلهم مثل الشّيطان في الإضلال خاطب المؤمنين في هذه الآية بالتّقوىٰ.

أوّلاً: فقال **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ** بفعل الطّاعات و ترك المعاصي و ذلك لقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ** وَ أمرهُم بِالمُواظبَة و المراقبة في الأعمال الصّادرة عنهم.

١- ج ١٨ ص ٣٨

ثانياً: فقال: **وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** أتىٰ بصيغة المضارع و مناداه الأمر أي أنظروا إلى أنفسكم و أعمالكم فيما تعملون لغدٍ أي ليوم القيامة من خيرٍ أو شرٍّ فقوله: **وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ** معناه مراقبتها و تفكّرها، فيما يفعل في الدُّنيا، ثمّ أمرهم بالتّقوىٰ ثالثاً و قال: **وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ** أي أنّه تعالىٰ عالمٌ بأعمالكم و لا يخفى عليه شئ فيجازيكم بحسبها على الطّاعات بالثّواب و على المعاصي بالعقاب و بعبارةٍ أخرى **فَأَتَّقُوا اللّه فيما يَعلَمه مِنكُم** فليس ذلك بتكرارٍ.

وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ

قيل معناه نسوا حقّ اللّه فأنساهم حظّ أنفسهم، و قيل نسوا بترك ذكره و شكره و تعظيمّه فأنساهم أنفسهم بالعذاب الّذي نسي به بعضهم بعضاً كما قال تعالى شأنه: **فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ**[١].

أي يسلّم بعضكم على بعضٍ، و قيل معناه، نسوا اللّه عند الذُّنوب فأنساهم عند التّوبة، و قيل معناه نسوا اللّه في الرَّخاء فأنساهم أنفسهم في الشَّدائد و قيل غير ذلك.

أقول و أعلم أنّ هذا الكلام من المعضلات الّتى لا يهتدي إلى فهم معناه إلاّ من نوّر اللّه قلبه بنور الإيمان و درك حقائق العرفان و تفصيل الكلام فيه يستدعي موضعاً آخر فأنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه الأبحاث و لكن ما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه.

فنقول لا شكّ أنّ النَّفس مخلوقة لخالقها الّذي خلقها و أوجدها و هو اللّه تعالى لا غيره فهو تعالى علَّة الإيجاد و ما سواه كائناً ما كان معلولٌ له و هذا ممّا لا كلام فيه ثمّ أنّه قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ العلم بالعلّة يستلزم العلم

١- النُّور = ٦١

بالمعلول كاملاً لأنّ المعلول فيضٌ من إفاضات العلّة و رشحٌ من رشحاتها و أمّا العلم بالمعلول لا يستلزم العلم بالعّلة إلاّ على سبيل الإجمال و النّقص و هذا أيضاً ممّا لا كلام فيه و على هذه القاعدة العقليّة فمن عرف اللّه عرف نفسه كاملاً و من عرف نفسه فقد عرف ربّه إجمالاً و ناقصاً لا كاملاً و الحديث المشهور **من عرف نفسه فقد عرف ربّه** لا يدلّ على أكثر ممّا ذكرناه أي عرف ربّه إجمالاً و أمّا المعرفة الكاملة فلا لأنّها خارجة عن قدرة الخلق و على هذا فمن نسي اللّه نسي نفسه لمّا قلناه من أنّ نسيان العلّة مستلزم لنسيان المعلول كما أنّ العلم بها مستلزم للعلم به كاملاً فثبت و تحقّق أنّ نسيان الرّب يوجب نسيان النّفس الّتى خلقها و هذا معنى قوله: **نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسٰيهُمْ أَنْفُسَهُمْ**.

إن قلت إذا كان الأمر كما ذكرت فلم أضاف اللّه تعالى النّسيان إلى نفسه و قال: **فَأَنْسٰيهُمْ** أي أنّه تعالى أنساهم ولم يقل (نسوا اللّه فنسوا أنفسكم).

قلت لمّا نسى العبد ربّه تركه الرّب و وكله إلى نفسه و من وكله اللّه إلى نفسه فقد هلك من حيث لا يحتسب و صار أسير الشّيطان و فيه خسران الدُّنيا و الآخرة فعبّر عن تركه و نفسه بالإنساء و قال أنساهم اللّه و لذلك أضاف الفعل إلى نفسه كما نسب الإضلال إلى نفسه في قوله: **وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ هٰادٍ**(١) و من المعلوم أنّ اللّه لا يضلّ عبده، و اللّه أعلم.

ثمّ قال تعالى: **أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ** لأنّهم بإختيارهم نسوا اللّه و نسيانهم صار سبباً لنسيان اللّه إيّاهم و فيه خروجٌ عن طاعة اللّه و لا نعني بالفاسق إلاّ الخارج عن طاعة اللّه.

لا يَسْتَوِىٓ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ وَ أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفٰآئِزُونَ

١- الزّمر = ٢٣

أي أنّهما لا يتساويان لأنّ أصحاب النّار دخلوا النّار لعصيانهم و طغيانهم في الدُّنيا و أصحاب الجنَّة دخلوا الجنّة لطاعتهم و إنقيادهم لأوامره و نواهيه و كيف يعقل أن يكون العاصي مساوياً في الرُّتبة و المقام عند اللّه للمطيع المنقاد لا يحكم العقل بذلك أبداً بل العقل حاكم بعدم تساويهما قطعاً كما يحكم بعدم تساوي النُّور و الظُّلمة فالحكم بعدم التّساوي عقليّ محض قبل أن يكون شرعيّاً و قوله: **أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ** أي المقرّبون المكرّمون عند اللّه، كما أنّ أصحاب النّار هم المبعدّون عن جوار قرب الحقّ، و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللّٰهِ وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

المتصدّع المتشقّق و التصدُّع التفرُّق في الأجزاء بعد التّلازم و مثله التفطُّر، و الخشوع الخضوع و الإنقياد و هو ينشأ عن الخوف و الخشية و المعنى **لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ عَلَىٰ جَبَلٍ** أي لو كان الجبل صالحاً لأن ينزل عليه القرأن و شعر به و أنزلناه عليه.

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللّٰهِ أي لرأيت الجبل خاضعاً متشقّقاً أي متّفرقة الأجزاء من خشية اللّه أن يعصيه فيما فيه **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** و يتدبّرون في الأمثال.

إعلم أنّ اللّه تعالى ضرب مثلاً في الآية للكفّار و المنافقين بل لكلّ من لا يتعظ بمواعظ القرأن إلى يوم القيامة و فيه إشارة إلى أمرين:

أحدهما: تعظيم شأن القرأن.

ثانيهما: قساوة قلوب الكفّار وكلّ من لا يؤثّر القرأن في قلبه و إنّما ذكر الجبل لصلابته و إستحكامه فأنّ الجبل ممّا يضرب به المثل في الصّلابة و الإستحكام و عدم التّزلزل و الإضطراب و في الكلام إشارة إلى أنّ قلب الإنسان

بسبب المعاصي قد يصير أقسى و أصلب من الجبل و ذلك لأنّ الجبل لو كان صالحاً لنزول القرأن عليه كان خاشعاً متصدّعاً أى متفرّقة الأجزاء من خشية اللّه بعد نزول القرأن عليه.

و أمّا الإنسان العاصي بعد نزول القرأن عليه و قبله على السّواء من جهة عدم تأثير القرأن فيه و هذا عجيبٌ و قد صرَّح اللّه تعالى بذلك في القرأن:

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**(٢).

و أنّما قال اللّه تعالى ذلك لأنّ الأيات الّتى نزلت في الوعيد و ما أعدَّه اللّه للظّالم الفاسق يوم القيامة من أنواع العذاب، تقشعرّ منه الجلود على الأبدان و مع ذلك تجد كثيراً من الأشخاص أنّهم يتلون هذه الأيات و لا تصير قلوبهم خاشعة من خشية اللّه و هذا القلب لا يختّص بقلب الكافر باللّه و رسوله و أنّ القرأن كلام اللّه بل يعمّ الكافر و المسلم بل نحن نجد في المسلمين من يكون قلبه أشدّ قسوةً من قلب الكافر و ذلك لأنّك لا تجد في الكفّار من كان أقسى قلباً عن معاوية و يزيد و عبدالملك و الحجّاج بن يوسف الثّقفي و امثالهم من بنىأميّة و بنيالمروان و بنيالعبّاس، أتظنّ أنّهم كانوا لا يقرأون القرأن بلى أنّهم قرأوا القرأن فلمّا رأوا أية الوعيد و هي قوله تعالى: **وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**(٣).

قال وليدهم الملعون بعد رميه القرأن بسهامه:

أتــوعدني بــجبّارٍ عــنيدٍ	فــهاأنــا ذاك جــبّارٌ عــنيدُ
إذا مـا جـئت ربّك يـوم حشرٍ	فــقل يــاربّ مــزّقني الوليــد

١- البقرة = ٧٤ ٢- الأنعام = ٤٣
٣- إبراهيم = ١٥

و القصّة مشهورة مسطورة في التّواريخ و الحاصل أنّ قلب الإنسان قد يصير بسبب المعصية أشدَّ قسوةً من الجبل و هو ظاهرٌ.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ

أي أنّ اللّه تبارك و تعالى هو اللّه الّذي يستحقّ أن يعبد لا غيره لأنّـه عـالم بالغيب و الشّهادة أي عالم الأخرة و عالم الدّنيا، أو ما يدرك بالحوّاس لا يدرك بها و هو الرّحمن في الدّنيا و الرّحيم في الأخـرة ولم يـوصف بـهذه الصّفات غيره.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

في هذه الأيات أشار اللّه تعالى إلى بعض أوصافه المختّصة بـه و أخـبر أنّ الخالق المعبود الّذي هو مستّحقٌ للعبادة يكون كذلك و حيث أنّها لا توجد في غيره تعالى فهو الّذي لا إله إلاّ هو و لتوضيح ذلك نقول:

أنّ اللّه تعالى أشار في هذه الأيات إلى بعض أسـمائه الحسـنى الّتى خـفي على أكثر النّاس معناها فلابدّ لنا من التكلّم فيها ولو بطريق الإختصار.

قـال بـعض المـحقّقين الألفـاظ الدالّـة عـلى مسمّاها قسـمان، مـظهرة، و مضمرة، أمّا المظهرة فهي الألفاظ الدالّة على الماهيّات المخصوصة كـالسَّواد و البياض و الحجر و المدر و الأشخاص.

و أمّا المضمرة، فهي الألفاظ الدالّة عـلى المـتّكلم أو المـخاطب أو الغـائب من غير أن تكون دالّة على خصوصيّة ماهيّة ذلك الشّئ و هى ثلاثة: أنا و أنت و هو و أعرفها، أنا، ثمّ أنت، ثمّ هو، و الدّليل على صحّة هذا الترتّيب أنّ تصوّري

نفسي من حيث إنّي، أنا لا يتطرّق إليه الإشتباه فأنّ من المحال أن أصير مشتبهاً بغيري في عقلي، أو يشتبه غيري فيَّ في عقلي و هذا بخلاف، أنت، فأنّه قد يشتبه بغيره و غيره يشتبه به، و أمّا أنت فلا شكّ أنّه أعرف من، هو، لأنّ الحاضر أعرف من الغائب فالحاصل أنّ أعرف من المضمرات هو قولنا (أنا) و أشدّها بعداً عن العرفان هو قولنا (هو) و أمّا (أنت) فكالمتّوسط بينهما و التّأمل التّام يكشف عن صدق ما ذكرناه إنتهى كلامه.

إذا عرفت هذا فإعلم أنّ المعرفة الحاصلة بقوله (أنا) ليست إلاّ للحقّ سبحانه بقي القسمان الأخران و هو قولنا، أنت و هو، أمّا أنت فللحاضرين في مقامات المكاشفات و المشاهدات مثل ما نقل عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال (أنت) كما أثنيت على نفسك، و قال ذو النُّون تحت الظّلمات ماحكى اللّه عنه بقوله:

فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ(١).

و قالت الملائكة: **سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ**(٢).

و قال المؤمنون: **أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ**(٣).

و هذا يدلّ على أنّ حضور العبد مع الرَّب لا يحصل إلاّ مع الغناء عن كلّ ما سوى الحقّ تعالى شأنه و الّذي جاء في هذه الأيات (هو) دون (أنا) فقال تعالى في الآية الأولى: **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** و قال في الثّانية أيضاً: **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** و قال في الثّالثة: **هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ** فهذه اللّفظة كرّرت في هذه الأيات و هكذا لفظة (اللّه) ثمّ ذكر اللّه تعالى من أسمائه (اللّه) و الرّحمن، و الرّحيم، و الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، الباريء، المصوّر، الحكيم، و أنّما كرّر (هو) في الأيات

١- الأنبياء = ٨٧
٢- سَبأ = ٤١
٣- البقرة = ٢٨٦

الثّلاثة و هكذا لفظة (اللّه) دون غيرهما من الأسماء لأنّهما من أشرف الأسماء، و قدَّم (هو) على كلمة (اللّه) لفضله و شرفه على (اللّه)لأنّ الأسماء إمّا أن تكون من باب الأسماء المشتّقة أو من باب أسماء الأعلام أو من باب المضمرات، أمّا المشتّقات فأنّ نفس تصَّورها لا يمنع من الشِّركة و أمّا أسماء الأعلام فقد قالوا أنّها قائمة مقام الإشارة فلا فرق بين قولك (يا أنت) و قولك (ياهو) و إذا كان العلم قائماً مقام الإشارة كان العلم فرعاً و الإشارة أصلاً و الأصل أشرف من الفرع فيلزم أن يكون قولنا (هو) أشرف الأسماء بالكلّية حتّى على إسم (اللّه) و لذلك قدَّمه عليه و قال: **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي** هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الأسماء المشتّقة دالّة على الصّفات و الصّفات لا تعرف إلاّ بالإضافة إلى المخلوقات فالقدرة هي الصّفة الّتى بإعتبارها يصحّ الإيجاد و العلم هو الصّفة الّتى بإعتبارها يصّح الإحكام و الإتقان في الأفعال فهذه الأسماء المشتقّة لا يمكن معرفتها إلاّ مع معرفة المخلوقات و بقدر ما يصير العبد العاقل مشغولاً بمعرفة الغير يصير محروماً عن الإستغراق و معرفة الحقّ.

و أمّا لفظ (هو) فانّه لفظٌ يدلّ عليه من حيث هو هو، و لا حاجة في معرفته إلى الإلتفات بإعتبار حال غيره فهذا اللّفظ يوصلك إلى الحقّ و يقطعك عمّا سواه و سائر الأسماء المشتّقة ليس كذلك فكان لفظ (هو) أشرف المطلوب.

و الدّلائل الدالّة على إثبات المدّعى كثيرة أعرضنا عن ذكرها حذراً عن الإطناب في المقام و لذلك يقال أنّ (هو) إشارة إلى الذّات المحضة في مقام الغيب المطلق أعني به الذّات مع قطع النّظر عن الصّفات و جميع التّعلُّقات فلا يكون هناك إسمٌ و لا رسمٌ و لا صفة و لا موصوف و بالجملة مقام الهويّة المحضّة و سيأتي الكلام في هذا المعنى في سورة التّوحيد عند قوله: **قُل هُو اللّه أَحَد** إن شاء اللّه تعالى.

هذا كلّه في وجه تقديم (هو) على سائر الأسماء، ثمّ تصل النَّوبة بعد (هو) إلى إسم (اللّه) في العظمة و الشَّرف لجامعيّته لأنّه علم على الأصّح للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة و هذه الجامعيّة مختّصةٌ به فجميع الأسماء بعده منطويةٌ فيه و لا يطلق هذا اللّفظ على غيره تعالى، و أمّا الرّحمن، و الرّحيم، فهما أيضاً من أسماء الحقّ فهو الرّحمن إذ هو الّذي وسع كلّ شيءٍ رحمةً فلا رحمن غيره تعالى و هو رحيمٌ بإعتبار كثرة نعمته و قيل أنّ اللّه تعالى هو رحمان الدّنيا و رحيم الأخرة و ذلك أنّ إحسانه في الدّنيا يعُمّ المؤمنين و الكافرين وفي الأخرة يختصّ بالمؤمنين.

الخامس: من الأسماء المذكورة **المَلِك** بفتح الميم و كسر اللاّم، فمن قال أنّ حقيقة الملك عبارةٌ عن التَّصرف جعله من صفات الأفعال و من أنّه القدرة على التَّصرف لولا المانع فهو من صفات الذّات و على التّقديرين لا شكّ أنّه تعالى مالك الملوك فجميع ما سواه ملكٌ له يتصرّف فيه كيف يشاء.

السّادس: **القُدُّوس** بضّم القاف و الدّال المشّددة مشتّقٌ من القدس الطّهارة و لهذا يقال البيت المقدّس أي المكان الذّي يتطهّر فيه من الذّنوب للجنَّة حظيرة القدّس لطهارتها من أفات الدُّنيا و يقال لجبرئيل روح القدس، و على هذا فمعنى القدُّوس فيه تعالى تنزّهه عن العيوب و النّقائص الإمكانيّة كالتّركيب و الجسميّة و الوضع و الجهة و غيرها ممّا لا يليق بشأنه تعالى.

السّابع: السّلام و هو عبارة عن السّلامة و هاهنا إحتمالان:

أحدهما: أن يكون المراد من السّلام في الآية أنّه تعالى ذو السّلام و وصف به مبالغةً في وصف كونه سليماً عن النَّقائص الإمكانيّة و الأفات.

الثّاني: أن يكون المراد من السّلام كونه مطيعاً للسّلامة.

الثّامن: المؤمن و هو فاعلٌ من الإيمان و الإيمان على ما قيل مصدر من فعلين.

أحدهما: أمن بمعنى صدَّق، قال تعالى: **وَ مَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا**[١] أي بمصدّقٍ لنا و على هذا فالإيمان بمعنى التّصديق.

الثّاني: بمعنى الأمان الّذي هو ضدّ الإخافة قال تعالى: **وَ ءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**[٢].

قال بعض أهل اللُّغة الإيمان أصله في اللُّغة هذا المعنى الثّاني و أمّا التّصديق فأنّما سمّي إيماناً لأنّ المتكلّم يخاف أن يكذّبه السّامع فإذا صدّقه فقد أزال ذلك الخوف عنه فلا جرم سمّي التّصديق إيماناً إذا عرفت معنى الإيمان فنقول، أن فسّرنا كونه تعالى مؤمناً بكونه مصدّقاً ففيه وجوهٌ:

الأوّل: أنّه تعالى أخبر عن وحدانيّة نفسه حيث قال: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**[٣] فكان هو الأخبار و هذا التّصديق إيماناً.

الثّاني: معنى أنّه مؤمن أي هو مصدّق أنبيائه بإظهار المعجزة على أيديهم فإظهار المعجزة و أن كان من صفات الفعل و لكنّه دلَّ على أنّه تعالى صدَّق الرُّسل في إدّعائهم الرّسالة فقوله: **مُحَمَّدٌ رسول اللّه** إخبار و تصديقه إيمانٌ.

الثّالث: أنّه تعالى يصدّق عباده فيما وعدهم به من الثّواب في الأخرة و الرِّزق في الدّنيا و غير ذلك من الوجوه هذا إذا قلنا أنّه تعالى مؤمنٌ أي مصدّقٌ.

و أمّا إذا قلنا، أنّه مؤمنٌ بمعنى أنّه مزيلٌ للخوف من عباده في الدُّنيا و الأخرة فهو أيضاً حقٌّ كما لا يخفى على المتأمل بل الحقّ أنّه لا مزيل للخوف إلاّ هو تبارك و تعالى و على هذا فصَّح القول بأنّ اللّه مؤمنٌ بالمعنيين و هو المطلوب.

التّاسع: من الأسماء المذكورة في الآية **المُهَيمن** بضّم الميم و فتح الهاء و سكون الياء و كسر الميم بعدها، و أنّما وصف نفسه به لوجوهٍ:

أحدها: المهيمن هو الشّاهد و منه قول الشّاعر:

أنّ الكتاب مهيمنٌ لنبيّنا و الحقّ يعرفه أولوا الألباب

١- يُوسف = ٢٣ ٢- قُريش = ٤
٣- أل عمران = ١٨

و قال تعالى في كتابه: **وَ أَنْزَلْنآ إِلَيْكَ ٱلْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتابِ وَ مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**(١) أي شاهداً عليه.

الثّاني: قال الخليل المهيمن هو الرّقيب الحافظ و منه قول العرب هيمن فلن على كذا إذا كان محافظاً عليه و لا شكّ أنّ اللّه تعالى خير حافظٍ بعباده قال تعالى: **فَاللّهُ خَيْرٌ حافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرّاحِمينَ**(٢).

الثّالث: قال المبرّد المهيمن الحدب المشفق و إلى هذا المعنى أشار أمّية بن أبي الصّلت حيث قال:

عليك على عرش السّماء مهيمنٌ لعزّته تعنوا الوجوه و تسجد

الرّابع: أنّ المهيمن إسمٌ لمن كان موصوفاً بمجموع صفات ثلاث:

أَحدها: العلم بأحوال الشّيْ.

الثّاني: القدرة التّامة على تحصيل المصالح ذلك الشّيْ.

الثّالث: المواظبة على تحصيل تلك المصالح فالجامع لهذه الصّفات إسمه المهيمن وليس هو إلاّ اللّه العالم القادر الحافظ فهو المهيمن لا غيره.

العاشر: من الأسماء المذكورة (العزيز) و في إشتقاقه وجوه:

أحدَها: أن يكون بمعنى أنّه لا مثل له و لا نظير، من عزَّ الشّيْ بكسر العَين و منه يقال عزَّ الطّعام في البلد إذا تعذّر وجوده عند الطّلب فإذا كان ما يعسر وجدانه عزيزاً فما ظنّك بمن يمتنع عقلاً أن يوجد مثله و نظيره و هو اللّه تعالى.

الثّاني: من الوجوه أن يكون بمعنى الغالب الّذي لا يغلب من عزَّ يعُز، بضَّم العين في المستقبل أي غلب يغلب و منه قوله تعالى: **وَ عَزَّنِي فِى ٱلْخِطابِ**(٣) أي غلبني فإذا قيل لمن غلب من الخلق مع جواز أن يصير مغلوباً، **أنّه عَزيزٌ** فما ظنّك، بالغالب الّذي يمتنع أن يصير مغلوباً و القاهر الّذي يستحيل أن يصير مقهوراً و هو اللّه تعالى فهو العزيز في الحقيقة لا غيره كائناً مَن كان.

١- المائِدَة = ۴۸ ٢- يُوسُف = ۶۴

٣- ص = ۲۳

الحادي عشر: منها **ٱلْجَبَّارُ** بفتح الجيم و تشديد الباء قيل في معناه أنّه المصلح للأمور و على هذا فهو مشتقّ من جبرت الكسر إذا أصلحته و جبرت الفقير إذا أنعمته و كفيته أمره و الجَبّار يفيد الكثرة و المبالغة في هذا المعنىٰ و في الدُّعاء (يا جابر كلّ كسرٍ) و لا يقال هذا الإسم في حقّه تعالى إلاّ مع هذه الإضافة.

قال الفرّاء و الفعل منه، جبر يجبر جبراً و جبراناً.

الثاني: أن يقال أنّه من أجبر يقال أجبره على كذا إذا أكرهه عليه و على هذا فالجبّار في وصف اللّه تعالى هو الَّذي أجبر الخلق على ما أراد و حملهم عليه فلا يجري في سلطانه إلاّ ما يريد و لا يحصل في ملكه إلاّ ما يشاء فهو جبّار السّموات و الأرضين و هذا المعنى أنسب و أليق به تعالى شأنه فأنَّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

الثّاني عشر: **ٱلْمُتَكَبِّر** و هو الَّذي يرى الكُل حقيراً ذليلاً بالإضافة إلى ذاته فلا يرى العظمة و الكبرياء إلاّ لنفسه و ينظر إلى غيره مثل نظر الملوك إلى العبيد فأن كانت هذه الرُّؤية صادقة كان التَّكبر حقّاً و كان صاحبها مصيباً في ذلك التكبّر و لا يتصوّر ذلك على الإطلاق إلاّ في حقّ اللّه سبحانه و تعالى، و لئن كانت تلك الرُّؤية باطلة كان التَّكبر مذموماً باطلاً و لذلك قال رسول اللّه حاكياً عن ربّ العزّة **الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النّار**، فظهر بما ذكرناه أنّ التَّكبر في حقّه تعالى صفة مدح و كمالٍ و في حقّ غيره كائناً من كان صفة نقصٍ و إختلالٍ و لذلك قيل التَّكبر مشتقّ من الكبرياء في اللّغة و الملك و الملك لله الواحد القهّار.

الثّالث عشر: منها **ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ** أمّا أنّه خالق فلاكلام فيه و هكذا الباريْ المصَّور فأنّه تعالى هو الّذي خلق الحبَّة و برأ النَّسمة ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

دهد نطفة را صورتی چون پری   كه كرده است در آب صورتگری

هذا تمام الكلام في شرح هذه الأسماء مع مراعاة الإختصار و أنّما سمّاها الأسماء الحسنى لأنّها لا تطلق على غيره تعالى و حيث أنّ ذاته المقدّسة بريئةٌ من كلّ عيبٍ و شين فلا محالة و من كان كذلك فصفاته و أسمائه أيضاً من أحسن الصّفات و الأسماء لأنّها تابعة لموصوفها في الحسن.

■

سُورَةُ ٱلْمُمْتَحَنَةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ
عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا
بِمٰا جٰآءَكُمْ مِنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَ إِيّٰاكُمْ
أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهٰادًا
فِى سَبِيلِى وَ ٱبْتِغٰآءَ مَرْضٰاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمٰآ أَخْفَيْتُمْ وَ مٰآ أَعْلَنْتُمْ وَ
مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ
يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدٰآءً وَ يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوٓءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحٰامُكُمْ وَ لَآ أَوْلٰادُكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾
قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرٰاهِيمَ وَ ٱلَّذِينَ
مَعَهُۥٓ إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَءٰٓؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ كَفَرْنٰا بِكُمْ وَ بَدٰا بَيْنَنٰا وَ
بَيْنَكُمُ ٱلْعَدٰاوَةُ وَ ٱلْبَغْضٰآءُ أَبَدًا حَتّٰى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ
وَحْدَهُۥٓ إِلّٰا قَوْلَ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مٰآ

أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَىْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَ
إِلَيْكَ أَنَبْنَا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿۴﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنْتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿۵﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَ مَنْ
يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿۶﴾ عَسَى ٱللَّهُ
أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ
مَوَدَّةً وَ ٱللَّهُ قَدِيرٌ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۷﴾ لَا
يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ
تُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿۸﴾ إِنَّمَا
يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ
أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ
أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ
﴿۹﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ مَآ
أَنْفَقُوا وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَآ
آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ
ٱلْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَآ أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا مَآ أَنْفَقُوا
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

﴿١٠﴾ وَ إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى
ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ
مِثْلَ مَآ أَنْفَقُوا وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنْتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ
ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ
شَيْئًا وَ لَا يَسْرِقْنَ وَ لَا يَزْنِينَ وَ لَا يَقْتُلْنَ
أَوْلَادَهُنَّ وَ لَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ
وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ
وَ ٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَآ
أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ
مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

◀ اللّغة

بِالْمَوَدَّةِ: الودّ الحبّ و المودّة المحبّة.

أَرْحَامُكُمْ: الأرحام جمع رحم و الأرحام الأقرباء في النَّسب.

أُسْوَةٌ: بضمّ الألف و فتح الواو الإقتداء و منه التّأسى.

بُرَءٰٓؤُا: بضّم الباء جمع بريئ مثل بخلاء جمع بخيل و فقراء جمع فقير و كرماء جمع كريم و معناه واضح.

تُقْسِطُوا: القسط العدل.

وَ لَا تُمْسِكُوا: بتشدّيد السّين و تخفيفها و هما لغتان و التَّمسك التَّوسل بالغير.

بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ: الكوافر جمع كافرة و العصمة بكسر العين سببٌ تمنع به من المكروه و جمعها عِصَم بكسر العين و فتح الصّاد و الباقي واضح.

◀ الإعراب

تُلْقُونَ حال من ضمير الفاعل في، تتّخذوا، و يجوز فيه الإستئناف يُخْرِجُونَ حال من الضّمير في، كفروا، أو مستأنف وإِيَّاكُمْ معطوف على الرّسول و أَنْ تُؤْمِنُوا مفعولٌ له معمول يخرجون جِهَادًا مصدر في موضع الحال يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ظرف، في إبراهيم، نعتٌ أخر لاسوة أو هو حال من الضّمير في حسنة إِلَّا قَوْلَ هو إستثناء من غير الجنس أَنْ تَبَرُّوهُمْ هو في موضع جرّ، على البدل من الّذين بدل الإشتمال يَفْتَرِينَهُ نعتٌ لبهتان أو حال من ضمير الفاعل في يأتين، و قوله مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ هو حال أي كائنين من أصحاب القبور و يجوز أن يتعلّق بيئس أي يئسوا من بعث أصحاب القبور و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَ مَآ أَعْلَنتُمْ وَ مَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ

لا خلاف بين المفسّرين في أنّ الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة قال في التّبيان لمّا عزم النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم على أن يدخل مكّة بغتةً فسأل اللّه أن يعمي أخبارهم على قريش و منع أحداً أن يخرج من المدينة إلى مكّة فكتب حاطب بن أبي‌بلتعة إلى أهل مكّة يعلمهم بذلك فأوحى اللّه إلى النّبي بذلك فدعا عليّاً

و الزُّبير و قال لهما أخرجا حتّى تلحقا جارية سوداء متوجّهة إلى مكّة معها كتاب فخذاه منها فخرجا حتّى لحقاها فسألاها عن الكتاب فأنكرت ففتّشاها فلم يجدا معها شيئاً فقال الزُّبير إرجع بنا فليس معها شئ فقال عليّ عليه السلام يقول رسول اللّه خذ الكتاب منها و تقول ليس معي شيئاً ثمّ سلَّ سيفه و أقبل عليها و قال و اللّه لئن لم تخرجني الكتاب لأضربنَّ عنقك فقالت له أعرض وجهك عنّي فلمّا أعرض عنها أخرجت الكتاب من بين ضفيرتين لها و سلّمته إليه فلمّا عادا سلّماه إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمر النّبي بأن ينادي بالصّلاة جامعة فإجتمع النّاس فصعد النّبي المنبر و خطب ثمّ قال:

أما إنّي كنت سألت اللّه أن يعمي أخبارنا عن قريش حتّى ندخل مكّة بغتةً و أنّ رجلاً منكم كتب إليهم ينذرهم خبرنا و هذا كتابه فليقم صاحبه فلم يقم أحد ثمّ أعاد ثانياً فلم يقم أحد ثمّ أعاد ثالثاً و قال فليقم و إلاّ فضَّحه الوحي فقام حاطب و هو يرعد و قال يارسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و اللّه ما نافقت منذ أسلمت فقال صلى الله عليه وآله وسلم ما حملك على ذلك فقال أنّ لي بمكّة أهلاً و ليس لي بها عشيرة فأردت أن أتّخذ بذلك عندهم يداً أن كانت الدّائرة لهم فقام عمر بن الخطّاب و قال يارسول اللّه مرني بأن أضرب عنقه فأنّه نافق فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه من أهل بدر ولعلّ اللّه تعالى أطلع إطلاعة فغفر لهم فأنزل اللّه تعالى هذه الآية يخاطب فيها المؤمنين وينهاهم أن يتّخذوا عدوّ اللّه من الكفّار و عدُّو المؤمنين أولياء يوالونهم و يلقون إليهم المودّة إنتهى ما ذكره قدس سره.

أقول قد ذكر القرطبي هذه القصّة في تفسيره عن صحيح مسلم عن عليّ عليه السلام مع إختلاف يسير في بعض الكلمات و الألفاظ و المعنى واحدٌ و قال عن عليّ عليه السلام بعثنا رسول اللّه أنا و الزُّبير و المقداد و كيف كان فالأمر سهلٌ بعد وضوح المراد.

ثمّ نقل بعد ذلك عن القشيري و الثّعلبي أنّ حاطب بن أبي بلتعة كان رجلاً من أهل اليمن و كان له خلفٌ بمكّة في بني أسد بن عبد العزّىٰ رهط الزّبير بن العوام و قيل كان حليفاً للزُّبير بن العوام فقدمت من مكّة سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام بن عبد مناف إلى المدينة و رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يتجّهز لفتح مكّة و قيل كان هذا في زمن الحديبيّة فقال لها رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أمهاجرةً جئت يا سارة فقالت لا، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم أمسلمة جئت قالت لا، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم فما جاء بك قالت كنتم الأهل و الموالي و الأصل و العشيرة، و قد ذهب الموالي (تعني قتلوا يوم بدر) و قد إحتجت حاجةً شديدةً فقدمت إليكم لتعطوني و تكسوني فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فأين أنت عن شباب أهل مكّة، و كانت مغنّية، قالت ما طلب منّي شئ بعد وقعة بدر فحثّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بني عبد المطّلب و بني المطّلب على إعطائها فكسوها و أعطوها و حملوها فخرجت إلى مكّة و أتاها حاطب بن أبي بلتعة و قال لها أعطيك عشرة دنانير و برداً على أن تبلّغي هذا الكتاب إلى أهل مكّة و كتب في الكتاب أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة فنزل جبرئيل فأخبر النّبي بذلك فبعث صلّى الله عليه وآله وسلّم علّياً و الزُّبير و أبامرثد الغنوّي و في روايةٍ علّياً و الزّبير و المقداد و في روايةٍ علّياً و عمّار بن ياسر و ساق الحديث كما مرَّ و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الأية.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بالله و رسوله و ما جاء به من عند الله لَا تَتَّخِذُوا أي لا تختاروا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ و المراد بهم الكفّار فأنّهم أعداء اللّه و أعداء من أمن به فعداوتهم للمؤمنين لأجل إيمانهم باللّه و لذلك قدّم في الكلام عَدُوِّى على عَدُوَّكُمْ أي أنّهم عدُّوي بالذّات لكفرهم بي و عدُّوكم بالعرض لأجل إيمانكم بي و الأولياء جمع ولّي و هو النّاصر و المعين و

المعنى لا تجعلوا الأعداء أولياء لانفسكم لأنّهم لا ينصرونكم أبداً لعداوتهم إيّاكم **تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** الباء زائدة أي تلقون إلى أعداء اللّه بالمحبّة **وَ قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُمْ مِنَ ٱلْحَقِّ** الواو للحال أي و الحال أنّهم كفروا بما أمنتم به.

يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ لمّا حكم اللّه تعالى بعداوتهم للّه و رسوله و المؤمنين إستدلّ على ذلك بقوله: **يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ** أي والدّليل على عداوتهم أنّهم أخرجوا الرّسول و إيّاكم عن مكّة مع أنّكم كنتم من أقربائهم و عشيرتهم **أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ** أي أنّ إخراجهم إيّاكم من دياركم لم يكن إلاّ لأجل إيمانكم باللّه تعالىٰ لا لشئٍ أخر و قيل تقدير الكلام، كراهة أن تؤمنوا باللّه، أي أنّهم كانوا كارهين لإيمانكم و محصلّ الكلام أنّ علّة الإخراج لم تكن إلاّ إيمانكم، فكيف تجعلونهم أولياء لأنفسكم و تنتصرون منهم أنسيتم ما فعلوه من السَّب و الشَّتم و الأذى حتّى أخرجوكم منها.

إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي إن، شرّطية و الجواب مقدّم على الشّرط و المعنى أن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، فلا تتَّخذوا عدُّوي و عدُّوكم أولياء.

تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَ مَآ أَعْلَنْتُمْ والمعنى أيُّ طائلٍ في إسراركم و قد علمتم أنّ الإخفاء و الإعلان سيّان في علمي لا تفاوت بينهما و في هذا الكلام إشارة إلى ما فعله حاطب و أنّه كاتب أهل مكّة سرّاً بزعمه ولم يعلم أنّه لا يخفى على اللّه.

وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ أي من يفعل ذلك عدل عن طريق الحقّ و وقع في الضّلالة.

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَ يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوٓءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ

أي أنّ هؤلاء الكفّار الّذين تجعلونهم أولياء لأنفسكم و تسرُّون اليهم المودَّة و المحبَّة و تكتبون إليهم بما ترضونهم بزعمكم أن يثقفوكم أي أن يظفروا بكم و يتمكّنوا منكم **يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً** فلا تنفعكم ما تلقون إليهم بالمودّة **وَ يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوٓءِ** بسط الأيدي كناية عن الضّرب و القتل و بسط اللّسان كناية عن السبّ و الشّتم جزاءً بما تلقون إليهم بالمودّة فأنّ العداوة الدينيّة لا دواء لها ألا ترى أنّ أتباع هؤلاء الكفّار و أولادهم و ذراريهم لمّا خلبوا على الحقّ بمعونة شياطين الإنس و الجنّ فعلوا بأولاد الرّسول ما فعلوا من الضّرب و القتل و السبّ لأمير المؤمنين و شرّدوا أولاد الرّسول في أكناف الأرض و سبّوا ذراري الرّسول سبي ذراري الكفّار أو أشدَّ منهم و بالجملة لم يرحموهم و فعلوا بهم ما لا يقدر اللّسان عن بيانه و لا القلم عن تحريره.

و أمّا قوله تعالى: **وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** أي و ودُّوا و أحبُّوا مع هذا كلّه، لو تكفرون باللّه و تجحدونه كما جحدوا أي أنّهم لا يقنعون بالضّرب و الشّتم فقط بل يريدون الكفر منكم أي القتل كما أراد يزيد بن معاوية ذلك من الحسين الشّهيد سبط الرّسول فأنّه لعنه اللّه خيَّر الحسين بين القتل و الكفر بما أنزل اللّه فلمّا إختار القتل قتلوه و السّر في ذلك العداوة إذا كانت منشأها الأمور الدُّنيوية فيمكن رفعها و أمّا إذا كانت العداوة دينيّة كعداوة بنيأميّة لبنيهاشم فلا دواء لها إلاّ دخول أحدهما في دين الأخر و هذا ظاهر ثمّ قال تعالى:

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَ لَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ جزء ٢٨

أي إن كان غرضكم من إلقاء المحبَّة إلى الكفّار هو حفظ أرحامكم و أولادكم، فهو لا ينفعكم قطعاً لأنّكم و أرحامكم و أولادكم تموتون و يفصل يوم القيامة بينكم ففريقٌ في الجنّة و فريقٌ في السّعير و بعبارةٍ أخرى هذا الوصال قريباً يتبدّل بالفراق و اللّه لا يخفى عليه شئ ممّا تعملون به.

قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْراٰهِيمَ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَءٰٓؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ كَفَرْنٰا بِكُمْ وَ بَدٰا بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَداٰوَةُ وَ ٱلْبَغْضٰآءُ أَبَدًا حَتّٰىٰ تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُۥٓ إِلاّٰ قَوْلَ إِبْراٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مٰآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنٰا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنٰا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنٰا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ

الأسوَة و الإسوة بضَّم الألف و كسرها كالقدوة و القدوة لغتان، و هى الحالة الّتى يكون الإنسان عليها في إتّباع غيره حسناً كان أو قبيحاً ساراً أو ضارّاً و لذلك وصفها اللّه بالحسنة في الآية يقال تأسّيت به أي إقتديت به و الأسى في الأصل الحزن و حقيقته إتّباع الفائت بالغّم قال اللّه تعالى: **فَلاٰ تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكٰافِرِينَ**(١) أي لا تحزن عليهم و أصله من الواو يقال رجلٌ أسوان أي حزين.

فقوله تعالىٰ: **قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْراٰهِيمَ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ** فيه حثٌّ للمؤمنين و ترغيبهم على ترك موالاة الكفار و أنّ ذلك غير جائز و الإشارة إلى قصّة إبراهيم من بين الأنبياء إمّا لأنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان من ذرّيته و إمّا لأنّ قولهم هذا بقومهم كان مختَّصاً بهم، و يحتمل أن يكون المراد أنّه أي إبراهيم عليه السّلام كان قدوة في التّوحيد و كيف كان معنى الكلام أنّه ينبغي لكم أن تقتدوا في ترك موالاة الكفّار و التّبري منه بإبراهيم الخليل **إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ** من الكفّار و عبدة الأصنام.

إِنّٰا بُرَءٰٓؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ قوله: **بُرَءٰٓؤُا** علىٰ وَزن (فعلاء) بضَّم الفاء و فتح العَين و هو جمع برى و مثله ظريف و ظرفاء و كريم و كرماء و فقير و فقراء و هكذا و المعنى أنّ إبراهيم عليه السلام و من تبعه من المؤمنين قالوا لقومهم الّذين لم يؤمنوا بإبراهيم و كانوا عابدين للأصنام و الأوثان **إِنّٰا بُرَءٰٓؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ** من الأصنام أي إنّا تاركوكُم و تاركوا أصنامكم و كلّ ما تعبدون من دون اللّه.

١- المائدة = ٦٨

كَفَرْنا بِكُمْ و بما تعبدونه **وَ بَدا** أي ظهر **بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ** أي بين المؤمنين و الكفّار **الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ** و ذلك لأنّ الحقّ و الباطل لا يجتمعان **أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** أي أنّ العداوة و البغضاء ثابتة في قلوبنا بالنّسبة إليكم حتّى تؤمنوا باللّه وحده و أنّ غيره لا يستحقّ أن يكون معبوداً كائناً ما كان و إنّما قالوا ذلك لأنّ الحُبّ و البغض في اللّه من شئون المؤمن فهو لا يحب إلاّ من يحبّه اللّه و لا يبغض إلاّ من يبغضه اللّه و لا فرق في ذلك عنده بين الأولاد و الأرحام و غيرهم من النّاس فأنّ الملاك في التّبري و التّولي هو الدّين عند المؤمن باللّه و رسوله.

إِلاّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللّهِ مِنْ شَيْءٍ قال البلخي هذا إستثناءٌ منقطعٌ و معناه لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفّرن لك كان لأجل موعدة أبيه بالإيمان.

قال في الكشّاف فأن قلت ممَّ إستثنى قوله: **إِلاّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ** قلت من قوله **أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** لأنّه أراد بالأسوة الحسنة قولهم الّذي حقَّ عليهم أن يتأسّوا به و يتخّذونه سنّة يستنُّون بها إنتهى كلامه.

و قال القرطبي في قوله تعالى: **إِلاّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** فلا تتأسُّوا به في الإستغفار فتستغفرون للمشركين فأنّه كان من موعدة منه له قاله قتادة و مجاهد و غيرهما و قيل معنى الاستثناء انّ ابراهيم هجر قومه و باحدهم الاّ فى الاستغفار لابيه ثمّ عذره فى سورة التّوبة و فى هذا دلالة على فضل نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على سائر الأنبياء حين أمرنا بالإقتداء به مطلقاً في قوله: **وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[1] و حين أمرنا بالإقتداء بإبراهيم إستثنى بعض أفعاله إنتهى.

أقول و على هذا فالإستثناء متّصل و قيل أنّه منقطع، أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك، أنّما جرى لأنّه ظنَّ أنّه أسلم فلمّا بان أنّه لم يسلم تبرّأ منه

١- الحشر = ٧

و على هذا يجوز الإستغفار لمن يظنّ أنّه أسلم و أنتم لم تجدوا مثل هذا الظّن فلم توالوهم إنتهى هذا ما ذكروه المفسّرون في تفسير الآية. و نحن نقول، قد مرّ الكلام في إبراهيم الخليل فيما مضى مفصّلاً و قلنا إتّفقت كلمة جميع أهل الأديان من اليهود و النّصارى و المسلمين و غيرهم على نبوّته و تعظيمه و جعل النّبوة في صلبه و ذريّته و جعل نبيّنا صلّى الله عليه و آله و سلّم من ولده و نسله:

قال اللّه تعالى: **مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مٰا كٰانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى ٱلنّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ**(١).

و كان الخليل عليه السلام قدورة و معلّماً للخير و إمام هدىً للنّاس من غير معلّمٍ مربٍّ سوى اللّه تعالى و إنفرد في عصره بالتّوحيد و جميع أهل عصره كفرة:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**(٢).

و قد ثبت عند المورّخين و أرباب السّير و يؤيّده الأخبار و الأثار بل الأيات و الأدلّة العقليّة أنّ أباه كان مؤمناً موحّداً و هو (تارخ) و أمّا أزر فهو عمّه و قد يعبّر عن العمّ بالأب في العرب و قد إستدللنا على ذلك بما لا مزيد عليه فلا نطيل الكلام بذكره ثانياً.

و أمّا قوله: **لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** فليس معناه أنّه ظنّ إسلامه فلمّا بان له أنّه لم يسلم تبرّأ منه، كما ذهب إليه الجهّال بل معناه لأستغفرنّ لك لو أسلمت و هذا ممّا لا إشكال فيه و أنّما قلنا ذلك لأنّ الأنبياء معصومون و لا سيّما أولوا العظم منهم و لازم ذلك أن يكون النّبي على يقينٍ في جميع الأمور فلو قلنا أنّه ظنّ إسلامه ثمّ ظهر له عدم إسلامه معناه أنّه أخطأ في ظنّه و الخطأ ينافي العصمة، و هذا أي قوله **لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** لا ينافي شأنه إذ لم يقل لأستغفرّن لك على كلّ

١- أل عمران = ٦٦ ٢- النّحل = ١١٩

حالٍ أي في حال الشِّرك و عدمه حتّى يقال كيف يستغفر النّبي للمشرك، بل قال لأستغفرَنّ لك، على تقدير إسلامك كما إستغفر لكلّ مشرك بعد إسلامه و إيمانه و هذا ممّا لا غبار عليه.

و قوله: **وَ مَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ** معناه أنّ اللّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فأنّ اللّه تعالى هو مالك العبد لا النّبي فالحكم للّه تعالى.

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنَا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ(١) أي عليك توَّكلنا في جميع الأمور و من يتوكّل على اللّه فهو حسبه، و إليك أنبنا، فالإنابة الرّجوع إلى اللّه و قد يعبّر عنها بالتَّوبة، و اليك المصير بعد الموت للحساب و الجزاء إنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

قيل معناه لا تعذّبنا بأيدي الكفّار و لا ببلاءٍ من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحقّ ما أصابهم هذا، و قيل معناه لا تظهر و لا تسَّلط عدوّنا علينا فيظنُّوا أنّهم على حقٍّ فيفتنوا بذلك و أغفرلنا ربّنا ذنوبنا إنّك أنت العزيز الحكيم، أي أنّك قادرٌ على كلّ شيءٍ فالعزيز الغالب الّذي لا يغلب أبداً و ليس هو إلاّ اللّه تعالى، و الّذي يخطر بالبال في معنى الآية هو أنّ أصل الفتنة و الإختبار ممّا لابدّ منه في حقّ جميع البشر:

قال اللّه تعالى: **الٓمٓ، أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَ لَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**(٢).

و الأيات الدالّة على هذا المعنى كثيرة و هذا ممّا لا كلام فيه، ثمّ أنّ الفتنة و الإختبار على قسمين:

١- ممتحنة = ٤

٢- العنكبوت = ٢ و ٣

أحدهما: الإختبار للمؤمنين عند المؤمنين و هذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ المؤمن يعلم أنّ الدّنيا دار البلاء و الإمتحان.

الثّاني: أن يكون للمؤمن للّذين كفروا أي عندهم فأنّهم لعدم إعتقادهم باللّه و أنّ البلاء للواء، يحملون الإبتلاء على غير ما هو عليه فيفتنون بذلك و يزعمون أنّهم على الحقّ لعدم إبتلائهم، و أنّما قلنا ذلك لقوله: **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** فالدُّعاء تعلّق بإختبار المؤمن عند الكافر أو بواسطة الكافر لا مطلقاً و هو من أحسن الدُّعاء.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ

قال في التّبيان أنّما أعيد ذكر الأسوة في الأيتين لأنّ الثّاني معتقدٌ بغير ما إنعقد به الأوّل فأنّ الثّاني فيه بيان أنّه كان أسوة في إبراهيم و الّذين معه و هو لرجاء ثواب اللّه و حسن المنقلّب في اليوم الأخر.

و الأوّل فيه بيان أنّ الأسوة في المعاداة للكفّار باللّه حسنة و إذا إنعقد الثّاني بغير ما إنعقد به الأوّل صارت الفائدة في الثّاني خلاف الفائدة في الأوّل إنتهىٰ كلامه.

أقول و يمكن الفرق بين الأيتين بأنّ الآية الأولى ناظرة إلى التّأسي بإبراهيم و من معه من المؤمنين به في القول بدليل قوله تعالى: **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ**.

و أمّا الآية الثّانية فناظرةٌ إلى التّأسي بإبراهيم و من معه في الفعل بدليل قوله: **لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ** ومن المعلوم أنّ التّأسي قولاً غير التّأسي بالفعل و العمل.

و يحتمل أن يكون المراد بالتّأسي في الآية الأولىٰ كيفيّة المعاشرة مع الكفّار في الدّنيا و إن كانوا من الأقرباء و ذوي الأرحام فينبغي للمؤمن أن لا يظهر المحبّة و المودّة لهم ليعلم الكافر أنّ المؤمن ينظر بنور اللّه و يحبّ للّه و يبغض

للّه و هذا بخلاف الآية الثّانية فأنّ المراد بـها التّأسي بـإبراهـيم و مـن مـعه فـي الإخلاص لا بمجرّد اللّفظ و القول.

و يحتمل أن يكون التّكرار للتّأكيد كما قال بعضهم و أمّا قوله: **وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ** ففيه إشارة إلى أنّ التّأسي و الإقتداء بالأنبياء و الصّلحاء قولاً و فعلاً نفعه عائد إلى الفاعل المتّأسي لا إلى اللّـه تـعالى لأنّ اللّـه تعالى غنيّ بالذّات عن جميع ما سواه لأنّ الإحتياج من شئون الإمكان بـل هـو عينه.

عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ ٱللَّهُ قَدِيرٌ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قيل بسبب الإسلام، أي بأن يسلموا و قد أسلم كثيرٌ منهم بـعد فـتح مكّـة و خالطهم المسلمون، و قيل المراد بالمودّة تزويج النّبي بنت أبي سفيان و أمـثاله فلانت عند ذلك عريكتهم و إسترخت شكيمتهم في العداوة ذكره القرطبي في تفسيره.

و أنا أقول لا شكّ أنّ كثيراً من الكفّار أسلموا في صـدر الإسـلام و حـصلت المودّة بينهم بعد إسلامهم و إيمانهم و بين غيرهم من المؤمنين السّابقتين و أمّا تمثيل القرطبي و أمثاله من العامّة بتزويج النّبي أمّ حـبيبة و أمـثالها و أنّـه صـار باعثاً لمودّة النّبي أبا سفيان و أمثاله غلطٌ فاحش فأنّ تزويج النّبي بناتهم كـانت فيه مصلحة الإسلام و المسلمين ولم تحصل للنّبي مودَّة و محبَّة بالنّسبة إليـهم أصلاً فمن قال أنّ المراد بالمودّة في الآية تزويج النّبي بناتهم إشتبه عـليه الأمـر بالنّسبة إلى شخص النّبي و أمّـا غـيره مـن المسـلمين الّذيـن كـانوا فـي صـدر الإسلام مخالطين معهم، و كانوا جاهلين بنفاقهم و أنّهم لم يـؤمنوا طـرفة عـين فلا يبعد أن تكون المودّة حاصلة لهم هذا كلّه على مذاق القوم و الّذي نقول به أنّ الآية بصدد بيان حكمٍ كلّي في جميع الأزمنة، و معنى الآية أنّ العداوة دينيّةً

كانت أو دنيويّةً لا تبقى على حالها دائماً في الأكثر و هكذا المودَّة و ذلك لأنّهما معلولتان للأمور الدُّنيويّة أو الدِّينية و المعلول تابع لعلّته فالعداوة الدِّينيّة معلولة للكفر و النّفاق و المعصية فإذا بدّل الكفر بالإيمان و النّفاق و العصيان بالصّلاح و السّداد إنتفت العداوة قطعاً و صارت مودَّة و هكذا في العداوة الدُّنيويّة و هذا محسوسٌ و مشهودٌ و إذا كان الأمر على هذا المنوال فالمؤمن يكون على رجاء من ذلك و طمع فيه فينبغي له أن لا يخرج في زمان العداوة من حدود الإنسانيّة كسوء الخلق و السَّب و الشّتم و الظُّلم و بالجملة إيذاء الكافر و الظُّلم عليه فأنّ التّبري عن الكفر و الكافر ليس معناه الظُّلم و الإهانة، لقوله تعالى: **عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ** ربّكم **بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ** من الكفّار، مودَّة و محبَّة بسبب الاسلام كما إذا أسلم الكافر و أنّما نسبه اللّه تعالى إلى نفسه و قال: **عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ** كذا وكذا لأنّ التّوفيق منه تعالى إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الآية لا تختّص بزمانٍ خاصّ و لا بقومٍ خاصّ و أنّما هي بصدد بيان حكم كلّيٍ في جميع الأزمنة و لا ربط لها بتزويج النّبي أمّ حبيبة بنت أبي سفيان و أمثالها من بنات القوم.

و من المعلوم أنّ النّبي كان يلعن أبا سفيان و أمثاله إلى أخر عمره عليه السلام و قوله: **وَ ٱللَّهُ قَدِيرٌ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** معناه أنّ اللّه قادرٌ على ذلك لأنّه مقلّب القلوب و الأبصار و قادرٌ على كلّ شيءٍ فتبديل العداوة بالمودَّة للّه تعالىٰ سهلٌ يسيرٌ و أمّا أنّه غفورٌ رحيمٌ فهو واضح بل نقول لا غفور إلاّ هو و لا رحيم واقعاً إلاّ هو، و من يقدر على غفران الذّنوب غير اللّه تعالى فالكافر الّذي وفَّقه اللّه للخروج عن الكفر و الدّخول في الإسلام يغفر ذنوبه في زمان كفره.

لَا يَنْهَيٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَيٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

قيل أنّ المسلمين إستأذنوا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في أن يبّروا أقربائهم من المشركين و كان ذلك قبل أن يؤمروا بالقتال لجميع المشركين فنزلت هذه الآية وقيل هي منسوخة بقوله تعالى: **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**[١].

وإعلم أنّ اللّه تعالى فرّق بين الكفّار الذّين قاتلوا المسلمين و أخرجوهم من ديارهم و بين من لم يقاتل و قعد في بيته و أن بقي على كفره و بعبارةٍ أخرى فرّق في الحكم بين الكافر المحارب و غير المحارب، و ذلك بعد ما سأل المسلمون النبيّ تكليفهم إلى أقربائهم من الكفّار في الإحسان إليهم و عدمه فقال تعالى في غير المحاربين **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ** أيّها المسلمون **عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ** أي لا ينهاكم اللّه عن الإحسان إلى غير المحاربين من الكفّار و ذلك لأنّهم لم يذنبوا ذنباً أوجب قطع الإحسان إليهم فأحسنوا إليهم.

وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ و القسط العدل و نقل القرطبي عن إبن العربي أنّه قال في تفسير الكلام أي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصِّلة و ليس يريد به من العدل فأنّ العدل واجبٌ فيمن قاتل و فيمن لم يقاتل إنتهى ما نقله عنه.

و أنا أقول ما ذكره إبن العربي ليس بشيءٍ بل هو دليل على جهل إبن العربي باللُّغة أوّلاً و بمعنى العدل ثانياً.

أمّا جهله باللُّغة فهو واضح إذ لم يقل أحد من علماء اللُّغة أنّ الأقساط بمعنى تقسيط الأموال فأنّ كلمة القسط في الأصل هو النّصيب بالعدل و الفرق بين القسط و الإقساط أنّ القسط هو أن يأخذ قسط غيره و الإقساط أن يعطي قسط غيره و ذلك إنصافٌ و لذلك يقال قسط الرّجل إذا جار و أقسط إذا عدل.

١- التّوبة = ٦

قال اللّه تعالى: **وَ أَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**(١).

و قال في الإقساط: **وَ أَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ**(٢).

أي إعدلوا انّ اللّه يحبّ العدول إذا عرفت معنى القسط و الإقساط و الفرق بينهما فنقول أنّ اللّه قال: **وَ تُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ** و ليس معنى العدل أن يعطوهم قسطاً من أموالهم إذ لا يدلّ عليه لفظ الأقساط في اللُّغة و لا العقل المستقيم في الإصطلاح و العرف، و أمّا قوله بل تعليله بأنّ القول واجب فيمن قاتل و فيمن لم يقاتل، فهو كلام صحيح في موضعه و لا ربط له بالمقام فأنّ إثبات الشّئ لا ينفي ما عداه، فأمر تعالى بالأقساط و العدل في غير المحارب ليس معناه أنّ العدل لا يراعي في حقّ المحارب و ذلك لأنّ اللّه تعالى قال: **اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى** و هذا حكمٌ عامّ في حقّ المسلم و الكافر و الأصل في هذا الحكم أنّه أي العدل ممّا حكم العقول بحسنه فهو من المستقلاّت العقليّة كما أنّ العقل يحكم بقبح الظُّلم فالحكم بحسن العدل عقليّ كما أنّ الحكم بقبح الظّلم أيضاً كذلك فما كان حسنه من المستقلاّت العقليّة كيف يجوز عدم مراعاته في حقّ الكافر و الظّالم و الفاسق.

و أمّا إبن‌العربي فأنّه تخيّل أنّ إجزاء العدل في حقّ غير المحارب لازمه إجرائه في حقّ المحارب ولم يعلم أنّ الأحكام العقليّة لا تقبل التّخصيص ففسّر كلام اللّه على خلاف المراد و كم له نظيرٌ في كلماته في كتبه و رسائله كما لا يخفى على ألفاظه فقد تحقّق ممّا ذكرناه في تفسير الآية أنّ الاقساط في حقّ غير المحارب مطابق للأصل و هو إجراء العدل في حقّ من إستحقّه بسبب عدم المحاربة و العدل يقتضي الإحسان إليه.

أمّا الأية الثّانية: الّتى تعلّق النّهي بها فهم الّذين قاتلوا المسلمين و أخرجوهم من ديارهم و اذوهم بأنواع الأذى فقال تعالى فيهم: **إِنَّمَا يَنْهٰيكُمُ**

١- الجن = ١٥ ٢- الحجرات = ٩

ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ الىٰ أخر الأية... و المراد بالنّهي في الأيتين هو قوله تعالى في أية الأولى من السُّورة: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ** و قد أوضح اللّه تعالى كلامه في هاتين الأيتين و بيَّن متعلّق النّهي فقال في هذه الآية **إِنَّمَا يَنْهَيٰكُمُ ٱللَّهُ** و حاصل الكلام فيها أنّ النّهي تعلّق بتَّولي المحاربين الّذين أخرجوكم من دياركم فلا تتَّخذوهم أولياء و لا تلقوا إليهم بالمودّة فأنّهم عدُّوي و عدُّوكم لأنّهم قاتلوكم و أخرجوكم من دياركم و ظاهروا و تعاونوا على إخراجكم **أَنْ تَوَلَّوْهُمْ** أي ينهاكم عن أن تنصروهم و توادُّوهم و تحبُّونهم **وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ** أي ينصرهم و يحبّهم فأولئك هم الظّالمون فأن المعاون على الظُّلم كالظّالم و لذلك يحشر معه يوم القيامة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **من أحبَّ حجراً حشره اللّه معه.**

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ مَآ أَنْفَقُوا وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَآ أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا مَآ أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قيل لمّا أمر المسلمين بترك موالاة المشركين إقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشّرك إلى بلاد الإسلام و كان التّناكح من أوكد الأسباب الموالاة فبيّن اللّه تعالى أحكام مهاجرة النّساء.

قال إبن عبّاس لمّا جرى الصُّلح بين مشركي قريش و بين المسلمين عام الحديبيّة على ما أتاه من أهل مكّة ردّه رسول اللّه إليهم، جاءت سعيدة بنت الحارث الأسلميّة بعد الفراغ من الكتاب و كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبيّة بعد، فأقبل زوجها و كان كافراً و هو صيفيّ بن الرّاهب.

و قال يا محمّد أردد عليّ إمرأتي فأنّك شرطت ذلك و هذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد فأنزل اللّه تعالى هذه الآية و قيل جاءت أمّ كلثوم بنت عقبة إبن أبى معيط فجاء أهلها يسألون رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أن ردّها.

و قيل هربت من زوجها عمرو بن العاص و معها أخوها عمارة و الوليد فردّ رسول اللّه أخويها و حبسها فقالوا للنّبي ردّها علينا للشرط فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم كان الشّرط في الرّجال لا في النّساء فأنزل اللّه تعالى هذه الآية فقال: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا** باللّه و رسوله و اليوم الآخر **إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ** باللّه و رسوله **مُهَٰجِرَٰتٍ** من دار الحرب إلى دار الإسلام **فَٱمْتَحِنُوهُنَّ** أي فأمتحنوا المؤمنات المهاجرات و أختلف المفسّرون في كيفيّة إمتحانّهن على أقوالٍ:

أحدها: ما نقله الطّبري عن إبن عبّاس لمّا سئل عنه، قال كان إمتحان رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يمتحنهن باللّه ما خرجت من بغض زوج و باللّه ما خرجت رغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ و باللّه ما خرجت إلتماس دنيا و باللّه ما خرجت إلاّ حبّاً للّه و رسوله و في روايةٍ أخرى عن إبن عبّاس إمتحانهنّ أن يشهدن أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّداً عبده و رسوله صلّى اللّه عليه و آله.

الثّاني: ما نقله الطّبري أيضاً، عن قتادة أنّه قال يحلفن ما خرجن إلاّ رغبةً في الإسلام و حبّاً للّه و رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم.

الثّالث: ما نقل عن عائشة أنّ إمتحانهنّ بما في الآية الّتى بعدها:

قال اللّه تعالى: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا**(١).

أقول مآل جميع الأقوال إلى قولٍ واحد و هو ما خرجن إلاّ للدّين و رغبةً في الإسلام و حبّاً للّه و لرسوله **ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ** لأنّه عالمٌ بباطنهنّ و ظاهرهنّ و أنتم لا تعلمون إلاّ ظاهرهنّ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى**

١- الممتحنة = ١٢

ٱلْكُفَّارِ أي فأن ظهر لكم بعد إمتحانهنّ أنهنّ مؤمنات حقّاً لا خديعةً و نفاقاً فلا ترجعوهنّ أي فلا تردُّوهن الى الكفّار ثمّ علّل الحكم بقوله: **لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** أي لم يحُل اللّه مؤمنة لكافرٍ و لا نكاح مؤمنٍ لمشركةٍ.

و قال إبن زيد و فرّق بينهما النبيّ و أن لم يطلق المشرك و قيل أنّ النّبي كان شرط لهم ردَّ الرّجال دون النّساء فعلى هذا لا نسخ في الآية و من قال شرط ردَّ النّساء و الرّجال قال نسخ اللّه حكم ردَّ النّساء **وَ اٰتُوهُمْ مَآ أَنْفَقُوا**.

قال إبن عبّاس و قتادة و مجاهد و إبن زيد معناه، أعطوا رجالهم ما أنفقوا من الصِّداق و ذلك من الوفاء بالعهد لأنّ الكافر لمّا منع من أهله بحرمة الإسلام أمر اللّه بردّ المال إليه حتّى لا يقع عليهم خسران من جهتين الزَّوجة و المال **وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَآ اٰتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**(١) أي لا جُناح عَليكُم معاشر المؤمنين أن تنكحوهنّ أي المهاجرات لأنهنّ بالإسلام قد بنّ من أزواجّهن فأنقطعت علقة الزّوجيَّة بينهما فصارت المرأة أجنبيّة بالنّسبة إلى زوجها الكافر فلا مانع من تزويجها بشرط المهر و الصِّداق، و الظّاهر أنّ المراد بالنّكاح في المقام هو معناه العّام الشّامل للدّائم و المنقطع بل هو في المتعة بدليل قوله: **أُجُورَهُنَّ** فأنّ لفظ الأجر لا يستعمل في النِّكاح الدّائم بل يقال الصِّداق و المهر و كيف كان لاشكّ أنّ النّكاح يطلق على الدّائم و المنقطع.

وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ الكوافر جمع لكافرة و **العِصم** بكسر العين و فتح الصّاد جمع عصمة و هو ما أعتصم به و قيل المراد بالعصمة هنا النّكاح.

و قيل العصمة سببٌ تمنع عن المكروه و فيه دلالة على أنّه لا يجوز العقد على الكفرة سواء كانت ذمّيّة أو صربيّة أو عابدة وثن و على كلّ حالٍ لأنّه عامّ في جميع ذلك و ليس لأحدٍ أن يخصّ الآية بعابدة الوثن لنزولها فيهم لأنّ المعتبر بعموم اللّفظ لا بالسّبب قاله الشّيخ في التّبيان و قوله: **تُمْسِكُوا** فقد قرئ بالتّشديد و التّخفيف و هما لغتان.

١- الممتحنة = ١٠

قال بعض المفسّرين من كانت له إمرأة كافرة بمكّة فلا يعقد بها فليست له إمرأة فقد إنقطعت عصمتها لإختلاف الدّارين و عن النّخعي هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وكان الكفّار يتزوّجون المسلمات والمسلمون يتزّوجون المشركات ثمّ نسخ ذلك في هذه الآية **وَسْـَٔلُوا مَآ أَنْفَقْتُمْ** يعني إذا صارت المرأة المسلمة إلى دار الحرب عن دار الإسلام فأسئلوهم أي فإسألوا الكفّار أن يردُّوا عليكم مهورهنّ **وَ لْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنْفَقُوا** أي و ليسأل الكفّار عنكم ما أنفقوا إذا هاجرن من دار الحرب إليكم **ذٰلِكُمْ** يعني ما تقدّم ذكره من الأحكام هو حكم اللّه يحكم بينكم و اللّه عليمٌ حكيمٌ، عليمٌ بجميع الأشياء حكيمٌ بما يفعله هذا تفسير ألفاظ الآية و فيها نقاطٌ و لطائف لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأولى: أنّ عقد الصُّلح في الحديبيّة تضمّن ردَّ الرّجال دون النّساء و قولهم أنّ العقد وقع مطلقاً ثمّ نسخ بالآية لا دليل عليه و ذلك لأنّ المرأة إذا أسلمت فقد بانت من زوجها الكافر و لم تحلّ له و حصلت الفرقة بينهما فلا تردّ عليه لما في ذلك من المفسدة بتمكين الكفرة منها لضعفها وكون المرأة تأخذ من دين بعلها ثمّ نقل أنّ الرّسول صَلَّىٰ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يردّ من الرّجال من ليس له عشيرة يمنعونه عن الظّلمة في دينه و يردّ من كان له عشيرة.

الثّانية: الإمتحان بالنّحو المذكور، و المراد بالعلم بإيمانهنّ هنا ما يشمل الظنّ و لهذا فضّل بقوله: **ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِإِيمٰانِهِنَّ** أي هو المطّلع على السّرائر و العالم بالخفيّات و بحقيقة حالهنّ و أمّا أنتم فقد كلّفتم بما يظهر لكم من إمتحانهنّ تكلّفون العلم بالواقع فإذا حصل لكم العلم بظاهر أحوالهنّ من امتحانهنّ على النّحو المذكور فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار أي يحرم عليكم جبرهنّ على ذلك و الإسعاف على الارباع بل يجب الممانعة و المدافعة عنهنّ و هو يشمل ذوات الأزواج و غيرهنّ و ذلك قطع الوصلة و رفع السُّلطان، و إرجاعهنّ يستلزم الوصل و السُّلطان غالباً بأن يتزوّجوهنّ و يتزوّجنّ منهم كما أشار اللّه بقوله لا هنّ حلّ لهم و لا هم يحلّون لهم، فالتّكرار لبيان أنّه يحرم علىٰ

الكافر التّزويج بالمسلمة إبتداءً و إستدامةً و يكون معاقباً على ذلك عند اللّه و يحرم على المسلمة أيضاً كذلك أي يحرم عليها التّزويج بالكافر إبتداءً و إستدامةً و قيل التّكرار للتّأكيد و المبالغة و رعاية المطابقة و مقتضاها إنفساخ النّكاح بمجرّد الإسلام و لا يحتاج إلى الطّلاق سواءٌ كانت مدخولاً بها أم لا و بذلك قال أبو حنيفة و مع ذلك لا يرى لها عدّة إلاّ أن تكون حاملاً و مذهب أصحابنا أنّه أن كان إسلامها قبل الدّخول إنفسخت الزّوجية في الحال لأنّه لا عدّة لها، و إلاّ توقّف إستقراره على إنقضاء العدّة فلو أسلم الزّوج في أثنائها فهو أحقّ بها هذا في غير أهل الكتاب و أمّا فيهم فأن كان المسلم الزّوجة فالأظهر أنّها كذلك فأن كان الزّوج فالمشهور أنّه على نكاحه.

الثّالثة: مقتضى الآية الرّد على الأزواج ما أنفقوه عليهنّ من المهر و غيره إلاّ أنّ الأصحاب خصّوه نظراً إلى أنّه عوض البضع و قد منع منه فيردّ عليه كما هو مقتضى العدل دون الهبة و النّفقة فأنّه ليس بهذه المثابة و قد وافقنا على ذلك الشّافعي في أحد قوليه، و أنكره أكثر العامّة و حجّتهم أنّ بضع المرأة ليس بمالٍ يدخل في الأمان حتّى يجب ردّه.

و الجواب أنّه إجتهاد في مقابل النّص لأنّه قد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه ردّ مهر من جائت مسلمة في صلح الحديبيّة و إدّعاء النّسخ لم يثبت ما يدلّ عليه مع مخالفته للأصل و ظاهره أنّ الرّد على من جاء بطلبه من الأزواج دون غيرهم من الأباء و الأعمام و الأخوة و نحوهم و ظاهره أيضاً عموم دفع المهر و أن كان من المحرّمات كالخمر وا لخنزير و ألات القمار، إلاّ أنّ الأصحاب خصّوه بالمحلّل فلا يجب أن يدفع إلى الزّوج ما أنفق عليها من المحرّمات و لا قيمته و أن قبضته حال كفرها، و ظاهر الحكم أيضاً دفعه إليه سواءٌ دخل بها أو لم يدخل و المخاطب بالدّفع هم المسلمون فيكون الدّفع من بيت مال المسلمين لأنّه من المصالح للإسلام هذا كلّه في زمن الهدنة و أمّا في غيرها لا يدفع إليه شئ لأنّه حربيّ و ماله فئٌ و حريمه سبي.

الرّابعة: قوله وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ أي بنكاح الكافرات و العصمة ما يتّمسك به من عقد أو ملك في النّكاح و سمّي النّكاح عصمة لأنّها لغةً المنع و المرأة بالنّكاح تكون ممنوعة من غير زوجها و فيها دلالة على عدم جواز نكاح الكافرة مطلقاً حزبيّة و ذميّة دائماً و منقطعاً و بالملك و في كثير من الأخبار دلالة على ذلك.

ففي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ يقول من كانت عنده إمرأة كافرة يعني على غير ملّة الإسلام و هو على ملّة الإسلام فليعرض عليها الإسلام فأن قبلت فهي إمرأته و إلاّ فهي بريئةٌ منه نهى اللّه أن يمسك بعصمتها و تفصيل الكلام في هذه المسائل في الفقه و اللّه أعلم.

وَ إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَآ أَنْفَقُوا وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ

قال المفسّرون معنى الشّيء أحد فكأنّه قال و إن فاتكم أحد منكم أو لا نعلم وجهه فأنّ ظاهر الآية أنّ المراد بالشّيء معناه العامّ الشّامل للإنسان و غيره من الأموال و المعنى و إن فاتكم شيءٌ أيُّ شيءٍ كان من أزواجكم إلى الكفّار و به قال بعض المحقّقين.

قال قدس سره و حاصل المعنى أنّه إذا إنفلت شيء من أزواجكم إلى الكفّار الّذين بينكم و بينهم عهدٌ فأطلبوا الصّداق فأن إمتنع الكفّار، و غزوتم الكفّار عقب ذلك و أصبتم منهم غنيمة فأعطوا الّذين ذهبت أزواجهم الصّداق من الغنيمة.

فقد روي في العلل بسندٍ معتبر عن يونس عن بعض أصحابه عن أبي‌جعفر و أبي عبد اللّه عليهما السّلام، قال قلت رجل لحقت إمرأته بالكفّار و قد قال اللّه عزّ وجلّ في كتابه و إن فاتكم شيءٌ إلى أخر الآية ما معنى العقوبة هاهنا قال عليه السلام: أنّ الّذي ذهبت إمرأته فعاقب

على إمرأة أخرى غيرها يعني تزوّجها فإذا هو تزوّج إمرأة أخرى غيرها فعلى الإمام أن يعطيه مهر إمرأته الّتى ذهبت فسألته كيف صار المؤمنون يردُّون على زوجها المهر بغير فعلٍ منهم في ذهابها و على المؤمنين أن يردُّوا على زوجها ما أنفق عليها ممّا يصيب المؤمنين قال عليه السلام يردُّ الإمام عليه أصابوا من الكفّار أو لم يصيبوا لأنّ على الإمام أن يجبر حاجة من تحت يده و أن حضرت القسمة فله أن يسدّ كلّ نايبةٍ تنوبه قبل القسمة فأن بقي بعد ذلك شيءٌ قسّمه بينهم و إن لم يبق لهم شيئ فلا شيئ لهم إنتهى.

فهذا الخبر يدلّ على أنّ المراد بالمعاقبة في قوله تعالى: **فَعٰاقَبْتُمْ** هي معاقبة زوجة أخرى، و ممّا يدلّ على أنّ المراد بالكفّار في الآية هم أهل العهد.

ما رواه أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال، فأن فاتكم شيءٌ من أزواجكم فلحقنَّ بالكفّار من أهل عهدكم فاسألوهم صداقها و إن لحقن من نسائهم شيئ فأعطوهم صداقها ذلكم حكم اللّه يحكم بينكم.

و نقل بعضهم أنّ المراد بالكفّار الّذين لا عهد بينكم و بينهم و اللّه أعلم بما أراد و لكنّ الظّاهر هو القول الأوّل: **وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** في مراعاة حكم اللّه فلا تخالفوه فأنّ المؤمن باللّه لا يخالف أمره و نهيه و هو ظاهرٌ.

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذٰا جٰاءَكَ الْمُؤْمِنٰاتُ يُبٰايِعْنَكَ عَلىٰ أَنْ لاٰ يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئاً وَ لاٰ يَسْرِقْنَ وَ لاٰ يَزْنِينَ وَ لاٰ يَقْتُلْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ وَ لاٰ يَأْتِينَ بِبُهْتٰانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لاٰ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبٰايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أقول يظهر من كلمات المفسّرين أنّ الآية نزلت بعد فتح مكّة لمّا جاء نساء أهل مكّة يبايعنه فخاطب اللّه تعالى نبيّه و قال له صلّی الله علیه و آله و سلّم: **يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذٰا جٰآءَكَ ٱلْمُؤْمِنٰاتُ** من نساء أهل مكّة بعد إيمانهنّ باللّه و رسوله **يُبٰايِعْنَكَ عَلىٰٓ أَنْ لٰا يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا** من الأصنام و الأوثان و غيرهما **وَ لٰا يَسْرِقْنَ** من أزواجهنّ و لا من غيرهم **وَ لٰا يَزْنِينَ وَ لٰا يَقْتُلْنَ أَوْلٰادَهُنَّ** و ذلك لأنّ أكثر النّساء في عهد الجاهليّة كانوا يزنين و يقتلن أولادهنّ بعد الولادة **وَ لٰا يَأْتِينَ بِبُهْتٰانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ** البهتان الكذب و قيل التُّهمة، و المعنى لا يأتين بكذبٍ أو تهمةٍ يفترينه، أي يكذبنه في مولودٍ يوجد بين أيديهنّ و أرجلهنّ.

و قال إبن عبّاس لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم و عن الفرّاء أنّه قال كانت المرأة تلتقط فتقول لزوجها هذا ولدي منك فذلك البهتان المفترى و قيل البهتان المنهيّ عنه في الآية هو قذف المحصنات و الكذب على النّاس و إضافة الأولاد إلى الأزواج على سبيل البطلان في الحاضر و المستقبل من الزّمان **وَ لٰا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** و هو نقيض المنكر و هو ما دلّ العقل و السَّمع على حسنه و وجوبه أو ندبه.

فَبٰايِعْهُنَّ وَ ٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أي على الشّرائط المذكورة في الآية و هی عدم الشّرك و السّرقة و الزّنا، و قتل الأولاد و البهتان، فبايعهنّ و أطلب من اللّه أن يغفر لهنّ ذنوبهنّ الّتی أتين بها قبل ذلك فأنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ هذا تفسير ألفاظ الآية و في المقام أبحاث لابدّ لنا من الإشارة إليها ولو على سبيل الإجمال توضيحاً لمعنى الآية.

البحث الأوّل: في معنى البيعة، قال في المفردات البيع إعطاء المثمن و أخذ الثمن و الشّراء إعطاء الثّمن و أخذ الثُّمن و يقال للبيع الشّراء و للشّراء البيع و ذلك بحسب ما يتّصور من الثّمن و المثمن و على ذلك قوله تعالى في قصّة يوسف: **وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ**(١).

١- يوسف = ٢٠

و قال في البيعة، و بايع السُّلطان إذا تضمّن بذل الطّاعة له و يقال لذلك بيعة و مبايعة إنتهى.

أقول و على هذا فسميت البيعة بها لأنّ المبايع في الحقيقة يبيع نفسه فالنَّفس هي المثمن و الثّواب و الجزاء يوم القيامة هو الثَّمن فالبيعة في الواقع من مصاديق البيع لأنّ البيع لا يختصّ بالمال و الدّليل على أنّ البيعة هي نوعٌ من أنواع البيع هو قوله تعالى حيث قال:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰلَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرٰيةِ وَ ٱلْإِنْجِيلِ وَ ٱلْقُرْاٰنِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بٰايَعْتُمْ[1].

فالإنسان ببيعته يبيع نفسه و ماله لمن بايعه و لا يجوز له المخالفة لأنّها خلاف عقد البيعة:

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ**.

الثّاني: أنّ البيعة بالمعنى الّذي ذكرناه لا تجوز إلاّ للّه تعالى هو المالك للأنفس و الأموال لا غيره و من المعلوم أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فلا يجوز بيع النَّفس إلاّ لخالقها و من باعها بغيره فقد خسر خسراناً مبيناً بل هو في حدّ الكفر و الإرتداد و الحاصل أنّ هذه المبايعة منحصرة بالعبد و خالقه.

أن قلت فما تقول في بيعة النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

قلت بيعة النّبي في الحقيقة بيعة اللّه بدليل قوله:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبٰايِعُونَكَ إِنَّمٰا يُبٰايِعُونَ ٱللَّهَ**[2].

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ**[3].

۱- التّوبة = ۱۱۱
۲- الفتح = ۱۰
۳- الفتح = ۱۸

و إذا كانت بيعة الرّسول بيعة اللّه و بيعة وصيّي الرّسول أيضاً بيعة اللّه و ذلك لأنّ الرّسول يقول من اللّه لا من نفسه فإذا قال هذا وصيّ و خليفتي عليكم بعدي فمن اللّه قال فالبيعة للوصيّ بيعة للنبيّ و البيعة للنبيّ بيعة للّه ينتج أنّ بيعة الوصّي بيعة اللّه و قد يعبّر عن هذا الإستدلال بقياس المساواة، بأن يقال بيعة الوصيّ مساوية لبيعة الرّسول و هى لبيعة اللّه فبيعة الوصيّ بيعة اللّه المطلوب و نعني بالوصّي من نصّ الرّسول على وصايته و أمّا غيره فهو خارج عن مورد البحث فثبت و تحقّق أنّ بيعة اللّه و رسوله و وصيّ الرّسول واحدة لا فرق فيها، و لا بيعة لنا في الشَّرع غيرها فعلى هذا التّقرير الّذي قررناه و أثبتناه يظهر لك معنى قوله تعالى: **اَلنَّبِيُّ أَوْلٰى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**(١) و ذلك لأنّ المؤمنين لمّا بايعوا الرّسول فقد بايعوا اللّه فباعوا أنفسهم للّه و إشتروا به الجنَّة و البيع للّه هو البيع للرّسول بعينه فالرَّسول أولى بهم من أنفسهم من قبل اللّه لا من قبل نفسه و لا شكّ أنّ اللّه تعالى أولى بالعبد من نفسه لكونه خالقاً و مالكاً لها فهكذا الرّسول نيابةً عن اللّه تعالى و هذه الأوّلوية ثابتةٌ لوصّي الرّسول أيضاً بواسطة الرَّسول فإفهم و إغتنم.

الثّالث: في كيفيّة البيعة، فقيل أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يبايعهنّ من وراء الثّوب، و روي أنّه إستدعى ماءً فوضع يده فيه ثمّ أمر النّساء أن يضعن أيديهنّ فيه مكان ذلك جارياً مجرى المصافحة بأخذ العهد.

و قال القرطبي لمّا فرغ صلى الله عليه وآله وسلم من بيعته الرّجال جلس صلى الله عليه وآله وسلم على الصّفا و معه عمر أسفل منه فجعل يشترط على النّساء البيعة و عمر يصافحهنّ، و روي أنّه كلّف إمرأةً وقفت على الصّفا فبايعتهنّ قاله إبن العربي و قالت أمّ عطيّة لمّا قدم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيتٍ ثمّ أرسل إلينا عمر بن الخطّاب فقام على الباب فسلّم فرددن عليه السّلام فقال: أنا رسول رسول

١- الاحزاب = ٦

اللّه اليكنّ أن لا تشركن باللّه شيئاً فقلن نعم، فمدّ يده من خارج البيت و مددنا أيدينا من داخل البيت ثمّ قال اللّهم أشهد إنتهى.

أقول الصّحيح في كيفيّة البيعة هو الوجهان الأوّلان أعني بهما البيعة من وراء الثّوب أو بوضع اليد في الماء و أمّا الوجوه الّتي ذكرها القرطبي فلا يساعدها العقل و لا النّقل واقع الوجوه ما ذكره من أنّ الرّسول جلس على الصّفا و معه عمر أسفل منه إلى آخر كلامه و لا نعلم أن القرطبي من أين أخذ هذه الأباطيل و ذكرها في كتاب اللّه و سمّاها تفسيراً له ألم يعلم أنّ مصافحة الرّجال النساء الأجنَّبيات من المحرّمات سواء فيها رسول اللّه أو غيره فكيف أمر الرَّسول عمر أن يصافحهنّ و ظاهر الحديث أنّ مصافحة عمر كانت بدون الثَّوب إذ معه لا يحتاج إلى عمر و يجوز للنَّبي و حاصل الكلام أن كان عمر يصافحهن باليد بدون الثَّوب كما هو الظّاهر من نقل القرطبي فقد فعل فعلاً حراماً فأن كان النَّبي أمره به فالمسلم لا يقول به إذ كيف يأمر النَّبي بفعل الحرام و أن كان من وراء الثَّوب فهو جائزٌ للنّبي فلا يحتاج إلى عمر و غيره مع أنّ القرطبي لم يذكر الثَّوب و لا الماء و العجب أنّه أي القرطبي ضعف قول إبن العربي بأنّ الرّسول كلَّف إمرأة وقفت على الصّفا فبايعتهنّ، و قال في كتابه بعد نقله عنه، و ذلك ضعيف و إنّما ينبغي التَّعديل على ما في الصَّحيح، مع أنّ مصافحة المرأة لا إشكال فيها اللّهم إلاّ أن يقال أنّ عمر لم يكن من الرّجال و الرَّسول كان يعلم به و لذلك أمره بالمصافحة معهنّ، و هكذا ما نقله عن أمّ عطيّة و أنّه صلى الله عليه و آله و سلم لمّا قدم المدينة جمع نساء الأنصار في بيتٍ ثمّ أرسل إليهنّ عمر إلى آخر ما قال.

ألم يعلم القرطبي أنّ البيعة وقعت في مكَّة بعد الفتح لا في المدينة هذا أوّلاً:

ثانياً: كيف يعقل جمع نساء الأنصار في بيتٍ اللّهم إلاّ أن يقال أنّ مراده بالبيت بيتٌ بناه الرَّسول لأجل البيعة و هو كان في السِّعة بحيث جمع الرَّسول

جميع النَّساء فيه ثمّ ما معنى قوله فمدّ يده من خارج البيت و مددنا أيدينا من داخل البيت و لأيّ شئٍ مددن أيديهنّ و مدَّ عمر يده أنظر معاشر المسلمين إلى هذه التَّفاسير فأنّها مملوءة من هذه الحكايات بقى في المقام شئٍ و هو ما وجه بيعة النّساء مع أنهنّ لسن من أهل النصرة في المحاربة فنقول نصرة الدّين لا تختصّ بالمحاربة وا لمقاتلة فأنّها شأن الرّجال بل النصرة قد تتحقّق بالعمل بالأحكام فالنَّساء يؤخذ العهد عليهنّ بما يصلح شأنهنّ في الدّين للأنفس و الأزواج و بعبارةٍ أخرى نصرة الدّين حتمٌ على جميع المكلّفين و لا فرق في ذلك بين الرّجال و النّساء لعموم التَّكليف إلاّ أنّ كيفيّة النصرة في الرّجال غيرها في النّساء، فالإختلاف في الكيفيّة لا في أصل النصرة إذ هي واحدة في الجميع.

الرّابع: روي في الكافي في الموثّق عن أبان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لمّا فتح رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مكّة بايع الرّجال ثمّ جاءت النّساء يبايعنه فأنزل اللّه عزَّ و جَلّ هذه الآية، قالت هند أمّا الولد فقد ربّيناهم صغاراً و قتلناهم كباراً و قالت أمّ حكيم بنت الحارث إبن هشام و كانت عند عكرمة بن أبي جهل يا رسول اللّه ما ذلك المعروف الّذي أمرنا اللّه أن لا يعصينك فيه قال صلى الله عليه وآله وسلم لا تلطمن خدّاً و لا تخشنّ وجهاً و لا تنتفنَّ شعراً و لا تشققنّ جيباً و لا تسوّدن ثوباً و لا تدعين بويلٍ فبايعهنّ رسول اللّه على هذا فقالت يا رسول اللّه كيف نبايعك قال صلى الله عليه وآله وسلم إنّني لا أصافح النّساء فدعا بقدحٍ من ماءٍ فأدخل يده ثمّ أخرجها فقال صلى الله عليه وآله وسلم أدخلن أيديكنّ في هذا الماء فهي البعية. و في روايةٍ أخرى و لا يتخلَّفن عند قبرٍ و لا ينشرن شعراً و في وصيّته صلى الله عليه وآله وسلم الفاطمة عليها السلام إذا أنا متُّ فلا تخشى عليّ وجهاً و لا ترخّي عليّ شعراً و لا تنادي بالويل و لا تقيمي عليّ فاتحة ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم هذا هو المعروف الّذي قال اللّه عزّ وجلّ.

و في رواية أخرى و قد سئل عن قوله تعالى و لا يعصينك في معروفٍ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما فرض اللّه عليهنّ من الصّلاة و الزّكوة و ما أمرهنّ به من خيرٍ.

و المراد قتل الأولاد مباشرةً و تسبيباً و لو بشرب الدّواء، و قيل هو إلحاق الولد بزوجها و ليس منه و كانت المرأة تلتقط الولد فتقول لزوجها هذا ولدي و قيل هو أن تحمل به من الزّناء و تنسبه إلى زوجها لأنّ بطنها الّذي يحمله بين يديها كما أنّ فرجها الّذي يقذفه بين رجليها و الظّاهر أنّ المراد الأعمّ من ذلك فيشمل ما تفتريه باليد و الرّجلين و الحيل و الخدائع و اللّه تعالى أعلم.

و إعلم أنّ الأحكام المذكورة في الآية و إن كان نزولها في بيعة النّساء في الصّدر الأوّل إلاّ أنّها لجميع النّساء إلى يوم القيامة و ذلك لأنّ أدلّة الإشتراك في التّكليف تقتضي ذلك كما أنّ جميع الأحكام من الواجبات و المحرّمات أيضاً كذلك لأنّ بيعة الرّجال و النّساء في صدر الإسلام لرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في حكم بيعة الرّجال و النّساء إلى يوم القيامة لما ذكرناه من الإشتراك في التّكليف فأنّ خصوصيّة المورد لا تنافي عموم الحكم فحلاله حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ

خاطب اللّه المؤمنين باللّه و رسوله و نهاهم عن تولّي أعداء اللّه و المغضوب عليهم قيل المراد بهم اليهود و من يجري مجراهم من الكفّار الّذين غضب اللّه عليهم ثمّ وصفهم بأنّهم قد يئسوا من الأخرة قيل الجملة في موضع الحال، أي بإياسهم من الأخرة هم المنافقون، و أنّما يئسوا لأنّهم تركوا العمل للأخرة و أثروا الدّنيا عليها، يئسوا من ثواب الأخرة و معنى كما يئس الكفّار أي الأحياء من الكفّار **مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ** أي يئسوا هؤلاء الكفّار أو المنافقين

من الأخرة كما يئسوا من رجوع أصحاب القبور إليهم، و قيل معناه يئسوا كما يئس الكفّار الّذين في القبور أن يرجعوا إلى الدّنيا.

و محصلّ الكلام في الآية هو حثّ المؤمنين و ترغيبهم على العمل الصّالح و أن يؤثروا الأخرة على الدُّنيا و إن يراعوا التَّولي و التَّبري بالنّسبة إلى أولياء اللّه و أعداء اللّه لقولهم عليهم السّلام و هل الدّين إلاّ الحبّ و البغض و كيف يصلح لمن يدّعي الايمان باللّه و رسوله أن يحبّ أعداء اللّه، ثمّ أنّ اللّه ختم السُّورة بما بدأها من ترك موالاة الكفّار و هى خطاب لحاطب إبن أبي بلتعة و أمثاله فأنّ كفّار قريش قد يئسوا من خير الأخرة كما يئس الكفّار المقبورون من حظّ الأخرة و نعمها.

■

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَ
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللّٰهِ أَنْ
تَقُولُوا مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ
يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيٰانٌ مَرْصُوصٌ
﴿٤﴾ وَ إِذْ قٰالَ مُوسٰى لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي
وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللّٰهِ إِلَيْكُمْ فَلَمّٰا زٰاغُوا
أَزٰاغَ ٱللّٰهُ قُلُوبَهُمْ وَ ٱللّٰهُ لاٰ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفٰاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَ إِذْ قٰالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يٰا
بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمٰا
بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرٰيةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي
مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُٓ أَحْمَدُ فَلَمّٰا جٰآءَهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ
قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرٰى عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعىٓ إِلَى
ٱلْإِسْلٰامِ وَ ٱللّٰهُ لاٰ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٧﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ ٱللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ ٱللّٰهُ مُتِمُّ

نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلٰى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ
تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ
ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَ أُخْرٰى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ
ٱللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا كُونُوٓا أَنْصَارَ ٱللّٰهِ كَمَا قَالَ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِيٓ إِلَى ٱللّٰهِ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللّٰهِ فَاٰمَنَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ
بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَ كَفَرَتْ طَآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ
اٰمَنُوا عَلٰى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١۴﴾

◀ اللّغة

سَبَّحَ: التّسبيح التّنزيه.

ٱلْعَزِيزُ: الغالب الّذي لا يغلب.

مَقْتًا: المقت بفتح الميم و المقاتة مصدران يقال رجل مقيتٌ إذا لم يحبّه النّاس و إن شئت قلت المقيت المبغوض.

مَّرْصُوصٌ: ما بني بالرّصاص.
زَاغُوٓاْ: الزَّيغ الذّهاب من الشّئ بإسراع فيه و الأظهر الذّهاب عن الحقّ.
ٱفْتَرَىٰ: الإفتراء الكذب.
لِيُطْفِـُٔواْ: الإطفاء الإذهاب و المقصود إذهاب نور الإسلام.

◀ الإعراب

أَنْ تَقُولُوا يجوز أن يكون فاعل كَبُرَ أو على تقدير (هو) و أن يكون بدلاً و مَقْتًا تمييز و صَفًّا حال و كذلك كَأَنَّهُمْ و مُصَدِّقًا حال مؤكّدةٌ و العامل فيه رسول مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ حال من الضّمير في بَيْنَ و مُبَشِّرًا حال أيضاً و إسمه أحمد، جملة في موضع خبر نعتاً لرسول أو في موضع نصب حال من الضّمير في يأتي بِالْهُدَىٰ حال من رسول اللّه تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ في موضع جرٍّ على البدل أو في موضع رفع على تقدير هو يغفر لكم، في جزمه وجهان:
أحدهما: أنّه جواب شرطٍ محذوف تقديره، إن تؤمنوا يغفر لكم.
الثّانى: هو جواب لما دلَّ عليه الإستفهام و المعنى هل تقبلون إن دلّتكم وَ أُخْرَىٰ في موضعها ثلاثة أوجه:
أحدها: أنّه نصب على تقدير و يعطيكم أخرى.
الثّانى: أنّه نصب بتحبُّون و المدلول عليه تحبّونها.
الثّالث: موضعها الرَّفع أي و ثمّ أخرى كَمَا قَالَ الكاف في موضع نصب أي أقول لكم كما قال.

◀ التّفسير

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

قد مضى تفسير هذه الآية في أوّل الحشر و الحديد تفصيلاً.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

خاطب اللّه المؤمنين باللّه و رسوله و قال لم تقولون بألسنتكم، ما لا تفعلون ثمّ قال كبر مقتاً، عند اللّه أي غضباً أن تقولوا ما لا تفعلون، أنّ اللّه تعالى يغضب على من قال بلسانه ولم يعمل به و فى الآية إشارة إلى أنّ المؤمن ينبغي له أن يعمل بما يقول.

قال إبن عبّاس قال عبد اللّه بن رواحة، لو علمنا حبّ الأعمال إلى اللّه لعلمناه فلمّا نزل الجهاد تركوه.

و عن محمّد بن كعب أنّه قال لمّا أخبر اللّه تعالى نبيّه بثواب شهداء بدر قالت الصّحابة اللّهم أشهد لئن لقينا قتالاً لنفرغنَّ فيه و سعنا ففرُّوا يوم أحد فعيَّرهم اللّه بذلك في هذه الآية.

و قال إبن زيد نزلت في المنافقين كانوا يقولون بألسنتهم للنّبي و أصحابه أن خرجتم و قاتلتم خرجنا معكم و قاتلنا فلمّا خرجوا نكصوا عنهم و تخلّفوا و الأقوال كثيرة و الجامع بينها هو القول الأخير و هو أنّ الآية نزلت في النّفاق و ذمّه و قبحه و ذلك لأنّ التّقول بالقول و التّخلف بالعمل من شأن المنافق بل هو عينه إذ لا نعين بالنّفاق إلاّ مخالفة القول العمل و على هذا فالآية بصدد بيان حكمٍ كلّي و هو أنّ المؤمن باللّه و رسوله لا ينبغي أن يكون كذلك و يحتمل أن تكونَ الآية إشارة إلى الوفاء بالعهد فأنّ المؤمن إذا وعد وفا بعهده و على هذا فمعنى الآية يا أيّها الّذين تدّعون الإيمان و تقولون نحن مؤمنون فأن كنتم كذلك لم تقولون ما لا تفعلون فأنّ هذا ينافي الإيمان، و لعمري أنّ ما قاله اللّه تعالى حقٌّ في حقّ المسلمين من صدر الإسلام إلى يوم القيامة و ذلك لأنّهم لم يفعلوا بما قالوا و بايعوا عليه النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بل خالفوه في حياته فضلاً عن مماته و الأن أيضاً كذلك و من الّذي عمل بما قال أو يعمل بما يقول من صدر

الإسلام إلى زماننا هذا غير المعصومين من أولاد الرّسول إلاّ ما شذّ و ندر بقدر وسعه و طاقته و أمّا العمل بما قال أو يقول كاملاً فلا نعلم أحداً غير المعصوم و على هذا فأنّ نزول الآية لا يختّص بقومٍ دون قومٍ أو شخصٍ دون شخصٍ بل نقول أنّ اللّه تعالى عيَّر في الآية كلّ من إتّصف بالنّفاق إلى يوم القيامة و هو أي النّفاق و إن شئت قلت مخالفة القول العمل موجود في أكثر المسلمين قلّ أو كثر فثبت و تحقّق أنّ الخطاب في الآية عامٌّ و لا نحتاج إلى ما نقلوه عن إبن عبّاس عن عبد اللّه بن رواحة و أمثاله حيث قال فلمّا نزل الجهاد و تركوه.

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ

البنيان المرصوص البناء المحكم المتلائم الّذي لا خلال فيه شبَّه اللّه تعالى المقاتلين في سبيل اللّه بالبناء الّذي لا خلل فيه في الإستحكام كناية عن إستقامتهم و صبرهم و ثباتهم في الجهاد فهؤلاء الّذين أخبر اللّه أنّه يحبّهم و مفهوم الآية أنّ اللّه لا يحبّ من ليس كذلك كالذّين رجحُوا الفرار على القرار في غزوة أحد و تركوا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بين الأعداء.

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ

أي و إذكر يا محمّد إذ قال موسى إبن عمران لقومه، من بني إسرائيل (لم توذونني) و لا تطيعني فيما أمركم به **وَ قَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ** فأنّ الإنسان العاقل لا يخالف علمه و كانوا يؤذونه فيقولون هذا ساحرٌ كذّاب و يرمونه بالبرص و غير ذلك و يتهمونه بأنواع التُّهم ففي هذه الآية تسليةٌ من اللّه تعالى للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و في إيذاء المشركين إيّاه و أنّه ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام بل هذا دأب أبناء الدّنيا و ديدنهم بالنّسبة إلى جميع الأنبياء و في الإسلام إشارة إلى أنّ مخالفة الحقّ لا يختصّ بالجهّال فقط بل

العلماء الذّين يحبُّون الدّنيا و يؤثّرونها على الأخرة أيضاً يخالفون الحقّ و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئةٍ** و لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل و إلى هذاالمعنى أشار أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة بقوله:

أَمٰا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقمصَّهٰا ابْنُ اَبِى قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلّى مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰى الخ... .

و ذلك لأنّ مخالفة الحقّ من العالم به أقبح و أشنع من مخالفة الجاهل الّذي لا يعرف الحقّ فأنّ الجاهل إذا كان قاصراً فهو معذور لجهله بخلاف العالم إذ لا عذر له و أنّما خصّصنا الجاهل بالقاصر لأنّ المقصّر في حكم العامد إذا كان قادراً على معرفة الحقّ ولم يعرفه ثمّ قال تعالى: **فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ** أي فلمّا مالوا و أعرضوا عن الحقّ بإختيارهم و سوء سريرتهم أزاغ اللّه قلوبهم أي حكم على قلوبهم بالزّيغ و الميل عن الحقّ و لذلك قال: **وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِى اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ** أي لا يحكم لهم بالهداية لأنّهم صدُّوا سبيل الهداية بإختيارهم، و قال بعضهم معنى الكلام، فلمّا زاغوا و أعرضوا عن الإيمان أزاغ اللّه قلوبهم عن الثّواب يوم القيامة.

وَ إِذْ قٰالَ عِيسَى اَبْنُ مَرْيَمَ يٰا بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ إِنِّى رَسُولُ اَللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ اَلتَّوْرٰيٰةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اَسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّٰا جٰآءَهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ

لمّا أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة إلى قصّة موسى إبن عمران و أنّ قومه آذوه و لم يطيعوه حقّ الطّاعة أشار في هذه الآية إلى عيسى إبن مريم الذّي جاء بعد موسى و الغرض من ذكره بعد موسى أنّ الإيذاء من جهّال النّاس بالنّسبة إلى الأنبياء لم يكن مختصّاً بموسى فهذا عيسى إبن مريم إذ قال لبني‌إسرائيل أنّي رسول اللّه إليكم مصدّقاً، نصب على الحال **لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ**

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ أي أنّي لا أنكر رسالة موسى و أنّ التّوراة كتابه الّذي أنزله اللّه عليه و هو الحقّ لا مرية فيه، و مبشّراً أي أنا أبشّركم برسولٍ يأتي من بعدي إسمه أحمد، و هو نبيّنا صلّى الله عليه و آله و سلّم فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أي لمّا جاءهم محمّد كفّار قومه بالبيّنات أي المعجزات قالوا هذا سحرٌ مبين أي واضح، و قيل معنى الكلام لمّا جاء عيسى قومه بالبيّنات و المعجزات قالوا هذا سحرٌ مبين و حاصل الكلام هو أنّ حكم الأمثال واحدٌ.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

من، إستفهاميّة و المراد به التّكبيت أي لا أحد أظلم على نفسه ممّن إفترى على اللّه الكذب، أي من أظلم ممّن نسب الكذب إلى اللّه و حرض عليه و هو يدعى إلى الإسلام، أي و الحال أنّه يدعى إلى الإسلام يعني الإستسلام لأمره و الإنقياد لطاعته، قيل هو متوجّه إلى كفّار قريش و سائره في جميع الكفّار.

و قال بعض المفسّرين هذا تعجّبٌ ممَّن كفر بعيسى و محمّد بعد المعجزات الّتى ظهرت لهما وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ لعدم قابليّتهم للإهتداء إلى الحقّ.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَ ٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ

لمّا حكم اللّه تعالى بأنّه لا يهديهم علّل ذلك بقوله: يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ أي لأنّ الظّالمين لا يريدون إذهاب نور الإسلام فأنّ الإطفاء الإذهاب وَ ٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ أي نور الإسلام رغماً لأنوفهم وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ فأنّ اللّه تعالى قادر على كلّ شيءٍ و لا يقدر أحد على منعه و ردعه عمّا شاء و أراد.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ

أي أنّ اللّه تعالى هو الّذي أرسل رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الخلق بالهدى و دين الحقّ من التّوحيد و إخلاص العبادة له و دين الإسلام تعبد فيه الخلق.

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ قيل و من الإظهار أن لا يبقى دينٌ سوى الإسلام في أخر الزّمان و ذلك إذا نزل عيسى من السّماء لم يكن في الأرض إلاّ الإسلام و قيل معنى ليظهره أي ليطلع محمّداً على سائر الأديان حتّى يكون عالماً بها عارفاً بوجوه بطلانها و بما حرّفوا و غيّروا فيها نقله القرطبي في تفسيره.

و نقل أيضاً عن أبي هريرة أنّه قال ليظهره على الدّين كلّه، بخروج عيسى و حينئذٍ لا يبقى كافرٌ إلاّ أسلم.

أقول فعلى ما ذكره القرطبي يصير معنى الآية أنّ اللّه أرسل رسوله ليطلعه على الأديان و هذا غير معقول و ذلك لقوله تعالى: **بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ** أي أرسله إلى الخلق ليهتدوا به و ليس معنى دين الحقّ أعني به الإسلام أنّ سائر الأديان كانت باطلة فأنّ إثبات الشّئ لا ينفي ماعداه و كيف يعقل بطلان الأديان و المفروض أنّ جميعها من اللّه تعالى نعم لكلّ دين من الأديان مدّة معيّنة و زمانٍ خاصّ إلاّ دين الإسلام فأنّه باقٍ إلى يوم القيامة و قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **حلاله حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك** ولذلك يقال أنّ أحكام الإسلام غير قابل للنّسخ إلى يوم القيامة.

أقول و الّذي ظهر لنا من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام هو أنّ المراد بالنُّور في الآية السّابقة في قوله: **لِيُطْفِؤُا نُورَ ٱللَّهِ** هو الإمام و في بعض أخر هو الولاية و المأل واحد إذ لا نعني بالإمامة إلاّ الولاية و بالعكس و أمّا الإمام بمعناه اللّغوي فلا نقول به.

روى في تفسير نور الثّقلين عن أصول الكافي بأسناده عن أبي الحسن الماضي قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جله يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا

نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ قال عليه السلام: يريدون ليطفئوا نور اللّه ولاية أميرالمؤمنين بأفواههم قلت و اللّه متّم نوره، قال عليه السلام: و اللّه متّم الإمامة لقوله تعالى و الذّين أمنوا باللّه و رسوله و النُّور الّذي أنزلناه فالنُّور هو الإمام و ذكر بقية الحديث في صحفة أخرى من هذا الكتاب و هذا لفظه قال قلت هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ قال عليه السلام: هو الّذي أرسل رسوله بالولاية لوصيّه و الولاية هي دين الحقّ قلت لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ قال عليه السلام: يظهر على جميع الأديان عند قيام القائم، يقول اللّه و اللّه متّم نوره، و اللّه متّم ولاية أميرالمؤمنين ولو كره الكافرون بولاية علّي قلت هذا تنزيل قال نعم إمّا هذا الحرف فتنزيل و أمّا غيره فتأويلٌ الحديث طويلٌ إنتهى ما نقله.

و أيضاً بأسناده عن أبي الحسن قال سألته عن قول اللّه عزّ وجلّ: يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ قال: ليطفئوا ولاية أميرالمؤمنين بأفواههم.

قلت و اللّه متّم نوره قال عليه السلام: يقول اللّه و اللّه متّم الإمامة و الإمامة هي النُّور و ذلك قوله تعالى: فَامِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلنُّورِ اَلَّذِىٓ أَنْزَلْنا[١] فقال النُّور هو الإمام إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم في قوله: يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَ ٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ قال عليه السلام: القائم من أل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا خرج يظهره اللّه على الدِّين كلّه حتّى لا يعبد غير اللّه و هو قوله صلى الله عليه وآله وسلم يملأ الأرض به قسطاً و عدلاً كما ملأت ظلماً و جوراً إنتهى.

١- التّغابن = ٨

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و أنت إذا تأمّلت في قوله تعالى: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ** أي ليظهر الرّسول أو ليظهر الإسلام على الدّين كلّه و المراد بالدّين جميع الأديان لأنّ الدّين مصدر يعبّر به عن جمع و اللاّم فيه للجنس و الجنس يفيد العموم أيضاً و من المعلوم أنّ هذا المعنى لم يتحقّق في حياة الرّسول فما معنى الآية و بعبارةٍ أخرى أخبر اللّه تعالى في هذه أنّ اللّه أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ و هو الإسلام ليظهره أي ليظهر الإسلام على جميع الأديان و هذا معنى ألفاظ الآية.

و لقائلٍ أن يقول من المظهر في هذه الآية فأن كان المظهر هو الرّسول فأنّا نعلم أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مات ولم يظهره على الأديان إلى زماننا هذا و أن كان المظهر هو اللّه فلم لم يظهره في حياة رسوله، و الظّاهر من الآية أنّ المظهر هو الرّسول و على التّقديرين لا شكّ في عدم تحقّق ما أخبر اللّه في الآية من ظهور الدّين على جميع الأديان و حيث أنّ اللّه تعالى أخبر بظهوره على الأديان ولم يظهر إلى الآن فلا محالة يظهر في المستقبل ثمّ أنّ المظهر للدّين في المستقبل إن كان غير أولاد الرّسول سواء كان عيسى إبن مريم أو غيره فهو منافٍ لما أخبره اللّه في الآية لأنّه قال: **أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ** لا غير الرّسول فلو كان المظهر في أخر الزّمان هو عيسى أو غيره لذكره في الآية فلا محالة يكون المظهر من أولاد الرّسول و أوصيائه فأنّ إظهارهم إظهار الرّسول و قد ثبت أنّ أوصياء النّبي و خلفاءه أثنى عشر مضى منهم أحد عشر وصّي ولم يظهروه على الدّين كلّه و بقي فيهم واحداً فلا محالة هو المظهر للدّين و إلى هذا أشار النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله:

لو لم يبق من الدّنيا إلاّ يومٌ واحد لطّول اللّه ذلك اليوم حتّى يخرج من ولدي من إسمه إسمي يملأ اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً بعد ما ملأت ظلماً و جوراً.

و هذا هو الإمام القائم المنتظر سلام اللّه عليه و هو المظهر لدين جدّه على جميع الأديان بل نقول أنّ اللّه تعالى خلقه و جعله وصيّاً و أطال عمره و حفظه من شرّ الأشرار و مجوباً عن الأنظار لأجل ما أخبره في الآية و من أصدق من اللّه قيلاً هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم.

يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

قال بعض المفسّرين نزلت الآية في عثمان بن مظعون و ذلك أنّه قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لو أذنت لي لطلقت خولة و ترّعبت و إختصت و حرّمت اللّحم و لا أنام بليلٍ أبداً و لا أفطر بنهارٍ أبداً فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **أنّ من سنّتي النّكاح و لا رهبّانية في الإسلام أنّما رهبانيّة أمّتي الجهاد في سبيل اللّه و خصاء أمّتي الصّوم و لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ اللّه لكم و من سنّتي أنام و أقوم و أفطر و أصوم فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**. فقال عثمان: واللّه لوددت بانبّي اللّه أيّ التّجارات أحبّ إلى اللّه فأتّجر فيها فنزلت الآية، و كيف كان يقول اللّه تعالى في هذه الآية مخاطباً للمؤمنين **يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** باللّه و رسوله و أقرّوا بتوحيده تعالى و نبوّته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** أي مؤلم موجع قيل صورة الكلام صورة العرض و المراد به الأمر و التّجارة طلب الرّبح في شراء المتاع ثمّ أنّ المتاع قد يكون من الماديّات و قد يكون من المعنويّات و يتبعه الثّمن و الرّبح.

و قوله: **تُنْجِيكُمْ** بالتّخفيف على قراءة المشهور و قرأ إبن عامر مشدّدة الجيم من باب التّفضيل و المعنى واحد.

تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ كأنّه قال قائلٌ وماهذه التّجارة فقال

تعالى الإيمان باللّه و رسوله، و الجهاد في سبيل اللّه بـالمال و النّـفس ثـمّ قـال تعالى ذلكم، أي ما ذكرته لكم **خَيْرٌ لَكُمْ** في الدّنيا و الأخرة إن كنتم تـعلمون، فصار الأشياء و منافعها و خيرها و شرّها شبّه اللّه تعالى الإيمان باللّه و رسوله و الجهاد بالأموال و الأنفس في سـبيل اللّـه بـمنزلة المـبيع و لا عـامل بـه بـمنزلة التّاجر و الثّواب المترّتب العمل بمنزلة الثّمن ثمّ حكم بأنّ هذا الثّواب الّذي هو بمنزلة الثّمن يوجب نجاتكم من العذاب الأليم يوم القيامة و أنّما ذلكم خيرٌ لكم لأنّ الأثمان و الأرباح في الدّنيا لا بقاء لها فأنّـها فـانية و أمّـا الثّـواب فـي الأخرة فليس كذلك و لذلك قال لو كنتم تعلمون ثمّ بيَّن اللّه تـعالى مـا يـعطي العبد من الرَّبح في هذه التّجارة و قال:

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ وَ مَسٰاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّٰاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

أي متى آمنتم باللّه و رسوله و جاهدتم بأموالكم و أنفسكم، يغفر اللّه لكم ذنوبكم، الّتى حصلت لكم بسبب المـعاصي، و يـدخلكم جـنّات تـجري مـن تحتها الأنهار و مساكن طيّبة، لتسكنوا فيها، في جنّات عدنٍ ثمّ حكـم اللّـه بأن ذلك الجزاء و الثّواب هو الفوز و الفلاح العظيم الّذي لا يوازيه نعمة و قيل الفوز النّجاة من الهلاك إلى النَّعيم و الإنصاف إنّ هذه التّجارة مـن أنـفع التّـجارات و أحسنها بل لا يقاس بها شيئ لأنّ المشتري لهذا البيع هو اللّه تعالى و قد إشتراها بأعلى الثّمن.

وَ أُخْرىٰ تُحِبُّونَهٰا نَصْرٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ أخرى معطوفة على تجارة، فهي في محلّ خفضٍ و المعنى و تجارةٌ أخرى، و قيل هى فى محلّ الرَّفع أي و لكم خصلة و تجارة أخرى تحبونّها و هى **نَصْرٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ** و قيل هي بدل من أخرى أي و لكم نصرٌ من اللّه و فتحٌ قريب أي و غنيمةٌ في عاجل

الدّنيا و هو فتح مكّة أو فتح فارس و الرُّوم وَ **بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** بذلك أي بغنيمة الأجل و العاجل.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوٓا أَنْصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ فَآمَنَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَ كَفَرَتْ طَآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ

ثمّ أنّ اللّه تعالى خاطب المؤمنين و أمرهم أن يكونوا من أنصار اللّه أي من أنصار دينه فقال: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا** باللّه و رسوله و اليوم الآخر **كُونُوٓا أَنْصَارَ ٱللَّهِ** أي أنصار دينه الّذي إرتضاهم لكم و هو الإسلام فانصروه بألسنتكم و أموالكم و أنفسكم **كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ** وَ هم خاصّته سمّيت خاصّة الأنبياء حواريّين قيل لأنهّم أخلصوا من كلّ عيبٍ، و قيل لبياض ثيابهم.

و قال إبن عبّاس و كانوا صيّادين للسّمك و قيل كانوا ضالّين و أحسن الأقوال إن الحواريّين خواصّ الرُّسل و أقرب النّاس إليهم في العبودية لا في النّسب و لكلّ نبيّ حواريّ و حواريّ رسول اللّه صلّی الله علیه وآله وسلّم سلمان و أبوذر و المقداد و حذيفة و امثالهم في رأسهم علىّبن أبىطالب هذا عند الخّاصة، و أمّا عند العامّة فهم أبوبكر و عمر و عليّ و طلحة و الزُّبير و سعدبن مالك و أبو عبيدة و إسمه عامر، و أمّا حواريّ عيسى عليه السلام و هم أصفيائه كانوا إثني عشر رجلاً و هم أوّل من آمن به من بنيإسرائيل **فَآمَنَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَ كَفَرَتْ طَآئِفَةٌ** يعني صدّقت بعيسى طائفة منهم و كفرت به طائفة أخرى فأنّ الّتى كفرت هي الّتى قتلت شبيه عيسى و صلبته، و الّتى آمنت هي الّتى قتلت الطّائفة الّتي قتلته و صلبته و إلى ذلك أشار اللّه بقوله تعالى: **فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا** بعيسى **عَلَى عَدُوِّهِمْ** و هم الّذين قتلوا شبيه عيسى **فَأَصْبَحُوا**

ظَاهِرِينَ أي فأصبح المؤمنون ظاهرين أي غالبين على الأعداء فأنّ اللّه تعالى ناظر المؤمنين و خاذل الكافرين الظّالمين.

عن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال أنّ حواريّ عيسى كانوا شيعته و أنّ شيعتنا حواريّ عيسى عليه السلام بأطوع له من حواريّنا لنا و إنّما قال عيسى من أنصاري إلى اللّه قال الحواريّون نحن أنصار اللّه فلا و اللّه ما نصروه من اليهود و لا قاتلوهم دونه و شيعتنا و اللّه لم يزالوا منذ قبض اللّه عزَّ ذكره رسوله ينصرونا و يقاتلون دوننا و يخوّفون و يحرقون و يعذّبون و يشرّدون في البلاد جزاهم اللّه عنّا خيراً.

و قد قال أميرالمؤمنين عليه السلام: و اللّه لو ضربت خيشوم محبيّنا بالسّيف ما أبغضونا، و اللّه لو ادننت إلى مبغضينا و حثوت لهم من المال ما أحبّونا إنتهى.

أقول صدق وليّ اللّه انّ شيعتهم عرفوهم بقدر إستطاعتهم و من عرف الحقّ لا يتّبع الباطل و من عرف النُّور لا يتّبع الظّلمة و السِّر فيه، هو أنّ شيعتهم خلقوا من فاضل طينتهم و لذلك يفرحون لفرحهم و يحزنون لحزنهم.

و قد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأمير المؤمنين عليه السلام يا علّي: أنت و شيعتك الفائزون يوم القيامة و لذلك تقول شيعتهم بلسان الحال أو المقال:

يا أبا حسن لو أنّ حبَّك مدخلي	جهنَّم كان الفوز عندي جحيمها
و كيف يخاف النّار من كان موقناً	بأنّ أميرالمؤمنين قسيمها

■

سُورَةُ ٱلْجُمُعَةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ
ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزيزِ ٱلْحَكيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذى
بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
اٰياٰتِهِ وَ يُزَكّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ
إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ لَفى ضَلالٍ مُبينٍ ﴿٢﴾ وَ اٰخَرينَ
مِنْهُمْ لَمّٰا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْحَكيمُ ﴿٣﴾
ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللّٰهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللّٰهُ ذُو
ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْريٰةَ
ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهٰا كَمَثَلِ ٱلْحِمٰارِ يَحْمِلُ أَسْفٰارًا
بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذينَ كَذَّبُوا بِاٰياٰتِ ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ
لٰا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمينَ ﴿٥﴾ قُلْ يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذينَ
هٰادُوٓا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيٰآءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ
ٱلنّٰاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقينَ ﴿٦﴾ وَ لٰا
يَتَمَنَّوْنَهٗٓ أَبَدًا بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ وَ ٱللّٰهُ عَليمٌ
بِالظّٰالِمينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذى تَفِرُّونَ مِنْهُ
فَإِنَّهُ مُلٰاقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ

ٱلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يٰآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذٰا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ
فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللّٰهِ وَ ذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذٰا قُضِيَتِ ٱلصَّلٰوةُ
فَانْتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَ ٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللّٰهِ وَ
ٱذْكُرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَ إِذٰا
رَأَوْا تِجٰارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوٓا إِلَيْهٰا وَ تَرَكُوكَ
قٰآئِمًا قُلْ مٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَ مِنَ
ٱلتِّجٰارَةِ وَ ٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلرّٰازِقِينَ ﴿١١﴾

◀ اللّغة

أَسْفٰارًا: الأسفار جمع سفر و هى الكتب لأنّها تكشف عن المعنى يقال سفر الرّجل عن عمامته إذا كشف و سفرت المرأة عن وجهها.

بِئْسَ: بكسر الباء من أفعال الذّم يقال بئس الرَّجل زيد.

فَاسْعَوْا: أي فاسعوا و ذروا البيع، أي أتركوا البيع يقال ذرهم أي أتركهم.

فَانْتَشِرُوا: أي تفرَّقوا.

وَ ٱبْتَغُوا: الابتغاء الطَّلب.

ٱنْفَضُّوٓا: الإنفضاص التَّفرق و التَّشتت.

◀ الإعراب

ٱلْمَلِكِ و ما بعده بالجرّ على النَّعت و بالرَّفع على الإستئناف ٱلْقُدُّوسِ بضمّ القاف و فتحها و هما لغتان اٰخَرِينَ هو في موضع جرّ عطفاً على الأيتين و

يحمل في موضع الحال من الحمار و العامل فيه معنى المثل **بِئْسَ مَثَلُ** مثل هذا فاعل بئس (و في الّذين) في موضع جرَّ تبعاً للقوم، و المخصوص بالذّم محذوف أي هذا المثل، و قيل هو في موضع رفع تقديره بئس مثل القوم مثل الَّذين، فمثل المحذوف هو المخصوص بالذّم و قد حذف و أقيم المضاف إليه مقامه **فَإِنَّهُ مُلٰاقِيكُمْ** الجملة خبر، أن، من يوم الجمعة من بمعنى في، و الجمعة بضمّتين و بإسكان الميم مصدر بمعنى الإجتماع **إِلَيْهٰا** أنّما أنث الضَّمير لأنّه أعاده إلىٰ التّجارة و لأنّها كانت أهمّ عندهم.

◀ التّفسير

يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِي ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ

قد مضى تفسير هذه الآية غير مرّةٍ و بينّا وجه التّكرار فيها و خلاصة المعنى أنّ جميع ما في السّموات و الأرض من المخلوق يسبّح و ينزّه اللّه تعالى عمّا لا يليق به و هو المالك المستحقّ للتعظيم بتظهير صفاته اللّه الّذي لا يغلب يفعل ما يشاء على وفق الحكمة و المصلحة.

هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيٰاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ

أي أنّ اللّه الموصوف بالصّفات المذكورة في الآية الشّريفة هو الّذي بعث، و أرسل في الأمّيين، و هم المنسوبون بأمّ القرى يعني أهل مكّة، الأميّون العرب، و الأمّي منسوبٌ إلى أنّه ولد من أمّه لا يحسن الكتابة.

و قال إبن عبّاس العرب كلّهم أميّون من كتب منهم و من لم يكتب لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب و قيل الأميّ الّذي يقرأ و لا يكتب و قد مضى الكلام فيه في

سورة البقرة: **رَسُولاً مِنْهُم** يعني محمّداًﷺ و قوله: **مِنْهُمْ** أي من العرب قيل ما من حيّ من العرب إلاّ و برسول اللّه فيهم قرابة و قد ولدوه.

قال إبن إسحاق إلاّ حيّ تغلب، فأنّ اللّه طهّر نبيّه منهم لنصرانيّتهم فلم يجعل لهم عليه ولادة قال و كان رسول اللّه أميّاً لم يقرأ من كتاب اللّه ولم يتعلّمﷺ من أحد.

نقل القرطبي عن الماوردي أنّه قال.

فأن قيل ما وجه الإمتان في أن بعث نبيّاً أميّاً فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: لموافقته ما تقدَّمت بشارة الأنبياء به.

الثّاني: لمشاكلة حاله أحواله فيكون أقرب لموافقتهم.

الثّالث: لينتفي عنه سوء الظنّ في تعليمه ما دعى إليه من الكتب الّتى قرأها و الحكم تلاها.

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيَاتِهِ يعني القرأن **وَ يُزَكِّيهِمْ** قيل معناه يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان و قيل يطهّرهم من دنس الكفر و الذّنوب و قال السُّدي، يأخذ زكوة أموالهم.

أقول التَّزكية تطهير القلب عن الأدناس و الأرجاس من الكفر و الحسد و البخل و امثال ذلك فالتَّزكية بمنزلة الماء الّذي به تطهير الأشياء عن النّجاسة و قد يعبّر عنها، بعلم الأخلاق **وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ** قيل معناه يعلّمهم القرأن و السّنة.

و عن إبن عبّاس أنّ المراد بالكتاب الخطّ بالقلم قال لأنّ الخطّ نشأ في العرب بالشّرع لمّا أمروا بتقييده بالخطّ و قال مالك إبن أنس الحكمة الفقه في الدّين.

وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ أي و أن كانوا من قبل البعث لفي ضلالٍ واضح و المراد عهد الجاهليّة فأنّ العرب كانت في عهد الجاهليّة

خارجةٌ عن حدود الإنسانيّة بالكليّة كما شهدت به التّواريخ و قد تكلّمنا فيما مضى في هذا الباب في سورة البقرة و غيرها فلا نعيد الكلام بذكره حذراً عن الإطناب.

وَ ءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

قوله: **وَ ءَاخَرِينَ** عطفٌ على الأميّين أي هو الّذي بعث في الأميّن و بعث في أخرين منهم.

قال إبن زيد و مجاهد هم كلّ من بعد الصّحابة إلى يوم القيامة فأنّ اللّه تعالى بعث النّبي منهم و شريعته تلزمهم و أن لم يلحقوا بزمانٍ الصّحابة و ذلك لأدلّة الإشتراك في التّكليف فأنّ حلاله حلال إلى يوم القيامة و حرامه حرامٌ إلى يوم القيامة و قد ختم اللّه النّبوة بنبوّته و الشّرائع بشريعته فلا دين بعد الإسلام إلى يوم القيامة و لازم ذلك متابعة جميع النّاس عن دينه و شريعته:

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**(١).

فقوله: **لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ** أي لم يكونوا في زمان الصّحابة و سيجيئون بعدهم.

نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن صحيح البخاري و مسلم عن أبي هريرة قال كنّا جلوساً عند النّبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة فلمّا قرأ ﷺ وَ ءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ قال رجلٌ من هؤلاء يارسول اللّه فلم يراجعه النّبي ﷺ حتّى سأله مرّةً أو مرّتين أو ثلاثاً قال و فينا سلمان الفارسي قال فوضع النّبي يده على سلمان ثمّ قال لو كان الإيمان عند الثُّريا لناله رجال من هؤلاء.

١- آل عمران = ٨٥

و في روايةٍ لو كان الدّين عند الثُّريا لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس حتّى يتناوله إنتهى.

و روى إبن سعد السّاعدي أنّ النّبي قال: أنّ في أصلاب أمّتي رجالاً و نساءً يدخلون الجنّة بغير حسابٍ ثمّ تلا هذه الآية وَ ءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

قيل يعني إرسال الرّسول فضل اللّه و هو نعمة يعطيه من يشاء من خلقه بحسب ما يعلمه من صلاحه و سداده في تحمّل أبناء الرّسالة.

و قال إبن عبّاس حيث ألحق العجم بقريش أي ذلك الإلحاق فضل اللّه، و قيل ذلك إشارة إلى الإسلام الّذي جاء به النّبي يعني الإسلام فضل اللّه يؤتيه من يشاء قاله الكلبي.

و قيل يعني الوحي و النّبوة قاله مقاتل و قيل المال ينفق في الطّاعة

أقول الحقّ أنّ ذلك في الآية إشارة إلى بعث الرّسل و هو الّذي مرَّ ذكره فالمعنى أنّ إختيار الرّسول من بين النّاس و إرساله لهداية الخلق من فضل اللّه على عباده و هو عبارة أخرى عن قاعدة اللُّطف و أنّ اللّه تعالى لطيفٌ بعباده، فأنّ فضله عظيمٌ لا نهاية له و حيث أنّه تعالى حكيمٌ عليمٌ فلا يفعل إلاّ ما تقتضيه الحكمة و أنّه على وفق المصلحة و منشأ ذلك رأفته و رحمته وجوده كما ورد «يادائم الفضل على البّرية».

روي أنّ فقراء المهاجرين أتوا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا ذهب أهل الدُّثور بالدّرجات العلا و النّعيم المقيم فقال صلى الله عليه وآله وسلم و ما ذاك قالوا يصلّون كما نصلّي و يصومون كما نصوم و يتصدّقون كما نتصدّق، و يعتقون و لا نعتق فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقتم و تسبقون به من بعدكم و لا يكون أحد

فضل عليكم إلاّ من صنع مثل ما صنعتم قالوا بلى يارسول اللّه فقال ﷺ: تسبّحون و تكبّرون و تحمدون دبر كلّ صلاةٍ ثلاثاً و ثلاثين مرّةً ففعلوا ذلك.

فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول اللّه و قالوا نسمع إخواننا أهل الأموال ففعلوا مثل ما فعلناه فقال رسول اللّه ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء نقله القرطبي في تفسيره.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ

حُمّلوا بضّم الحاء و كسر الميم المشدّدة و ضّم اللاّم بعدها بصيغة المجهول فعل ماضٍ من التّحميل يقال حمَّل يحمِّل تحميلاً و هو التّكليف سمّي التّكليف به لأنّه أي التّكليف مشقّةٌ على العباد و لذلك يقال حمَّله اللّه على عباده و أن كانت فيه مشقّة من حيث العمل به.

و أنّ قوله: **يَحْمِلُ** فهو مضارع و ماضيه حمل يحمل حملاً و هو العمل و معنى ألفاظ الآية **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ** و هم اليهود كلّفهم اللّه تعالى بالعمل بما في التّوراة من الأحكام **ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا** أى ثمّ لم يعملوا بما فيها **كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** أي مثلهم كمثل الحمار يحمل كتباً كثيرة ثقيلة من مكانٍ إلى مكانٍ أخر بالكدّ و التّعب و لا يعلم بما فيها من العلوم الجليلة النّافعة و ذلك لأنّه حيوان لا عقل له و أنّما خلق لأجل حمل الأثقال على ظهره من غير علم بها و لذلك حمل الكتاب و الحجر و التّراب و أمثالها بالنّسبة إلى الحمار على حدٍّ سواء هذا في الحيوان ممّا لا كلام فيه لأنّه محسوسٌ، فإذا كان الإنسان الّذي هو مكلّفٌ بمقتضى عقله بالعمل بما في الكتاب يحمل الكتاب و لم يعمل بما فيه فأيّ فرقٍ بينه و بين الحمار في عدم الإنتفاع بما يحمله فأنّ

الإنتفاع بما في الكتاب من العلم به هو وجه الشّبه في هذا التّشبيه الّذي ذكره اللّه في الآية و بذلك قد ظهر لنا و لك أنّ الآية و أن كان موردها مختصّاً بعلماء اليهود حيث لم يعلموا بما في التّوراة بل حرَّفوها و غيروها عمّا كانت عليه و أخفوا ما بينها من أوصاف النّبي بعد موسى، إلاّ أنّ الحكم في الآية غير مختصّ بهم بل هو عامّ يشمل جميع العلماء الّذين سلكوا مسلكهم في التّغيير و التّبديل و الإخفاء سواء كانوا من اليهود أو من النّصارى أو من المسلمين أو من غيرهم من أهل الأديان فأنّ الملاك في إثبات الحكم هو مقام الإنتفاع بالعلم و هذا موجود فيهم على الفرض، فأنّك لا تجد في الأديان ديناً سالماً عن الخرافات و الأوهام الباطلة الّتى لا يعقلها العقل السليم و المقصر في ذلك هو علماؤهم الّذين كانوا متلبّسين بلباس العالم الدِّيني لا غيرهم من أصناف الأمّة فأنّ البدعة و هى إدخال ما ليس من الدّين في الدّين لا يقدر عليها أحد إلاّ العالم بالدِّين في نظر العوام فأنّهم أي العوام كالأنعام لا يقبلون الحكم إلاّ ممّن يتزيّن بزيّ العلم في ظاهر الأمر و لازم ذلك تحريف الكتاب أو تأويل الأيات لأنّ المبدع لابدّ له من إنتساب حكمه إلى الكتاب و السنّة فلو قال أنا أقول ذلك من نفسي لم يقبلوا منه قطعاً و هذا داءٌ معضل سرى إلى جميع الأديان من اليهود و النّصارى و المجوس و غيرها حتّى الإسلام و لتفصيل الكلام فيه موضع أخر.

فأن قلت الحكم في الآية مختصّ باليهود لأنّهم حرّفوا التّوراة و غيَّروها و بدَّلوا أحكامها لا غيرهم من توابع الأديان فأنّ المسلمين لم يحرّفوا القرأن بإجماع الأمّة.

قلت نعم و لكن النّصارى حرَّفوا الإنجيل و بدَّلوا أحكامه هذا أوّلاً.

ثانياً: ليس البحث في تحريف الكتاب و الآية ساكتة عنه و أنّما البحث في العمل بكتاب اللّه فأنّ اللّه تعالى لم يقل مثل الّذين حرَّفوا أو بدَّلوا التّوراة بل

قال مثل الّذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها، أي كلّفوا بالعمل بها ثمّ لم يعملوا بها و هذا هو وجه الشّبه في التّشبيه في الآية و هو يعني عدم العمل بالكتاب و أحكامه لا يختصّ باليهود بل هو من الأمراض المسرية إلى جميع الأديان حتّى الإسلام و من الّذي يدّعي أنّ المسلمين الّذين حمّلوا القرأن عملوا بما فيه من الأحكام و هذا هو الحكم الهام الّذي سرى إلى جميع أتباع الأديان فقوله تعالى: **بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ** المراد بالتّكذيب ليس التّكذيب باللّفظ فقط بل التّكذيب لساناً و عملاً و حيث أنّ المكذّب يظلم على نفسه بترك العمل بالكتاب فهو من الظّالمين و اللّه تعالى لا يهدي الظّالمين أي لا يحكم بهدايتهم و لا يرشدهم إلى طريق الجنّة لعدم قابليّتهم للإهتداء.

قُلْ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

خاطب اللّه تعالى اليهود الّذين زعموا أنّهم أولياء اللّه و أحبّائه.

قال **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا** و هم اليهود **إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ** كما تدّعون ذلك و تقولون نحن أبناء اللّه و أحبّائه من دون النّاس **فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** في إدّعائكم هذا، و الأولياء جمع وليّ و هو الحقيق بالنُّصرة الّتى يوَّليها عند الحاجة فاللّه وليّ المؤمنين لأنّه يوليهم النُّصرة عند حاجتهم و المؤمن وليّ اللّه لهذه العلّة، و لمّا إدَّعوا الولاية قال تعالى لهم فتمنُّوا الموت أي إن كنتم تظنُّون على زعمكم أنّكم أولياء اللّه و أنصاره و أنّ اللّه ينصركم كما عرفت في معنى الوليّ فتمنوّا الموت، إذا المفروض أنّ اللّه ينصركم بزعمكم إن كنتم صادقين في إدّعائكم الولاية.

وَ لَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

أي يتّمنون الموت أبداً بما قدّمت أيديهم من الأعمال القبيحة و الشّرك باللّه و أنواع الظّلم و المعاصي و هو أي عدم تمنّي الموت دليلٌ على كذب إدّعائهم الولاية، و اللّه عليمٌ بالظّالمين، أي أنّ اللّه عالمٌ بأحوال الظّالمين و لا يخفى عليه شئ من أعمالهم و نيّاتهم و أقوالهم.

قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلِى عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أي قل يامحمّد لهؤلاء اليهود **إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ** لخوفكم من تبعاته و نكباته **فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ** لا يمكن الفرار منه فأنّ المخلوق حادث و كلّ حادثٍ مسبوق بالعدم و كلّ مسبوق بالعدم ملحوقٌ به أيضاً قال اللّه تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فٰانٍ، وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلالِ وَ ٱلْإِكْرامِ**(١) و على هذا فلكلّ مخلوق أجلٌ معيّن في اللّوح المحفوظ **فَإِذا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ**(٢) هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الموت ليس أمراً وجوديّا بل هو أمرٌ عدميّ أعني به عدم الحياة و نحن نرى بالحسّ و العيان تحققه لكلّ مخلوقٍ، قال اللّه تعالى: **أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**(٣) فالفرار منه لا معنى له عقلاً **ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلِى عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ** و هو عالم الآخرة **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** به في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍ و الأنباء الأخبار أي يخبركم فيها بما عملتم به في دار الدّنيا و اللّه تعالى يجازيكم عليه و في هذه الآية أخبار بأنّ الحساب و الثّواب و العقاب حتمٌ على العباد بعد الموت **لِمِثْلِ هٰذا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعٰامِلُونَ**(٤).

يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلِى ذِكْرِ ٱللّٰهِ وَ ذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

١- الرّحمن = ٢٧ / ٢٦
٢- النّحل = ٦١
٣- النّساء= ٧٨
٤- الصّافات = ٦١

قـال الشّـيخ فـي التّـبيان مـعناه إذا سـمعتم آذان يـوم الجـمعة فأمـضوا إلى الصلّوة.

قال قتادة مسرعين غير متثاقلين و قال الزّجاج فأمضوا إلى السَّعي الّذي هو الإسراع، قرأ بعضهم **الجُمعَة** بضمّ الجيم و إسكان الميم و قرأ الأكثر بضمّ الجيم و الميم و عليها المصاحف و هو المشهور و كيف كـان، هـما أي ضـمّ المـيم و إسكانها، لغتان و جمعهما، جمع و جمعات و أجاز الفَّراء قـراءة الجـمعة بـفتح الميم ليكون صفة اليوم أي تجمع النّاس.

و قال إبن عبّاس نزل القرآن بالتّثقيل و التّفخيم فقرؤها **جُـمعَة** بـضمّتين و قال الفّراء و أبو عبيدة التّخفيف أحسن و أقيس يعني إسكان الميم نحو، غرفة و غرف و طرفة و طرف قيل إنّما سمِّيت جمعة لأنّ اللّه تعالى جـمع فـيها خـلق آدم.

و قيل لأنّ اللّه فرغ فيها مـن خـلق كـلّ شـئٍ فأجـتمعت فـيها المـخلوقات لتجتمع الجماعات فيها، و قيل لإجتماع النّاس فيها للصّلوة و كلمة (مـن) فـي يوم الجمعة بـمعنى (فـي) أي فـي يـوم الجـمعة و أسـتدلُّوا عـلى ذلك، بـقوله تعالى: **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ**[1] أي في الأرض.

أقول الحقّ أنّ كلمة (من) ليست بمعنى (في) بل هي بـمعنى التّـبعيض أي بعض، يوم الجمعة و ذلك لأنّ النّداء للصّلاة أعني به الأذان في بـعض اليـوم و هو أوّل الزّوال لا قبله و لا بعد و من المعلوم أنّ زوال الشّمس في بعض اليوم لا في كلّه فأيّ إحتياج إلى كون (من) بمعنيٍ في، ولو كان الأمر كما ذكـروه لقـال تعالى في يوم الجمعة، و الآية الاتي ٍستدلّوا بها عـلى المـدّعى أيـضاً كـذلك و المعنى أروني ماذا خلقوا من الأرض أي من أجزائها و أبعاضها و لعمري أنّ ما ذكرته لا يخفى حسنه على المنصف و اللّه أعلم.

١- فاطر = ٤٠

إذا عرفت هذا فنقول خاطب اللّه المؤمنين في هذه الآية و قال لهم يا أيّها الّذين أمنوا باللّه و رسوله **إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ** النّداء كناية عن الأذان و هو الإعلام بدخول وقت الصّلاة **فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ** الذّكر في الآية الصّلاة لأنّ فيها ذكر اللّه بل هي أي الصّلاة ذكرٌ بعينها و أيّ ذكر أحسن و أكمل من ذكر الصّلاة فأنّها ذكرٌ من أوّلها إلى أخرها وَ **ذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** أي أتركوا البيع عند النّداء للصّلاة من يوم الجمعة ذلكم، أي ما ذكرناه من السّعي إلى الصّلاة و ترك البيع خيرٌ لكم في الدّنيا و الأخرة أن كنتم تعلمون منافعه في الدّارين هذا تفسير ألفاظ الآية و في المقام أبحاثٌ ينبغي التّنبيه عليها:

الأوّل: قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية قال أبو سلمة أوّل من قال (أمّا بعد) كعب إبن لؤي و كان أوّل من سمّى الجمعة جمعة و كان يقال قبل ذلك ليوم الجمعة العروبة، و قيل أوّل من سمّاها الأنصار.

قال إبن سيرين جمع أهل المدينة من قبل أن يقدم النّبي صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المدينة و قبل أن تنزل الجمعة و هم الّذين سمّوها الجمعة و ذلك لأنّهم قالوا أنّ لليهود يوماً يجتمعون فيه في كلّ سبعة أيّامٍ يومٌ و هو السّبت و للنّصارى يوم مثل ذلك و هو الأحد فتعالوا فنجتمع حتّى نجعل يوماً نذكر اللّه و نصلّي فقالوا يوم السّبت لليهود و يوم الأحد للنّصارى فأجعلوه يوم العروبة فإجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذٍ ركعتين و ذكّرهم فسّموه يوم الجمعة حين إجتمعوا فذبح لهم أسعد شاةً فتعشّوا و تغدّوا منها لقلّتهم فهذا أوّل جمعةٍ في الإسلام.

و روى البيهقي عن إبن شهاب الزُّهري أنّ مصعب بن عمير كان أوّل من جمع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يقدمها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و يحتمل أن يكون مصعب بن عمير جمع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه و اللّه أعلم.

و أمّا أوّل جمعة جمعها النّبي بأصحابه فقال أهل السّير قدم رسول الله ﷺ مهاجراً حتّى نزل (بقباء) على بني عمرو بن عوف يوم الأثنين لأثنى عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الأوّل حين إشتّد الضّحى و من تلك السّنة يعدّ التّاريخ فأقام بقباء إلى يوم الخميس و أسّس مسجدهم ثمّ خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم قد إتّخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فجمع بهم رسول الله ﷺ و خطب و هى أوّل خطبةٍ خطبها بالمدينة و قال ﷺ فيها:

الحمد للّه، أحمده و أستعينه و أستغفره و أستهديه و أؤمن به و لا أكفره و أعدي من يكفر به و أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له و أشهد أنّ محمّداً عبده و رسوله أرسله بالهدى و دين الحقّ و النُّور و الموعظة و الحكمة على فترةٍ من الرُّسل و قلّةٍ من العلم و ضلالةٍ من النّاس و إنقطاعٍ من الزّمان و دنوٍ من السّاعة و قربٍ من الأجل من يطع اللّه و رسوله فقد رشد و من يعص اللّه و رسوله فقد غوى و فرّط و ضلَّ ضلالاً بعيداً أوصيكم بتقوى اللّه فأنّه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضّه على الأخرة و أن يأمره بتقوى اللّه لمن عمل به على وجلٍ و مخافةٍ من ربّه عون صدقٍ على ما تبغون من الأخرة و من يصلح الّذي بينه و بينه من أمبره في السّر و العلانية لا ينوي به إلاّ وجه اللّه يكن له ذكراً في عاجل أمره و ذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم و ما كان ممّا سوى ذلك يوّد لو أنّ بينه و بينه أمداً بعيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَ ٱللَّهُ رَؤُفُ بِالْعِبٰادِ هو الّذي صدق قوله و أنجز وعده لا خلف لذلك فأنّ يقول: مٰا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَ مَآ أَنَا بِظَلّٰامٍ لِلْعَبِيدِ فإتّقوا اللّه في عاجل

أمركم و آجله في السّر و العلانية وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا و من يتّق اللّه فقد فاز فوزاً عظيماً، فأنّ تقوى اللّه توّقي مقته و توّقي عقوبته و توّقي سخطه و أنّ تقوى اللّه تبّض الوجوه و ترضي الرَّب و ترفع الدّرجة فخذوا بحظّكم و لا تفّرطوا في جنب اللّه فقد علَّمكم كتابه و نهج لكم سبيله (ليعلم الّذين صدقوا و ليعلم الكاذبين) فأحسنوا كما أحسن اللّه إليكم و عادوا أعدائه و جاهدوا في اللّه حقّ جهاده هو إجتباكم و سمّاكم المسلمين ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيا من حيّ عن بيّنةٍ و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه فكثروا ذكر اللّه تعالى و أعملوا لما بعد الموت فأنّه من يصلح ما بينه و بين اللّه يكفه اللّه ما بينه و بين النّاس ذلك أنّ اللّه يقضي على النّاس و لا يقضون عليه و يملك من النّاس و لا يملكون منه اللّه أكبر و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه العلّي العظيم إنتهى.

أقول و أنّما ذكرنا الخطبة بتمامها لما فيها من المواعظ و الحكم ما لا يخفى على أحدٍ و أيّة موعظةٍ بعد موعظة اللّه أحسن و أنفع من موعظة الرّسول الّذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌّ يوحى.

الثّاني: أنّ المراد بالسَّعي المضيّ و الذّهاب كما قاله الأكثر و قيل المراد به الإسراع كما يرشد إليه الأمر بترك البيع.

ففي رواية جابر إبن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له قول اللّه عزّ و جلّ: فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ قال عليه السلام: أعملوا و عجلّوا فأنّه يومٌ فضيّقٌ على المسلمين و ثواب أعمالهم على قدر ما ضيق عليهم و الحسنة و السَّيئة تتضاعف فيه إنتهى.

الثّالث: لا خلاف عند الفقهاء أن صلاة الجمعة واجبة على كلّ مسلمٍ وجوباً عينيّاً.

فعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ اللّه عزّ وجلّ فرض في كلّ سبعة أيّامٍ خمساً و ثلاثين صلاة واجبة على كلّ مسلمٍ أن يشهدها إلاّ خمسة، و المريض و المملوك و المسافر و المرأة و الصّبي إنتهى.

و عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: أنّما فرض اللّه عزَّ و جلَّ على النّاس من الجمعة إلى الجمعة خمساً و ثلاثين صلاة منها صلاة واحدة فرضها اللّه في جماعة و هى الجمعة و وضعها عن تسعة، عن الصَّغير و الكبير و المجنون و المسافر و العبد و المرأة و المريض و الأعمى و من كان على رأس أزيد من فرسخين.

الرّابع: لا تنعقد صلاة الجمعة في أقلّ من خمسة أو سبعة على إختلافٍ في العدد و الأشهر فيه الأوّل.

لما رواه منصور بن حازم عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: يجتمع القوم يوم الجمعة إذا كانوا خمسة فما زاد كانوا أوّل من خمسة فلا جمعة لهم و الجمعة واجبة على كلّ أحد لا يقدَّر النّاس فيها إلاّ خمسة، المرأة و المملوك و المسافر و المريض و الصَّبي إنتهى.

و نحو ذلك من الأخبار الصّريحة الدّالة على وجوب العيني و قد إشتهر بين الأصحاب توقّف وجوبها على حضُور الإمام أو نائبه الخاصّ، بل أسنده في المعتبر إلى علماؤنا مؤذناً بدعوى الإجماع وبه قال جمع من العامّة كأبي حنيفة هذا كلّه في زمان الحضور أي حضور الإمام المعصوم و أمّا في عصر الغيبة كزماننا هذا فذهب جماعة من الفقهاء منهم الشّيخ في الخلاف و المبسوط إلى الوجوب التّسخيري بينها و بين الظُّهر بمعنى أنّ المكلّف في زمان الغيبة مخيّرٌ بينهما و بين صلاة الظُّهر، و ذهب قوم إلى عدم الجواز قال بعض المحقّقين و الّذي يظهر من بعض الأخبار هو عدم توقّف الوجوب على

حضور الإمام أو نائبه الخاصّ و يكفي في وجوبها حضور إمامٍ عدلٍ يحسن بالخطبة و لا يشترط كونه فقيهاً جامعاً لشرائط الفتوى فضلاً عن الإمام المعصوم و تفصيل الكلام في هذا الباب موكولٌ إلى الفقه.

الخامس: يشترط في صلاة الجمعة العدد و هو على المشهور خمسة أحدهم الإمام وفاقاً للأكثر و اقتصاراً في تقييد الآية على موضع الوفاق و لدلالة الأخبار الصَّحيحة على ذلك.

فعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: لا تكون الخطبة و الجمعة صلاة ركعتين على أقلّ من خمسة رهطٍ، الإمام و أربعة إنتهى.

و ممّا يشترط فيها الخطبتان قبل الصّلاة، و الجماعة فلا تصّح فرادى، و السُّكوت عند قراءة الخطبة للمصلّي و غيرها ممّا هو مذكور في الكتب الفقهيّة و الرّسائل العمليّة.

السّادس: قوله تعالى **وَ ذَرُوا ٱلْبَيْعَ** هل النّهي يدلّ على تحريم البيع أو لا يدلّ فقال بعضهم أنّ البيع الواقع في أثناء السَّعي محرّمٌ و ذلك لأنّه وقع بعد النّداء و تعلّق به النَّهي قال في التّذكرة و عليه إجماع العلماء كافّة.

و قال ابن بابويه كان بالمدينة إذا أذَّن المؤذّن يوم الجمعة نادى منادٍ حرم البيع لقوله تعالى: **إِذاٰ نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ** و الحقّ أنّ البيع ليس بحرامٍ لعدم منافاته للسَّعي إليها. أمّا غير البيع من العقود و المعاملات فهو غير محرّمٍ قطعاً إلاّ على القول بالقياس و نحن لا نقول به ثمّ فرض تحريم البيع هل هو باطلٌ أو لا فقال بعضهم بالبطلان و الحقّ عدمه لأنّ النّهي في المعاملات لا يدلّ على الفساد و إنّما يدلّ عليه في العبادت فلا منافاة بين أن يكون الفعل حراماً و البيع صحيحاً و لتفصيل الكلام في هذه المسائل موضع أخر، فتحصّل من جميع ما ذكرناه أنّ صلاة الجمعة في زمان الحضور واجب عيناً على جميع المكلّفين عدا ما

إستثنى من المرأة و المملوك و المريض و المسافر و أمّا في زمان الغيبة فليس كذلك، و فيها قولان:

الوجوب التّسخيريّ، و عدم الجواز مطلقاً و أمّا قوله تعالى: **ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** أي ذكر اللّه و السّعي و ترك البيع خيرٌ لكم لأنّ فيها نفع الأخرة و هو خيرٌ و أبقى من الدّنيا و ما فيها من النّفع فأنّ ما عندكم ينفد و ما عند اللّه باقٍ و الباقي غيرٌ من الفاني و هذا ظاهرٌ.

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنْتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ ٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللّٰهِ وَ ٱذْكُرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

المراد بقضاء الصّلاة في الآية فعلها أي إذا فرغتم من الصّلاة و فيها دلالة على كون المراد بالذّكر في قوله فأسعوا إلى ذكر اللّه هو الصّلاة، و قوله فأنتشروا في الأرض، فالإنتشار التّفرُّق و المعنى بعد الفراغ من الصّلاة تفرّقوا في الأرض فليذهب كلّ واحدٍ من المصلّين إلى ما شاء و أراد.

وَ ٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللّٰهِ وَ فالإبتغاء من فضل اللّه هو طلب رزقه على وجهٍ مباح و فيه إشارة إلى أنّ الأرزاق كلّها منه تعالى كما دلَّت عليه أيات أخر و في تفسير علّي بن إبراهيم يعني إذا فرغتم من الصّلاة فأنتشروا في الأرض يوم السَّبت.

فقد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: الصّلاة يوم الجمعة و الإنتشار يوم السَّبت.

و عن المحاسن بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه تعالى: فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ قال عليه السلام: الصّلاة يوم الجمعة و الإنتشار يوم السَّبت و قال السَّبت لنا و الأحد لبني أميّة.

و روي السَّبت لبني هاشم و الأحد لبني أمّية فإتّقوا أخذ الأحد.

و في عيون الأخبار بأسناده عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: السَّبت لنا و الأحد لشيعتنا و الأثنين لبني أميّة و الثلثاء لشيعتهم و الأربعاء لبني العبّاس و الخميس لشيعتهم و الجمعة لسائر النّاس جميعاً و ليس فيه سفر قال اللّه تعالى: فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ يعني يوم السَّبت.

و أمّا قوله: **ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** أي و أذكروا اللّه كثيراً على إحسانه إليكم بالتّوفيق و الألطاف، أو أذكروه في تجاراتكم و أسواقكم أو أذكروا أوامره و نواهيه عند طلب الرّزق فلا تأخذوا إلاّ ما أحلَّ، و الظّاهر من الآية أنّ المراد بالذِّكر هو على جميع الأحوال ليخرجوا بذلك عن الغافلين و يكونوا من الفائزين بالفلاح و الثّواب و النَّعيم فأنّ ذكر اللّه حسنٌ على كلّ حالٍ قال اللّه تعالى: **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**(١).

وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَ ٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ

عن غوالي اللّئالئ روى مقاتل بن سليمان و مقاتل بن قبا قالا، بينا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية الكلبي من الشّام بتجارةٍ و كان إذا قدم لم يبق في المدينة عائقٌ إلاّ أتته و كان يقدم إذا قدم بكلّ ما يحتاج إليه النّاس من دقيقٍ و برٍّ ثمّ يضرب الطَّبل ليؤذن النّاس بقدومه فيخرج النّاس فيبتاعوا منه فقدم ذات جمعة و كان قبل أن يسلم رسول اللّه يخطب على المنبر فخرج النّاس فلم يبق في المسجد إلاّ أثنى عشر رجلاً:

فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لولا هؤلاء لسوّمت لهم الحجارة من السّماء.

١- الرّعد = ٢٨

و في روايةٍ أخرى قال صلی الله علیه و آله و سلم: لو تتابعتم حتّى لا يبقى أحدٌ منكم لسأل بكم الوادي ناراً.

و عن إبن كيان أنّ الّذين بقوا أحد عشر و عن إبن عبّاس ثمانية، و يقال لكلّ ما ألهى عن ذكر اللّه و المراد به هنا الطَّبل.

روي في الفقيه و الخصال فيما أوصى به النّبي صلی الله علیه و آله و سلم عليّاً، يا علّى: ثلاث يقسين القلب، إستماع اللَّهو، و طلب الصَّيد، و إتيان باب السُّلطان إنتهى.

و عن أبي الحسن الأوّل قال: قال رسول صلی الله علیه و آله و سلم: أربع خصالٍ يفسدن القلب و ينبتن النّفاق في القلب كما ينبت الماء الشَّجر، إستماع اللّهو و البذا، و إتيان باب السُّلطان و طلب الصَّيد إنتهى.

و عن أبي جعفر علیه السلام قال علیه السلام: لهو المؤمن في ثلاثة أشياء، التَّمتع بالنّساء و مفاكهة الأخوان، و الصّلاة باللّيل إنتهى.

و المراد بالتّجارة في الآية المال المنتقل بعقد المعاوضة مع قصد الإكتساب و الرّؤية في قوله: **وَ إِذَا رَأَوْا** يحتمل أن تكون بالبصر و أن تكون بالقلب أي رأوا تجارةً قادمة و الضّمير في (إليها) يرجع إلى التّجارة لأنّها المقصودة بالذّات من الخروج لما روي أنّه قد أصابهم جوعٌ و غلا سعرها فبادروا بالخروج خشيةً أن يسبقوا و قيل التّقدير إذا رأوا تجارةً إنفضّوا إليها وإذا رأوا لهواً إنفَّضوا إليه فحذفت لوجود الدّلالة عليه فالتَّرديد للدّلالة على أنّ منهم من خرج للتّجارة و منهم من خرج للَّهو و قدّم التّجارة للتَّرقي مبالغةً في الذّم بأنّهم خرجوا إلى ما لا حاجة لهم إليه و قدَّم اللَّهو في قوله: **خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ** مبالغةً في المدح فأفهم ذلك و الرّوايات دلَّت على أنّ الرّسول كان يخطب قائماً.

و في الصّحيح عن أبي بصير أنّه سأله عن الجمعة كيف يخطب الإمام قال عليه السلام يخطب قائماً فأنّ اللّه يقول (وتركوك قائماً) إنتهى.

أقول هذا الحكم ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين من العامّة و الخاصّة فقد روت العامّة و الخاصّة عن جابر بن سمرة أنّه قال ما رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يخطب إلاّ و هو قائم و ذلك في بيان الواجب فيدلّ على الوجوب و هو مذهب أصحابنا.

و نقل العلامّة في التّذكرة عليه الإجماع، و أوّل من خطب و هو جالس معاوية إبن أبي سفيان.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و أقلّ ما يجري في الخطبة أن يحمد اللّه و يصلّي على نبيّه و يوصي بتقوى اللّه و يقرأ أيةً من القرأن و يجب في الثّانية أربع كالأولى إلاّ أنّ الواجب بدلاً من قراءة الآية في الأولى الدُّعاء قاله أكثر الفقهاء و قال أبو حنيفة لو إفتقر على التّحميد أو التّسبيح أو التّكبير أجزاه و عن عثمان رضي اللّه عنه أنّه صعد المنبر فقال الحمد للّه و أرتجّ عليه فقال أنّ أبا بكر و عمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً و أنّكم إلى إمامٍ فقال أحوج منكم إلى إمامٍ قوّال و ستأتيكم الخطب ثمّ نزل فصلّى و كان ذلك بحضرة الصّحابة فلم ينكر عليه أحد و قال أبو يوسف و محمّد، الواجب ما تناوله إسم خطبةٍ و هو قول الشّافعي.

قال أبو عمرو بن عبد البرّ و هو أصحّ ما قيل في ذلك إنتهى كلامه.

أقول أنّما نقلنا ما ذكره في المقام لتعلم أنّهم كيف لعبوا بالدِّين و أخترعوا من عند أنفسهم ما شاؤوا و أرادوا و نسبوه إلى الدّين فتارةً يقولون أقلّ ما يجزي في الخطبة أن يحمد اللّه و يصلّي على نبيّه و أوصى بتقوى اللّه و يقرأ أيةً من القرأن، بأن يقول الخطيب الحمدللّه، و الصّلاة على رسول اللّه، و

أوصيكم بتقوى اللّه، و مدّهامتان، فإذا قال هذه الكلمات فقد أتى بـالواجب، و تارةً يقولون لو إقتصر على التّحميد و التّسبيح و التكبير أجزأه، بأن يقول الحمد للّه، و سبحان اللّه و اللّه أكبر فـقد أجـزأه لأنّـه أتـى بـالواجب و تـارةً يـقولون الواجب ما تناوله إسم الخـطبة و هـو قـول الشّـافعي و الحـاكـم بـصحّة هـذه الكلمات بعنوان الخطبة هو أبو عمرو بن عبد البرّ.

و لا أظنّ عاقلاً يحكم بأنّها تكفي في صدق الخطبة و أعجب من ذلك كلّه إستدلال القرطبي على صحّة ما فعله عثمان من عدم قدرته على إيـراد الخـطبة بسكوت الصّحابة و عدم إنكـارهم عـلى عـثمان، فأن أراد القـرطبي بـالصحابة الّذين لم ينكروا عليه كلّ من رأى النّبي أو صاحبة، فسكوتهم ليس بحجّةٍ فـي الدِّين لأنّهم تركوا النّبي قائماً على ما مرَّ بيانه.

و من المعلوم أنّ من كان كذلك لا دين له و لا إيمان فأنّ تـرك النّـبي تـرك الدّين و على هذا فسكوتهم في قصّة عثمان كاشفٌ عن عدم إعتنائهم بـالدّين، و أن كان مراد القرطبي عن الصحابة الّذين كـانوا مـؤمنين بـاللّه و رسـوله حـقّاً أمثال أبىذرّ و عمّار و حذيفة و غيرهم، فأنّهم لم يسكـتوا عـن أفـعال عـثمان أصلاً بل أنكروا عليه في أكثر أفعاله لولا كلّها إلاّ أنّه لم يـسمع مـنهم و الدّلـيل على ما ذكرناه أنّهم لمّا رأوا عدم القبول مـن نـاحية عـثمان قـتلوه و مـن قـتل عثمان بن عفّان غير أصحاب الرّسول، نعم المنافقون سكتوا و سكـوتهم دليـل على نفاقهم و لا يدلّ على صحّة عمل عثمان كما سكتوا في حكومة أبي بكر و عمر، و لم يقولوا لأبي بكر لمّا نقل عن رسول اللّه أنّه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، كيف سمعت هذا من رسول اللّه و لم نسمع منه، و كما سكتوا عند إحراق عمر بيت فاطمة و ضربها بأمر أبىبكر أو من عند نفسه ولم يقولوا له أو لهما لم فـعلتما مـا فـعلتما، و كـما سكـتوا عـمّا فـعله مـعاوية مـن

الأعمال القبيحة الّتى يستحيي القلم عن ذكره و اللّسان عن بيانه و نظائره كثيرة و الحاصل أنّ سكوت المنافقين الكاذبين الّذين سّموهم الصّحابة دليلٌ على عدم إيمانهم لا على صحّة فعل الفاعل.

■

سُورَةُ ٱلْمُنٰافِقُونَ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذٰا جٰآءَكَ ٱلْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ
ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ ٱللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ
ٱلْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمٰانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ إِنَّهُمْ سٰآءَ مٰا كٰانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ
عَلٰى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَ إِذٰا رَأَيْتَهُمْ
تُعْجِبُكَ أَجْسٰامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ
كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قٰاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ أَنّٰى
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ ٱللّٰهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ
هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ
أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفٰاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاٰ
تُنْفِقُوا عَلٰى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللّٰهِ حَتّٰى يَنْفَضُّوا وَ
لِلّٰهِ خَزٰآئِنُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنَّ ٱلْمُنٰافِقِينَ

لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَ
لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ
وَ لَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَٰكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ
رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ
أَكُنْ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَ لَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا
إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

◀ اللّغة

أَيْمَٰنَهُمْ: بفتح الألف جمع يمين و هو الحلف، و قرئ بكسر الألف أيضاً و هو التَّصديق.

جُنَّةً: بضمّ الجيم و هى السُّترة، كالسّلاح المتّخذ لدفع الجراح.

فَصَدُّوا: الصَّد المنع.

فَطُبِعَ: أي رسخ.

خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ: خشب بضمّتين جمع خشبة مثل بدن و بدنة فيمن سكن و من ضمَّ قال مثل ثمرة و ثمر و قوله مُسَنَّدَةٌ فالإسناد الإمالة تقول أسندت الشّئ أملته و مسندة للتكثير أي إستندوا إلى الإيمان بحقه دمائهم.

يُؤْفَكُونَ: الإفك الكذب و قيل هو الإعراض عن الحقّ.

لَوَّوْا: أي حرَّكوا.

يَنْفَضُّوا: أي يتَّفرقوا الإنفضاض التَّفرق.
لٰا تُلْهِكُمْ: أي لا تشغلكم و الإلهاء في الأصل المنع.
فَأَصَّدَّقَ: أصله فأتَّصدق و الباقي واضح.

◀ الإعراب

كَأَنَّهُمْ الجملة حال من الضَّمير المجرور في قولهم يَحْسَبُونَ حال من معنى الكلام لَيُخْرِجَنَّ على تسمية الفاعل و التَّشديد و ٱلْأَعَزُّ فاعل ٱلْأَذَلَّ مفعول وَ أَكُنْ بالنَّصب عطفاً على ما قبله و هو جواب الإستفهام و يقرأ بالجزم حملاً على المعنى.

◀ التَّفسير

إِذٰا جٰآءَكَ ٱلْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ ٱللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ

النِّفاق هو الدُّخول في الشَّرع من بابٍ و الخروج عنه من باب و على ذلك نبَّه إنّ المنافقين هم الفاسقون أي الخارجون من الشَّرع و جعل اللّـه المنافقين شرّاً من الكافرين فقال: **إِنَّ ٱلْمُنٰافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنّٰارِ**[١].

و قد ورد في ذمّهم آيات كثيرة و لا سيّما في أوائل البقرة و كفى في ذمّهم أنّ هذه السُّورة إختصّت بهم و ليست في القرآن سورة إختَّصت بالكافرين و الوجه في كونهم شرّاً من الكافرين أنّ الكافر يظهر كفره فيعرف به بخلاف المنافق فأنّه لا يظهر كفره بل يظهر الإيمان و يبطن الكفر و لذلك لا يعرف في النّاس فالمؤمن يعتمد عليه لكونه متظاهراً بالإيمان و لا يعلم ما في قلبه و هو الكفر و لعمري أنّ ضرر المنافقين على الإسلام و المسلمين كان أشدّ و أعظم

١- النّساء = ١٤٥

من ضرر الكفّار ثمّ أنّ النّفاق لا يختصّ بقومٍ دون قومٍ و لا بشخصٍ دون شخصٍ بل كلّ إنسان ظاهره غير باطنه و يقول بلسانه ما ليس في قلبه فهو منافق و أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا كذلك.

قال اللّه تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**(١) و لأجل ذلك عرَّفهم اللّه لنبيّه و حذَّره عن مكرهم و كيدهم فقال: **إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ** و هم الّذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فيظهرون لك الإيمان و يبطنون الكفر **قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ** أي قالوا لك إنّا نشهد و نعترف بنبوّتك و رسالتك **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ** إذ المرسل اعرف بحال المرسل من غيره مضافاً إلى أنّ اللّه بكُلّ شيءٍ عليم فلا يخفى عليه شيءٌ لا في الأرض و لا في السّماء و لا في الباطن و لا في الظّاهر.

وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ في قولهم هذا أي أنَّهم يشهدون بنبوّتك لساناً و ينكرونها قلباً و الإيمان لا يتحقّق بمُجرد اللّسان مع إنكار القلب ثمّ بيَّن اللّه تعالى ذلك بقوله:

ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

المشهور بين القُّراء فتح الألف في الإيمان فهو على هذا جمع يمين و هو الحلف باللّه و المعنى أنّهم يحلفون على أنّهم منكم في الإيمان باللّه و رسوله مع أنَّهم ليسوا منكم واقعاً فصار حلفهم و يمينهم، مثل جنَّة أي سترةٍ يستترون بها من الكفر لئّلا يقتلوا و لا يسبوا و لا تؤخذ أموالهم و إنّما جعل اللّه أيمانهم جنَّة لأنّ الجنَّة بضّم الجيم السَّترة المتَّخذة لدفع الأذيّة كالسّلاح المتَّخذ لدفع الجراح و يقال لها بالفارسيّة (سپر) فجعل المنافق أيمانه و أحلافه عندكم بأنَّه مؤمن، كالسَّترة لدفع القتل و الأسر، و قرئ بكسر الألف أيضاً و على هذا فمعنى الكلام جعلوا إيمانهم الّذي إدَّعوه باللّسان عندكم جنَّة و سترة للقتل و الأسر و

١- سباء = ١٣

ذلك لأنّ المؤمن لا يقتل و لا يؤخذ ماله و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** أي منعوا غيرهم عن إتّباع سبيل الحقّ أي منعهم غيرهم عن متابعة الحقّ من آثار نفاقهم فأنّ المؤمن الحقيقي لا يصدّ و لا يمنع غيره عن إتّباعه **إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** من إظهارهم الإيمان و إبطانهم الكفر و الصَّد عن سبيل الحقّ و أيُّ عملٍ أسوأ و أقبح منه.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ

ذلك إشارة إلى ما ذكره اللّه تعالى من أوصافهم من أنّهم إتّخذوا أيمانهم جنّة فصدّوا عن سبيل اللّه إلى آخر ما قال كأنّه قيل لم صاروا كذلك فقال تعالى ذلك بأنّهم آمنوا باللّه و رسوله بألسنتهم فقالوا نشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّداً رسول اللّه، و كفروا باللّه و رسوله بقلوبهم بعد الإقرار **فَطُبِعَ** أي الكفر **عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** أي ثبت و رسخ الكفر في قلوبهم كالنّقش على الحجر ثمّ حكم اللّه بأنّهم لا يفقهون، أي لا يفقهون بأنّ الإيمان لا يحصل باللّسان فقط ثمّ أشار اللّه تعالى إلى بعض أوصافهم فقال:

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ

أشار اللّه تعالى في هذه الآية إلى أوصافهم الظّاهرية الّتى في أجسامهم و قال: **وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ** أي هيأتهم و مناظرهم أي أنّهم حسن المنظر جميل الزيّ **وَ إِن يَقُولُوا** أي و إن تكلّموا تسمع لقولهم، أي تصغي إليهم و تسمع ما يقولون بحسن بيانهم و بلاغة لسانهم و تلاوتهم كتاب اللّه **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ** في هدم تحرّكهم و حاصل هذه الأوصاف أنّ المنافق حسن الظّاهر قبيح الباطن **يَحْسَبُونَ** أي يظنّون **كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ**

و هو كناية عن خوفهم و ورعهم كما قيل في المثل المشهور، (الخائن خائفٌ) ثمّ بعد ذكر هذه الأوصاف لهم أمر اللّه نبيّه بالحذر عنهم فقال: **فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** أي كيف يصرفون عن الحقّ و إنّما أمر اللّه رسوله بالحذر عنهم لأنّهم كانوا ينقلون الأسرار إلى الكفّار و معنى قاتلهم اللّه لعنهم اللّه، و هي كلمة ذمٍّ و توبيخ، معناه أحلّهم محّل من قاتله عدوّ قاهرٌ.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

هذا وصفٌ آخر لهم و هو أنّه **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ** فيغفر اللّه ذنوبكم **لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ** أي حرّكوا رؤسهم و قيل أكثروا تحريكها إستهزاءً بدعائهم إلى ذلك **وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ** عن سبيل الحق **وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** و المقصود أنّ تكبرّهم صار منشأ لنفاقهم و صرفهم عن الحقّ و عدم إيمانهم باللّه و رسوله واقعاً و لذلك تراهم لا يقبلون الحقّ بأن يستغفر الرّسول لهم عمّا فعلوا من النِّفاق ولم يعلموا أنّ اللّه لا يغفر لهم إستغفَر لهم الرَّسول أم لم يستغفر كما قال تعالى:

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ

أخبر اللّه رسوله بأنّ اللّه لن يغفر لهم و إنّما أتى بكلمة (لن) لأنّها لنفي الأبد أي لا يغفر لهم أبداً إستغفرت لهم أم لم تستغفر و ذلك لأنّهم يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، فهم في الحقيقة من أوصاف المشركين باطناً و قلباً و أنّ اللّه لا يغفر من يشرك به و يغفر ما دون ذلك بل الحقّ أنّهم أسوء حالاً عند اللّه من الكفّار و المشركين هكذا قيل في معنى الآية.

أقول الحقّ أنّ المنافق لا يغفر له ما دام كونه باقياً على نفاقه فلو خرج عن النِّفاق واقعاً و تاب عمّا فعل سابقاً و دخل في سلك المؤمنين حقّاً فالظّاهر أنّ اللّه يغفر له إلاّ أنّ تحقق هذا المعنى عن المنافق بعيد جدّاً و يحتمل أن يكون الوجه في عدم المغفرة لهم أنّهم صدّوا عن سبيل اللّه و منعوا النّاس عن الإيمان فماتوا على كفرهم و هذا ذنبٌ لا يغفر و اللّه أعلم.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى وصف آخر لهم فقال اللّه:

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنَّ ٱلْمُنٰافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ

روي التّرمذي عن زيد إبن أرقم أنّه قال غزونا مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم معنا أناسٌ من الأعراب فكُنّا بيدي الماء و كان الأعراب يسبقونا إليه فسبق الأعرابي أصحابه فيملأالحوض و يجعل حوله حجارة و يجعل النَّطع عليه حتّى تجيئ أصحابه فأتى رجلٌ من الأنصار أعرابيّاً فأرخى زمام ناقته للشُّرب فأبى أن يدعه فأنتزع حجراً ففاض الماء فرفع الإعرّابي خشبةً فضرب بها رأس الأنصاري فشجَّه فأتى عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين فأخبره و كان من أصحابه فغضب عبداللّه بن أبيّ ثمّ قال لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتّى ينفضّوا من حوله يعني الأعراب و كانوا يحضرون رسول اللّه عند الطّعام فقال عبد اللّه إذا إنفضُّوا من عند محمّد فأتوا بالطّعام فليأكل هو من عنده ثمّ قال لأصحابه لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجنّ الأعَزّ منها الأذَلّ قال زيد و أنا ردف إبن عمّي فسمعت عبد اللّه أبيّ فأخبرت عمّي فأنطلق فأخبر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فحلف و جحد قال فصدّقه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و كذّبني قال فجاء عمّي إليّ فقال ما

أردت إلى أن قصّتك رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و كذّبك و المنافقون فوقع عليّ من جرأتهم ما لم يقع على أحدٍ قال فبينما أنا أسير مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قد حفظت برأسي من الهمّ إذ أتاني رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فحكّ أذني و ضحك في وجهي فما كان يسرّني أنّ لي بها الخلد في الدُّنيا ثمّ أنّ أبابكر لحقني فقال ما قال لك رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

قلت ما قال شيئاً إلاّ أنّه حرّك أذني و ضحك في وجهي فقال أبشر ثمّ لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبى بكر فلمّا أصبحنا قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم سورة المنافقين قال أبو عيسى هذا حديث حسن إنتهى.

اقول الحديث نقلناه عن تفسير القرطبي و العهدة عليه و سئل حذيفة إبن اليمان عن المنافق فقال الّذي يصف الإسلام و لا يعمل به و هو اليوم شرّاً منهم على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّهم كانوا يكتمونه و ليس مراده صنفٌ خاصّ بل أكثر المسلمين الّذين كانوا يعدُّون أنفسهم من حواريون كانوا من المنافقين و لم يكن النّفاق مختصّاً بعبد اللّه أبيّ و أصحابه كما ظنّه القرطبي و الطّبري و أمثالهما بل جميع المفسّرين من العامّة فأنت إذا تأمّلت في تفاسيرهم تراهم يمثّلون في المنافق بعبد اللّه إبن أبيّ و أصحابه كأنّهم زعموا أنّ أيات النّفاق مع كثرتها نزلت في عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه و لم يعلموا أنّ أكثر حوار الرّسول كانوا أشدَّ نفاقاً من عبد اللّه، أليس من ترك وصيّة رسول اللّه في تعيين خليفته بعده في غدير خمّ و غير الغدير منافقاً، أليس من ترك بيعة عليٍّ و لو بعد الخلفاء الثّلاثة و هم عبد اللّه بن عمر و سعد بن وقّاص و أبو طلحة الأنصاري و أمثالهم منافقاً، أليس من بايع عليّاً بالمدينة و حاربه بالبصرة و هو طلحة و الزُّبير و من حذى حذوهما من المنافقين، أليس من أنكر النّص الجليّ من رسول اللّه في علّي و أهل بيته منافقاً، أليس من تخلّف عن جيش أسامة في حياة رسول اللّه معٍ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لعن اللّه من تخلّف عن جيش أسامة و

هلّم جرّا إلى وصلت النّوبة إلى معاوية و يزيد و مروان بن الحكم إلىٰ أخر بني أميّة و بني المروان و بني العبّاس.

اللّهم إلاّ أن يقال أنّهم لم يكونوا من المنافقين بل كانوا من الكفّار و إذا كان الأمر على هذا المنوال فما ذنب عبد اللّه أبيّ و أصحابه حتّى صاروا مرمى سهام الأيات النّازلة في المنافقين و اللّه أعلم.

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِۦ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

قيل، القائل بهذا الكلام كان عبد اللّه بن أبيّ و مراده بالأعزّ هو نفسه و من تبعه من أصحابه و بالأذلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه و المقصود لئن رجعنا إلى المدينة لنخرجنّ منها محمّداً صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه فردّ اللّه عليه و قال للّه العزّة و لرسوله و للمؤمنين لا له و أصحابه و لكنّ المنافقين لا يعلمون. ذلك و يظنّون أنّ العزّة بكثرة المال و العشيرة و الأولاد و امثال هذه الأمور و هذا دليلٌ على جهلهم و حماقتهم و أنّهم لا يعلمون ما يقولون و لا يعرفون ما يدّعون فلو كانوا عالمين بمعنى العزّة و أنّها ما هي و كيف تحصل للإنسان لم يقولوا ذلك و علموا أنّ العزّة للّه و رسوله و للمؤمنين و توضيح ذلك إجمالاً أنّ العزّة على ما قاله الرّاغب في المفردات حالةٌ مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرضٌ عزاز أي صلبة إلى أن قال و العزيز الّذي يقهر و لا يقهر قال تعالى أنّه هو العزيز الحكيم إذا عرفت هذا فنقول:

العزيز الّذي يقهر و لا يقهر و يغلب و لا يغلب ليس في عالم الوجود إلاّ اللّه تعالى إذ ما سواه كائناً ما كان فهو مقهورٌ مغلوبٌ تحت قدرته و كيف لا يكون المخلوق مقهوراً و هو لا يقدر على شئ بدون مشيّئته و إرادته فعلى هذا العزّة بقولٍ مطلق منحصّرة به تعالى لا لغيره فإطلاق العزيز على غير اللّه تعالى ليس على حقيقته و أمّا عزّة الرّسول و عزّة المؤمن فهما من عزّة اللّه لا من عند

أنفسهما كما أنّ ولاية الرّسول و ولاية عدول المؤمنين منه تعالى و حيث أنّ المنافق لا إيمان له واقعاً و لا يعرفه يظنّ أنّ القدرة منه نفسه ولم يعلم أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و لذلك قال تعالى و لكنّ المنافقين لا يعلمون، أي لا يعلمون أنّ لا عزّة لهم فعلى ما ذكرناه و قرّرناه المنفيّ في الآية هو علمهم بمعنى العزّة و ظنّهم الفاسد بأنّ العزّة ثابتةٌ لهم، لا أصل الحكم بإخراج الأعزّ الأذلّ فأنّه من الأحكام العقليّة الّتى لا خلاف فيها لأنّ الأعزّ غالبٌ و الأذلّ مقهورٌ مغلوب له قهراً و بعبارةٍ أخرى الحكم أعني به إخراج الأعزّ الأذلّ عن المدينة قد وقع كما أخبر به المنافقون إلاّ أنّ المخرج كان اللّه تبارك و تعالى بواسطة رسوله و المؤمنين فقد شرَّدهم اللّه و طردهم و أنفاهم من أرض المدينة إلى نواحي السّام غير من قتلهم اللّه فى الحروب و الغزوات و الحاصل أنّهم قتلوا أو أسروا أو أنفوا في البلاد فأخرج الأعزّ الأذلّ من المدينة ولكنّهم أخطأوا في تطبيق الأعزّ على أنفسهم و تطبيق الأعزّ على المؤمنين فكأنّه تعالى قال لهم نعم يخرج الأعزّ الأذلّ و لكن الأعزّ هو اللّه و رسوله و المؤمنون و الأذَّل أنتم و من تبعكم فقول المنافق هذا هو أشبه شيءٍ بالمغالطة لو كانت مقالتهم صدرت عنهم عن علم بالخرافات و الموهومات و الأباطيل لو كانت صدرت عن جهلٍ و أنّما قلنا ذلك لأنّه لا يبعد أن يكون القائل بها و هو عبد اللّه بن أبّي عالماً بأنّ العزّة للّه و لرسوله و لكن قال ما قال لأصحابه لئلا ينفضّوا من حوله و يعتمدوا على قدرته و يبقوا على ضلالهم و نفاقهم و ليس هذا الإحتمال بعيداً من العقل و اللّه أعلم.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى أوصاف المنافقين و حذّر رسوله عنهم و حكم عليهم بما حكم من الجهل و الفسق و التّكبر و غير ذلك من القبائح.

خاطب المؤمنين فقال: **يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا** بالله و رسوله و اليوم الأخر **لٰا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لآ أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللّٰهِ** و أنّما خصَّ الأموال و الأولاد بالذِّكر لأنّ المال و الأولاد من أحبَّ الأشياء و أقربها إلى الإنسان و لذلك جعل اللّه الأولاد و الأموال فتنةً في قوله:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمآ أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ عِنْدَهٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ مآ أَمْوالُكُمْ وَ لآ أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفىٰٓ**[٢].

و هـذا أي حبّ المـال و الأولاد لا يـحتاج إلى دليـلٍ لأنّ حبّ الإنسان بالأولاد و الأموال محسوسٌ لكلّ أحدٍ لأنّه موافق للفطرة و الغريزة الحيوانـيّة و لذلك ترى هـذه المـحبّة فـي الحيوانـات أيـضاً فأنّ الحـيوان يـحبّ أولاده و الأموال الّتى ينتفع بها في حياته من المأكول و المشـروب، فـثبت و تـحقّق أنّ الإنسان بالفطرة يحبّ المال و الأولاد و هذا ممّا لا خلاف فيه و لكن في هـذه المحبَّة خطرٌ عظيم للمؤمن باللّه و رسوله و هو غـلبة الحبّ للأمـوال و الأولاد على ذكر اللّه و التـوجّه إليـه و ذلك هـو الخسـران المـبين و تـوضيح ذلك أنّ المؤمن يحبّ اللّه و رسوله بمقتضى إيمانه إذ لا يعقل أن يكون الإنسان مـؤمناً باللّه و رسوله و لا يحبّهما و هذا واضح.

ثمّ أنّه يحبّ المال و الأولاد أيضاً إلاّ أنّ هذا الحبّ بمقتضى فطرته وطبيعته ثمّ أنّ هذين الحبّين لا يجتمعان في قلبٍ للإنسان إلاّ أن يكون أحدهما غالباً و الأخـر مغلوباً و أن شئت قلت أحدهما راجحاً و الأخر مرجوحاً و ذلك لأنّ حبّ المـال و الأولاد منشأه حبّ الدُّنيا و حبّ اللّه و رسوله منشأه حبّ الأخرة، و الدُّنيا فانية و الأخرة باقية و الباقي خير من الفاني فحبّ اللّه و رسوله هـو الأصـل و حبّ المال و الولد هو الفرع و الفرع محبوبٌ بتبع الأصل و هذا هو المراد من الآية.

١- الأنفال = ٢٨ ٢- سَبَأ = ٣٧

ألا ترى أنّ اللّه تعالى لم يقل يا أيّها الّذين أمنوا لا تحبُّوا أموالاكم أولادكم بل قال لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم أي لا تلهكم محبّة الأموال و الأولاد عن محبَّة اللّه أي لا يمنعكم هذا من ذاك، و هذا ممكنٌ معقولٌ بخلاف لا تحبُّوا أولادكم و أموالكم، إذ هو غير ممكنٍ و غير معقولٍ إذ محبّة الأولاد و الأموال على أساس الفطرة البشريّة فالنّهي عنها مخالف للفطرة غير معقول مضافاً إلى أنّه غير ممكنٍ للإنسان خارج عن قدرته و **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** مضافاً إلى أنّ الأمر و النّهي لا يتَّعلقان بالمحال و عدم محبّة المال و الولد للإنسان مستحيلٌ لكونه مخالفاً للفطرة و على هذا فليس في الآية نهيٌ عن محبّة الأولاد و الأموال بل النّهي تعلّق بالإفراط في حبّهما بحيث غلب على حبّ اللّه و رسوله و التَّوجه إلى المعبود و هذا موافق للعقل فأنّ العبد المؤمن ينبغي أن يكون حبّه و بغضه للّه.

قال الصّادق عليه السلام: **من أحبَّ للّه و أبغض للّه و أعطى للّه فهو ممّن كمل إيمانه** و المقصود أنّ المؤمن يحبّ أمواله و أولاده للّه و هذا أصلٌ أصيل و ركنٌ وثيق فإذا كان المال و الأولاد على غير طاعة اللّه فحبّهما موجبٌ للخسران و لذلك قال تعالى فأولئك هم الخاسرون، و أيُّ خسرانٌ أعظم و أشنع من ترك ذكر اللّه و طاعته و ترجيح حبّ الدُّنيا على حبّ الأخرة.

وَ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ، وَ لَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

الواو للعطف و الآية معطوفة على ما قبلها أمر اللّه المؤمنين بالإنفاق في سبيل اللّه ممّا رزقهم اللّه من الأموال في الدُّنيا قبل حلول الأجل و وجه المناسبة بين الأيتين ظاهرٌ لأنّه تعالى نهى في الآية السّابقة عن حبّ المال على وجه الإفراط و ترجيحه على ذكر اللّه و طاعته و في هذه الآية أمر بالإنفاق من

الأموال و فيه إشارة إلى أنّ المال للإنفاق في سبيل اللّه فقال: **أَنْفِقُوا** في طاعته **رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ** أي إغتنموا الفرص **فَيَقُولَ** بعد موته **رَبِّ** أي ربّي حذفت الياء و بقيت الكسرة للدّلالة عليه **لَوْلَآ** أي هلاّ **أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ** أي هلّا أخّرت أجلي **فَأَصَّدَّقَ** أي فأتصدق في سبيل اللّه **وَ أَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ** فيقال له **وَ لَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا** أي أنّ التّأخير بعد بلوغ الأجل لا يكون أبداً، فأنّ كلمة (لن) لنفي الأبد.

وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم و نيّاتكم، و فيه إشارة إلى أنّ المسترجع لو رجع إلى الدّنيا فهو أيضاً لا يعمل لأنّ اللّه تعالى أعرف بحال عبده منه نفسه و قد مضى الكلام فيه غير مرّةٍ في تفسير الأيات.

■

سُورَةُ ٱلتَّغَابُنِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ
ٱلْمُلْكُ وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كٰافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ
ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ
ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ
إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ
ٱلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ وَ ٱللّٰهُ
عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ
عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنٰاتِ فَقٰالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنٰا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ
ٱسْتَغْنَى ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ وَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾
فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي أَنْزَلْنٰا وَ

ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ
ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ
يَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَآ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ
بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ
وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ
أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا
لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ
تَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ
وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ ٱللَّهُ عِنْدَهُٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَ ٱسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ
أَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا ٱللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ
شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

◀ اللّغة

يُسَبِّحُ: قد مرَّ تفسيره غير مرّةٍ.

وَبَالَ: الوبال بكسر الواو ثقل المعصية.

لَتُنَبَّؤُنَّ: النّبأ الخبر أي لتخبرنَّ.

ٱلتَّغَابُنِ: التّغابن هو التّفاوت في أخذ الشّيء بدون القيمة مأخوذٌ من الغبن.

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ: الوقاية الحفظ و الشُّح بضّم الشّين منع النّفس على مخالفة العقل لمشقّة البذل.

◀ الإعراب

أَبَشَرٌ مبتدأ و يَهْدُونَنَا الخبر يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ هو ظرف لخبير و الباقي واضح.

◀ التّفسير

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

أي ينزّهه و يقدّسه جميع الموجودات السّماوية و الأرضيّة عمّا لا يليق بشأنه من شوائب الإمكان و قد مرَّ الكلام فيه مراراً.

لَهُ ٱلْمُلْكُ وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ أي للّه الملك و للّه الحمد فالضّمير في، له، راجعٌ إلى اللّه و يستفاد من الآية أنّ الملك و الحمد مختصّ به تعالى و ذلك لتقديم الظّرف فلو قال الملك له و الحمد لله و لم يدلّ على الحصر ألا ترى أنّك إذا قلت زيدٌ في الدّار معناه أنّ زيداً في الدّار و أمّا أنّ عمرواً أيضاً في الدّار مع زيد أو لا فالكلام ساكتٌ عنه فيمكن أن يكون في الدّار و يمكن أن لا يكون و هذا بخلاف قولك في الدّار زيدٌ فأنّه يفيد الحصر أي في الدّار زيدٌ لا غيره.

إذا عرفت هذا فقوله له الملك و له الحمد يفيد حصر الملك و الحمد للّه تعالى و هذا معنى قولهم لا شريك له فى الملك، و الدّليل على هذا الإختصاص واضح و هو أنّه تعالى خالق لما سواه، و أيضاً جميع النِّعم الماديّة و المعنويّة أيضاً له و قد ثبت أنّ الحمد على النِّعمة في جميع المحامد و يرجع اليه فهو المالك و هو المحمود، ثمّ أنّ الفرق بين **المِلك** بكسر الميم و **المُلك** بضمّها هو أنّ الملك على ضربين، ملكٌ هو التّملّك و التّولي، و ملكٌ هو القوّة على ذلك تولّى أو لم يتّول، فمن الأوّل قوله تعالى: **إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا**(١).

و من الثّاني قوله تعالى: **إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا**(٢) فَجَعل النُّبوّة مخصوصة و الملك عامّاً، و قيل الملك الحقّ الدّائم للّه فلذلك.

قال: **لَهُ ٱلْمُلْكُ وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ** و قيل **المِلك** بكسر الميم كالجنس للملك بضمّها فكُلّ ملكٍ ملكٌ و ليس كلّ ملكٍ ملكاً.

و أمّا قوله: **وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** فهو إشارة إلى عموم قدرته لأنّ عدم القدرة ضعفٌ و عجزٌ و الضَّعف و العجز من شئون الممكن المخلوق فكلّ ضعيفٍ مخلوق و الخالق منزّهٌ عنه و قد مرَّ الكلام فيه مراراً.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

كلمة(من) في قوله: **مِنْكُمْ** للتّبعيض أي بعض المخلوق كافر و بعض الأخر مؤمن و اللّه تعالى بما تعملون، أي بما يعمل الكافر و المؤمن بصير، لا يخفى عليه شئ من أعمالها.

إن قلت هذه الآية صريحة في أنّ الكفر و الإيمان مخلوقان للّه تعالى لأنّه خلق الكافر كافراً و المؤمن مؤمناً و لا نعني بالجبر إلاّ هذا و إذا كان كذلك فما ذنب العبد العاصي أو الكافر حتّى يعاقب على كفره و فسقه يوم القيامة و

١- النّمل = ٣٤ ٢- المائدة = ٢٠

المفروض أنّ اللّه خلقهما كذلك و أيُّ مدح و ثواب للمؤمن و المفروض أنّ اللّه خلقه مؤمناً.

قلت لو تأمّلت في الآية لعلمت أنّ الآية لا تصريح لها لذلك بل مصرّحة بخلافه و ذلك لأنّ اللّه يقول هو الّذي خلقكم جميعاً فمنكم كافر و منكم مؤمن، يعني منكم من إختار الكفر و منكم من إختار الإيمان في الدُّنيا بعد الخلق و لولا كان المراد من الآية ما ذكرت لقال هو الّذي خلقكم كافرا و مؤمناً أو هو الّذي خلق بعضكم كافراً و بعضكم مؤمناً و لم يقل ذلك و بعبارةٍ أخرى الخلق لم يتعلّق بالكفر و الإيمان بل تعلّق بالكافر و المؤمن و الفرق واضح.

و إن شئت قلت الخلق تعلّق بالموصوف و هو ذات الكافر و المؤمن ولم يتعلّق بالصّفة أعني بها الكفر و الإيمان و الجبر يلزم على الثّاني دون الأوّل، هذا مفاد الآية و لكن بعض المفسّرين من العامّة حيث لم يتَّفطنوا هذه الدَّقيقة في الآية و أمثالها حملوها على الجبر و وضعوا أحاديث و نسبوها إلى النّبى.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، قال إبن عبّاس أنّ اللّه خلق بني أدم مؤمناً و كافراً و يعيدهم في يوم القيامة مؤمناً و كافراً.

و روى أبو سعيد الخدري قال خطبنا النّبي ﷺ عشيّةً فذكر شيئاً ممّا يكون فقال: يولد النّاس على طبقات شتّى، يولد الرَّجل مؤمناً و يموت مؤمناً و يولد الرَّجل كافراً و يعيش كافراً و يموت كافراً و يولد الرّجل مؤمناً و يعيش مؤمناً و يموت كافراً و يولد الرَّجل كافراً و يعيش كافراً و يموت مؤمناً.

و قال إبن مسعود قال النّبي ﷺ: خلق اللّه فرعون في بطن أمّه كافراً و خلق يحيى بن زكريّاً في بطن أمّه مؤمناً.

و في الصّحيح من حديث إبن مسعود و أنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه و بينها إلاّ ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخلها، و أنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار

حتّى ما يكون بينه و بينها إلاّ ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها.

و في صحيح مسلم عن سهل إبن سعد السّاعدي أنّ رسول اللّه قال أنّ الرَّجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدوا للنّاس و هو من أهل النّار و أنّ الرَّجل ليعمل عمل أهل النّار فيما يبدوا للنّاس و هو من أهل الجنّة.

ثمّ قال القرطبي قال علماؤنا و المعنى تعلّق العلم الأزلي بكلّ معلومٌ فيجزي ما علم و أراد و حكم فقد يزيد إيمان شخصٍ على عموم الأحوال يزيد إلى وقتٍ معلوم و كذلك في الكفر إنتهى ما ذكره القرطبي من الأخبار.

و نحن نقول أنّ هذه الأخبار تنادي بأعلى صوتها أنّها من الموضوعات و ألفاظ الأخبار تدلّ على أنّها ليست من كلام رسول اللّه الّذي قال صلى الله عليه وآله وسلم: **أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش** و معانيها تنافي العقل و النَّقل الصّحيح و أقبح من ذلك تفسير علماؤهم لها و كيف كانوا من العلماء ولم يعلموا أنّ العلم الأزلي لا يكون علّة لفعل العبد حتّى يقال فيجري ما علم و اراد و حكم، فأنّ العلّة و السَّبب لإيجاد الفعل هو الارادة و تحريك العضلات بعدها و نحن لا ننفي علم الأزلي فأنّ اللّه تعالى عالمٌ بأفعال العبد بل خلقه إيّاه بل ننفي عليّة العلم الأزلي للفعل الصّادر من العبد هذا كلّه مضافاً إلى أنّ العقل السّليم لا يقبل أنّ اللّه خلق فرعون في بطن أمّه كافراً ثمّ أرسل إليه موسى ليهديه إلى سبيل الحقّ مع أنّ العلم الأزلي تعلّق بكفره و جعله من أهل النّار و إذا كان كذلك فما معنى إرسال الرُّسل و إنزال الكتب و المفروض أنّ الكافر لا يؤمن لتعلّق العلم الأزلي بكفره و على ذلك فيلزم أن يكون الرّسول أرسل إلى المؤمنين في بطن أمّهاتهم دون الكافرين و لا يقول به عاقلٌ و لكن من أضلَّه اللّه فلا هادي له فيقول ما شاء و أراد.

خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه خلق السّموات و الأرض بالحقّ لا بالباطل و ذلك لأنّ الحقّ لا يصدر منه إلاّ الحقّ و اللّه تعالى هو الحقّ بقولٍ مطلق فأفعاله أيضاً كذلك فينتج أنّ كلّ ما خلقه اللّه حقٌّ و هو المطلوب.

و الدّليل على ذلك أنّ الباطل عبث و لغوٌ لا فائدة فيه بل قد يضّر و منشأه الجهل و السّفاهة فأنّ العالم العاقل لا يفعل عبثاً، و اللّه تعالى منزّهٌ عن الجهل فكيف يصدر منه العبث و أمّا قوله: **وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** فالصُّورة ما ينتقش به الأعيان و يتميّز بها عن غيرها و ذلك ضربان.

أحدهما: محسوسٌ يدركه الخاصّة و العامّة بل يدركه الإنسان و كثير من الحيوان كصورة الإنسان و الفرس و الحمار بالمعاينة.

الثّاني: معقول تدركه الخاصّة دون العامّة كالصُّورة الاتى ّختصّ الإنسان بها من العقل و الرُّؤية و المعني الّتى خصّ بها شئ بشئٍ:

قال اللّه تعالى: **وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلاٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ**(٣).

قال اللّه تعالى: **فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَا شَآءَ رَكَّبَكَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱللّٰهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ**(٥).

و قال رسول اللّه ﷺ: أنّ اللّه خلق أدم على صورته.

١- غافر = ٦٤
٢- الاعراف = ١١
٣- أل عمران = ٦
٤- الإنفطار = ٨
٥- الحَشر = ٢٤

و لا شكّ أنّ المصوّر هو اللّه تعالى و أنّما الكلام في أنّ الصُّورة الّتى خلق اللّه الإنسان عليها ما هي فقال بعض المحقّقين المراد بها معناها العامّ الشّامل للصُّور المحسوسة و المعقولة.

و قال بعضهم أراد بها ما خصّ الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر و البصيرة و بها فضَّله على كثيرٍ من خلقه و إضافته إلى اللّه سبحانه على سبيل الملك لا على سبيل البعضيّة و التّشبيه تعالى اللّه عن ذلك، بل هو على سبيل التّشريف له كقوله بيت اللّه، و ناقة اللّه.

و قال بعض المفسّرين في تفسيره لهذه الأية: **وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** حيث زيَّنكم بصفوة أوصاف الكائنات و خصَّكم بخلاصة خصائص المبدعات و جعلكم أنموذج جميع الخلق، و إليه المصير، أي فأحسنوا سرائركم حتّى لا يمسح العذاب ظواهركم إنتهى.

روي عن الباقر عليه السلام: و قد سئل عمّا يرون النّاس أنّ اللّه خلق أدم على صورته يعني صورة اللّه، فقال عليه السّلام صورة محدثة إصطفاها اللّه و إختارها على سائر الصُّور المختلفة فأضافها إلى نفسه كإضافة الكعبة إلى نفسه و الرُّوح إلى نفسه فقال بيتي و نفخت فيه من روحي إنتهى.

أقول و لذلك ذهب أكثر المفسّرين من العامّة إلى أنّ الضّمير في الصُّورة راجع إلى أدم عليه السّلام لا إلى اللّه تعالى شأنه المعنى أنّه خصَّ به و ذلك لأنّ النّاس خلقوا على أطوارٍ سبعة، نطفة، ثمّ علقة إلى تمام ما فصّل في الكتاب ثمّ أنّهم كانوا يتدرّجون من صغرٍ إلى كبرٍ سوى أدم أبو البشر فأنّه خلق أوّلاً على ما كان عليه أخراً قالوا و هذا هو الصَّحيح.

و عن العيون عن الرّضا عليه السلام: و قد سئل يابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ النّاس يرون أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال أنّ اللّه خلق أدم على صورته

فقال عليه السلام و اللّه لقد حدّثني أوّل الحديث أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مرّ برجلين يتهامسان فسمع أحدهما يقول لصاحبه قبّح اللّه وجهك و وجه من يشبهك فقال صلى الله عليه و آله و سلم يا عبد اللّه لا تقل هذا لأخيك فأنّ اللّه تعالى خلق آدم على صورته.

و الّذي ظهر لنا في تفسير الآية هو أنّ اللّه تعالى صوَّر صورة الإنسان في أحسن الصُّور و هذا ممّا لا كلام فيه إجمالاً فأنّ الخالق الحكيم كلّ ما يصدر عنه فهو حسنٌ كما هو مقتضى الحكمة الثّابتة له تعالى و من أسمائه تعالى (المصوّر) لأنَّه صوَّر جميع الموجودات و رتّبها فأعطى كلّ شئٍ منها خاصَّة و هيئةً مفردة يتميّز بها على اختلافها و كثرتها و هذا ممّا لا كلام فيه إلاّ أنّه تعالى جعل لبنيآدم صورتين و لغيرهم صورة واحدة الّتى قد يعَّبر عنها بالصُّورة الجسميّة و هى في جميع الموجودات على حدٍّ سواء على إختلافها ظاهراً بحسب الشِّكل و الهيئة و هذا مشاهدٌ محسوسٌ و لا كلام لنا فيه فعلاً فأنّ الآية ناظرة إلى صورة الإنسان لا إلى صور جميع الخلق لقوله تعالى: **وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** و الخطاب لبنيآدم أعني بهم جميع أفراد البشر.

إذا عرفت هذا فنقول أنّ اللّه تعالى جعل للإنسان من بين جميع الموجودات صورتين صورة جسميّة، و صورة عقليّة، و ذلك لأنّ الإنسان مرَّكب من الجسم النّاسوتى و الرُّوح الملكوتي، فصورته الجسميّة كصور جميع الموجودات في كونها صورة جسميّة على إختلافها فيها من حيث الشِّكل، و أمّا صورته العقليّة فهي منحصرة به و هى متّعلقة بروحه و نفسه الّتى أضافها إلى نفسه و قال: **وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** شوقاً و تعظيماً له و بذلك صار الإنسان مظهراً لصفاته من العلم و القدرة و الإرادة و الحلم و الغضب و العدل و أمثالها و هذه المظهريّة مختصّة بالإنسان و لا توجد في غيره من الموجودات حتّى في الملائكة و بذلك شرّفه اللّه تعالى على جميع خلقه و جعله أشرف

الموجودات لو علم قدره و لم يتجاوز صوره فأنّ الصُّورة العقليّة الإنسانيّة من أكبر آيات اللّه في الملك و الملكوت و قد أودع اللّه تعالى فيها عالم الكبير و جعلها نموذجاً له و إلى هذه الصّورة أشار أميرالمؤمنين فيما نسب إليه حيث قال:

دوائك فيك و لا تشعر ودائك منك فلا تبصر
و أنت الكتاب المبين الّذي بأحرفه يظهر المضمر
أتزعم أنّك جرمٌ صغير و فيك إنطوى العالم الأكبر

فهذه الصُّورة هي الصُّورة العقليّة الّتى جعلها اللّه للإنسان و بها يتخلّق بأخلاق اللّه و يصير إنساناً ربانيّاً فقوله تعالى في الأية: **صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** إشارة إلى هذه الصُّورة الّتى هي من أحسن الصُّور و لا صورة أحسن منها في عالم الوجود و لتفصيل الكلام في هذا الباب موضع أخر و اللّه أعلم.

يَعْلَمُ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ

في هذه الآية إشارة إلى إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها و ذلك لأنّ الخالق أعرف بما في نفس المخلوق منه نفسه و إلاّ لا يكون خالقاً هذا مضافاً إلى أنّ الجهل نقصٌ و هو من شئون الممكن المخلوق و أمّا الخالق فهو منزّهٌ عنه و قد مرَّ البحث في هذا الباب مراراً فلا حاجة إلى إطالة الكلام في المقام. و قوله: **وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ** قد ظهر معناه ممّا ذكرناه.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ

الإستفهام للإنكار التّوبيخي و النّبأ الخبر، إختلف المفسّرون في المخاطب بهذه الآية فقال بعضهم المخاطب بها هو النّبي و من أمن به، المخاطب بها هو كفّار قريش، فعلى الأوّل لا توبيخٌ فيها و على الثّاني وبّخ الكفّار، و على

التّقديرين الإستفهام للإنكار أي بلى أتاكم خبر الكفّار الّذين كانوا من قبلكم في الأمم السّالفة و أنّ اللّه أهلكهم لكفرهم و عنادهم بما كسبت أيديهم و هذا معنى قوله: **فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ** فالوبال الوزر الّذي يتّرتب على المعصية من العقاب و الذَّوق في الأصلي الطَّعم و هو حقيقة قي الذّائقة مجازٌ فى غيرها.

قال الرّاغب في المفردات، الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلُّ تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يتكثّر منه يقال له الأكل و إختير فى القرأن لفظ الذَّوق فى العذاب لأنّ ذلك و أن كان فى التّعارف للتّعليل فهو مستصلحٌ للكثير فخصّه الذِّكر ليعمّ الأمرين:

قال اللّه تعالى: **وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ**(١).

قال اللّه تعالى: **فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ**(٣).

قال اللّه تعالى: **إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ**(٤).

و أمثال ذلك من الأيات كثيرة و على هذا فمعنى قوله: **فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ** ذاقوا قليلاً من طعم العذاب في الدّنيا فأنّ عذاب الدّنيا بالنّسبة إلى عذاب الأخرة قليلٌ جدّاً كمّاً و كيفاً و لذلك قال: **وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** أي موجعٌ في الأخرة فعذاب الدّنيا بمنزلة الذّوق أعني به تناول القليل و عذاب الأخرة بمنزلة الأكل و هو تناول الكثير من الطّعام أعاذنا اللّه منه.

ثمّ علّل ذلك بقوله:

ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ ٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَ ٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

١- السجده = ٢٠ ٢- آل عمران = ١٠٦

٣- الدّخان = ٤٩ ٤- الصّافات = ٣٨

ذلك، إشارة إلى قوله: **فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ** أي ذلك العذاب في الدّنيا و الأخرة **بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ** من قبل اللّه تعالى واحداً بعد واحدٍ **بِالْبَيِّناتِ** أي المعجزات **فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا** الإستفهام للإنكار أي أنّ البشر لا يليق بذلك إذ لا مزيّة لهم علينا لأنّهم أمثالنا في البّشرية و حكم الأمثال واحد، ولم يعلموا أنّ الأنبياء و أن كانوا مثلهم في الصُّورة الجسميّة إلاّ أنّهم كانوا غيرهم في الصُّورة الإنسانيّة الّتى هي من أعظم أيات اللّه فأنّ الإنسان إنسانٌ بعقله و معرفته و دينه لا بجسمه فأنّ الجسم و ما فيه من الأعضاء موجودٌ في الحيوان أيضاً بل أجسام بعض الحيوانات أعظم من جسم الإنسان و القوى المودَّعة فيه من السَّمع و البصر و الذّائقة و اللاّمسة و الشّامة في أكثر الحيوانات أقوى و أكمل منها في الإنسان فكون الإنسان أفضل من الحيوان ليس بجسمه بل الملاك في الفضل هو الرّوح الإنساني الّذي به يتقرّب العبد إلى ربّه و يصير مظهر لذاته و صفاته فالنّبي و الوصّي لا يقاس بغيره من أحاد البشر فقول الكفّار، أبشرٌ يهدوننا، على سبيل الإنكار دليل على جهلهم و عدم معرفتهم بحقيقة الإنسان و العجب أنّ القائل بهذا الكلام للأنبياء، إذا مرض قال دلُّوني إلى الطَّبيب و لا يقول أبشرٌ يعالجني، و أمّا في الهداية إلى طريق الحقّ يقول أبشرٌ يهدوننا و أيُّ فرقٍ بين الأمراض الجسمانيّة و الأمراض الرُّوحانية، فالمريض يحتاج إلى الطَّبيب مع أنّ الطَّبيب مثل المريض في الصُّورة.

فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أي فكفروا بالأنبياء ولم يؤمنوا بهم و أعرضوا عنهم و أنكروا رسالتهم ولم يعلموا أنّ اللّه تعالى غنيٌّ عن عبادتهم و أنّما دعاهم إلى متابعة الأنبياء لما يعود عليهم بالنّفع حسب ما تقتضيه حكمته في تدبيرهم.

قال أميرالمؤمنين عليه السّلام:

اَمَّا بَعْدُ فَأِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِيْنَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتَهُمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتَهِمْ لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ(١) إلىٰ أخر ما قال عليه السلام.

و هذا حكمٌ عقليٌ، فأنّ العقل يحكم بعدم إحتياج الخالق أى إحتياجٍ كان لأنّ الإحتياج نقصٌ و هو تعالى منزّهٌ عن جميع النّقائص الإمكانيّة.

قال اللّه تعالى: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ**(٢).

و قد مرّ الكلام فى هذا الباب فيما مضى بما لا مزيد عليه و قيل قوله: **حَمِيدٌ** يدلّ على أنّه تعالى أوجب على عباده أن يحمدوه، و قيل أنّ العقل يحكم به و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه تعالى غنّي عمّا سواه و على هذا فنفع العبادة يرجع إلى العبد لا إلى الحقّ.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلٰى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ

كلمة **لَنْ** لنفي الأبد و المعنى زعم الكفّار أن لن يبعثوا، من القبور أبداً و ذلك لإنكارهم البعث **قُلْ** يا محمّد لهم **بَلٰى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ** الواو للقسم أي قل لهم بلى و أنا أقسم بربّى لتبعثنّ يوم البعث من قبوركم **ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ** أي لتخبرون **بِمَا عَمِلْتُمْ** في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍ **ذٰلِكَ** أي البعث و الجزاء على العمل **عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ** أي سهلٌ لا صعوبة فيه لأنّه على كلّ شيٍ قدير فأنّ الإحياء ثانياً ليس بأصعب من الإيجاد أوّلاً، بل هو أسهل منه لوجود المادّة في الثّاني دون الأوّل هذا كلّه مضافاً إلى عموم قدرته تعالى و قد مضى القول في هذا الباب و سيأتي الكلام فيه في المستقبل بوجهٍ أبسط.

١- الخطبة = ١٩٢

٢- فاطر = ١٥

قال اللّه تعالى: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**(١).

فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ ٱلنُّورِ ٱلَّذيٓ أَنْزَلْنا وَ ٱللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ

أمر اللّه جميع النّاس بالتّوحيد و النبوة، و الكتاب الّذي أنزل اللّه على نبيّه القرأن و أنّما صدّر الكلام بالإيمان باللّه لأنّه الأصل في باب المعرفة و لذلك كان شعار النّبي **قولوا لا إله إلاّ اللّه تفلحوا**.

ثمّ بعد التّوحيد تصل النّبوة إلى النّبوة و هى أشهد أنّ محمّداً رسول اللّه، ثمّ الإيمان بما جاء النّبي به من الكتاب و السنّة و أنّما عبّر عن القرأن بالنّور لأنّ النُّور ظاهرٌ بالذّات و مظهرٌ للغير يعني نورانيّة النُّور بذاته و نورانيّة غيره به و هذا بعينه خاصيّة الوجود و لذلك ترى الفلاسفة الأشراق يعبّرون عن الواجب تعالى الّذي هو حقيقة الوجود بنور الأنوار، و ترى فلاسفة المشّاء يعبّرون عنه تعالى بواجب الوجود قال اللّه تعالى: **اَللّٰهُ نُورُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ** و إذا كان الواجب نور الأنوار فكلامه أيضاً نور و القرأن و جميع الكتب السّماوية نورٌ إذ لا يوجد من النُّور إلاّ النُّور كما لا يوجد من الظّلمة إلاّ الظُّلمة:

قال اللّه تعالى: **اَللّٰهُ وَلِيُّ ٱلَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُماتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا أَوْلِيآؤُهُمُ ٱلطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُماتِ أُولٰئِكَ أَصْحابُ ٱلنّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ**(٢).

و في قوله: **أَنْزَلْنا** إشارة إلى أنّه كلام اللّه لا كلام البشر **وَ ٱللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ** أي أنّ اللّه عالم بأعمالكم لا يخفي عليه شئ.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ خالِدينَ فيهآ أَبَدًا ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظيمُ

١- الجُمعة = ٨
٢- البَقرة = ٢٥٧

يوم يجمعكم، قيل تقديره اذكروا يوم يجمعكم (ليوم الجمع) أي ليوم القيامة سمّي به لأنّ اللّه تعالى يجمع فيه الأوّلين و الأخرين لأجل الحساب و يجزيهم بما عملوا في الدّنيا من الثّواب و العقاب ثمّ قال تعالى: **ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ** و التّغابن هو التّفاوت في أخذ الشّئ بدون القيمة و من المعلوم أنّ الّذين أخذوا الدّنيا بالأخرة بهذه الصّفة في أنّهم أخذوا الشّئ بدون القيمة فقد غبنوا أنفسهم بأخذ النّعيم المنقطع بالدّائم و أغبنهم الّذين إشتروا الأخرة بترك الدّنيا المنقطع إليها من هؤلاء الّذين تغابنوا عليها.

و قال مجاهد و قتادة التّغابن غبن أهل الجنّة أهل النّار قاله بعض المفسّرين و هو حقّ لا بأس به إلاّ أنّ الآية تحتاج إلى توضيح أبسط و بيان أشمل لأنّها من أحسن المواعظ لمن يتدبّر فيها بعين البصيرة فنقول:

التّغابن بفتح التّاء و ضمّ الباء من باب التّفاعل و هو على ما قاله في الكشّاف مستعارٌ من تغابن القوم في التّجارة و هو أن يغبن بعضهم بعضاً قيل سمّي يوم القيامة يوم التّغابن لأنّه غبن فيه أهل الجنّة أهل النّار أي أنّ كلّ واحدٍ منهما أخذ ما أخذ على طريق المبادلة فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشّر و الجيّد و الرّديّ و النّعيم بالعذاب يقال غبنت فلاناً إذا بايعته فكان النّقص عليه و الغلبة لك و كذا أهل الجنّة و أهل النّار.

قال بعض الأدباء التّغابن تفاعلٌ من الغبن وليس من أثنين بل هو من واحدٍ، مثل تواضع و تحامل و تكاثر إنتهى.

ثمّ أنّ هذا تمثيل الغبن في البيع و الشّراء كما قال اللّه تعالى: **أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**(١).

فلمّا ذكر اللّه أنّ الكفّار إشتروا الضّلالة بالهدى، و ما ربحوا في تجارتهم بل خسروا ذكر في هذه الآية أنّهم غبنوا، و ذلك أنّ أهل الجنّة إشتروا الأخرة بترك

١- البَقرة = ١٦

الدّنيا و إشترى أهل النّار الدّنيا بترك الأخرة و هذا نوع مبادلةٍ إتّساعاً و مجازاً.

قال الحسن و قتادة بلغنا أنّ التّغابن في ثلاثة أصناف، رجلّ علم علماً فعلّمه و ضيّعه هو و لم يعمل به فشقي به، و عمل به من تعلّمه منه فنجا به، و رجلٌ إكتسب مالاً من وجوهٍ يسأل عنها وشحّ عليه و فرّط في طاعة ربّه بسببه و لم يعمل فيه خيراً و تركه لوارث لا حساب عليه فيه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربّه، و رجلٌ كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربّه فسعد، و عمل السّيد بمعصية ربّه فشقي إنتهى.

أقول التّغابن لا يختصّ بما ذكره بل هو معنى عامّ و مصداقه الأكمل التّغابن في الدّين و ليس المراد بالدّين أعني التّوحيد و النّبوة و المعاد، الإقرار اللّفظي به كما في المنافق بل المراد الإقرار و الإعتقاد و العمل و هو الإيمان فمن مات على الإيمان فقد أفلح و من مات على الكفر و النّفاق فقد خسر، و لذلك قال: **وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا** أي عملاً صالحاً موافقاً للشّرع **يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ** الّتى أتى بها حال كفره فأنّ الإسلام يجبّ ما قبله هذا إذا قلنا أنّ الآية ناظرةٌ إلى إيمان الكفّار و أمّا إذا قلنا أنّ الآية لا تختّص بالكفّار بل المقصود منها فسّاق المسلمين فالمعنى أنّ اللّه تعالى يعفوا عن سيّئاتهم و يغفر لهم **وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** أيُّ فوزٍ أعظم من تكفير السّيئات و دخول الجنّة و الخلود فيها إلى الأبد.

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَآ أُولٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

لمّا وعد اللّه المؤمنين في الآية السّابقة بما وعد من الخلود في الجنّة هدّد الكفّار الّذين بقوا على كفرهم و ماتوا عليه ولم يؤمنوا بالنّار و الخلود فيها و بئس المرجع و المآل نار جهنّم و الخلود فيها لأنّها نشأت عن غضب اللّه.

مٰآ أَصٰابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

ما، نافية بمعنى ليس و المعنى ليس يصيبكم مصيبة إلاّ بأذن اللّه تعالى أي بإرادته و قضاءه.

و قال الفرّاء يريد إلاّ بأمر اللّه، و قيل إلاّ بعلم اللّه و الحقّ هو القول الأوّل أي بقضاءه و إرادته على أساس المصلحة الّتى لا يعلمها إلاّ اللّه قيل في سبب نزول الآية أنّ الكفّار قالوا لو كان الإسلام الّذي إختاره المسلمون حقّاً لصانهم اللّه عن المصائب في الدّنيا ببركة الإسلام فقال تعالى أنّ ما أصاب من مصيبة فى نفسٍ أو مالٍ أو قولٍ أو فعلٍ يقتضي جمّاً أو يوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً فبعلم اللّه و قضاءه و قدره على ما إقتضته المصلحة و الحكمة.

وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ أي من يصدّق باللّه و يعترف بوحدانيّته **يَهْدِ قَلْبَهُ** أي يهدي اللّه قلبه بأنّ المصيبة بأذن اللّه هذا إذا قرئ بفتح الياء و كسر الدّال كما هو المشهور بين القرّاء و أمّا إذا قرأناه بفتح الدّال فالمعنى يسكن قلبه.

و حاصل الكلام أنّ المؤمن يعلم أنّ الدّنيا دارٌ بالبلاء محفوفةٌ و بالغدر معروفةٌ و قضاء اللّه لا مردّ له و كلّ ما يصيب العبد من المصائب و البليّات فهو بمصلحته عاجلاً أو آجلاً فهو راضٍ بقضاءه و قدره و اللّه تعالى يهد قلبه عند المصيبة فيقول العبد عندها **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ** لأنّ اللّه قال لنبيّه و بشّر الصّابرين **اَلَّذِينَ إِذٰآ أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قٰالُوٓا إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**(١) و يُثاب على ذلك يوم القيامة و قرأ قتادة **يُهدَ** قَلبه بضّم الياء و فتح الدّال على الفعل المجهول و رفع الباء في **قلبُه** لأنّه إسم فعلٍ لم يسمَّ فاعله، و قرأ طلحة بن مصرّف و الأعرج **نَهدِ** قَلبه بنُون على التّعظيم و على هذا فالباء في **قلبه** بالنّصب.

١- البقرة = ١٥٦

و قرأ عكرمة **يُهدء قَلْبَه** بهَمَزةٍ ساكنة و رفع الباء أي يسكن و يطمئنّ و الأقوال المحتملة كثيرة و لكلٍّ منها وجهٌ وجيه و المعنى لا خفاء فيه **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فلا يخفى عليه شيئ و لو كان في القلب.

وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ

التَّولي الإعراض و المعنى أطيعوا اللّه و رسوله و أنّما قال و أطيعوا الرّسول مع أنّ الأصل إطاعة اللّه و الرَّسول يدعو إلى اللّه لا إلى نفسه فإطاعة اللّه تكفي للعبد، للإشارة إلى أنّ إطاعة اللّه لا تحصل إلاّ بعد إطاعة الرَّسول لأنّه الواسطة بين الخالق و المخلوق فلو كانت إطاعة اللّه بدون إطاعة الرّسول ممكناً للعبد فأيّ إحتياجٍ كان لارسال الرُّسل و إنزال الكتب و الحاصل أنّ إطاعة الرّسول إطاعة اللّه و مخالفته مخالفته فمن أعرض عن الرَّسول فقد أعرض عن اللّه.

و من المعلوم أنّه ليس على الرَّسول إلاّ تبليغ أحكام اللّه إتماماً للحجّة مضى الكلام في هذا المعنى فيما مضى بما لا مزيد عليه.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ أمّا أنّه لا إله إلاّ هو فقد سبق الكلام منّا فيه و أقمنا البراهين العقليّة و النَّقلية على التّوحيد، و أمّا أنّ المؤمن يتّوكل على اللّه لا على غيره فالوجه فيه أنّه أمن به و إعتقد أنّه تعالى هو المعبود الّذي يستحقّ أن يعبد و أنّه لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو و إذا كان كذلك فالعقل يحكم بالتَّوكل عليه في جميع الأمور لأنّه تعالى أعلم بمصالح العباد من أنفسهم.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

من، للتّبعيض خاطب اللّه المؤمنين و أخبرهم بأنّ بعض الأزواج و الأولاد في زمرة أعداء الرّجل ثمّ أمره بالحذر عنهم و عدم إطاعتهم.

قال إبن عبّاس نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم جفاء أهله و ولده، و حكاه الطّبري عن عطاء بن يسار قال نزّلت سورة التّغابن كلّها بمكّة إلاّ هؤلاء الأيات نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهلٍ و ولدٍ و كان إذا أراد الغزو بكوا إليه فقالوا إلى من تدعنا فيّرق فيقم، فنزلت **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا**.

و روى التّرمذي عن إبن عبّاس و سأله رجلٌ عن هذه الآية فقال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكّة و أرادوا أن يأتوا النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فأبى أزواجهم و أولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فلمّا أتوا النّبي رأوا النّاس قد فقّهوا في الدّين همّوا أن يعاقبوهم فأنزل اللّه تعالى هذه الآية نقله القرطبي في تفسيره.

و نحن نقول خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى فالمعنى عامٌّ يشمل جميع المؤمنين إلى يوم القيامة فأنّ عداوة الأزواج و الأولاد في زماننا هذا أشدّ و أعظم من عداوة الأزواج و الأولاد في صدر الإسلام بل أكثرهم في هذا الزّمان كذلك إلاّ ما شذّ و ندر.

قال بعض المحقّقين هذا يبيّن وجه العداوة فأنّ العدُو لم يكن عدّواً لذاته و أنّما كان عدّواً بفعله فإذا فعل الزّوج و الولد فعل العدُو كان عدوّاً و لا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد و بين الطّاعة إنتهى.

ثمّ قال تعالى: **وَ إِنْ تَعْفُوا** يعني تتركوا عقابهم **وَ تَصْفَحُوا** و تعرضوا عمّا صدر منهم (و تغفروا) أي تستروا ذنوبهم إذا تابوا و أقلعوا عنها **فَإِنَّ ٱللَّـهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** أي ستّار على خلقه **رَحِيمٌ** بهم لأنّه أرحم الرّاحمين.

إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَ أَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَ ٱللَّهُ عِنْدَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ

كلمة، أنّما، تفيد الحصر و المعنى أنّ أموالكم و أولادكم فتنة، أي محنة و إبتلاء و قال قتادة يعني بلاء و إختبار يحمّلكم على كسب المحرَّم و منع حقّ اللّه تعالى فلا تطيعوهم في معصية اللّه و لأجل ذلك قيل لا يقولّن أحدكم، اللّهم أعصمني من الفتنة، فأنّه ليس أحد منكم يرجع إلى مالٍ و أهلٍ و ولدٍ إلاّ و هو مشتملٌ على فتنةٍ ولكن ليقل اللّهم أني أعوذ بك من مضّلات الفتن و لذلك أدخل (من) الّتى للتّبعيض في قوله: **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا** أي بعضهم كذلك و لم يذكر (من) في قوله تعالى: **إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** لأنّهما لا يخلون من الفتنة و إشتغال القلب بهما.

روى التّرمذي و غيره عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال رأيت النّبي ﷺ يخطب فجاء الحسن و الحسين عليهما السّلام و عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران فنزل النّبي ﷺ عن المنبر و وضعهما بين يديه ثمّ قال ﷺ: صدق اللّه عزّ وجلّ أنّما أموالكم و أولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصَّبيين يمشيان و يعثران فلم أصبر حتىّ قطعت حديثي و رفعتهما ثمّ أخذ رسول اللّه في خطبته.

أقول و الّذي ظهر لنا من هاتين الأيتين أمران:

أحدهما: أنّ بعض الأزواج و الأولاد في زمرة الأعداء واقعاً و هم الّذي يحمّلون على الزّوج و الأب كسب المحرَّم و غصب حقّ الغير و منع حقّ اللّه كما هو شأن الأزواج و الأولاد في زماننا هذا و ذلك لأنّهم لا يقنعون بما قدَّر اللّه لهم من رزق الحلال.

الثّاني: أنّ الأموال و الأولاد فتنة أي بلاء و إختبار في دار الدُّنيا وكلا الأمرين لا شكّ فيهما فينبغي للإنسان أن يعرف قدره و منزلته و لا يتّجاوز طوره و لا يطيعهم في معصية اللّه.

ثمّ قال: **وَ ٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ** يوم القيامة لمن صبر على هذا البلاء و حفظ دينه و لا يمكن هذا إلاّ بتوفيقٍ من اللّه تعالى.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَ ٱسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ وَ مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

الفاء للتّفريع أي إذا عرفتم حال الأزواج و الأولاد و الأموال فلا تعتمدوا عليهم **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** بفعل الواجبات و ترك المحرّمات بقدر الإستطاعة و القدرة فأنّ اللّه تعالى: **لا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** و ذلك لأنّ التّكليف بما لا يطاق قبيحٌ عقلاً و شرعاً.

وَ ٱسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا أي و أسمعوا كلام اللّه أو كلام الرّسل و أطيعوا أوامره و نواهيه **وَ أَنفِقُوا** في سبيل اللّه من أموالكم ما هو خيرٌ لأنفسكم غداً يوم القيامة **وَ مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** الوقاية الحفظ و المنع يقال وقاه اللّه شرّ فلان أي حفظه و منع الشّر عنه، و المعنى من وقىٰ و حفظ شحّ نفسه، و فعل ما أوجبه اللّه عليه فهو من الفائزين بثواب اللّه.

إذا عرفت تفسير ألفاظ الآية فأعلم أنّا هاهنا كلام بين المفسّرين لا بأس بالإشارة إليه و هو أنّ هذه الآية هل هي ناسخة لقوله تعالى: **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** أم ليست بناسخة لها فذهب قوم إلى أنّها ناسخة لها منهم قتادة و السُّدي و الرّبيع بن أنس و إبن زيد قالوا لمّا نزل قوله تعالى: **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**(١) قال المسلمون جاء أمرٌ شديدٌ و من يعرف قدر هذا أو يبلغه فلمّا عرف اللّه أنّه إشتدّ ذلك عليهم نسخها عنهم و جاء بهذه الآية الأخرى فقال: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** و قيل هي محكمة لا نسخ فيها فقال إبن عبّاس أنّ قوله تعالى: **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** لم تنسخ و لكن حقّ تقاته أن يجاهد للّه حقّ جهاده و لا يأخذهم في اللّه لومة لائمٍ و يقوموا للّه بالقسط ولو على أنفسهم و أبائهم و أبنائهم.

١- أل عمران = ١٠٢

فأن قلت إذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** و كيف يجوز إجتماع الأمر بإتّقاء اللّه حقّ تقاته و الأمر بإتّقاءه ما إستطعنا و الأمر بإتّقاءه حقّ تقاته إيجاب القرأن بغير خصوص وصل بشرط، و أمّا الأمر بإتّقاءه ما إستطعنا أمرٌ بإتّقاءه موصولاً بشرطٍ.

قلت قوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** بمعزلٍ عمّا دلَّ عليه قوله: **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** و أنّما عنى بقوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** فإتّقوا اللّه أيّها النّاس و راقبوه فيما جعل فتنة لكم في أموالكم و أولادكم أن تغلبكم فتنتهم و تصدّكم عن الواجب للّه عليكم من الهجرة عن أرض الكفر إلى أرض الإسلام فتتركوا الهجرة ما إستطعتم بفتنة أموالكم و أولادكم و ممّا يدلّ على هذا أنّ قوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** عقيب قوله: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَ أَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** هكذا قيل و قد أطالَ المفسّرون البحث حول الآية في أنّها ناسخة أو غير ناسخة و لا سيّما مفسرين العامّة.

و الّذي نقول في المقام هو أنّ البحث لا محلَّ له أصلاً و ليس في المقام ناسخاً و لا منسوخاً و ذلك لأنّ قوله تعالى في سورة أل عمران **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** لا ينافي قوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** و ذلك لأنّ قدرة المكلّف على الفعل و إستطاعته شرطٌ عقلّي و هو موجود في الأيتين ذكر أو لا يذكر و ذلك لأنّ التّكليف مشروط بالقدرة عقلاً لقوله تعالى: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** فكلّ ما لا يقدر العبد على فعله و الإتيان به لا يكلّف به قطعاً و على هذا فقوله تعالى: **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** تَقديره إتّقوا اللّه حقّ تُقاته ما إستَطَعتُم.

و حاصل الكلام هو أنّ مفاد الأيتين واحد و الإستطاعة شرط فيهما عقلاً و قد ثبت أنّ الشّروط العقليّة لا تحتاج إلى الذِّكر فإذا قال المولى صوموا تصحّوا، أو حجُّوا أو صلُّوا أو جاهدوا، تقديره إن إستطعتم فمن كان مريضاً لم يقدر على الصَّوم و من كان فقيراً أو مريضاً لم يقدر على الحَّج و هكذا إذا قال المولى

صلِّ قائماً معناه صلِّ قائماً إن إستطعت و هذا معلوم لا يحتاج إلى إطالة الكلام و العجب من المفسرين حيث لم يفرّقوا بين الشَّرط العقليّ و النقليّ و لم يعلموا أنّ الإستطاعة و القدرة غير الطّهارة في الصّلوة و أنّ الطّهارة في الصّلوة لابدّ لها من بيان بخلاف القدرة على الفصل فأنّها لا تحتاج إلى ذكرٍ أو بيان لإستقلال العقل بلزومه سواء ذكر أم لم يذكر هذا و اللّه أعلم.

إِنْ تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ، عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

القرض أخذ قطعةٍ من المال بتمليك الآخذ له على ردّ مثله و أصله القطع من قرض الشّيء يقرضه قرضاً إذا قطع منه قطعةً، و المعنى إن **تُقْرِضُوا ٱللَّهَ** أي تنفقوا في سبيل اللّه و هو كالقرض في مثله مع أضعافه و ليس معناه أن يملك اللّه تعالى لأنّه مالك لجميع الأشياء و المالك لا يملّك ما هو مالكه و يحتمل أن يكون المراد أن يقرض المؤمن قربةً إلى اللّه.

و قوله تعالى: **يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ** أي يضاعف ثوابه لكم **وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** معناه أنّه تعالى يجازي على الشُّكر و لا يعاجل العباد بما يستحقّونه من العقاب **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَٰدَةِ** أي يعلم السّر و العلانيّة و هو العزيز الحكيم، أي هو الّذي متّصف بالقدرة و الحكمة في جميع أفعاله و قد مرَّ الكلام في آية القرض فى سورة البقرة و الحديد مفصّلاً.

■

سُورَةُ ٱلطَّلَاقِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذاٰ طَـلَّقْتُمُ ٱلنِّسٰآءَ فَـطَلِّقُوهُنَّ
لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ رَبَّكُمْ لاٰ
تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لاٰ يَخْرُجْنَ إِلآَّ أَنْ
يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ ٱللّٰهِ وَ مَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللّٰهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاٰ تَدْرِي لَعَلَّ
ٱللّٰهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذاٰ بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فٰارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ
أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا ٱلشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ
ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ
ٱلْاٰخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَ
يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ
فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ ٱللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَ ٱللّٰٓئِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ
نِسٰآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاٰثَةُ أَشْهُرٍ وَ ٱللّٰٓئِي لَمْ
يَحِضْنَ وَ أُولاٰتُ ٱلْأَحْمٰالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذٰلِكَ

أَمْرُ ٱللَّهِ أَنْزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ
وَ إِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ
أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ
أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ
رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّآ آتَيٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا مَآ آتَيٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَ
كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ
فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾
فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا ٱللَّهَ يَآ أُولِي
ٱلْأَلْبَابِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾
رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ
ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى
ٱلنُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ
بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ
ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

◄ اللّغة

طَلَّقْتُمُ: الطّلاق في الأصل التّخلية من الوثاق يقال أطلقت البعير من عقاله و منه أسُعير طلّقت المرأة.

ٱلْعِدَّةَ: بكسر العَين و فتح الدّال المشدّدة قعود المرأة عن الزّواج حتّى تنقضي المدّة المقررة في الشّريعة.

بِفَاحِشَةٍ: الفاحشة كلّ فعلٍ قبيح و المراد بها في المقام الزّناء.

نُكْرًا: النُّكر بضّم النُّون ما ينكره الطّبع.

وَبَالَ: بكسر الواو الوزر و الإثم.

ٱلْأَلْبَابِ: جمع لبّ و هو العقل.

◄ الإعراب

بَالِغُ أَمْرِهِ يقرأ بالتّنوين و النّصب و بالإضافة و الجرّ و الإضافة غير محضة، و يقرأ بالتّنوين و الرّفع على أنّه فاعل بالغ، و قيل أمره مبتدأ و بالغ خبره وَ ٱلَّٰٓئِي لَمْ يَحِضْنَ هو مبتدأ و الخبر محذوفٌ أي فعدَّتهن كذلك أَجَلُهُنَّ مبتدأ و أَنْ يَضَعْنَ خبره و الجملة خبر أولات مِنْ وُجْدِكُمْ بضّم الواو و فتحها و الوجد الغنى رَسُولاً.

الاوّل: ينتصب بذكر أو يجوز أن يكون بدلاً من ذكراً.

الثّانى: و يكون الرّسول بمعنى الرّسالة و يَتْلُوا على هذا نعتٌ.

الثّالث: أن يكون حالاً من إسم اللّه.

قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ الجملة حال ثانية و أو حال من الضّمير في خالدين مِثْلَهُنَّ بالنّصب و الرّفع فالنّصب على أنّه معطوف على (و خلق من الأرض مثلهنّ) و الرّفع على الإستئناف و يَتَنَزَّلُ مستأنف و يجوز أن يكون حالاً لما قبله و لكلٍّ وجهٌ وجيهٌ و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْرًا

الخطاب للنّبي و المراد الأمّة **إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ** أي إذا أردتم طلاق النّساء، و قيل تقدير الكلام، يا أيّها النّبي قل لأمّتك إذا طلّقتم النّساء فعلى هذا القول يكون النّبي خارجاً عن الحكم.

و قيل هو على خطاب الرّئيس الّذي يدخل فيه الأتباع فعلى هذا حكم النّبي حكم أمّته و أجمعت الأمّة على أنّ حكم النّبي حكم الأمّة في الطّلاق، ذكره الشّيخ في التّبيان.

أقول في الآية مباحث:

الأوّل: أنّ قوله **يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ** الخطاب للنّبي ولجميع الأمّة و لكن خصّه اللّه تعالى بالذّكر لأنّه الرّئيس المقدَّم جرى سبحانه في ذلك على المتعارف في توجّه الخطاب إلى أشرف القوم فيما يراد منهم و يرشد إلى ذلك التّعبير من الحكم بصيغة الجمع و الإجماع على أنّ حكمه في الطّلاق حكم أمّته و قيل المعنى قل لأمّتك و هو بعيد و المعنى إذا أردتم فهو على المجاز المشهور و قد مرَّ معناه أي معنى الطّلاق في اللّغة.

و أمّا في الشّرع فهو إزالة قيد النّكاح بصيغة طالق من القادر على النّطق بها و بالإشارة من العاجز مع كون ذلك من غير عوضٍ و القيد الأخير لإخراج الطّلاق بالعوض فأنّه من أقسام الخلع كما هو أحد القولين في المسألة و هو أي الطّلاق ينقسم إلى بدعيٍّ، و سنيٍّ، و المراد بالبدعي ما لم يقع على الشّروط الاتى

اعتبرها الشّارع في صحّته، كما أنّ المراد من السُّني ما إجتمع فيه الشُّروط و يعبّر عنه بالسنيّ بالمعنى الأعمّ لشموله لكلّ طلاقٍ صحيحٌ و هو أنواعٌ:

منها، ما لم يكن للمطلّق فيه الرُّجوع و يسمّى البائن كطلاق الغير المدخول بها و الصَّغيرة و الخلع و المباراة و المطلّقة ثلاثاً بينها رجعتان و المطلّقة تسعاً للعدّة و الأيس.

و منها، ما يطلّقها و يراجعها في العدّة و يواقعها و يسمّى طلاق العدّى.

و منها، ما يطلّقها و يراجعها بعد إنقضاء العدّة بعقدٍ جديدٍ و مهرٍ و يسمّى السُّني بالمعنى الأخصّ.

و منها، ما يطلّقها و يراجعها في العدّة لكن لم يواقعها.

و منها، ما يطلّقها و لم يراجعها مطلقاً و هذا يدخل في السُّني بالمعنى الأخصّ كما يفهم من الرّوايات و قد يعبّر عمّا عدا البائن بالرّجعي لأنّه ممّا يصحّ فيه الرّجوع.

فقد روي الشّيخ في الصّحيح من زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال كلّ طلاقٍ لا يكون على السُّنة أو على طلاق العدّة فليس بشئ، قال زرارة قلت لأبي جعفر عليه السلام فسّر لي طلاق السنّة و طلاق العدّة فقال عليه السلام أمّا طلاق السنّة فإذا أراد الرّجل أن يطلّق إمرأته فلينتظرها حتّى تطمث و تطهر فإذا خرجت من طمثها طلّقها تطليقةً من غير جماع و يشهد شاهدين على ذلك ثمّ يدعها حتّى تطمث طمثتين فتنقضي عدتّها بثلاث حيض و قد بانت منه و يكون خاطباً من الخطّاب إن شائت تزوجته و إن شائت لم تتزوّجه نفقتها و السُّكنى ما دامت في عدتّها و هما يتوارثان حتّى تنقضي العدّة، قال عليه السلام و أمّا طلاق العدّة الّتى قال اللّه تعالى: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ فإذا أراد الرّجل أن يطلّق إمرأته طلاق العدّة فلينتظرها حتّى

تحيض و تخرج من حيضها ثمّ يطلّقها تطليقة من غير جماعٍ و يشهد شاهدين عدلين و يراجعها من يومه ذلك إن أحبَّ أو بعد ذلك بأيّام قبل أن تحيض و يشهد على رجعتها و يواقعها و يكون معه حتّى تحض فإذا حاضت و خرجت من حيضها طلّقها تطليقةً أخرى من غير جماعٍ و يشهد على ذلك ثمّ يراجعها أيضاً متى شاء قبل أن تحيض و يشهد على رجعتها و يواقعها و يكون معها الى أن تحيض الثّالثة فإذا خرجت من حيضها طلّقها الثّالثة بغير جماعٍ و يشهد على ذلك فإذا فعل ذلك فقد بانت مه و لا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره قيل له و إن كانت ممّن لا تحيض فقال مثل هذه تطلق طلاق السنّة. و الظّاهر أنّ المراد بالسُّنة هنا المعنى الخّاص.

و أيضاً عن الباقر و الصّادق عليهما السّلام أنَّهما قالا: الطّلاق الّذي أمر اللّه تعالى به في كتابه و سنَّة نبيّه أنّه إذا حاضت المرأة و طهرت عن حيضها أشهد رجلين عدلين من قبل أن يجامعها على تطليقة ثمّ هو أحقّ برجعتها ما لم تمض ثلاثة قروءٍ فأن راجعها كانت عنده على تطليقتين أي باقيتين و إن مضت ثلاثة قروءٍ قبل أن يراجعها فهي أملك بنفسها.

البحث الثّانى: في قوله تعالى: **وَ أَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ** و العدَّة تعوّد المرأة عن الزّواج حتّى تنقضي المدَّة المقرّرة المرتبّة في الشَّريعة و هى على أقسام:

أحدها: عدَّة الّتى لم تبلغ المحيض و مثلها لا تحيض و هى الّتى لم تبلغ تسع سنين فهذه لا عدَّة عليها عند أكثر أصحابنا و فيهم من قال عدَّتها بالشُّهور.

و عدَّة الّتى لا تحيض و مثلها تحيض ثلاثة أشهر بلا خلاف، و عدَّة الّتى تحيض ثلاثة أقرء و هى الأطهار عندنا و عند كثير من الفقهاء و عند قومٍ أنّها الحيض و عدة الاتى ءرّتفع حيضها و مثلها تحيض ثلاثة أشهر بلا خلاف و قد

حدَّ ذلك أصحابنا بأن يكون سنّها أقلّ من خمسين سنة و عدَّة الآيسة من المحيض و مثلها لا تحيض فلا عدَّة عليها عند أكثر أصحابنا.

و قال قومٌ عدّتها بالأشهر و حدّ ذلك أصحابنا بأن يزيد سنّها على خمسين سنة و القريشيّة حدُّوها بستّين سنة فصاعداً، و عدَّة الحامل وضع ما في بطنها إذا كانت عدَّة الطّلاق فأن كانت عدَّة الوفاة فأبعد الأجلين من وضع الحمل و مضيّ أربعة أشهر و عشرة أيّام.

و قال الفقهاء عدَّة المتوفّي عنها زوجها وضع ما في بطنها ذكره الشّيخ قدس سره في التّبيان.

البحث الثّالث: قوله **وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ** و المعنى لا ترتكبوا المعاصي و لا تخرجوا المطلَّقات من بيوتهنّ بعد الطّلاق.

نهى اللّه تعالى عن إخراج المطلَّقات من الموضع اللائق بهنّ ما دامت المرأة في العدَّة و هذا الحكم ثابتٌ بالنّسبة إلى ذات العدَّة الرَّجعيَّة كما يدلّ عليه قول اللّه تعالى: **لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا** و يدلّ عليه ما رواه أبو بصير عن أحدهما عليهما السّلام في المُطلَّقة أين تعتدّ.

فقال عليه السلام: في بيتها إذا كان الطّلاق عليها رجعة ليس له أن يخرجها و لا لها أن تخرج حتّى تنقضي عدَّتها.

و في رواية أخرى المطلَّقة تعتدّ في بيتها و تظهر له زينتها لعلَّ اللّه يحدث بعد ذلك أمراً.

و في الصّحيح عن سعد بن أبي خلف قال: سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن شيء من الطّلاق فقال عليه السلام: إذا طلَّق الرّجل إمرأته طلاقاً لا يملك فيه الرَّجعة فقد بانت منه ساعة طلَّقها و نلكت نفسها و لا سبيل عليها و تذهب حيث شاءت و لا نفقة لها عليه قال قلت أليس اللّه يقول لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ و لا يخرجن فقال عليه السلام أنّما

عني الّذي تطلق تطليقة بعد تطليقة فتلك الّتى لا تخرج حتّى تطلق الثّالثة فإذا طلّقت الثّالثة فقد بانت منه و لا نفقة لها و المرأة الّتى يطلّقها الرّجل تطليقة ثمّ يدعها حتّى يخلوا أجلها فهذه أيضاً تعتدّ في منزل زوجها و لها النَّفقة و السُّكنى حتّى تنقضي عدّتها إنتهى.

و الأخبار بهذه المضامين كثيرة و تفصيل الكلام في هذه الأحكام خارج عن موضوع الكتاب و من أراد الوقوف عليها تفصيلاً فعليه بمراجعة الكتب الفقهيّة.

البحث الرّابع: قوله تعالى: **وَ لَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** الظّاهر من الآية و الرّوايات أنّه لا يجوز له الإخراج و لا يجوز لها الخروج من بيتها من جهة حقّها و حقّه فحقّها السُّكنى و النَّفقة و حقّه بضعها و لهذا لا ينبغي لها ترك الزِّينة في تلك الحال فلو تراضيا و أذن لها بالخروج جاز ذلك لها و إليه ذهب كثير من أصحابنا و يؤيّده إستصحاب حال الزّوجية و أنّ المطلّقة بحكمها فكما جاز لها الخروج بأذنه في تلك الحال جاز هنا أيضاً.

و ما رواه الحلبي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لا ينبغي للمطلَّقة أن تخرج إلاّ بأذن زوجها حتّى تنقضي عدّتها ثلاث قروء أو ثلاثة أشهر و غيره من الأخبار.

و قال بعض الفقهاء من العامّة و الخاصّة إلى أنّ النّهي في الآية تعلّق بنفس الخروج غير مقيَّدٍ بشيءٍ فيكون ذلك حقّ اللّه فلا يجوز لها الخروج و إن أذن الزَّوج، و فيه نظرٌ واضح لأنّ قوله تعالى لعلَّ اللّه يحدث بعد ذلك أمراً من قبيل العلّة لعدم الخروج ففيه تنبيهٌ واضح على كونه حقّ الزّوج فيجوز له الإذن و يجوز لها الخروج و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **إِلَّآ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** فالظّاهر أنّ الإستثناء من الإخراج أي لا يجوز للزَّوج إخراجها إلاّ في هذه الصُّورة ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى الفاحشة المبيّنة في الآية.

فمنهم، من قال المراد بها أن تؤذي المرأة أهل زوجها فإذا فعلت ذلك فأن شاء أن يخرجها من قبل أن تنقضي عدّتها فعل.

و في روايةٍ أخرى قال عليه السلام: أذاها لأهل الرّجل و سوء خلقها.

و قيل برجوعه إلى الخروج أي أنّ خروجها قبل إنقضاء عدّتها في نفسه فاحشة، و قيل الفاحشة هي الزّناء، فتخرج لإقامة الحدّ عليها و به قال المفيد في المقنعة و الطّوسي قدّس سرّه في النّهاية و هو الظّاهر من إبن بابويه في الفقيه حيث قال فيه:

و سئل الصّادق عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ إلى قوله: بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ قال عليه السلام: ألاّ أن تزني فتخرج و يقام عليها الحدّ و هو المنقول عن جماعةٍ من مفسّري العامّة أيضاً.

و قيل هي النُّشوز فإذا طلّقها على نشوزٍ منها سقط حقّها من السُّكنى.

و قيل هي كلّ معصيةٍ للّه ظاهرة و قيل غير ذلك كما قال إبن عمر هو خروجها قبل إنقضاء عدّتها و أحسن الأقوال الّذي لا خلاف فيه هو أنّ المراد بها الزّناء و اللّه أعلم.

البحث الخامس: في قوله تعالى: **وَ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا** قوله: **تِلْكَ** إشارة إلى جميع الأحكام المذكورة الشّاملة لخروجها و إخراجها تأكيداً للحكم و تحذيراً عن المخالفة المبيّنة عن سخط اللّه و عذابه.

فقد روى في الكافي عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام لا يقع الطّلاق إلاّ على الكتاب و السُّنة لأنّه حدٌّ من حدود اللّه تعالى حيث يقول و إذا طلقتم النّساء الآية و يقول و أشهدوا ذوي عدلٍ منكم، و يقول و تلك حدود اللّه و من يتّعد حدود اللّه فقد ظلم نفسه.

و أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ردَّ طلاق عبد اللّه بن عمر لأنّه كان خلاف الكتاب و السُّنة، و مقتضى الآية إطلاق الظّالم على فاعل المعصية مطلقاً.

و أمّا قوله: **لَا تَدْرِي** فالخطاب للنّبي ظاهراً و للأمّة واقعاً و قوله: **لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا** يعني بعد الطّلاق و إنقضاء العدّة التّزويج لها من قبل أن تتّزوج زوجاً غيره أي ما بين الطّلقة الأولى و الثّانية و ما بين الثّانية و الثّالثة فهو علّة لجعله سبحانه الطّلاق مرّتين و بالثّالثة تحتاج إلى المحلّل.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا ٱلشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة حكم المطلّقات و الطّلاق و أنّه إذا كان في العدّة لابدّ للمطلّق و المطلّقة إحصائها و لا يجوز له إخراج المطلّقة عن بيتها خروجها عنه بغير إجازة الزّوج و غيرها من الأحكام ذكر في هذه الآية حكمها بعد خروجها عن العدّة فقال: **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** المراد بالأجل هو خروجها عن العدّة المضروبة لها بعد الطّلاق و المعنى إذا قاربن إنقضاء العدّة **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** و المعنى إذا قاربن الخروج من عدتهنَّ فأنتم مخيَّرون بين إمساكهنّ بأن تراجعوهنّ بمعروفٍ بما يجب لها من النّفقة و الكسوة و المسكن و حسن الصُّحبة، و بين مفارقتهنّ بمعروفٍ بأن تتركوهنّ حتّى يخرجن من العدّة و هذا أي التّخيير قبل إنقضاء العدّة و أمّا بعده فالمطلّقة تملك نفسها و تتزوّج بمن شاءت و أرادت و المطلّق أحد الخطّاب كغيره من أحاد النّاس و ذلك لأنّ المطلّق له حقّ الرّجوع إلى المطلّقة قبل إنقضاء العدّة و أمّا بعده فلا حقّ له و أنّما هو كغيره من الخطّاب و لأجل هذا ترى المفسّرين فسّروا (بلغن) ب(قاربن) أي قاربن إنقضاء العدّة لأنّه عند

إنقضاء العدّة و الأجل لا يملك رجعتها و قد ملكت المرأة نفسهابانت منه بواحدة ثمّ تتزوّج من شاءت هو أو غيره ثمّ أنّ المطلّق إن أراد الرُّجوع و إمساك المرأة على ما كانت قبل فلاكلام فيه لأنّ الرّجوع حقّه و أمّا أن أراد المفارقة فلا رجوع له حتّى خرجت من العدّة، ثمّ حكم اللّه تعالى بأنّه إذ أراد الطّلاق ينبغي له الإشهاد به فقال: **وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا ٱلشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ** الإشهاد راجع إلى أصل الطّلاق لأنّ الكلام فيه المقصود الأصلى و الأمر حقيقة في الوجوب فيدلّ على وجوب الأشهاد و على كونه شرطاً في صحّة الطّلاق و يدلّ على ذلك غير واحدٍ من الأخبار المستفيضة عن المعصومين عليهم السّلام بل للإجماع من أهل البيت عليهم السّلام و إجماع شيعتهم على ذلك.

قال الشّيخ الطُّوسيرحمه الله و هو من أعاظم الفقهاء في التّبيان في تفسير الآية ما هذا لفظه:

فعند أصحابنا الاشهاد شرط في وقوع الطّلاق لأنّ ظاهر الأمر يقضيه و الأمر عندنا على الوجوب إنتهى.

و قال قومٌ أنّ ذلك أي الأشهاد راجع إلى الرَّجعة أي إذا أردتم الرّجوع إلى المطلّقة فأشهدوا على ذلك ذوي عدلٍ منكم في قول إبن عبّاس.

و قال الشّافعي الأشهاد على الرَّجعة أولى.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه، **وَ أَشْهِدُوا** أمرٌ بالإشهاد على الطّلاق و قيل على الرَّجعة و الظّاهر رجوعه إلى الرَّجعة لا إلى الطّلاق فأن راجع من غير إشهادٍ ففي صحّة الرّجعة قولان للفقهاء، و قيل المعنى و أشهدوا عند الرّجعة و الفرقة جميعاً و هذا الإشهاد مندوبٌ إليه عند أبي حنيفة كقوله تعالى: **وَ أَشْهِدُوٓا إِذٰا تَبٰايَعْتُمْ**(١).

١- البَقَرة = ٢٨٢

و عند الشّافعي واجب في الرَّجعة مندوبٌ إليه في الفرقة و فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التّجاحد و أن لا يتَّهم في إمساكها و لئلاّ يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزّوجية ليرث إنتهى ما نقلناه عنه.

أقول و أوجب أحمد بن حنبل الإشهاد في الرَّجعة في أحد قوليه و الشّافعي كذلك لظاهر الأمر و قال مالك و أبو حنيفة و احمد و الشّافعي في القول الأخر أنّ الرَّجعة لا تفتقر إلى القبول فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق و الأقوال منهم في الباب كثيرة ولم نر فيها القول بوجوب الإشهاد في الطّلاق نعم قالوا ذلك في الرَّجعة و أمّا في الطّلاق فحملوا الأمر على النَّدب و على هذا فالطّلاق بدون الإشهاد عندهم صحيحٌ لا إشكال فيه.

و أمّا الإماميّة فقد إتَّفقت على بطلان الطّلاق بدون الإشهاد من ذوي عدل و لازم ذلك بقاء الزّوجة على زوجيّتها إذا وقع الطّلاق من غير إشهادٍ فلا يجوز لها أن تتزوّج بغيره فلو تزوّجت بغيره تكون زانية، أنظر إلى ثمرة القولين ثمّ إختر أيّهما شئت و لا شكّ عند الشّيعة الإماميّة أنّ أهل البيت أدرى بما في البيت ممّن هو أجنبيٌّ عنه و لا يقول ما يقول إلاّ من عند نفسه.

قال بعض المحقّقين من فقهائنا، يجب أن يكون الطّلاق بمحضرٍ من الشّاهدين و مسمعٍ منهما معاً فلا يصحّ الطّلاق لو وقع متفرّقاً بأن يشهد كلّ واحدٍ منهما في وقتٍ و يدلّ على ذلك الإجماع و الأخبار أيضاً و قد أستفيد منها أنّه لا يكفي في صحّة الطّلاق شهادة النّساء لا منضّمات إلى الرّجال منفردات و هو الّذي دلَّت عليه الأخبار المعتبرة و هو المشهور بين الأصحاب و ما ورد في بعض الأخبار من قبول شهادتهنّ فيه محمولٌ على التَّقية و أستفيد منها قبول شهادة المماليك و يدلّ عليه كثير من الأخبار أيضاً و ما ورد بخلافه محمولٌ على التَّقية.

و أمّا العامّة فنقل في الكشّاف أنّ الإشهاد راجع إلى الرّجعة و الفرقة جميعاً على النّدب عند أبي حنيفة كقوله تعالى: **وَ أَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** و عند الشّافعي واجبٌ في الرّجعة مندوبٌ إليه في الفرقة، أمّا قول أبي حنيفة فأنّه خلاف ظاهر الأمر بلا قرينةٍ السّياق تقتضي الوجوب، مضافاً إلى أنّه قياس و القياس باطل عندنا.

و أمّا قول الشّافعي انّ ما ذكره تحكّمٌ بلا دليل يدلّ على الفرق الّذي ذكره بل هو من قبيل الألغاز و التّعمية مع أنّه من إستعمال الشّئ في الحقيقة و المجاز معاً و على تقدير تسليمه يفتقر إلى القرينة وكذا لو حمل على مطلق الرّجحان و القرينة هنا مفقودة على أنّ تعلُّق الأشهاد في الفرقة لا معنى له إذ يكفي فيه إستمرار الطّلاق فلا حاجة إلى الإشهاد.

نعم يمكن على مذهب الإماميّة تعلُّق الإشهاد في الآية بالطّلاق و الرّجعة معاً على أن يكون الأوّل على الوجوب و الثّاني على النّدب حملاً للأمر على مطلق الرُّجحان المتلّقي بيانه من معدن الوحي كالأيات المجملة المتلّقي بيانها منهم عليهم السّلام و كما أمر سبحانه بالإشهاد أمر الشّاهد بإقامتها و أدائها إذا طلبت الشّهادة و إلى ذلك أشار بقوله: **وَ أَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ** أي إمتثالاً لأمره سبحانه و رجاء ثوابه و فيه حثٌّ لهم على إلتزام الصِّدق و التّحرز عن الكذب

ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْأٰخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُۥ مَخْرَجًا.

ذلكم، إشارة إلى الأحكام المذكورة في الأيتين و المعنى أنّ ما ذكرناه من أحكام الطّلاق و العدّة و الإشهاد و غير ذلك يوعظ به المؤمن باللّه و اليوم الأخر و مفهوم الآية أنّ من لا يوعظ به فهو ليس من المؤمنين و من يتقّ اللّه بإجتناب معاصيه يجعل مخرجاً من عقابه يوم القيامة.

وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا

الواو للعطف و الآية معطوفة على سابقتها أي يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب أي من حيث لا يتوّقعه و لا يظنُّه **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** أي من أسند أمره إليه تعالى و وثق بحكمه و سكن إلى رحمته **فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** أي أنّ اللّه يكفيه و لا يحتاج إلى غيره و ذلك **إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ** أي أنّ اللّه يبلغ ما يريد و يشاء من أمره و تدبيره لأنّه قادر على كلّ شئ.

قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا معناه قدّر اللّه تعالى لكلّ شئ مقداراً و مدّةً لا زيادة فيه و لا نقصان و هذا هو المسمّى بالقدر فأنّ القضاء الحكم و القدر حدّه و مقداره و محصلّ الكلام في الآية أنّ هذه الأثار كلّها متوقّفةٌ على التّقوى مترتبّة عليها ترتّب الثّمر على الشّجر و المسبّب على السّبب ثمّ بيَّن اللّه تعالى كيفيّة العدد بإختلاف أحوال النّساء فقال:

وَ ٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَ ٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية حكم اليائسة من النّساء و حكم أولات الأحمال من حيث العدّة في الطّلاق لأنّ المرأة تارةً تكون مستقيمة الحيض و قد لا تكون كذلك فأن كانت مستقيمة الحيض فقد مضى حكمها في الأيات السّابقة و أن كانت غير مستقيمة الحيض فهي مورد البحث في هذه الآية لمّا نزّلت الآية السّابقة في عدّة ذوات الأقراء قيل فما عدّة اللائّي لم يحضن فنزلت هذه الأية.

قوله: **وَ ٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ** مبتدأ **فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ** الخبر و صحّ دخول الفاء على الخبر لتَّضمنه معنى الشّرط و قوله: **وَ ٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ** مبتدأ و خبره محذوف لدلالة الأوّل عليه ففي الآية مسائل:

الأولىٰ: قد ثبت في الشّرع أنّ بلوغ المرأة لا يكون إلاّ بعد كمال التّسع سنين فالدّم الّذي تراه قبل ذلك ليس بحيضٍ قطعاً فلا تكون من ذوات الأقراء و الّتى كملت لها المدّة المذكورة فأن رأت الدَّم مستقيماً على الوجه الّذي ذكرناه سابقاً فهي من ذوات الأقراء و عدّتها بالأقراء كما مرَّ و إلاّ فعدّتها بالأشهر و هو المعنّي بقوله: **وَ ٱلَّٰٓئِي لَمْ يَحِضْنَ** لأنّ المعنى و اللاّئي لم يحضن و هى في سنّ من تحيض كما تكشف عنه الرّوايات و يستمرّ لها هذا الحكم حتّى تبلغ سنّ اليأس و في حدّه خلاف بين الأصحاب لإختلاف الأخبار ظاهراً و الظّاهر في جمعها أنّه في غير القريشّية يتّحقق ببلوغ الخمسين و فيها بالستّين فمتى حصل القطع ببلوغها المدّة المذكورة فهي أيسة قطعاً و أن لم يحصل القطع بذلك وإنقطع عنها الدَّم و لم تره من ذوات الرَّيبة و الشكّ في كون إنقطاع الدّم عنها لكبر أم لعارضٍ من ريح أو غيره و هذا هو المقصود من قوله تعالى: **إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ** فأنّ الإرتياب الشكّ أي إن شككتم في بلوغها المدّة المذكورة و إنقطع عنها الدَّم ولم تره فعدّتها ثلاثة أشهر و قد وردت الأخبار على أنّ العدّة الّتى حصل الشكّ في بلوغها حدّ اليأس و الّتى لا تحيض و مثلها يحيض ثلاثة أشهر، و يفهم من الأخبار أنّه لا فرق فيمن لا تحيض و هى في سنّ من تحيض بين أن يكون إنقطاع حيضها خلقاً، أو لعارضٍ من حملٍ أو رضاعٍ و مرضٍ و تدلّ الآية بطريق المفهوم أنّ من حصل القطع ببلوغها حدّ اليأس و إنتفى عنها الرَّيب فلا عدّة لهاوكذا من لم يكمل لها التِّسع.

الثّانية: في حكم اللائي لم يحضن و أولات الأحمال، فقد حكم اللّه تعالى بأنّ عدّة اللائي لم يحضن ثلاثة أشهر أيضاً و ذلك لما قلنا أنّ الخبر و هو ثلاثة أشهر، محذوفٌ لدلالة الأوّل عليه فأنّ الحكم في المرأة الّتى يئست عن المحيض و الّتى لا تحيض واحد فكأنّه قال و اللاّئي من المحيض في صورة الإرتياب و اللاّئي لم يحضن حكمهما واحد في العدّة و هو ثلاثة أشهر و هذا مسلّمٌ عند الأصحاب.

الثّالثة: أولات الأحمال، حكم اللّه تعالى بأنّ عدَّتهن أن يضعن حملهنّ بعد الطّلاق و هذا أيضاً مجمعٌ عليه بين الأصحاب و لو كان وضع حملها بلحظةٍ.

فقد روى الشّيخ عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الرَّجل يطَّلق إمرأته و هى حبلى قال عليه السلام: أن تضع حملها إنتهى.

و على هذا فلو راجعها بعد وضع الحمل لا حقّ له و هو خاطب من الخطّاب و يدلّ عليه صحيحة الحلبي عن أبي عبد اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أنّه قال طلاق الحبلى واحدة و أن شاء راجعها قبل أن تضع و إن وضعت قبل أن يراجعها فقد بانت منه و هو خاطب من الخطّاب إنتهى.

و ظاهر الإطلاق يتناول حمل الحيّ و الميّت و التامّ و النّاقص بعد أن يتحقّق أنّه مبدأ نشوٍ أدميّ و يدلّ عليه ما رواه إبن بابويه في الصّحيح عن عبد الرّحمن أنّه سأل أبا عبد اللّه عليه السلام عن الحبلى يطلّقها زوجها فتضع سقطاً قال عليه السلام:

وتمَّ أو لم يتمّ أو وضعته مضغةً أنّه مضى بذلك عدّتها فقال كلّ شيءٍ وضعت يستبين أنّه حملٌ تمَّ أو لم يتَّم فقد إنقضت عدّتها و أن كان مضغةٍ إنتهى.

و ما ذكرناه من إنقضاء العدّة بوضع الحمل هو المشهور بين الأصحاب و لم تعثر على مخالفٍ في هذا الحكم إلاّ ما يظهر من إبن بابويه في الفقيه من أنّها تعتدّ أقرب الأجلين إلاّ أنّها إذا إنقضت الثّلاث أشهر قبل الوضع فلا تتزوّج حتّىٰ تَضَع ويُنسَب هذا القَول إلىٰ إبن حمزة أيضاً.

الرّابعة: ظاهر الآية يقتضي أنّ هذا الحكم ثابت للمطلّقة حرَّةً كانت أو أمةً و بأيّ نوعٍ من أنواع الفراق فيدخل فيه اللّعان و الخلع و المباراة و الفسخ بأنواعه و وطي الشّبهة، كما أنّ ظاهر الإطلاق ينصرف إلى ما إذا كان الحمل من الزّوج

لا من الزّنا لأنّه المتبادر و لأنّ ولد الزّنا لا يترتّب عليه شيءٌ من الأحكام و كذا ولد الشُّبهة في حكمه لو حملت الزَّوجة من نطفة نقلت إليها بالمساحقة نعم، لو حملت من نطفة زوجها المنقولة إليها بغير جماع منه فأنّ الولد يلحقه و أمّا قوله تعالى: **وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** فالمعنى من يتّق اللّه باجتناب المعاصي يجعل اللّه تعالى له من أمره يسراً، أي لا يعسر عليه أمره.

ذٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا

ذلك، إشارة إلى ما ذكره اللّه من أوّل السُّورة إلى هاهنا من أحكام الطّلاق و العدَّة و غيرهما ممّا يتعلّق بهما فأنّ هذه الأحكام من أمر اللّه أنزله في كتابه إليكم لتعملوا بها و من يتّق اللّه يكفّر عنه سيّئاته الّتى هي دونها و يتفضّل عليه بإسقاط عذابها و عقابها و يعطيه أجراً عظيماً يوم القيامة ثّم أشار اللّه تعالى بعد ذلك بقوله:

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ، لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّآ آتَيٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ آتَيٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا

في هاتين الآيتين أيضاً مسائل نذكرها على سبيل الإجمال.

الأولىٰ: قوله **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ** ألوُجد بضّم الواو و كسرها و هما لغتان و المشهور عند القرّاء ضمّها و عليه المصاحف و قرأ، رُوح بكسر الواو و معناه الملك، و قيل الوجد ملك ما تجده المالك و ذلك أنّه

قد يملك المالك ما يغيب عنه و قد يملك ما هو حاضر له فذلك وجده يقال وجدت الضّالة وجداناً و وجدت الرّجل صالحاً إذا عرفت هذا فالمعنى، أسكنوهنّ، أي المطلّقات بعد الطّلاق و ذلك لأنّه يجب على الزَّوج إذا طلّق إمرأته السكنى لها وا لنَّفقة حتّى تنقضي عدّتها و هذا الحكم بالنَّسبة إلى ذات العدَّة الرَّجعية لأنّها ما دامت فيها بحكم الزّوجة دون غيرها من ذوات العدد ثمّ أنّ المراد بالسُّكنى، هو إسكانها بعد الطّلاق في موضع يليق بحالها ما دامت في العدَّة و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ** أي من سعتكم، قيل الوجد الغنّي و المقدرة و إنّما قيَّد الإسكان بالوجد أي الغنى و المقدرة لأنّ اللّه تعالى شأنه لا يكلِّف نفساً إلاّ وسعها في جميع الأمور حتّى في العبادات.

و قيل معنى من وجدكم من ملككم، و قال إبن زيد هو إذا قال صاحب المسكن لا أترك هذه في بيتي فليس من وجده و يجوز له حينئذٍ أن ينقلها إلى غيره و يستفاد من قوله: **مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ** أنّ الموضع اللائق بحالها هو الموضع الّذي كانا يسكنان فيه قبل الطّلاق و على هذا فالمعنى إبقائها في بيتها الّذي كانت ساكنة فيه حتّى تنقضي عدَّتها.

الثّانية: قوله: **وَ لَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ** قيل معناه لا تدخلوا الضّرر عليهنّ بالتَّقصير في النَّفقة و السُّكنى و الكسوة و حسن العشرة لتضيّقوا عليهنّ في السُّكنى و النّفقة و أصل المضارّة المعاملة بما يطلب به إيقاع الضَّرر بصاحبه و قد تكون المضارّة من واحدٍ و قد تكون من الطَّرفين و التَّضييق تقليل ما يحتاج إلى التصرُّف فيه من مقدار الكفاية، و قد يكون في الرِّزق و في المكان و في الأمر.

الثّالثة: قوله تعالى **وَ إِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** أي و أن كنَّ المطلّقات أولات حملٍ، فأنفقوا عليهنّ من أموالكم حتّى

يضعن حملهنّ، مفهوم الآية أنّ النّفاق واجبٌ قبل وضع الحمل و أمّا بعده فلا و ذلك لأنّ المطلّقة بعد وضع الحمل أجنبيّة في صورة عدم الرَّجعة قبله فلا يجب على المطلّق أن ينفق عليها بالمال و الكسوة و السُّكنى.

قال في التّبيان هذا أمرٌ من اللّه تعالى بالإنفاق على الحامل المطلّقة و انّما يجب الإنفاق عليها بسبب ما في بطنها و إنّما تسقط النَّفقة بالوضع.

الرّابعة: قوله تعالى **فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** أي إن أرضعن الولد لكم فآتوهنّ أجورهنَّ، أي أجر الإرضاع و ذلك لأنّ الولد متعلّقٌ بالزوج و لذلك فأن أرضعن لكم، أي لولدكم، و لا يجب على الأمّ إرضاع الولد سواء كانت مطلّقة أم لا و إنّما نفقة الأولاد على الأب و على هذا فنفقة الإرضاع على الأب سواء كانت المرضعة للولد هي أمّه أم كانت أجنبيّة و هذا ليس من الإنفاق بشئٍ و لذلك قال أجورهنّ، و هو معلومٌ.

الخامسة: قوله **وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى** الإئتمار أمر كلّ واحدٍ لصاحبه بفعلٍ من الأفعال و هو خطاب للأزواج و الزّوجات و المعنى و ليقبل بعضكم من بعضٍ ما أمره به من المعروف الجميل، و الجميل من الزَّوجة إرضاع الولد من غير أجرةٍ و الجميل من الزَّوج توفير الأجرة على الأمّ للإرضاع و قيل معناه إئتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروفٍ حتّى لا يلحقّ الولد إضرار، و قيل هو الكسوة و الدِّثار، و قيل معناه لا تضارّ والدة بولدها و لا مولود له بولده و قيل غير ذلك و الجامع بين الأقوال هو حسن المعاشرة بين الزَّوج و المطلّقة ما دامت مشغولة بإرضاع الولد لئلاّ يلحق الولد الضَّرر من الإختلاف بينهما و هو واضح و أمّا في مورد الإختلاف بين الرّجل و زوجته المطلّقة بأىّ دليلٍ كان في رضاع الصَّبي و أجرته، أرضعته إمرأةٌ أخرى، و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله و أن تعاسرتم فسترضع له أخرى، و التّعاسر التّمانع بتعذّرٍ من الأمر كالتَّمانع بما يتعسّر به رضاع الأمّ فمتى كان كذلك فالحكم فيه أن ترضع الولد إمرأةٌ أخرى.

السّادسة: قوله تعالى **لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّآ اٰتيٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ اٰتيٰهَا** مُحصّل الكلام أنّ كلّ إنسانٍ تجب عليه النَّفقة بحسب حاله و إستطاعته فمن كان موسراً غنيّاً ينبغي أن يوسّع في النّفقة بعد الطّلاق و قبله و من كان معسراً فقيراً لا مال له فهو ينفق بحسب قدرته و إستطاعته و الأصل في ذلك قول اللّه تعالى: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** و على هذا فالإنفاق على الزّوجة المطلّقة ما دامت في العدّة و هكذا أجرة المرضعة بحسب قدرة الزّوج في حال الغنى و الفقر و إلى تكليف الفقير أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** أي ضيق عليه ما إقتضته المصلحة فلينفق ممّا أتاه اللّه من المال على حسب إمكانه و طاقته لأنّه تعالى لا يكلّف نفساً إلاّ ما أتاها من القدرة في إنفاق المال أو غيره و هذا هو مقتضى العدل.

السّابعة: قوله **سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** أي بعد شدّةٍ سهولةٍ، فاليسر إتيان الأمر من غير مشقّةٍ و هو سهولة الأمر و ضدّه العسر و هو صعوبة الأمر و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ الأمور بيد اللّه و هو الّذي يعطي العبد من القدرة في جميع الأمور على أساس المصلحة الّتى لا يعلمها إلاّ هو فلا يبعد أن تكون المصلحة للعبد، الفقر في برهةٍ من الزّمان و الغنى في برهةٍ أخرى و هكذا في الصّحة و المرض و العزّة و الذّلة و لنعم ما قيل:

الأمن و الخوف أياماً مداولةً بين الأنام و بين الضّيق تتّسع

و قال الأخر:

عسى فرجُ يأتي به اللّه إنّه له كلّ يومٍ في خليقته أمرُ

و قال الأخر:

إذا كانت الأرزاق في القرب و النّوى
عليك سواءُ فاغتنم لذّة الدّعة
فأن ضقت فأصبر يفرج اللّه ما ترى
الاربّ ضيقٍ في عواقبه سعة

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا، أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا ٱللَّهَ يَآ أُولِى ٱلْأَلْبَابِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا

هذه الأيات بعد ذكر الأحكام المذكورة في الطّلاق و العدّة و السُّكنى و النّفقة و غيرها تدلّ على أنّ مخالفة الأمر توجب العقاب و العذاب يوم القيامة فقال تعالى: **وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ** أي وكم من قريةٍ على التّكثير لأنّ (كم) يخبر بها عن الكثرة **عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا** العتُو الخروج إلى فاحش الفساد و المعنى كم من قريةٍ كفروا باللّه و تجَّبروا عن طاعته و خرجوا بذلك إلى أفحش الفساد و قوله: **وَ رُسُلِهِ** الواو للعطف أي و عتوا عن متابعة رسله و قبول أمرهم أيضاً و ذلك لأنّ أمر اللّه أمر الرّسول و بالعكس **فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا** أي فحاسبنا أهل القرية حساباً شديداً يوم القيامة و ذلك لمخالفتهم أوامر اللّه و رسوله.

وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا أي عذَّبنا أهل القرية العاتية عذاباً ينكره الطَّبع و تأباه النُّفوس لصعوبته و شدّته و الأمر النُّكر الّذي ينكره العقل **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا** الوبال عاقبة السُّوء و تأنيث الفعل بإعتبار القرية و المراد أهلها، فهو من قبيل (و إسئل القرية) أي و إسأل أهلها و المقصود من وبال أمرهم هو و بال مخالفتهم للّه و رسوله.

وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أي كان عاقبة أمر أهل القرية العاتية خسراً، أي هلاك أنفسهم و أصله رأس المال **أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** يوم القيامة و ما كان ذلك إلاّ بسبب أعمالهم و إعراضهم عن الحقّ و ما ربّك بظّلام للعبيد.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ يَآ أُولِى ٱلْأَلْبَابِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا.

الألباب جمع لبّ، و هو العقل الخالص الّذي لا يشوبه وهمٌ، أمر اللّه تعالى المتّقين المتّصفين بالعقول الخالصّة عن الوهم بطاعة اللّه و إجتناب

معاصيه فأنّ هذا هوالمتَّوقع منهم لكونهم من أولي الألباب و في قوله: **قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا** فالمراد بالذِّكر، القرأن، و فيه إشارة إلى أنّ الإنتفاع بالذِّكر هو شأن ذوي الألباب و أمّا غيرهم فلا ينتفعون به إلاّ قليلاً.

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ اٰيَاتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقًا

إختلفوا في إنتصاب (رسولاً) على أقوالٍ:

أحدها: أن يكون بدلاً من (ذكراً) و هو بدل الإشتمال و يكون الذّكر القرأن كأنّه قال رسولاً ذكراً.

الثّاني: أن يكون الذّكر بمعنى الشَّرف فيكون الذّكر هو الرّسول كما قال تعالى: **وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ**[١].

الثّالث: أنّه لمّا قال أنزل ذكراً، دلَّ على أنّه جعل رسولاً كأنّه قيل و بعث رسولاً.

الرّابع: قال الزّجاج، إنزال الذّكر دليلٌ على إضمار أرسل أي أنزل إليكم قرأناً و أرسل رسولاً.

الخامس: أنّ المعنى قد أنزل اللّه إليكم صاحب ذكرٍ رسولاً، فالرّسول نعتٌ للذّكر على تقدير حذف المضاف و الوجوه المحتملة كثيرة و أحسن الوجوه هو أن يكون رسولاً بدلاً من الذّكر، و المصدر بمعنى إسم الفاعل أي مذكّراً، فالتّقدير قد أنزل اللّه إليكم مذكّراً رسولاً من جانب اللّه كأنّه قيل من المذكر، فقال رسُولاً يتلوا عليكم أيات اللّه مبيّنات، أي واضحات لا خفاء فيها.

١- الزُّخرف = ۴۴

لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بقلوبهم و ألسنتهم **وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ** بعد ذلك و فيه إشارة إلى أنّ الإيمان لا يتحقّق بدون العمل الصّالح و مفهوم الآية أنّ من لا عمل له لا إيمان له.

و إن شئت قلت، الإيمان لا يوجد في الخارج إلاّ في قالب العمل، و أمّا الإعتقاد المجرّد عن العمل فلا أثر له لأنّ الأثر يترتّب على الموجود في الخارج و أمّا الوجود الذّهني فلا أثر له، فالثّواب على العمل دون الإعتقاد المجّرد عنه و قوله: **مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ** متعلّق بقوله: **لِيُخْرِجَ** أي ليخرج الرّسول المؤمنين من الظُّلمات إلى النُّور، أي من الكفر إلى الإيمان و من الجهل إلى العلم و أنّما خصَّ الإخراج بالمؤمنين لأنّ من لم يؤمن باللّه و رسوله فهو في ظلمة الكفر و الجهل.

قال اللّه تعالى: **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**[1].

و من المعلوم أنّ اللّه تعالى يخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور بواسطة الرّسول و لذلك نسب الإخراج في الآية إلى الرّسول **وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ** اللّه تعالى: **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا** أي دائماً فلا يخرجون منها أصلاً **قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ** أي لمن يعمل صالحاً بعد إيمانه **رِزْقًا** أيَّ رزقٍ أحسن من الخلود في الجنّة و أن يكون متنعماً بنعيمها و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ به الأعين و مع ذلك فهم في الغرفات آمنون.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

١- البَقَرة = ٢٥٧

أشار اللّه تعالى في هذه الآية إلى عظم قدرته و إحاطة علمه بكلّ شئٍ فلا يعجز عن إيجاد شئٍ و لا يخفى عليه شئ، و أنّما أشار إلى هذين الوصفين أعني بهما القدرة و العلم من بين الصّفات لأنّهما من أعظم الصّفات و أشرفها و أفضلها، ثمّ إستدلّ على قدرته بقوله: **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** فأنّ لكلّ سماءٍ أرضاً كما أنّ لكلّ أرضٍ سماءً فأنّ السّماء جهة الفوق، و الأرض جهة التّحت ثمّ أنّ المراد (بسبع سموات) إمّا الكواكب السّبعة السيّارة و هى قمر، عطارد، زهرة، شمس، مرّيخ، مشتري و زحل، فأنّ لكلّ واحدٍ منها سماءٌ و أرضاً و أمّا غيرها ممّا لا يعلمه إلاّ اللّه مضىٰ الكلام فيها و نقلنا الأقوال من المتّقدمين و المتّأخرين و قلنا أنّ جميع الأقوال لا يعتمد عليها لأنّها من الحدسيّات و اللّه أعلم بما خلق في السّموات و الأرض، و ما أويتم من العلم الاّ قليلاً، و في قوله تعالى: **يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** إشارة إلى أنّ الأمر يتّنزل من مقام الرّبوبي إلى الموجودات الّتى خلقها اللّه تعالى في السّموات و الأرض **لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** و المعنى واضح و قد مضى الكلام فيهما سابقاً غير مرّةٍ بما لا مزيد عليه.

■

سُورَةُ ٱلتَّحْرِيمِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللّٰهُ لَكَ تَبْتَغِي
مَرْضَاتَ أَزْوٰجِكَ وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ
فَرَضَ ٱللّٰهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمٰنِكُمْ وَ ٱللّٰهُ مَوْلٰيكُمْ وَ
هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَ إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلٰى بَعْضِ
أَزْوٰجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ
عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ
قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾
إِنْ تَتُوبَآ إِلَى ٱللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ
تَظٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ مَوْلٰيهُ وَ جِبْرِيلُ وَ
صٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمَلٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾
عَسٰى رَبُّهُۥٓ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوٰجًا خَيْرًا
مِنْكُنَّ مُسْلِمٰتٍ مُؤْمِنٰتٍ قٰنِتٰتٍ تٰٓئِبٰتٍ
عٰبِدٰتٍ سٰٓئِحٰتٍ ثَيِّبٰتٍ وَ أَبْكَارًا ﴿٥﴾ يٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَ ٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ

لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ
﴿٦﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى
رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي
ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا
نُورَنَا وَ ٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَ ٱغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَ
ٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ
ٱللَّهِ شَيْئًا وَ قِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ
إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَ
نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَ مَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ
صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتُبِهِ وَ كَانَتْ مِنَ
ٱلْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

◀ اللّغة

تَبْتَغِي: الإبتغاء الطَّلب.

تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ: تحليل اليمين كفّارتها.

نَبَّأَتْ: النّبأ الخبر.

صَغَتْ: أي زاغت و مالت.

قَٰنِتَٰتٍ: أي خاضعات فالقنوت الخضوع.

سَٰٓئِحَٰتٍ: صائِمات و قيل، مهاجرات.

ثَيِّبَٰتٍ: ثابَ يثوب إذا رجع.

قُوٓا: بِضمّ القاف فعل أمرٍ من وقى يقي و الأمر منه. (ق) يقال قِ قيا، قوا، فالواو علامة الجمع.

وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ: الوقود الحطب.

نَصُوحًا: بفتح النُّون الخالص لوجه اللّه.

أَحْصَنَتْ: إحصان الفرج منعه من المعصية.

◀ الإعراب

تَبْتَغِي هو حال من الضّمير في تحرّم و إِذْ في موضع نصب با ذكر إِنْ تَتُوبَآ جواب الشّرط محذوف تقديره فذلك واجبٌ عليكما هُوَ مَوْلَىٰهُ مبتدأ و خبره، إن جِبْرِيلُ وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مبتدأ و الخبر محذوف، أي مواليه، أو هو معطوف على الضّمير مولاه، أو على معنى الإبتداء، و قيل هو مبتدأ و الملائكة معطوفاً عليه و ظَهِيراً خبر الجميع لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ هو في موضع الرّفع على النّعت يَقُولُونَ حال و عِنْدَكَ ظرف لإبن أو حال من بَيْتًا وَ مَرْيَمَ أي و أذكر، مريم، و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قال في التّبيان هذا خطاب من اللّه تعالى لنبيّه و عتابٌ على تحريم ما أباحه اللّه له و أحلَّه له و لا يدلّ على أنّه وقعت منه معصية لأنّ العقاب قد يكون على أمرٍ يكون الأولى تركه كما يكون على ترك الواجب إنتهى كلامه.

أقول يحتمل أن يكون الخطاب للنّبي و المراد به الأمّة و كيف كان ففي سبب نزولها أقوال:

أحدها: ما روي عن زيد بن أسلم و مسروق و قتادة و الشُّعبي و إبن زيد و غيرهم أنّ النّبي حرَّم على نفسه مارية القبطيّة بيمينٍ أنّه لا يقربها طلباً لمرضاة حفصة زوجته لأنّها غارت عليه من أجلها.

و قال الحسن حرَّم رسول اللّه أمّ ولده إبراهيم و هى مارية القبطيّة على نفسه فأسَّر بذلك إلى زوجته حفصة فأفضت به إلى عائشة و كانت حفصة بنت عمر قد زارت عائشة فخلا بيتها فوجّه رسول اللّه إلى مارية القبطيّة و كانت معه و جائت حفصة فأسرَّت إليه التّحريم.

الثّاني: ماروِاه عبد اللّه بن شدّاد بن الهلال أنّ النّبي كان شرب عند زينب بنت جحش شراب عسلٍ كانت تصلحه له فكان يطول مكثه عندها فكره ذلك عائشة و حفصة فقالت له انّا نشمّ منك ريح المغافير، و هى بقلة متغيّرة الرّائحة.

و قال الزّجاج هي بقلة منتنةٌ فحرَّم النّبي شراب العسل الّذي كان يشربه عند زوجته زينب بنت جحش و قيل ذكرت له حفصة فحرَّمه النّبي على نفسه و من قال أنّ الآية نزلت بسبب مارية قال، أنّ النّبي قال هي علَّي حرام، فجعل اللّه فيه كفّارة يمينٍ ذكره إبن عبّاس و الحسن.

و من قال أنّ التّحريم كان في شرابٍ، قال أنّه حلف على أنّه لا يشربه فعاتبه اللّه على تحريم ما أحلَّ اللّه له، ذكر هذين الوجهين في التّبيان.

الثّالث: ما ذكره القرطبي في تفسيره عن عائشة أنّها قالت كان رسول اللّه ﷺ يحبّ الحلوا و العسل فكان إذا صلّى العصر دار على نسائه فيدنوا منهنّ فدخل على حفصة فإحتبس عندها أكثر ممّا كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها إمرأةٌ من قومها عكّةٌ من عسلٍ فسقت رسول اللّه منه شربة فقلت أما و اللّه لنختلنَّ له، فذكرت ذلك لسودة و قلت إذا دخل عليك فأنّه سيدنو منك فقولي له يارسول اللّه أكلت مغافير، فأنّه سيقول لك لا فقولي له ما هذا الرّيح و كان رسول اللّه ﷺ يشتدّ عليه أن يوجد منه الرِّيح، فأنّه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له (جرست نحله العرفط) و سأقول ذلك له، و قوليه أنت يا صفيّة فلمّا دخل على سودة قالت تقول سودة و اللّه الّذي لا إله إلاّ هو لقد كدت أن أبادئه بالّذي قلت لي و أنّه لعلى الباب فرقاً منك، فلمّا دنا رسول اللّه ﷺ قالت يا رسول اللّه أكلت مغافير قال لا، قالت فما هذه الرّيح قال سقتني حفصة شربة عسلٍ قالت (جرست نحله العرفط) فلمّا دخل عليّ قلت له مثل ذلك ثمّ دخل على صفيّة فقالت له بمثل ذلك فلمّا دخل على حفصة قالت يارسول اللّه ألاّ أسقيك منه قال لا حاجة لي به قالت تقول سودة سبحان اللّه و اللّه لقد حرَّفناه قالت عائشة قلت لها أسكتي إنتهى.

ففي هذه الرّواية أنّ الّتى شرب عندها العسل حفصة و في الأولى زينب و عن إبن عبّاس أنّه ﷺ شربه عند سودة و قد قيل هي أمّ سلمة و في المقام قولٌ أخر و هو أنّه أراد بذلك المرأة الّتى وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها لأجل أزواجه و المرأة أمّ شريك.

و قيل أنّ الّتى حرَّم مارية القبطيّة و ذلك لأنّه واقعها في بيت حفصة.

روى الدّار قطني عن إبن عبّاس عن عمر قال دخل رسول اللّه صلّی الله علیه وآله وسلّم بأمّ ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها و كانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له تدخلها بيتي ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلاّ من هواني إليك فقال لها لا تذكري هذا لعائشة فهي عليّ حرام إن قرّبتها قالت حفصة و كيف تحرم عليك و هى جاريتك فحلف لها أن لا يقربها فقال النّبي لا تذكري لأحدٍ فذكرته لعائشة فألى لا يدخل على نسائه شهراً فإعتزلهنّ تسعاً و عشرين ليلة فأنزل اللّه عزّ و جلّ: **لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ** هذا شطرٌ مِمّا ذكروه في تفاسيرهم ومن أراد الوقوف على جميع ما ذكره أهل السُّنة فعليه بمراجعة تفاسيرهم و الإنصاف أنّ هذه الحكايات و القصص لا أصل لها و أنّها من الموضوعات و الإسرائيليّات و نظائرها كثيرة في تفاسيرهم و لم يعملوا أنّ النّبي صلّی الله علیه وآله وسلّم أجلّ شأناً من أن يرتكب هذه الأعمال الّتى لا تليق بأحاد النّاس فضلاً عن النّبي المعصوم و أنّما نقلنا ما نقلناه عنهم لتعلم مبلغ علمهم و معرفتهم بالنّبي ألا ترى أنّهم إعتمدوا في شأن نزول الآية على ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة أنّ النّبي كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواطئت عائشة و حفصة على أن تقولا له صلّی الله علیه وآله وسلّم حين دخل عليهما، أكلت مغافير، فلمّا قالتا له ذلك قال صلّی الله علیه وآله وسلّم بل شربت عسلاً عند زينب و لن أعود له فنزل: **لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ** و هذه القصّة هي عمدة أدلّتهم في نزول الآية بين القصص، و فيها ما لا يخفى على العاقل العارف بمقام النّبي من الوهن فضلاً عن غيرها ممّا تشمئز منها القلوب.

منها، أنّ النّبى صلّی الله علیه وآله وسلّم شرب عسلاً عند زينب بنت جحش على فرض صحتّه، و أيُّ إشكالٍ في شرب العسل عند زينب و قد أحلّهما اللّه له.

و منها، ما تواطئت عليه عائشة و حفصة على أن تقولا له (أنّي أجد منك ريح مغافير) أكلت مغافير، أليس هذا منهما إستهزاءً و إهانةً برسول اللّه بل تهمةٌ عليه و كيف لم ينكر عليها رسول اللّه في هذه الإهانة و الإستهزاء و لم

يقل لهما ألم تعرفا ريح العسل بل قال في جوابها شربت عسلاً عند زينب و لن أعود، أي لن أعود إلى شرب العسل أو لن أعود إلى زينب بنت جحش، و نحن نسأل عن واضع القصّة، لم قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لن أعود فأن كان فعله حقّاً مشروعاً فلا وجه لقوله، لن أعود، و أن كان غير مشروعٍ فلم فعله النّبي معصوم.

و منها، أنّ النّبي لم يفرق بين ريح المغافير و ريحٍ العسل و لذلك لم يقل لهما ليس هذا من ريح المغافير بل هي ريح العسل، و حيث لم يفرق قبل قولهما و صدّقهما و قال (لن أعود له).

و منها، أنّ النّبي كان تابعاً لمرضات عائشة و حفصة و لأجل ذلك حرَّم على نفسه العود إلى زينب و شرب العسل عندها و هذا ممّا لا يقبله العقل السّليم بل هو سفاهةٌ محضة و النّبي منزّهٌ عنها.

و منها، أنّ ما ذكروه يدلّ على فسق عائشة و حفصة و ذلك لتواطئها على الكذب المحرّم عقلاً و شرعاً لو لم نقل أنّه تهمةٌ و ناقل القصّة لا يقول به و من المعلوم أنّ الكذب و التُّهمة من أعظم الفسق و حاصل الكلام أنّ هذه القصص و الأساطير من مخترعات الواضعين المبدعين من عند أنفسهم إذ لا يدلّ على صحتّها عقلٌ و لا شرعٌ.

إذا عرفت هذا فنقول الآية الشّريفة تدلّ على أنّ الرّسول حرَّم علي نفسه ما أحلّ اللّه له فعاقبه اللّه على ذلك و قال: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ** و أمّا أنّ الّذي حرَّم على نفسه، ما هو، فالآية ساكتةٌ عنه، نعم يستفاد من قوله تعالى: **تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ** أنّه حرَّم ما حرَّم على نفسه طلباً لمرضاة أزواجه فكأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فعل فعلاً، لم يكن مرضيّاً عند الأزواج فضيّقن عليه حتّى أرضاهنّ بالحلف على تركه و حيث أنّ الحلف على التّرك سببٌ للتّحريم على النّفس فعبّر عنه بالتّحريم فذكر في الآية المسبّب و أراد السّبب و أنّما قلنا ذلك لأنّ التّحريم و التّحليل من اللّه لا من النّبي فليس لأحدٍ أن يحرّم و يحلّل إلاّ اللّه تعالى.

نعم للعبد أن يحلف على ترك ما أحلَّه اللّه له فلا يجوز له فعله حتّى يكفر عن حلفه و ما نحن فيه من هذا القبيل و يؤيّده قوله تعالى بعد ذلك **قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ** فالآية تدلّ على أنّ النّبي حلف على ترك فعلٍ من الأفعال أيُّ فعلٍ كان فعاتبه اللّه على ذلك و قال: **لِمَ تُحَرِّمُ** أي لم تحلف على ترك الحلال تبتغي مرضاة أزواجك، و لا يبعد أن يكون الباعث على الحلف هو إيذاء الأزواج إيّاه و أمّا أنّ هذا الفعل ما هو فلا علم لنا به و قد أمرنا بالسُّكوت عمّا سكت اللّه عنه و اللّه أعلم.

و يؤيّد ما ذكرناه ما رواه في الكافي بأسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن رجلٍ قال لإمرأته أنت علّي حرامٌ، فقال عليه السلام لو كان لي عليه سلطانٍ لاوجعت رأسه و قلت له، اللّه أحلّها لك فما حرَّمها عليك، أنّه لم يزد على أنّ كذب فزعم أنّ ما أحلَّ اللّه له حرامٌ و لا يدخل عليه طلاق و لا كفّارة فقلت قول اللّه عزّ وجلّ يا أيّها النّبي لم تحرّم ما أحلَّ اللّه لك، فجعل فيه الكفّارة فقال أنّما حرم عليه مارية القبطّية و حلف أن لا يقربها فأنّما جعل عليه الكفّارة في الحلف ولم يجعل عليه في التّحريم إنتهى[١].

فهذا الحديث و أمثاله يرشدنا إلى أنّ النّبي صار مأموراً بالكفّارة بسبب الحلف و لذلك كفَّر رسول اللّه و أطعم عشرة مساكين لكلّ مسكينٍ مدّ من الطّعام كما وردت به الرّواية كما هو وظيفة كلّ مسلم حلف و لا فرق في الحكم بين النّبي و أمّته و هذا واضح و إلى حكم الكفّار على الحلف أشار اللّه تعالى بقوله:

قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ ٱللَّهُ مَوْلَيٰكُمْ وَ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ

١- نُور الثّقلين ج ٥ ص ٣٦٨

أصل تحلّة تحللة فأسكن الأوّل و أدغم في الثّاني و الفرض الوجوب و التّقدير و المعنى قد قدَّر اللّه تعالى و أوجب عليكم ما تحلُّون به يمينكم إذا فعلتموه و المراد بتحليل الأيمان هو تأدية الكفّار فأنّها تحلل ما حلف على تركه و هو صريح في أنّه ﷺ كان حلف، ولم يقل هي عليّ حرام أو أنّ الشّئ الفلاني علّي حرام لأنّه ليس بيمينٍ عند أكثر الفقهاء.

و في قوله: **وَ ٱللَّهُ مَوْلَيٰكُمْ وَ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ** إشارة إلى قوله تعالى: **ٱللَّهُ وَلِيّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** و هو العليم الحكيم أي أنّه تعالى عالم بجميع الأشياء حكيمٌ في جميع أفعاله.

وَ إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ

الأسرار نقيض الإعلان، قيل أنّه ﷺ كان أسرَّ إلى حفصة بنت عمر ألاّ تخبر عائشة بكونه مع مارية القبطيّة في يوم عائشة و قال أنّه حرَّمها على نفسه فأطلعت عليه عائشة، و قيل أنّه كان يوم حفصة فأطلعت عليه عائشة فإستكتمها النّبي فأخبرت حفصة بذلك فإنتشر الخبر فعاتبهم اللّه على ذلك و قال الزّجاج و الفرّاء أسَّر إليها أنّه سيلي الأمر بعده أبوبكر و عمر و عثمان فتباشروا بذلك فإنتشروا الخبر.

و روي أصحابنا أنّه ﷺ أسرَّ إلى عائشة بما يكون بعده من قيام من يقوم بالأمر و رفع عليٍّ عن مقامه فنشرت بذلك أباها فعاتبهم اللّه على ذلك، ذكر هذا الوجوه في التّبيان و به قال المفسّرون من العامّة.

قال في الكشّاف **إِلَى بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ** هو حفصة و الحديث الّذي أسَّر إليها حديث مارية القبطّية و إمامة الشّيخين (نبّأت به) أفشته إلى عائشة (و أظهره) و إطّلع النّبي ﷺ عليه أي على إفشاء الحديث على لسان جبرئيل الخ.

و قال القرطبى وَ إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ حفصة «حديثاً» يعني تحريم مارية علىٰ نفسه و إستكتامه إيّاها ذلك.

و قال الكلبي أسرَّ إليها أنّ أباك و أبا عائشة يكونان خليفتي على أمّتي من بعدي و نقل عن إبن عبّاس أنّه أسرَّ أمر الخلافة بعده إلى حفصة فذكرته حفصة و عن الدّار قطني أنّه قال أطلعت حفصة على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أمّ إبراهيم فقال لا تخبري عائشة و قال أنّ أباك و أباها سيملكان و سيليان بعدي فلا تخبري عائشة قال فأنطلقت حفصة و أخبرت عائشة فأظهره اللّه عليه إلى أخر ما قاله القرطبي.

أقول ما نقلناه عنهم في تفسير الآية هو قول عامّة المفسّرين بأدنى إختلافٍ في ألفاظهم و هو أنّ النّبي أسرَّ إلى حفصة و هي أخبرت عائشة.

و الّذي نقول في المقام هو ما مرَّ نظيره في الآية السّابقة فكما قلنا هناك أنّ التّحريم مسلَّمٌ بحسب الآية على ما فصّلناه و أمّا أنّه ما الّذي حرّم على نفسه و ماذا كان فلم يبيَّن في الآية و لا في راويةٍ صحيحة.

ففي المقام أيضاً نقول، الآية مصرِّحة بأنّ النّبي أسرَّ الى بعض أزواجه و أمّا أنّه أيُّ شيءٍ أسرَّ و الى من أسرَّ من أزواجه فهي ساكتة عنه نعم، الإسرار لا كلام فيه، و أمّا ما ذكروه من أنّه أسَّر الى حفصة أو عائشة أو غيرهما فلا علم لنا به و الأخبار الّتي نقلوها في تفاسيرهم لا دليل على صحّتها بل هي بالموضوعات أشبه، و ذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مع شدّة حياءه و غيرته أجلّ شأناً من هذه الأراجيف الّتى لا يقبلها العقل السّليم و كيف يعقل أن يكون النّبي مع مارية القبّطية و حفصة أو عائشة إطلعت عليه أن كان صلى الله عليه وآله وسلم واقعها و أمّا أن لم يواقعها، و كان معها، فأيّ إشكالٍ فيه ثمّ أيُّ إحتياج الى الإسرار، و على فرض المواقعة فهي ممّا أحلَّه اللّه له تعالى و لا حاجة الىَ الإسرار بها، ضافاً الى أنّ الإسرار بها قبيحٌ عقلاً و محصلّ الكلام أنّ قصّة المارية القبطيّة ليست ممّا يستّر بها أصلاً و أمّا قولهم أنّه قال لحفصة أنّ أباك و أبا عائشة سيملكان بعدي فهو أيضاً غير معقول، لوجهين:

أحدهما: ما الّذي دعا النّبي الى أن أسرَّ بها الى حفصة فأنّ من لا يقدر على حفظ أسراره كيف يتوقّع حفظها من غيره فأن كان هذا من الأسرار و مع ذلك أسّره الى حفصة فالرّسول هو المفشي لسرّه واقعاً لا حفصة و لا عائشة و أن لم يكن من الإسرار فهو خارج عن مورد البحث.

الثّاني: أنّ قوله صلّی الله علیه وآله وسلّم أنّ أباكما سيملكان بعدي أو سيليان بعدي فأن قال هذا لهما على سبيل البشارة فهو خلاف ما أنزله اللّه عليه في غدير خمّ بقوله: **يآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** و ذلك لأنّ البشارة كاشفة عن رضي الرّسول بولايتهما و خلافتهما مع أنّ اللّه أمره بغير ذلك و كيف يعقل أن يكون اللّه راضياً بخلافة علّي و الرّسول بخلافة غيره و قد قال صلّی الله علیه وآله وسلّم: **من كُنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه اللّهم أنصر من نصره و أخذل من خذله** أليس هذا الكلام و أمثاله منه صلّی الله علیه وآله وسلّم يدلّ على أنّ الخليفة بعده أميرالمؤمنين و إذا كان كذلك فكيف يبشّر غيره بالخلافة هذا إذا كان الكلام على سبيل البشارة الكاشفة عن الرّضا.

و أن كان على سبيل التّحذير و التّهديد فهو ليس من الإسرار مضافاً الى أنّ الكلام عليهما لا لهما فلا معنى لقوله لا تخبري عائشة أو لا تخبري حفصة و الحاصل أنّ هذا الكلام من الموضاعات كغيره و الحقّ أنّ السّر الّذي أسرّه النّبي الى بعض أزواجه غير معلومٍ لنا ما هو كما أنّ المراد بالبعض أيضاً مجهول لنا هو عائشة أو حفصة أو سؤدة أو غيرها و قد أمرنا بالسُّكوت عمّا سكت اللّه عنه و ما نحن فيه من هذا القبيل.

إذا عرفت فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية **وَ إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا** لا يعلمه إلاّ اللّه **فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ** أي أخبر من أسرَّ اليها النّبي غيره من الأزواج **وَ أَظْهَرَهُ ٱللَّهُ** أي إطّلع نبيّه على أنّها قد نبأّت به **عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ** فمن قرأ (عرف) بالتّخفيف، معناه عاتب على بعض ذلك و صفح عن الباقي.

و من قرأ بالتشدّيد و هى المشهور و عليها المصاحف فمعناه أنـه ﷺ أعلمها جميع ذلك و عرّفها إيّاه **فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ** أي فلّما أخبرها النّبي به قالت للنّبي من أخبرك هذا قال، أي قال الرّسول أخبرني العليم الخبير، و هو اللّه تعالى الّذي عالم بجميع الأشياء يخفى عليه شئ و الّذي يظهر من الآية أنّ ما أسرَّ النّبي إلى بعض أزواجه كان من الأمور الّتى يجب كتمانها عن الغير لانّه من الأسرار فلمّا أفشاه بعض أزواجه عاتبه اللّه عليه و قال.

إِنْ تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَيٰهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ

الخطاب للزّوجين اللّذين أفشيا سرّه و أمّا المفسّرون فقد قالوا أنّ المخاطب بقوله: **تَتُوبَآ** هو عائشة و حفصة و على هذا فالمراد ببعض الأزواج في الآية هو أحدهما، إمّا عائشة أو حفصة، على إختلاف الأراء فيمن أسرَّ النّبي إليه هل هو حفصة أو عائشة و هو المنقول عن إبن عبّاس أيضاً فأنّه قال سألت عمر بن الخطّاب عن المخاطب في هذه الآية قال، عائشة و حفصة، فأنّ النّبي أسرَّ إلى حفصة و هى أخبرت عائشة بما أسرَّ النّبي إليها فقال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ** عمّا فعلتما من إفشاء سرّه إلى اللّه تعالى: **فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** أي زاغت قلوبكما إلى الإثم.

و قيل معناه مالت قلوبكما إلى ما كرهه اللّه من تحريم ما حرّمه، و قوله **فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** من صلة **إِنْ تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ** و الجواب محذوفٌ و تقديره إن تتوبا إلى اللّه قبلت توبتكما و قيل قوله: **فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** هو جواب الشّرط كقول القائل إن تتابع المجئ إلّي فقد جفوتني و قطعتني دهراً أي يحقّ لك أن تفعل ذلك.

و قال القرطبي في قوله: **فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** أي زاغت و مالت عن الحقّ أنّهما أحبّا ما كره النّبي من إجتناب جاريته مارية القبطيّة و إجتناب العسل الّذي شربه عند زينب بنت جحش، و قيل معناه فقد مالت قلوبكما عن التّوبة، و أنّما قال قلوبكما و لم يقل قلبكما لأنّ من شأن العرب إذا ذكروا الشّيئين من أثنين جمعوهما و من هذا القبيل قوله تعالى: **وَ ٱلسَّارِقُ وَ ٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا**(١) و لم يقل يديهما **وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ** أي وإن تعاونا على خلافه أي خلاف الرّسول **فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَيٰهُ** أي ناصره و حافظه **وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** أي هما أيضاً ناصراه بأمرٍ من اللّه تعالى فأنّ اللّه تعالى لا يترك رسوله أبداً، ثمّ أنّ المراد بجبرئيل معلومٌ لا خفاء فيه و أمّا صالح المؤمنين.

فقال صاحب الكشّاف، كلّ من أمن و عمل صالحاً و بعبارةٍ أخرى من صلح من المؤمنين و نقل عن سعيد بن جبير أنّه قال كلّ من بريئ منهم من النّفاق و قيل الأنبياء و قيل الصّحابة و قيل الخلفاء منهم.

فأن قلت صالح المؤمنين واحدٌ أم جمع.

قلت هو واحدٌ أريد به الجمع كقولك لا يفعل هذا الصّالح من النّاس أريد به الجنس و ساق الكلام إلى أن قال و يجوز أن يكون أصله صالحوا المؤمنين **بالواو** فكتب بغير واوٍ على اللّفظ إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف لا يناسب لفظ الآية أصلاً، فأنّ قوله: **صَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** أريد به الشّخص قطعاً و لو كان الأمر كما ذكره لقال و المؤمنون لأنّهم أمنوا به و عملوا صالحاً و قياسه على قوله لا يفعل هذا الصّالح من النّاس، حيث يراد به الجمع قياس مع الفارق لأنّ اللاّم للجنس و هو يفيد العموم و فيما نحن فيه ليس كذلك نعم لو قال تعالى جبرئيل و الصّالح من المؤمنين كان لما ذكره وجهٌ، و الحقّ أنّ المراد بصالح المؤمنين هو أوّل من أمن

١- المائدة = ٣٨

باللّه و رسوله من الرّجال و عمل صالحاً ولم يعص اللّه طرفة عينٍ و لم يعبد صنماً و لا وثناً قطّ ولم يخالف الرّسول أصلاً و جاهد في اللّه بنفسه و ليس هو إلاّ علّي بن أبي طالب سلام اللّه عليه و يؤيّده أنّه هو النّاصر لرسول اللّه في جميع الحروب و الغزوات و هو الّذي قال جبرئيل في غزوة أحد، **لا فتىٰ إلاّ عليّ و لا سيف إلاّ ذو الفقار.**

و هو الّذي قيل في حقّه:

نـــاد عـــلّياً مـــظهر العـــجائب
تـــجده عـــوناً لك فـــي النّـــوائب

و غير ذلك من الفضائل الّتى لا تحصى و من يقاس بعلّي في الإيمان بعد إبن عمّه رسول اللّه و من نصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما نصره أميرالمؤمنين الّذي قيل فيه:

عـــبد اللّـــه غـــلاماً يـــافعاً
وقـــريش يـــعبدون الوثـــنين

أمن الإنصاف ان يقال أنّ المراد بصالح المؤمنين الصّحابة الّذين كانوا أكثر عمرهم من عبّاد الأصنام مضافاً إلى تقاعدهم عن الجهاد بل فرارهم عن الحرب في غزوة أحُ هذا كلّه مضافاً إلى ما ورد في الأخبار من أنّ المراد بصالح المؤمنين في الآية هو أميرالمؤمنين عليه السلام.

روى الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسمّىٰ بشواهد التّنزيل بأسناده عن محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليٍّ قال: حدَّثني رجلٌ ثقة يرفعه إلى علّي بن أبىطالب قال: قال رسول اللّه في قوله تعالى: وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ قال: هو علّي بن أبي طالب إنتهى.

و هذا الإسناد منقطع.

و أيضاً بأسناده عن علّي بن موسى بن جعفر بن محمّد عن أبيه عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ قال: صالح المؤمنين عليّ بن أبي طالب إنـتهى و هـذا الإسناد متّصل.

و أيضاً بأسناده عن عليٍ عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ قال صلى الله عليه وآله وسلم: صالح المؤمنين هو علّي بن أبي طالب إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول اللّه يقول: صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ علّي بن أبي طالب إنتهى.

و أيضاً بسندٍ أخر عنها قالت: سمعت رسول اللّه يقول: وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ هو علّي بن أبي طالب إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول في هذه الأية: وَ إِنْ تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَيٰهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ قال: صالح المؤمنين علّي بن أبي طالب إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن جعفر بن محمّد عن جدّه عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في قول اللّه: وَ صَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ذاك علّي بن أبي طالب إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن سعيد بن جبير عن إبن عبّاس أنّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في علّي بن أبي طالب هو صالح المؤمنين إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن عمّار بن ياسر قال: سمعت علّي بن أبي طالب يقول دعاني رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ألا أبشّرك قلت بلى يارسول اللّه و ما زلت مبّشراً بالخير قال صلى الله عليه وآله وسلم: قد أنزل اللّه فيك قرأناً قلت

و ما هو يارسول اللّه قال صلى الله عليه وآله وسلم: قرنت بجرئيل ثمّ قرأ و جبرئيل و صالح المؤمنين فأنت و المؤمنون من بني أبيك الصّالحون، رواه أيضاً عن حذيفة اليمان إنتهى.

أقول الأحاديث الواردة في الباب كثيرة من طرق العامّة فضلاً عن الخاصّة فأنّ المسألة عندنا لا خلاف فيها فلا نحتاج إلى نقل الأحاديث المرويّة عن أهل البيت فأن أردت الوقوف على شطرٍ منها فأنظر غاية المرام و البحار و غيرهما من كتب الأخبار و أنّما نقلنا ما نقلناه عن العامّة رغماً لأنف صاحب الكشّاف و من تابعه في تفسيره مع أنّ ما ذكرناه من الأخبار عنهم بالنّسبة إلى ما لم نذكره كالقطرة في جنب البحر كما لا يخفى على الممارس خلال هذه الدّيار أنظره كنز العمّال و مسند أحمد بن حنبل و فرائد السمطين و فتح البارئ و غيرها من المفصّلات.

و قد نقل في غاية المرام أنّ محمّد بن العبّاس بن ماهيار في تفسيره فيما نزل في أهل البيت أورد في هذه الآية أثنين و خمسين حديثاً من طريق الخاصّة و العامّة.

ما رواه بأسناده عن محمّد بن عبد اللّه إبن أبي رافع قال لمّا كان اليوم الّذي توفّى فيه رسول اللّه غشي عليه ثمّ أفاق و أنا أبكي و أقبّل يديه و أقول من لي و ولدي بعدك يا رسول اللّه قال صلى الله عليه وآله وسلم: لك اللّه بعدي و وصيّي صالح المؤمنين علّي بن أبي طالب إنتهى.

و أيضاً محمّد بن العبّاس بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عرَّف أصحابه أميرالمؤمنين مرَّتين و ذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم أتدرون من ولّيكم من بعدي قالوا اللّه و رسوله أعلم قال صلى الله عليه وآله وسلم فأنّ اللّه تبارك و تعالى قال: فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَيٰهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ يعني أميرالمؤمنين و هو وليّكم بعدي، و المرّة الثّانية يوم غدير خمّ قال من كنت مولاه فعليٌّ مولاه إنتهى.

أقول لولا مخافة الإطناب لأشبعنا الكلام فيه و لذكرنا من الأخبار أكثر ممّا ذكرناه ولكن فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية و الإنصاف **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ**(۱).

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ** فمعناه أنّ الملائكة بعد من ذكره معينون و ناصرون له أي لرسول اللّه و يحتمل أن يكون المعنى أنّ الملائكة بعد ذلك معينون لصالح المؤمنين في نصرته لرسول اللّه و على هذا فهو فضيلة أخرى لأمير المؤمنين و ذلك لأنّ نصرة الملك إيّاه في الحقيقة نصرة اللّه و من نصره اللّه فقد فاز فوزاً عظيماً و أنّما إحتملنا هذا المعنى في الآية لأنّ نصرة الملائكة إيّاه في إعلاء كلمة التّوحيد و إهلاك المشركين ممّا لا خلاف فيه عند نقله الأخبار و الأثار هذا و محصّل الكلام في الآية الشّريفة أنّ النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان منصوراً من قبل اللّه تعالى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا** إلاّ أنّ نصرة اللّه تتّحقق بواسطة أوليائه فأنّ اللّه تعالى أبى أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، ظاهرٌ لا خفاء فيه.

عَسٰى رَبُّهُۥٓ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوٰاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمٰاتٍ مُؤْمِنٰاتٍ قٰانِتٰاتٍ تٰآئِبٰاتٍ عٰابِدٰاتٍ سٰآئِحٰاتٍ ثَيِّبٰاتٍ وَ أَبْكٰارًا

قوله: **يُبْدِلَهُۥٓ** بتخفيف الدّال من، أبدل إبدالاً و المضارع منه (يبدل) و من شدّدها جعل الفعل من باب التّفعيل، يقال، بدّل يبدّل تبديلاً مثل صرّف يصرّف تصريفاً قيل الفرق أنّ الفعل على القراءة الأولى يدلّ على القليل و الكثير، و من شدّد الدّال أراد أنّ اللّه يبدّلهن أكثر منهنّ و معنى الآية إن طلّقكن، الرّسول و الخطاب للأزواج.

قال بعضهم كلّ (عسى) في القرآن واجبٌ إلاّ هذا، و قيل هو أيضاً واجبٌ و لكنّ اللّه عزّ وجلّ علّقه بشرطٍ و هو التّطليق ولم يطلّقهنّ و المقصود أنّ اللّه

۱- سباء = ۱۳

تعالى يعطي رسوله خيراً منكنّ، لأنّكنّ لو كنتنَّ خيراً منهنّ ما طلّقكنّ رسول اللّه ثمّ ذكر اللّه تعالى لهنَّ أوصافاً:

أحدها: **مُسْلِمٰاتٍ** و هنّ اللّواتي يظهرن الإسلام و الشّهادتين مسلمات أي منقادات لما أمر اللّه به.

ثانيها: **مُؤْمِنٰاتٍ** أي مصدّقات في قولهنَّ و فعلهنّ كما هو مقتضى الإيمان.

ثالثها: **قٰانِتٰاتٍ** أي خاضعات للّه و رسوله متذللاّت له، و قيل معنى قانتات راجعات إلى أمر رسول اللّه.

رابِعَها: **عٰابِدٰاتٍ** أي كثيرات العبادة للّه تعالى.

خامِسَها: **سٰائِحٰاتٍ** أي صائمات، و قيل مهاجرات وليس في أمَّة محمّد سياحة إلاّ الهجرة.

سادسُها: **ثَيِّبٰاتٍ وَ أَبْكٰارًا** أي منهُن ثيّبٌ و منهُن بكرٌ، قيل الثَّيبات الرّاجعات من عند الأزواج بعد إفتضاضهنّ مشتقّ من ثاب يثوب إذا رجع، و الأبكار جمع بكر و هى الّتى على أوّل حالها قبل الإفتضاض و معنى الأوصاف واضح لا يحتاج إلى التَّوضيح ففي الآية تهديدٌ و تخويفٌ لهنّ في إيذائهنّ النَّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا قُوٓا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نٰارًا وَقُودُهَا ٱلنّٰاسُ وَ ٱلْحِجٰارَةُ عَلَيْهٰا مَلآٰئِكَةٌ غِلاٰظٌ شِدٰادٌ لاٰ يَعْصُونَ ٱللّٰهَ مٰآ أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ

قُو بضَّم القاف فعل أمرٍ من وقى يقي و الأمر منه، قِ، بكسر القاف و الجمع، قو، يقال، قِ، قيا، قِ، قوا، و هو من الوقاية بمعنى الحفظ إذا عرفت هذا فمعنى الآية.

يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا باللّه و رسوله و اليوم الآخر **قُوٓا** أي إحفظوا **أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نٰارًا** فمروهم بطاعة اللّه و أنهوهم عن معصيته ثمّ وصف اللّه تعالى

النّار الّتي حذّرهم منها فقال: **وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَ ٱلْحِجَارَةُ** أي حطبها النّاس و الحجارة كوقود الكبريت و هو أشدّ ما يكون من العذاب **عَلَيْهَا مَلَآئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ** أي على النّار ملائكة لهم غلظة و شدّة على أهل النّار **لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** به من اللّه تعالى أمّا إنّهم لا يعصون، فلعصمتهم و المعصوم لا يذنب و لا يعصي و أمّا أنّهم يفعلون ما يؤمرون، فلكونهم مطيعين منقادين لأوامر اللّه تعالى و نواهيه، ثمّ خاطب اللّه الكفّار.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و المعنى لا عذر لكم اليوم يعني يوم القيامة من عذاب اللّه لأنّ ذلك جزاء أعمالكم الّتي فعلتموها في الدّنيا و ما ربّك بظلّام للعبيد ففي الآية إشارة إلىٰ أنّ الأعمال من قبيل العلل و الأسباب للثّواب و العقاب و قد مضى الكلام فيه سابقاً بما لا مزيد عليه ثمّ خاطب اللّه المؤمنين ثانياً بعد ما حذّرهم أوّلاً فقال:

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ ٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

و المعنى **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** باللّه و رسوله و ما جاء به من عند اللّه **تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** أمرهم اللّه تعالى بالتّوبة لأنّ الإنسان لا يخلوا عن الذّنب صغيراً و كبيراً و د واءه التّوبة أي الرّجوع من المعصية إلى الطّاعة ثمّ قيّد التّوبة بكونها نصوحاً.

إختلفت كلمات المفسّرين في معنى النّصوح، فقال بعضهم هي الّتي لا عودة بعدها كما لا يعود اللّبن إلى الضّرع.

و قال قتادة النّصوح الصّادقة النّاصحة، و قيل الخالصة لوجه اللّه يقال نصح فلاناً أي أخلص له القول.

و قال الحسن النّصوح الذّنب الّذي أحبّه و يستغفر منه إذا ذكره، و قيل هي الّتى لا يثق بقبولها و يكون على وجلٍ منها، و قيل هي الّتى لا يحتاج معها إلى توبةٍ.

و قال الكلبي التّوبة النّصوح، النّدم بالقلب و الإستغفار باللّسان و الإقلاع عن الذّنب و غير ذلك من الأقوال.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ببركة التّوبة فأنّ اللّه يحبّ التّوابين و يحبّ المتّطهرين و معنى عسى، الوجوب أي أنّ اللّه يكّفر سيّئاتكم قطعاً لأنّه يغفر الذّنوب جميعاً إذا كان التّائب تاب خالصاً لوجه اللّه و عزم علىٰ أن لا يعود على الذّنب ثانياً و بعد قبول التّوبة.

يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ جزاءً بما كسبتم في الدّنيا من الثّواب بسبب الأعمال الصّالحة ثمّ فسّر اللّه تعالى يوم القيامة فقال: **يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** بل ينصرهم و يثيبهم على ما عملوا به في الدّنيا ببركة الإيمان.

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ قيل المراد بالنّور نور كتابهم الّذي فيه البشرى قاله إبن عبّاس و الحقّ أنّ المراد بالنّور هو نور الإيمان.

يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ ٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي أنّ المؤمنين يقولون يوم القيامة **رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** يقول ذلك المؤمنون حين يطفئ نور المنافقين و يبقون في الظّلمة فيسأل المؤمنون حينئذٍ لإتمام نورهم **وَ ٱغْفِرْ لَنَآ** أي أستر علينا معاصينا و لا تفضحنا و لا تهلكنا بها **إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ثمّ أمر اللّه النّبي بالجهاد فقال:

يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

قيل في معنى الآية معناها جاهد الكفّار بالقتال، و جاهد المنافقين بالقول الرّادع عن القبيح لا بالحرب و لمّا كان فيه بذل المجهود سمّاه جهاداً فأنّ الجهاد قد يكون بالحرب و قد يكون باللّسان يكون بإنفاق المال و قد يكون بالقلم و هكذا و لو كان الرّسول مأموراً بالجهاد مع المنافقين بالحرب لزم أن يجاهد أكثر أصحابه و ذلك لأنّ أكثر أصحابه كانوا منهم، **وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ** في إقامة حدود اللّه عليهم و لا تأخذك بهم رأفةٌ لأنّهم صادُّون عن سبيل اللّه.

وَ مَأْوَيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ أي مأوىٰ الكفّار و المنافقين يوم القيامة جهنَّم و بئس المصير لما فيها من أنواع العقاب.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَ ٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَ قِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ

قال إبن عبّاس كانت إمرأة نوح و إمرأة لوط منافقتين **كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ** و هما نوح النّبي و لوط فأنّهما كانا من الأنبياء و لا سيّما نوح النّبي فأنّه كان من أولي العظم **فَخَانَتَاهُمَا** فأنّ إمرأة نوح كانت كافِرة تقول للنّاس أنّه مجنون، و كانت إمرأة لوط تدلّ على أضيافه فكان ذلك خيانتهما لهما، و ما زنت إمرة نبّي قطٌّ لما في ذلك من التّنفير عن الرّسول و إلحاق الوصمة به فمن زعم أنّ المراد بالخيانة الفحشاء فقد أخطأ خطأً فاحشاً و قد مرَّ الكلام فيهما في قصّة نوح و لوط.

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا أي لم يدفع نوح و لوط مع كرامتهما على و عظم قدرهما عنده عن زوجتيهما لما عصتا، شيئاً من عذاب اللّه و فيه إشارة إلى أنّ العذاب يدفع بالطّاعة لا بالإنتساب فأنّ اللّه تعالى خلق الجنّة لما أطاعه و لو كان عبداً حبشيّاً، و خلق النّار لمن عصاه و لو كان سيّداً قريشياً، فإذا كان النّسب لا يفيد مع العصيان فالسّبب بطريقٍ أولى و لذلك **وَ قِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ**

مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ أي قيل للمرأتين أدخلا النّار مع الدّاخلين، و هم العصاة فأنّ العاصي مأواه جهنّم كائناً من كان ثمّ بعد ذلك ضرب اللّه مثلاً أخر للّذين أمنوا فقال:

وَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قٰالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لي عِنْدَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَ نَجِّني مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّني مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظّٰالِمِينَ، وَ مَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرٰانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فيهِ مِنْ رُوحِنٰا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمٰاتِ رَبِّهٰاو كُتُبِهِ وَ كٰانَتْ مِنَ ٱلْقٰانِتِينَ

ذكر اللّه تعالى في هذا المثل إمرأتين:

إحداهما: إمرأة فرعون و الأخرى مريم بنت عمران و جعلهما من أعلى مصاديق المؤمنات كما جعل إمرأة نوح و إمرأة لوط من أعلى مصاديق الكافرات في بيوت الصّالحين، أمّا إمرأة فرعون فهي أسية بنت مزاحم كانت من الصّالحات المسلمات المؤمنات القانتات العابدات تحت عبدٍ كافرٍ ظالم و هو فرعون الّذي يدّعي الألوهيّة و يقول أنّا ربّكم الأعلى، و كفى في فضلها و شرفها أنّ اللّه تعالى شهد بطهارتها و إيمانها في كتابه الكريم فلا نحتاج إلى دليلٍ أخر في المقام بعد تصريح القرأن بإيمانها و من أصدق من اللّه قيلاً.

فقال تعالى: **وَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ** و هي أسية بنت مزاحم **إِذْ قٰالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لي عِنْدَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ** و هذا الكلام منها دليلٌ على إيمانها باللّه و اليوم الأخر و عدم إعتنائها بالدّنيا **وَ نَجِّني مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ** أي خلّصني من فرعون و عمله، بالموت بقرينة قولها، بيتاً في الجنّة.

و قد ورد في الآثار أنّها قالت ذلك لما عذّبها فرعون بأنواع العذاب و من المعلوم أنّ الخلاص من عذاب فرعون ذي الأوتاد لا يحصل إلاّ بالموت **وَ نَجِّني مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظّٰالِمِينَ** المراد بالقوم الظّالمين قوم فرعون.

و أمّا مريم بنت عمران، فهي أمّ عيسى روح اللّه و قد مدحها اللّه تعالى في كثيرٍ من الأيات و كفى في فضلها ذلك و أنّها أمّ عيسى و هو من أولي العظم فقال في وصفها **وَ مَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرٰانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا** الواو عاطفة و التّقدير و ضرب مثلاً مريم إبنة عمران و لذلك نصبه و العامل (ضرب) و يحتمل أن يكون العامل (و أذكر) أي و أذكر أيضاً مريم بنت عمران الّتى حصنت فرجها، إحصان الفرج منعه عن دنس المعصية، فكأنّه قيل، أن كانت كذلك فكيف ولد عيسى منها و لا بعل لها فقال تعالى في الجواب **فَنَفَخْنٰا فِيهِ** أي في الفَرج **مِنْ رُوحِنٰا** المراد بالرُّوح قيل هو جبرئيل الّذي نفخ في فرجها فخلق اللّه فيه المسيح ولم يخلق اللّه أحداً من البشر مثله و هو يدلّ على كمال قدرته و أنّه على كلّ شيءٍ قدير.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلىٰ وصفٍ أخر لها و قال: **وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمٰاتِ رَبِّهٰا وَ كُتُبِهِ** المنزلة على الأنبياء من أدم إلى عيسى و فيه إشارة إلى كمال إيمان مريم و المراد بالكلمات معناها العامّ الشّامل للكلمات التّكوينيّة و التّشريعيّة و من أمن باللّه و رسله و كتبه فهو مؤمنٌ حقّاً.

ثمّ أشار إلى وصفٍ ثالثٍ لها و قال: **وَ كٰانَتْ مِنَ ٱلْقٰانِتِينَ** أي كانت خاضعة لربّها في مقام العبوديّة كما دلّت على هذا الوصف الأيات و قد مضى الكلام في هذا الباب غير مرّةٍ.

فأن قلت لم مثّل اللّه تعالى في هذه الأيات بالمرأة دون الرّجل مع أنّ المؤمن و الكافر يوجد فيهما و لا يختصّ الإيمان أو الكفر بأحدهما دون الأخر.

قلت لأنّ البحث في سورة التّحريم يدور مدار أزواج النّبي على ما مرّ تفصيله فكأنّه أريد بهذه الأيات موعظة الأزواج أوّلاً و سائر النّاس من الرّجال و النّساء ثانياً و أنّ مجرّد الإنتساب سبباً كان أو نسباً لا يفيد في الأخرة و الّذي يفيد هو العمل الصّالح خالصاً للّه تعالى و قد مرّ الكلام في هذا الباب في سورة أل عمران و غيرها.

قال الفّراء هذا مثلٌ ضربه اللّه لعائشة و حفصة و بيَّن أنّـه لا يـغنيهمايـنفعهما مكانهما من رسول اللّه أن لم يطيعا اللّه و رسوله و يمتثلا أمرهما كما لم يـنفع إمرأة نوح و إمرأة لوط كونهما تحت نبيّين و في ذلك زجرٌ لهما من المعاصي و أمرٌ لهما أن يكونا كآسية إمرأة فرعون و مريم إبنة عمران في طاعتهما للّه تعالى و إمتثال أمره و نهيه إنتهى.

■

الجزء

التاسع والعشرون

سورة المُلْكِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

تَبارَكَ ٱلَّذي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ
قَديرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَ ٱلْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذي
خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ طِباقًا ما تَرٰى في خَلْقِ
ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرٰى مِنْ
فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ
ٱلْبَصَرُ خاسِئًا وَ هُوَ حَسيرٌ ﴿٤﴾ وَ لَقَدْ زَيَّنَّا
ٱلسَّمٰآءَ ٱلدُّنْيا بِمَصٰابيحَ وَ جَعَلْنٰاها رُجُومًا
لِلشَّياطينِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابَ ٱلسَّعيرِ ﴿٥﴾ وَ
لِلَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ
ٱلْمَصيرُ ﴿٦﴾ إِذٰآ أُلْقُوا فيها سَمِعُوا لَها شَهيقًا وَ
هِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكٰادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمٰآ أُلْقِيَ
فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهٰآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ ﴿٨﴾
قٰالُوا بَلٰى قَدْ جٰآءَنٰا نَذيرٌ فَكَذَّبْنٰا وَ قُلْنٰا ما نَزَّلَ
ٱللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلّٰا في ضَلالٍ كَبيرٍ ﴿٩﴾ وَ
قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّٰا فيٓ أَصْحٰابِ

ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ
ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي
مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾
ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ
فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ
يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ
﴿١٧﴾ وَ لَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ
وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ
شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي
غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُۥ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ
يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّنْ يَمْشِي
سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ
أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ
ٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي
ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَ

يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾
قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَ إِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ
قِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنْتُمْ بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَ مَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ
ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ
اٰمَنَّا بِهِۦ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ
غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

◀ اللّغة

تَبَارَكَ: تفاعل من البركة.

لِيَبْلُوَكُمْ: البلاء الإختبار و الإمتحان.

طِبَاقًا: أي واحدة فوق الأخرى.

فُطُور: بضمّ الفاء و الطّاء يقال فطر إذا شقَّ.

كَرَّتَيْنِ: أي مرّةً أخرى و الكرّة المرَّة.

خَاسِئًا: أي ذليلاً يقال خسأت الكلب فخسأ أي زجرته فإنزجر.

حَسِيرٌ: الحسير الكليل.

شَهِيقًا: الشّهيق الصّوت الفظيع فإذا إشتّد لهيب النّار سمع لها ذلك الصّوت و منه قولهم شهق شهقةً أي صوتاً فظيعاً.

تَفُورُ: أي ترتفع يقال فارت القدر تفور فوراً و منه الفوارة.

فَسُحْقًا: أي بعداً لهم يقال أسحقهم اللّه سحقاً عن الخير.

ذَلُولاً: أي سهلاً يسيراً.

مَنَاكِبِهَا: واحدها منكب و هو الطَّرف و الفجّ و قيل هو الجبل.

يَخْسِفَ: يقال بئرٌ مخسوفة إذا غاب ماؤها.

تَمُورُ: المور التَّردد في الذّهاب و المجيء.

حَاصِبًا: الحاصب الحجارة.

لَجُّوا: اللّجاج تقّحم الأمر كثيراً يقال لجَّ في الأمر لجاجاً.

عُتُوٍّ: العُتو الطُّغيان و هو الخروج إلى فاحش الفساد.

نُفُورٍ: النُفُور الخروج من الشّئ هرباً و نقيضه القبول.

مُكِبًّا: يقال أكبَّ يكبّ إكباباً فهو مكبّ فيما لا يتعدّى فإذا تعدّى قيل كبت فلان على وجهه.

زُلْفَةً: الزُلفة المنزلة القريبة يقال إزدلف إليه إزدلافاً إذا تقَّرب إليه.

غَوْرًا: أي غائراً. قيل وصف الغائر بالغور الّذي هو المصدر مبالغةً يقال ماءٌ غور أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدّلاء.

◀ الإعراب

مَنْ خَلَقَ من في موضع رفع فاعل يعلم و المفعول محذوف أي ألا يعلم الخالق خلقه و قيل الفاعل مضمر، و من مفعول أَنْ يَخْسِفَ و أَنْ يُرْسِلَ هما بدلان بدل الإشتمال فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ يجوز أن يكون صافّات حالاً و فوقهم ظرف، و يجوز أن يكون فوقهم حالاً و صَافَّاتٍ حالاً من الضّمير في فوقهم مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ مستأنف و قيل هو حال من الضّمير في يقبضن و مفعول يقبض محذوف أي أجنحتهنّ أَمَّنْ مبتدأ و هَٰذَا خبره و مُكِبًّا حال و عَلَىٰ وَجْهِهِ توكيد و أَهْدَىٰ خبر، من، و خبر من الثّانية محذوفٌ غَوْرًا خبر أصبح أو حال أن جعلتها التّامة و فيه بعدٌ و الغور مصدر في معنى الغائر و اللّه أعلم.

◄ التّفسير

تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

تبارك من البركة إشارة إلى أنّ اللّه تعالى فاعل الخيرات و منشأ البركات **ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ** لأنّه الخالق لما سواه كائناً ما كان، و قيل معنى تبارك هو الثّابت الّذي لم يزل و لا يزال و أصل الصّفة من الثّبوت من البرك و هو ثبوت الطّائر على الماء، معناه تعاظم بالحقّ من لم يزل و لا يزال و هو راجع الى معنى الثّابت الدّائم، المعنى تبارك من ثبوت الأشياء إذ لولاه لبطل كلّ شيءٍ ذكر هذه الوجوه في التّبيان و أمّا قوله الّذي بيده الملك، فهو كناية عن قدرته و لذلك قال على كلّ شيءٍ قدير فأنّ من بيده الملك قادرٌ على كلّ شيءٍ لكونه خالقاً لجميع الأشياء.

ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَ ٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ

في قوله: **خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَ ٱلْحَيَوٰةَ** أقوال:

قال في التّبيان أي خلق الموت للتعبُّد بالصَّبر عليه و الحياة للتعبُّد للشُّكر عليها، و قيل وجه خلق الموت و الحياة للإبتلاء هو ما فيها من الإعتبار المؤدّي الى تثبيت قادرٍ على الإضداد الى آخر كلامه إنتهى.

أقول ما ذكره؇ خارج عن موضوع البحث إذ ليس البحث في الأثار المترتّبة عليها و أنّهما لأيّ شيءٍ خلقا بل البحث في أنّ الخلق الّذي بمعنى الإيجاد كيف تعلّق بالموت الّذي هو عدم الحياة.

قال صاحب الكشّاف و الحياة ما يصحّ بوجوده الإحساس و قيل ما يوجب كون الشّيء حيّاً و هو الّذي يصحّ منه أن يعلم و يقدر، و الموت عدم ذلك فيه و معنى خلق الموت و الحياة إيجاد ذلك المصحِّح و إعدامه و المعنى خلق

موتكم و حياتكم أيّها المكلّفون ليبلوكم الى آخر ما قال إنتهى ما أردنا نقله عنه و الإنصاف أنّه لم يعلم ما قال و نحن أيضاً لم نفهم معنى كلامه فانّ المصحّح و هو الّذي يصحّ منه أن يعلم و يقدر هو من آثار الحياة و المفروض أنّ الخلق تعلّق بنفس الحياة في ظاهر الآية لا بما يترّتب عليها و هكذا في جانب الموت، و قال بعضهم معنى الكلام خلقكم للموت و الحياة، و هذا أيضاً ينافي ظاهر الآية لوجود الفرق بين خلق الموت و الحياة، و الخلق للموت و الحياة و التّقدير خلاف الأصل.

أن قلت أيٌّ إشكالٍ في خلق الموت و الحياة.

قلت أمّا الإشكال في خلق الموت أنّه أي الموت عدم الحياة و العدم لا يكون مخلوقاً و توضيح ذلك أنّ الخلق بمعنى الإيجاد فإذا تعلَّق بالموت يصير الموت موجوداً و المفروض أنّه عدم الحياة فيلزم أن يكون موجوداً و معدوماً معاً و هو من إجتماع النّقيضين الّذي لا شكّ في إستحالته و هكذا إذا تعلّق الخلق بالحياة فانّ الحياة عدم الموت و أن قال قائل ليس المراد بالحياة عدم الموت بل الحياة الوجود، يقال له تعلُّق الخلق بالوجود من قبيل تحصيل الحاصل إذ المفروض أنّ الخلق الإيجاد مضافاً الىٰ أنّ الحياة إستمرار الوجود و هو من الأمور الإنتزاعيّة و الخلق و الإيجاد لا يتعلّق بالإعتباريّات كما ثبت في محلّه.

و قال القرطبي، المعنى خلقكم للموت و الحياة يعني للموت في الدُّنيا و الحياة في الأخرة و قدّم الموت على الحياة لأنّ الموت على القهر أقرب كما قدَّم البنات على البنين في قوله: **يَهَبُ لِمَنْ يَشٰآءُ إِنٰاثًا**[١] و قيل قدَّمه لأنّه أقدم لأنّ الأشياء في الإبتداء في حكم الموت، كالنطّفة و التُّراب و نحوه الى آخر ما قال.

١- الشّورى = ٤٩

أقول ما ذكره أيضاً لا طائل تحته مع أنّه خارج عن مورد البحث إذ لو كان المعنى ما ذكره لقال خلقكم للموت و الحياة، و قوله يعني للموت في الدُّنيا و الحياة في الأخرة كلامٌ بلا محصلٍ و هكذا جميع ما ذكره لا فائدة فيه واضح.

و قد قلنا أنّ أصل الإشكال في تعلّق الخلق بالموت و هو أمرٌ عدميٌّ و بالحياة و هو من تحصيل الحاصل و بعبارةٍ أخرى كيف تعلّق الخلق بمعنى الإيجاد بالموت و الحياة، و الّذي نفهم من هذا الكلام هو أنّ الخلق ليس بمعنى الإيجاد بل هو بمعنى الجعل و المعنى هو الّذي جعل الموت و الحياة أي أنّ الموت و الحياة بيده و تحت قدرته، فهو من قبيل قوله: **جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور** و الجعل جعل البسيط دون المركّب، هذا و فى قوله: **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** إشارة الى الغاية أي جعل لكم الموت و الحياة ليختبركم في الدُّنيا أيّكم أحسن عملاً، و ذلك أنّ الدُّنيا دار العمل و الآخرة دار الجزاء.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم الدُّنيا مزرعة الأخرة، و بالأعمال يعرف قدر الرّجال و يتميَّز المحسن عن العاصي و عند الإمتحان يكرم الرّجل أو يهان.

و قد مرَّ الكلام في هذا الباب مكرّراً و أمّا قوله: **وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ** معناه أنّ اللّه هو الغالب الّذي لا يغلب و القادر على إنتقامه من أعداءه و هو الغفور لمن تاب عن ذنبه فلا عزيز إلاّ هو كما لا غفور إلاّ هو.

ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ طِبٰاقًا مٰا تَرىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ جزء ٢٩

و المعنى أنّ اللّه تعالى هو الّذي أنشأ و إخترع سبع سمواتٍ طباقاً، أي واحدة فوق الأخرى، و قال بعضهم، طباق جمع طبق مثل جمال و جمل، و قيل واحدها طبقة، و قوله: ما ترى في خلق آلرّحمن من تفاوتٍ قيل معناه ما ترى فيه من إعوجاج و لا تناقض و لا تباين، بل هي مستوية دالّة على خالقها و ان إختلفت صورته و صفاته، و قيل المراد بذلك السّموات خاصّة، صاحب

الكشّاف في قوله: طباقا أي مطابقةً بعضها فوق بعضٍ من طابق النَّعل إذا خصفها طبقاً على طبقٍ و هذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباقٍ أو على طوبقت طباقاً.

و قال في قوله: **مِنْ تَفٰاوُتٍ** و قرئ من، تفوُّت و معنى البنائين واحد كقولهم تطاهروا من نساءهم و تطهَّروا و تعاهدته و تعهّدته أي من إختلافٍ و إضطرابٍ في الخلقة و لا تناقض، انّما هي مستوية مستقيمة و حقيقة التّفاوت عدم التّناسب كأنّ بعض الشّئ يفوّت بعضاً و لا يلائمه و منه قولهم خلقٌ متفاوت و فى نقيضه متناصف.

فأن قلت كيف موقع هذه الجملة ممّا قبلها.

قلت هي صفةٌ مطابقة لقوله: **طِبٰاقًا** و أصلها، هل ترى فيهنّ من تفاوتٍ فوضع مكان الضّمير قوله: **خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ** تعظيماً لخلقهنّ و تنبيهاً على سبب سلامتهنّ من تفاوت و هو أنّه خلق الرّحمن و أنّه بباهر قدرته هو الّذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب و الخطاب في **مٰا تَرىٰ** للرّسول أو لكلّ مخاطبٍ إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته هذا ما قالوه في تفسير الكلام.

و قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان في قوله: **مِنْ تَفٰاوُتٍ** يعني من إختلافٍ و تناقض و ذلك يدلُّ على أنّ ما فيه التَّفاوت من الكفر و المعاصي ليس من خلق اللّه لأنّه نفى نفياً عامّاً أن يكون فيما خلقه تفاوت، و تفاوت و تفوُّت مثل تصاعر و تصعُّر إنتهى كلامه رفع مقامه.

و الّذي نقول في معنى الكلام هو أنّ قوله: **مٰا تَرىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ** فيه نقطةٌ خفيت على جميع المفسّرين من العامّة و الخاصّة و هي أنّ في الكلام دلالة على التّوحيد و أنّ خالق السّموات و ما فيهنّ و ما بينهنّ إلهاً واحداً فرداً لا شريك له في الملك و ذلك لأنّ تفاوت الأثار يدلّ على تفاوت المؤثّر و بالعكس، فلو كان في خلق الرّحمن تفاوتٌ و إختلافٌ كمّاً و كيفاً لدلَّ ذلك على إختلاف المؤثّر و تكثُّره إذ لا يعقل أن يكون المؤثّر متعدّداً متَّكثراً و

الأثار منهم واحدة لا تفاوت فيها لأنّ الأراء متفاوتة قطعاً وكلّ أثرٍ فهو تابع لمؤثّره ألا ترى أنّ الحرارة من آثار النّار و البرودة من آثار الماء فلا تكون الحرارة و البرودة من آثار مؤثّرٍ واحد فانّ الواحد لا يصدر منه إلاّ الواحد كما أنّ الواحد لا يصدر إلّا من الواحد فوحدة الأثر كاشفة عن وحدة المؤثّر كما أنّ وحدة المؤثّر تدّل على وحدة الأثر إذا عرفت هذا فنقول عدم التّفاوت في الخلقة يدلُّ على وحدة المؤثّر وليس المراد بعدم التّفاوت عدمه في الصّفات و الذّات بل المراد عدم التّفاوت في أصل الخلقة و أنّها على وتيرةٍ واحدة كيف شاء و أراد سواء كانت في خلق السّموات أم في غيرها من الموجودات و إلاّ فالتّفاوت في الصّفات و الذّات موجودٌ بلا كلام و محصلّ الكلام أنّك لو أمعنت النّظر و تفكّرت في المخلوق من أيّ صنفٍ كان ترى أنّه من آثار مؤثّرٍ واحد و الى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

وفي كلّ شيٍ له آيةٌ   تدّل على أنّه واحدُ

و لعلّه أشار إالى هذه الدّقيقة، بقوله: **فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ** أي فرّد البصر و أدرها في خلق اللّه من السّموات و غيرها هل ترى من فطور، أي من شقوقٍ و صدوعٍ يقال فطره فطراً و منه قوله تعالى: **تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**(١).

و قيل معناه، هل ترى من وهنٍ.

و قال قتادة معناه هل ترى من ضللٍ، و من المعلوم أنّ الأثر الّذي لا ضلل و لا عيب فيه يدلّ على أنّ المؤثّر فيه كاملٌ بالذّات و الصّفات بريءٌ من النّقص و الآفات و هذا هو اللّه الواحد القهّار.

ثمّ أنّه تعالى أكّد ذلك بقوله:

ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ

١- مَريم = ٨٩

أي دفعةً بعد دفعةٍ و ذلك لأنّ من نظر إلى شئٍ كرّةً بعد أخرى ظهر له ما لم يظهر في النّظر الأوّل حتّى قيل أنّ النّظر الأوّل لا فائدة فيه و لا يترتّب عليه أثر لأنّه وقع من النّاظر بغير تدبُّرٍ و تفكّرٍ و هذا بخلاف النّظر الثّاني لأنّه مسبوق بالإرادة و لأجل ذلك جعل الشّارع العقاب في النّظر إلى الأجنّبية في الدّفعة الثّانية دون الأولى و السِّر في ذلك أنّ النّظر الأوّل كثيراً ما يكون على سبيل الإتّفاق و هذا بخلاف الثّاني فأنّه يكون عن قصدٍ و عمدٍ فلا محالة يكون مسبوقاً بالإرادة و ملحوقاً بالتّفكُّر فيه و على هذا فإذا جدَّد النّظر ثالثاً و رابعاً ظهر له ما لم يظهر من النّظر السّابق و هذا ممّا يحكم به العقل و يؤيّده الحسّ و العيان و لا يحتاج إلى مزيد بيان ضرّورة أنّ النّظر عن تفكّر و تدّبرٍ غير النّظر الّذي وقع منه من غير إرادةٍ و لأجل هذا أمر اللّه تعالى نبيّه ظاهراً و جميع أفراد الأمّة بل جميع العقلاء واقعاً بتجديد النّظر في الأثار.

و قال ثّم ارجع البصر كرَّتين، ثمّ بيَّن اللّه تعالى أنّ النّاظر إذا فعل ذلك أي جدَّد النَّظر إلى أثار رحمة اللّه و تفكّر فيها و تردَّد بصره في خلقه إنقلب إليه بصره و رجع خاسئاً أي ذليلاً في جنب عظمة اللّه و كمال قدرته و قال بلسان حاله أو فعاله سبحان اللّه ما أعظم شأنك أنّك على كلّ شئٍ قدير و ذلك كذلّة من طلب شيئاً ولم يجده و أبعد عنه و قوله: **وَ هُوَ حَسِيرٌ** معناه كليلٌ كما يحسر البعير.

و عن إبن‌عبّاس أي قد بلغ الغاية في الإعياء فهو بمعنى فاعل من الحضور الّذي هو الاعياء و يجوز أن يكون مفعولاً من حسره بعد الشّئ كما قال الشّاعر:

من مدَّ طرفاً إلى ما فوق غايته إرتدَّ حسَّان منه الطَّرف قد حسرا

يقال حسر يحسر حسوراً أي كلَّ و إنقطع نظره من طول مدى و ما أشبه ذلك فهو حسيرٌ و محسور أيضاً كما قيل:

نظرت إليها بالمحصَّب من منى فعاد إليّ الطّرف و هو حسيرُ

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ

قيل اللاّم في لقد، للقسم أقسم اللّه تعالى في هذه الآية بأنّه زيَّن السّماء الدُّنيابالمصابيح أي حسَّنها بها و هى جمع مصباح و المراد بها الكواكب المضيئة سمّيت النّجوم مصابيح لإضائتها كما يضئ السّراج فانّ المصباح السّراج.

فعن قتادة خلق اللّه تعالى النُّجوم لثلاث خصالٍ، زينة السّماء، و رجوماً للشّياطين و ثالثها، علامات يهتدى بها فعلى هذا تقديره و جعلنا فيها، ثمّ أنّه لم يبيَّن في الآية أنّ رجم الشّياطين بالمصابيح نفسها أو بشهبها.

فقال بعض المفسّرين أنّه بالشُّهب و تقدير الكلام و جعلنا شهبها رجوماً للشّياطين و على هذا فهو بتقدير المضاف.

و قال الآخرون أنّ الضّمير في **جَعَلْنَاهَا** راجع إلى المصابيح على أنّ الرَّجم من نفس الكواكب و لا يسقط الكوكب نفسه و انّما ينفصل منه شئ يرجم به من غير أن ينقص ضوءه و لا صورته قاله أبو عليّ في جواب من قال كيف يجوز أن تكون المصابيح زينة و هى رجومٌ لا تبقى.

أقول هذا البحث ممّا لا طائل تحته إذ ليس المراد بالرَّجم معناه العرفي بل المراد معناه العقلي و هو الطَّرد و المنع كما يقال أعوذ باللّه من الشّيطان الرَّجيم، أي المطرود و بعبارةٍ أخرى المراد بالرَّجم الطَّرد و المنع عن نفوذ الشّياطين فيها و على هذا فمعنى قوله: **وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ** إنّا جَعَلنا السّموات بحيث لا يقدر الشّيطان على النُّفوذ فيها امّا بسبب إضاءة الكواكب او بغير ذلك.

وأمّا قَوله: **وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ** أي إعتدنا للشّياطين عذاب الحريق يوم القيامة، ثمّ انّ المراد بقوله تعالى: **زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا** الّتى يرونها أهل ا لدّنيا إذا نظروا إلى فوق رؤوسهم فانّ السّماء في الأصل جهة العلو كما أنّ

الأرض جهة التّحت و لذلك قيل، لكلّ أرضٍ سماءٌ و لكلّ سماءٌ أرضٌ كما قيل بالفارسيّة:

شنيدستم كه هر كوكب جهانى است
جداگانه زمين و آسمانى است

و قد تكلّمنا فيما مضى في معنى السّموات و الأرض و قلنا أنّ السّموات ليست بأجسامٍ لا تقبل الخرق و الإلتئام كما قاله القدماء و الكواكب متّصلة بها إتّصال السّراج بالجسم فانّ هذه الكواكب معلّقة في الفضاء لا أنّها متصلّة بشيءٍ سمّي بالسّماء، و قد فصّلنا الكلام فيها سابقاً بما لا مزيد عليه.

ثمّ انّ هذه الأيات تدلُّ على قدرة اللّه و حكمته و أنّ له الملك الكبير و أنّه على كلّ شيءٍ قدير و هو الّذي يستحقّ أن يعبد لا غيره و هو الّذي يغفر الذُّنوب و يعفو عن السيّئات و بيده الثّواب و العقاب.

وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ، إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَ هِيَ تَفُورُ

لمّا بيَّن اللّه تعالى في الأيات السّابقة عموم قدرته و أنّه جعل الموت و الحياة للإبتلاء و الإختبار و أنّه هو العزيز الغفور و أنّه خلق السّموات طباقاً إلى أخر ما ذكره شرع في بيان حال الكفّار و سوء عاقبتهم فقال: **وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا** باللّه و رسوله و اليوم الأخر **عَذَابُ جَهَنَّمَ** يوم القيامة **وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ** أي بئس المصير جهنَّم، و بئس من أفعال الذمّ و قيل من صفات الذمّ ثمّ انّه تعالى بيَّن وجه الذّم فقال: **إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا** أي إذا طرح الكفّار في النّار **سَمِعُوا لَهَا** أي للنّار **شَهِيقًا** أي صوتاً فظيعاً **وَ هِيَ** أي النّار **تَفُورُ** أي ترتفع فأنّ الفور إرتفاع الشّئ بالغليان يقال فارت القدر تفور فوراً و منه الفوّارة لإرتفاعها الماء إرتفاع الغليان و هو كناية عن شدّة العذاب و ما ظنّك بنار وقودها النّاس و الحجارة أعدّت للكافرين ثمّ انه تعالى وصف النّار ثانياً بقوله:

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ

كاد بمعنى قرب أي تكاد أن تتفرّق و تتقطّع بعضها من بعضٍ من الغيظ أي من شدّة الغيظ على أعداء اللّه.

و قيل من الغيظ أي من الغليان و أصل تميز، تتميّز، و المقصود من هذه الكلمات شدّة إلتهاب النّار شبّه اللّه تعالى النّار في شدّة إلتهابها بمن كان في حال الغضب فكأنّ النّار غضبت على الكفّار فانّ الغيظ من أثار الغضب **كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ** أي جماعة من الكفّار فالفوج الجماعة و الإلقاء الطَّرح، يعني كلّما ألقي في نار جهنَّم جماعة من الكفّار **سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ** أي خزنة النّار أو خزنة جهنَّم و هم الملائكة الموكّلون على العذاب فانّهم يسألون الكفّار على وجه التَّوبيخ و التَّقريع **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** أي ألم يأتكم رسولٌ أنذركم من هذا اليوم.

قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَ قُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ

أي قال الكفّار في جواب الخزنة **بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ** في الدُّنيا و أنذرنا من عذاب اللّه **فَكَذَّبْنَا** المنذر و هو النّبى وَ **قُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِنْ شَىْءٍ** و أنكرنا الكتاب المنزل عليه و قلنا لهم أي للأنبياء **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ** ان نافية أي لستم إلاّ في الضّلالة.

و قيل هذا أي قوله: **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ** هو قول خزنة جهنّم لأهلها، أي أنّ الخزنة يقولون للكفّار لستم إلاّ في ضلالٍ كبير، أي لستم اليوم إلاّ في عذاب جهنّم لضلالتكم و غوايتكم، و على هذا إطباق المفسّرين، و الّذي يقوّى في النَّفس أنّ هذا من تتمّة قول الكفّار في جواب الخزنة لا من قول الخزنة للكفّار فانّ الظّاهر انّ الآية كلّها جوابٌ لخزنة جهنّم و لكنّ القوم اجمعوا

على أنّه من قول الخزنة و لا نعلم وجهه فانّ سياق الآية يقتضي ما ذكرناه و اللّه أعلم بالصّواب.

وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ

الواو للعطف أي و قال الكفّار في جواب الخزنة **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ** في الدُّنيا من النّذير ولم نكذّبه **مَا كُنَّا** اليوم **فِيٓ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ** أي أصحاب النّار **فَاعْتَرَفُوا** هؤلاء الكفّار **بِذَنْبِهِمْ** في تكذيبهم الأنبياء **فَسُحْقًا** و بعداً **لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ** أي بعداً من رحمة اللّه فانّ إقرار العقلاء على أنفسهم جائز و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد فلمّا وصف اللّه تعالى الكفّار بما وصف و أعدّ لهم في جهنّم من أليم العقاب، ذكر أحوال المؤمنين و ما أعدّ لهم في الجنّة من جزيل الثّواب و أنواع النّعم فقال:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ

لخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يخشى منه و لذلك خصّ العلماء بها:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**(٣) و غيرها من الأيات.

١- فاطر = ٢٨
٢- الأنبياء = ٤٩
٣- الزّمر = ٢٣

و فی قوله: **بِالْغَيْبِ** إشارة إلى خوفٍ خاصّ و هو الخوف الّذي إقتضاه معرفته بذلك من نفسه و معنى الآية انّ الّذين يخافون اللّه عن علم خوفاً إقتضاه معرفته بذلك من نفسه لهم مغفرةٌ من ربّهم و اجرٌ كبيرٌ يوم القيامة.

و قيل معنى **بِالْغَيْبِ** أي على وجه الإستسرار بذلك لأنّ الخشية متى كانت بالغيب كانت بعيدة من النّفاق و خالصة لوجه اللّه و خشية اللّه بالغيب تنفع بأن يستحقّ عليها الثّواب و أمّا الخشية في الظّاهر و ترك المعاصي كذلك لا يستحقّ بها الثّواب ذكر هذا المعنى بعض المفسّرين و هو حقٌّ.

وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

اللّفظ لفظ الأمر و المراد به الخبر يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمّد أو اجهرتم به فانّه أي اللّه، عليمٌ بذات الصّدور، يعني ما فی القلوب من الخير و الشّر.

أقول لا وجه لتخصيص الآية بما ذكروه من أمر محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل المراد بها معناها العامّ سواء كان في أمر محمّد أم في غيره فانّ النّفاق محكوم عقلاً و شرعاً فالآية بصدد بيان حكم عامّ و هو أنّه تعالى عالم بكلّ الأشياء و لا يخفى عليه شئ و ذلك لأنّه قد أحاط بكلّ شئٍ علماً و مع ذلك هو خالق الأشياء و لا يعقل أن يكون الخالق جاهلاً بما خلق و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ

معناه من خلق الصّدور يعلم ما في الصّدور.

أقول الهَمَزة للإستفهام الإنكاري أي بل يعلم الخالق.

حاصل الكلام أنّ الخالق يكون عالماً بما خلقه و ما يخلقه و إلاّ لا يكون خالقاً إذ لا يعقل أن لا يعلم الخالق ما خلقه و يكون خالقاً له.

و أمّا قوله: **ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** فاللّطيف هو عالمٌ بدقائق الأمور، و يحتمل أن يكون المراد بكونه لطيفاً رفقه بالعباد في هدايتهم الى الخير و على جميع

التّقادير لا شكّ في أنّ اللّه لطيفٌ بعباده بلطف التّدبير، خبيرٌ أي عالمٌ بأعمالهم و نيّاتهم، و يحتمل أن يكون المراد بكونه لطيفاً، تجرُّده عن المّادة و تنزُّهه عن الجسم و الجسمانيّة، و يحتمل أن يكون المراد باللُّطف عناية الحقّ بعباده و الإحتمالات كثيرة و المعنى واضح لا خفاء فيه فلا يحتاج الى إطالة الكلام.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ

و المعنى أنّ اللّه تعالى هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً، أي سهلاً سهّلها لكم لتستقرُّوا عليها و الذّلول المنقاد الّذي يذّلّ لك و المصدر الذُّل الإنقياد أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة و الغلظة، و قيل معناه ثبّتها بالجبال لئلاّ تزول بأهلها، و قيل أشار بذلك الى التّمكُّن من الزّرع و الغرس و شقّ العيون و الأنهار و حفر الآبار **فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا** هو أمر إباحةٍ و فيه إظهار الإمتنان و قيل هو لفظ الأمر و معناه الخبر أي لكي تمشوا في أطرافها و نواحيها و آكامها و جبالها **وَ كُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ** لفظه الأمر معناه الإباحة و الإذن في الأكل، أي كلوا ممّا أحلّه لكم فيها من الرزّق **وَ إِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ** أي الى اللّه المرجع و المآل يوم القيامة فيجزى كلّ واحدٍ منكم حسب عمله و فى ذلك تهديدٌ و تخويف.

ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ

الهمزة صورتها الإستفهام و معناها الإنكار أي لا تأمنوا، و الأمن هو إطمئنان النّفس الى السّلامة من الخوف، و الأمن علمٌ بسلامة النّفس من الضّرر و المعنى ءأمنتم عذاب من في السّماء إن عصيتموه، و قيل تقديره أمنتم من في السّماء قدرته و سلطانه و عرشه و مملكته و خصّ السّماء و إن عمَّ ملكه تنبيهاً على أنّ الإله الّذي نفذ قدرته في السّماء لا من يعظّمونه في الأرض و قيل هو

إشارة الى الملائكة، و قيل الى جبريل و هو الملك الموكّل بالعذاب أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون **فَإِذَا هِيَ تَمُورُ** أي تذهب و تجئ يقال مار يمور موراً، و المور هو التّردد و محصّل الكلام هو أنّ اللّه الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً و منقاداً للسكونة، و الزّراعة قادرٌ على أن يجعلها مضطربة بحيث تكون عذاباً عليكم فأنّ الأمور بيده يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فلا تكونوا مطّمئنين.

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ

فالحاصب الحجارة الّتى يرمى بها كالحصباء، لمّا ذكر في الآية السّابقة **ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ** أشار في هذه الآية الى نوعٍ آخر من العذاب و هو إرسال الحجارة من السّماء كما كان في الأمم السّالفة بسبب المعاصي الّتى صدرت عنهم فقال: **أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ** و هم ملائكة العذاب بإذن اللّه أن يرسل عليكم، من السّماء **حَاصِبًا** أي حجارة **فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ** فيه تهديدٌ أي ستعرفون كيف تخويفي و ترهيبي إن عصيتموني إذا صرتم الى عذاب النّار ثّم قال تعالى مقسماً.

لَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

يعني كذّب الّذين كفروا بالتّوحيد و النبوّة و المعاد من قبلهم كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و أصحاب مدين و أصحاب الرّس و قوم فرعون و غيرهم فأهلكتهم و استأصلتهم، فكيف كان نكير، أي كيف كانت ثمرة إنكارهم و حكم الأمثال واحد.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ

يعني أو لم يروا بأعينهم هؤلاء الكفّار **إِلَى ٱلطَّيْرِ** فوقهم صافّات، أي كما ذلّل الأرض للإنسان ذلّل الهواء للطّيور و معنى، صافّات، أي باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها وَ **يَقْبِضْنَ** أي يضربن بها جنوبهنّ قال بعضهم يقال للطّائر إذا بسط جناحيه صافّ، و إذا ضمّهما فأصابا جنبه، قابض لأنّه يقبضهما و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

يبادر جنح اللّيل فهو موائلُ

يحيث الجناح بالتّسبط و القبض

مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ الإمساك اللّزوم المانع من السّقوط و المعنى ما يمسك الطّير في الجوّ و هى تطير إلاّ اللّه تعالى.

إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ بما للخلق من النّفع و الضّر ثمّ قال تعالى:

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ

قال إبن عبّاس في قوله: **هُوَ جُندٌ لَّكُمْ** أي هو حزبٌ و منعةٌ لكم، و على هذا فالمعنى أم ظننتم أنّ أعوانكم و أقربائكم و عشيرتكم و غيرهم ممّن حولكم **يَنصُرُكُم** في الشّدة و المحنة **مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ** إن، نافية أي ليس الكافرون باللّه العابدون للأوثان إلاّ في غرورٍ حيث يتوهّمون أنّ ذلك أنفع لهم و الأمر على خلاف ذلك فالإستفهام للإنكار أي لا جند لكم يدفع عذاب اللّه فلا تغترّوا بكثرتهم و أقوالهم، ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أصلٍ آخر من الأصول الّتى عليها معايش الخلق و لا يقدر على اجرائه إلاّ اللّه فقال على سبيل الإستفهام الإنكاري أيضاً.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ

و المعنى ليس الرّازق إلاّ اللّه تعالى و هذا ممّا لا خلاف فيه لأنّ جميع ما يحتاج إليه البشر من المأكول و المشروب و الملبوس و غيرها ممّا تتوقّف عليه الحياة مخلوقٌ للّه تعالى و على هذا فأن أمسك رزقه، أي يزيله و يمنعه منكم فمن يرزقكم **بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ** اللّجاج تقحّم الأمر كثيراً ردّاً للصّارف عنه و العتوّ، بضّم العَين و التّاء من عتا يعتو عتوّاً، فهو عات و هو الخروج إلى فاحش ألساد و يعّبر عنه بالطُّغيان و النُّفور بضّمتين الخروج عن الشّيء هرباً من الشُّعور بضرره و نقيض النُّفور القبول، و المعنى أنّهم أي الكفّار و قعوا في اللّجاج و العناد و لذلك فلا يقبلون قول الحقّ كما هو شأن المعاند و بعبارةٍ أخرى إنّهم لجّوا في طغيانهم و خروجهم عن الحقّ لعنادهم و إصرارهم على الكفر و من كان كذلك فلا ينفعه الإرشاد إلى الحقّ بل يقال.

ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[1] لقد حقَّت عليهم كلمة العذاب.

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

ضربَ اللّه تعالى مثلاً للكافر و المؤمن و ان شئت قلت شبَّه اللّه الكافر بمن يمشى مكبّاً على وجهه و شبَّه المؤمن بمن يمشى سويّاً أي معتدلاً ناظراً بين يديه و عن يمينه و عن شماله.

قال إبن عبّاس هذا في الدُّنيا و يجوز أن يراد به الأعمى الّذي لا يهتدي إلى الطّريق فيعتصف فلا يزال ينكبّ على وجهه و أنّه ليس كالرّجل السوّي البصير الماشي في الطّريق المهتدي له.

و قال قتادة هو الكافر أكبّ على معاصي اللّه في الدُّنيا فحشره اللّه يوم القيامة مكبّاً على وجهه، و قيل عني به أبو جهل و الّذي يمشي سويّاً رسول اللّه و من تبعه.

١- الانعام = ٩١

أقول الحقّ أنّه عامّ في الكافرون والمؤمن أي أنّ الكافر لا يدري أعلى الحقّ هو أم على باطلٍ، و على هذافالمعنى أهذا الكافر المكبّ على وجهه الّذي لا يهتدي إلى طريق الحقّ أهدى، أم المسلم يمشي سويّاًمعتدلاً يرى ما بين يديه و ما عن يمينه و شماله و هو **عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** و هو الإسلام، يقال أكَبّ الرّجل على وجهه فيما لا يتّعدى، بالألف، فإذا تعدّىٰ قيل كبّه اللّه لوجهه بغير ألف.

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ

الإنشاء الإيجاد، و المعنى قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار المكبّين على وجوههم **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ** أي أنّ اللّه تعالى خلقكم و أوجدكم **وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ** للإستماع **وَٱلْأَبْصَٰرَ** للرّؤية و النّظر **وَٱلْأَفْـِٔدَةَ** يعني القلوب لدرك الحقائق و التّفكّر و التّعمّق فيما تسمعون و تنظرون إليه **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** على هذا النّعم الجليلة مع أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و شرعاً.

إعلم أنّ اللّه تعالى أشار في هذه الآية إلى أفضل النعم و هو نعمة الإيجاد و إنّما قلنا أفضل النّعم لأنّ من لا وجود له فهو معدوم و المعدوم لا حكم له و لا يترتّب عليه أثرٌ من الآثار فانّ الوجود هو الّذي يترتّب عليه الأثر فما لا وجود له لا حكم له، ثمّ أشار اللّه تعالى إلى السّمع و البصر و الأفئدة، من بين جميع الأعضاء و الأجزاء و القوى المودّعة في الإنسان من الشامّة و الذّائقة و اللاّمسة و من الأجزاء كالرّجل و اليد و الأنف و اللّسان و غيرها لنقطةٍ و هي أنّ السّامعة و الباصرة من أشرف القوى و ذلك لأنّ جميع الفضائل المكتسبة للإنسان يحصل له من هاتين القوّتين و لأجل ذلك إختلفت الفلاسفة في ترجيح أحدهما على الآخر بعد إتّفاقهم على أنّهما من أشرف القوى و أفضلها و الوجه فيه ظاهر فانّ الإنسان بالسّمع يستمع الحقائق و بالنّظر يعتبر و لتفصيل الكلام فيهما موضع آخر.

و أمّا الأفئدة فهي جمع فؤاد، و هو القلب الّذي به يحصل التّفقُّه و تمييز الحقّ عن الباطل فكُلّ ما يدركه السّمع و البصر و غيرهما من القوى يعرف خيره و شرّه ببركة القلب و هو الحاكم في مملكة البدن و أمّا القوى فشأنها الإدراك فقط و أن شئت قلت هو بمنزلة القاضي في الأمور المدركة و هو المميّز في المدركات و إلاّ فالإدراك موجود في الحيوان أيضاً ألا ترى أنّه يسمع و يبصر و يشمّ و يلمس و يذوق كما هو كذلك في الإنسان و لا فرق فيهما من هذه الجهة و إنّما الفرق في التّفهُّم و التّعقل و تمييز الحقّ من الباطل و الخير من الشّر لا يحصل للحيوان إذ لا عقل له و هذا هو المراد من القلب لا اللّحم الصّنوبري الّذي هو موجود في الحيوان أيضاً.

و أمّا قوله: **قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** ففيه إشارة إلى أنّ أكثر الأفراد يكفرون بنعمة اللّه و لا يشكرونه على ما أعطاهم من النّعم مع أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و شرعاً و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**[١] و قد مضى الكلام فيه غير مرّة.

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّه أنشأ الإنسان أي أوجده و خلقه و جعل له السّمع و البصر و الأفئدة ذكر في هذه الأيات أموراً ينبغي التوجّه إليها فقال: **هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ** قيل معناه خلقكم و أوجدكم، و قيل معناه، نشركم فيها و فرّقكم على ظهرها.

أقول و هذا هو الحقّ.

قال الرّاغب في المفردات، الذّرأ إظهار اللّه ما أبداه يقال ذرأ اللّه الخلق أي أوجده و أظهر أشخاصهم:

١- سباء = ١٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ**(١).
قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ**(٢).
قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ**(٣) و غيرها من الأيات.

و على هذا فحمل الذَّرء في الآية على النَّشر و الإظهار أولى من حمله على الخلق و قوله: **وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** أي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم علىٰ أعمالكم على الطّاعة الثّواب و على المعصية العقاب، فلمّا أخبر اللّه تعالى بذلك أي بالبعث و النُّشور قال الكفّار متى كان ذلك كما قال: **وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ** أي البعث، **إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** قالوا هذا للأنبياء الّذين أخبروهم به فقال تعالى في جوابهم **قُلْ** يامحمّد **إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ** بزمان البعث عند اللّه **وَ إِنَّمآ أَنَا نَذِيرٌ** أي مخوِّفٌ ظاهر من البعث و تبعاته و فيه إشارة إلى أنّ العلم بالسّاعة مختصّ باللّه تعالى و هو كذلك كما قال في موضع أخر. **قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى**(۴) و قد مضى الكلام فيه.

فَلَمّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هٰذَا ٱلَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ

الزُّلفة المنزلة القرينة و الأصل فيها القرب و منها (مزدلفة) لأنّها منزلة قريبة من مكّة و جمع زلفة، زلف و المعنى فلمّا رأى الكفّار ما وعدوا به من البعث و الجزاء على الأعمال **سِيئَتْ وُجُوهُ** أي سيئت وجوه الكفّار من الخوف أي ظهر في وجوههم السُّوء و بعبارةٍ أخرى ظهر على وجوههم ما دلَّ على كفرهم.

ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى المراد من قوله: **زُلْفَةً** أي قريبةً، فقال بعضهم رأوا ما وعدوا من الحشر قريباً منهم.

١- الأعراف = ١٧٩
٢- الانعام = ١٣۶
٣- النّحل = ١٣
۴- الاعراف = ١٧٨

و قال إبن عبّاس لمّا رأوا عملهم السَّيّئ قريباً.

و قال بعضهم أي ساءهم ذلك العذاب، و الّذي يختلج بالبال في معنى القرب هو القرب إلى الموت أي فلمّا دنى أجلهم و رأوا الموت بالمعاينة سيئت وجوههم في حال الإحتضار و هذا المعنى أنسب بالآية ممّا ذكروه فانّ المحتضر في حال الإحتضار يرى ما لا يراه غيره.

وَ قِيلَ هٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ يجوز أن يكون الفعل من الدّعاء أن يكون من الدّعوى.

قال الفّراء والتّخفيف و التّشديد واحد مثل، تذكرون، و تذّكرون، و تدّخرون، و تدخرون قاله في التّبيان، و أكثر المفسّرين على التّشديد من الدُّعاء أي هذا الّذي كنتم تمنُّون و تسألون.

و قال إبن عبّاس معناه هذا الّذي كنتم من أجله تدَّعون الأباطيل و الأحاديث و يحتمل أن يكون المعنى هذا الّذي كنتم به تدَّعون بطلانه و كذبه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللّٰهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

أي قل لهم أي لهؤلاء الكفّار **أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللّٰهُ وَ مَنْ مَعِيَ** من المؤمنين و الأقرباء **أَوْ رَحِمَنَا** و أخّر أجالنا فمن يجيركم من عذاب اللّه الّذي ينفعكم من ذلك في رفع العذاب الّذي تستحقّون به فلا تعلّلوا في ذلك بما لا يغني عنكم شيئاً قيل أنّ الكفّار كانوا يتمنُّون موت النّبي و موت أصحابه فقال لهم النّبي أيُّ نفعٍ في موتي و موت أصحابي لكم في النّجاة من العذاب و من يجير الكافرين و يخلصهم من عذاب اللّه.

و محصّل الكلام أنّ العذاب يترتّب على المعصية و هو بأمر اللّه و لا يقدر أحدٌ على منعه من الكفّار و على هذا فلا نفع لكم في موتي و موت أصحابي و هو واضح.

قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

أى قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار المنكرين، **هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ** يعني اللّه تعالى هو الّذي عمَّت نعمه جميع الخلائق و هو المستحقّ بأن يوصف بالرّحمن الّذي ينبغي أن يعبد لا غيره و نحن أمنّا به **وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** أي فوَّضنا أمورنا إليه **فَسَتَعْلَمُونَ** غداً يوم القيامة **مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** نحن أو أنتم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ

أي قل يامحمّد أرأيتم معاشر الكفّار، و قيل معشر قريش **إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ** الّذي تشربونه **غَوْرًا** أي غائر ذاهباً في الأرض **فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ** أي ماءٍ جار في الأنهار تشربون منه و الجواب لا يقدر عليه أحد غير من خلق الماء فإذا كان كذلك فلم تشركون باللّه الّذي هو ولّي النِّعم كلّها.

■

سُورة القَلَمِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَ ٱلْقَلَمِ وَ مٰا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مٰآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَ
إِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ
﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلا
تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾
وَ لاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاّفٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمّازٍ مَشّآءٍ
بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ
ذٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كٰانَ ذٰا مٰالٍ وَ بَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذٰا
تُتْلٰى عَلَيْهِ اٰيٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ كَمٰا
بَلَوْنٰآ أَصْحٰابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهٰا
مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَ لا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطٰافَ عَلَيْهٰا
طٰآئِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نٰآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا
عَلٰى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَ

هُمْ يَتَخٰافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لاٰ يَدْخُلَنَّهَا اَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
مِسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَ غَدَوْا عَلىٰ حَرْدٍ قٰادِرِينَ ﴿٢٥﴾
فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضٰالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قٰالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لاٰ
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قٰالُوا سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ
﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَلاٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾
قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا إِنّٰا كُنّٰا طٰاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسىٰ رَبُّنٰا أَنْ
يُبْدِلَنٰا خَيْراً مِنْهٰا إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا رٰاغِبُونَ ﴿٣٢﴾
كَذٰلِكَ اَلْعَذٰابُ وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتِ
اَلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ اَلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾
مٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتٰابٌ فِيهِ
تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمٰا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ
لَكُمْ أَيْمٰانٌ عَلَيْنٰا بٰالِغَةٌ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ إِنَّ لَكُمْ
لَمٰا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾
أَمْ لَهُمْ شُرَكٰاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكٰائِهِمْ إِنْ كٰانُوا
صٰادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سٰاقٍ وَ يُدْعَوْنَ
إِلَى اَلسُّجُودِ فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خٰاشِعَةً
أَبْصٰارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كٰانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى
اَلسُّجُودِ وَ هُمْ سٰالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَ مَنْ
يُكَذِّبُ بِهٰذَا اَلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
لاٰ يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ
عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نادٰى وَ هُوَ
مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلآ أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ
بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبيهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
مِنَ ٱلصّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَ إِنْ يَكادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَ
يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَ ما هُوَ إِلّا ذِكْرٌ
لِلْعالَمِينَ ﴿٥٢﴾

◀ اللّغة

نٓ: إسم للسُّورة على أشهر الأقوال.

وَ ٱلْقَلَمِ: القلم ألة لما يكتب به.

يَسْطُرُونَ: و السَّطر الكتاب و هى وضع الحروف على خطٍّ مستقيمٍ يقال سطر يسطر سطراً إذا كتب.

ٱلْمَفْتُونُ: يقال فتن فلان بفلانه إذا إبتلى بتخييل الرّأي كالمجنون.

وَدُّوا: الوّد الحبّ.

تُدْهِنُ: الإدهان الجريان في ظاهر الحال على المقاربة مع إضمار العداوة و هو مثل النّفاق.

حَلّافٍ مَهِينٍ: الحلاّف مبالغة في الحلف و هو القسم أي كثير القسم، و المهين، الوضيع بإكثاره من القبيح.

هَمّازٍ: بفتح الهاء المغتاب و قيل، في معناه، أي وقّاع في النّاس بما ليس له أن يغيبهم به.

مَشَّآءِۭ: بفتح الميم و تشدّيد الشّين مبالغة في المشي أي يمشي كثيراً بين النّاس بالنَّميمة و النَّميم و النميمة مصدران.

مَنَّاعٍ: بفتح الميم و تشدّيد النُّون مبالغة في المنع أي يمنع خيره عن غيره كثيراً.

مُعْتَدٍ: المعتّد المتّجاوز عن الحدّ.

أَثِيمٍ: مبالغة في الإثم و هو الذّنب.

عُتُلٍّ: بضّم العين و التّاء و تشدّيد الفاحش اللّئيم.

زَنِيمٍ: الزّنيم الدَّعي و قيل هو الّذي يعرف بالشَّر.

سَنَسِمُهُۥ: من وسم و الوسم العلامة.

عَلَى ٱلْخُرْطُومِ: الخرطوم الأنف من الإنسان موضع الشَّفة من السّباع و خراطيم القوم ساداتهم.

بَلَوْنَٰهُمْ: الإبتلاء الإختبار.

لَيَصْرِمُنَّهَا: الصَّرم قلع ثمر النَّخل.

كَالصَّرِيمِ: الصَّريم المصروم و قيل هو أرضٌ باليمن لا نبات فيها.

صَٰرِمِينَ: أي قاطعين.

عَلَىٰ حَرْدٍ: الحرد القصد.

يَتَلَٰوَمُونَ: عن اللّوم أي يلوم بعضهم بعضاً.

زَعِيمٌ: أي كفيل.

تَرْهَقُهُمْ: أي تغشاهم يقال رهقه إذا غشيه.

مَغْرَمٍ: المغرم مايلزم من الدّين.

مُثْقَلُونَ: المثقل المحمل للثّقل و هو ما فيه مشقّةٍ على النّفس كالمشّقة على الحمل الثّقيل على الظَّهر.

مَكْظُومٌ: أي مغموم و المكظوم المحبوس عن التّصرف في الأمور يقال كظم غيظه إذا حبسه.

بِالْعَرَآءِ: العراء الصّحراء الواسعة و قيل الأرض العارية عن النّبات و الأبنية.
مَذْمُومٌ: يعني مليم أي أتى بما يلام عليه.
لَيُزْلِقُونَكَ: الإزلاق الإصابة بالعين، و الباقي واضح.

◄ الإعراب

أَنْ كٰانَ يقرأ بكسر الهَمَزة على الشّرط و بفتحها على أنّها مصدريّة.

فعلىٰ الأوّل: جواب الشّرط محذوف دلَّ عليه إِذٰا تُتْلٰى أي إن كان ذامالٍ يكفر.

علىٰ الثّانى: فالتّقدير لأن كان ذا مالٍ يكفر و لا يعمل فيه، تتلى و لا مال، لأنّ ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها.

مُصْبِحِينَ حال من الفاعل في يصرمّنها و عَلٰى حَرْدٍ يتعلّق قٰادِرِينَ و قادرين حال عِنْدَ رَبِّهِمْ ظرفٌ للإستقرار أو هو حال من جَنّٰاتِ بالغه بالرَّفع نعتٌ لإيمان و بالنَّصب على الحال و العامل فيها الظَّرف الأوّل أو الثّاني.

◄ التّفسير

نٓ وَ ٱلْقَلَمِ وَ مٰا يَسْطُرُونَ

إتّفق المفسّرون على أنّ اللّه تعالى أقسم بالنُّون و القلم ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى المراد بالنُّون على أقوالٍ كثيرة.

فقال بعضهم أنّه إسمٌ من أسماء السُّورة مثل، حم، و ألم، و ق، و ما أشبه ذلك و هو أشهر الأقوال و إختاره في التّبيان.

و عن إبن عبّاس أنّ النُّون الحوت الّذي عليه الأرضون.

و في روايةٍ أخرى أنّ النُّون الدّواة و هو قول الحسن و قتادة.

و روي عن النّبي أنّ النُّون لوحٌ من نورٌ.

و قال قوم و ربّ النُّون و القلم، نقل هذه الأقوال في التّبيان و إختار الأوّل منها.

و أمّا **ٱلْقَلَمِ** فهو ألة الكتابة وجمعه أقلام ومنه قلامة الظُّفر و قوله: **وَ مَا يَسْطُرُونَ** أي ما يسطرون ذوات الأقلام يقال سطر سطراً إذا كتب و هو أيضاً ممّا أقسم به بمقتضى العطف فالمعنى أقسم بالنُّون، و القلم و ما يسطرون به و قد مرَّ منّا فيما مضى أنّ اللّه تعالى يصحّ منه أن يقسم بكلّ ما أراد من خلقه و لا يجوز لنا ذلك بل لا بدّ لنا من القسم باللّه تعالى.

نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن أبي هريرة أنّه قال سمعت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول أوَّل ما خلق اللّه القلم ثمّ خلق النُّون و هى الدَّواة و ذلك قوله تعالى: نٓ وَ ٱلْقَلَمِ ثمّ قال له أكتب قال و ما أكتب قال ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة قال ثمّ ختم فم القلم فلم ينطق و لا ينطق إلى يوم القيامة ثمّ خلق العقل فقال الجبّار ما خلقت خلقاً أحبَّ إليّ منك و عزّتي و جلالي لأكملنّك فيمن أحببت و لأنقصنّك فيمن أبغضت قال ثمّ قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أكمل النّاس عقلاً أطوَّعهم و أعملهم بطاعته إنتهى.

أقول هذا الحديث على فرض صحّته لا ربط له بموضوع البحث مع أنّ ما فيه من المنكرات ممّا لا يخفى على العاقل، و الّذي يقوى في النّفس و اللّه أعلم.

أنّ النُّون إسم للسُّورة و المراد به الحوت الّذي مكث يونس في بطنه و بذلك سمّي بصاحب الحوت و سيأتي الكلام فيه في أواخر السُّورة و أنّما قلنا المراد بالنُّون في المقام الحوت لانّ اللّه تعالى قال: **وَ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَ هُوَ مَكْظُومٌ**(١).

١- القلم = ۴۸

و سيأتي الكلام فيه و الحوت و النُّون واحد و المراد بهما السَّمك و على هذا فلا يبعد أن يكون المراد بالنُّون الحوت، أي أقسم بالحوت أو بالنُّون الّذي مكث في بطنّه يونس النّبي و أمّا المراد بالقلم فقد ذكرناه هذا ما فهمناه من الآية و العلم عند اللّه تعالى.

مَآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ

ما، نافية أي لست بنعمة ربّك بمجنون، قيل هذا جواب القسم أي أقسم بالنُّون و القلم و ما يسطرون، لست بنعمة ربّك بمجنون، و كان المشركون يقولون أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم مجنون فردّ اللّه عليهم و قال لست كذلك، قالوا: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**(١).

وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ

الخطاب للنّبي أي و أنّ لك يامحمّد لأجراً و ثواباً على ما تحمّلت من أثقال النّبوة، غير ممنون أي غير مقطوع منقوص.

و قال مجاهد أي غير محسوبٍ.

و قال الحسن غير مكدّر و قيل معناه لا يمنّ عليك بأجرك و هذا المعنى أوفق باللّفظ.

وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

قيل معناه على دينٍ عظيم و هو الإسلام و قيل أدب القرآن و عن المؤرّج أنّه قال معناه على دينٍ عظيم بلغة قريش.

أقول ما ذكروه لا بأس به إلاّ أنّه خارج عن مفهوم اللّفظ و الأحسن حمل اللّفظ على معناه العرفي أعني به حسن الخلق في جميع الشّئون و كيف لا

١- الحجر = ٦

يكون كذلك و قد أدَّبه اللّه تعالى بأدابه بتوسّط الملك الموّكل عليه من حين الطُّفوليّة و لذلك صار النبيّ متخلّقاً بأخلاق اللّه في الصَّبر وسعة البذل و تدبير الأمور على مقتضى العقل و فى ذلك الحلم و الأناة و الحلم و المداراة و من وصفه اللّه بأنّه على خلقٍ عظيم فليس وراء مدحه و قيل و انّك لعلى خلقٍ عظيم بحكم القرأن و كيف كان فكلّ عطف على جواب القسم.

فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ

قال إبن عبّاس أي فستعلم و يعلمون هؤلاء الكفّار يوم القيامة و ذلك لأنّهم كانوا يرمون الرّسول بالجنون تارةً و بالكهانة و الضّلالة تارةً أخرى فقال تعالى تسليةً للنبيّ ما قال فأنّ القيامة أتية لا ريب فيها و قيل معناه يرون يوم القيامة حين يتبيّن الحقّ من الباطل و المعنى واضح.

بِأَييّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ

قال الأخفش المفتون الفتنة كقولك ليس له معقول و خذ ميسوره ودع معسوره فتقديره بأيّكم الفتون و قال غيره أيُّكم المفتون و الباء زائدة كقوله: **وَ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا** و على هذا فتقدير الكلام فستبصر و يبصرون أيُّكم المفتون أي الّذي فتن بالجنون و قيل الباء بمعنى في، أيُّكم الجنون، و المفتون المبتلى بتخييل الرّأي كالمجنون.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

خاطب اللّه نبيّه و قال هو أي اللّه أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، و هو الصّراط المستقيم، أعلم بالمهتدين الّذين دخلوا فيه و ذلك لأنّ الخالق أعرف و أعلم بحال عبده من العبد نفسه فضلاً عن غيره و لا يخفى عليه شئ.

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ

نهى اللّه نبيّه عن إطاعة المكذّبين بالتّوحيد و النبوّة و المعاد و متابعته إيّاهم في أقوالهم و أفعالهم و الخطاب للنّبي و المراد جميع الأمّة و ذلك لأنّ الكذب قبيحٌ عقلاً و شرعاً و متابعة الكاذب أيضاً قبيح كذلك و أنّما نهى اللّه عن إطاعة المكذّب و متابعته لأنّه غير معتمدٍ في أقواله فلا يطيعه إلاّ مثله.

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

الودّ الحبّ و المعنى أنّ الكفّار ودُّوا أي أحبُّوا و تمَّنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك، و قيل معناه، ودُّوا لو تكفر فيكفرون قاله إبن عبّاس.

و قيل معناه لو تركن إلى عبادة الأوثان فيمالونك و قال الفرّاء الإدهان التَّليين و المعنى لو تلين لهم فيلينون لك، و قيل لو ركنت إليهم و تركت الحقّ فيمالونك، و الأقوال كثيرة نقلوها في تفاسيرهم، و الّذي إعتمد إليه في معنى الكلام هو أنّ الإدهان في الأصل المداراة و الملاينة و ترك الجدّ و على هذا فالمعنى أنّ الكفّار ودُّوا منك المداراة و الملاينة لهم ليتَّبعوك فيهما، فهو من قبيل قوله:

قال اللّه تعالى: **أُدْعُ إِلٰى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَليظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**(٢).

و الحاصل أنّ النّاس يحبُّون المداراة و الملاينة و يبغضون الخشونة و الشّدة و أساس التّبليغ في الدّين على المداراة لقوله تعالى: **وَ لا إِكْراهَ فِي الدّين**.

وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهينٍ

الحلاّف الكثير الحلف و المهين الضَّعيف القلب.

و قال إبن عبّاس الكذّاب و قيل المكثار في الشّر و قيل الفجر العاجز، معناه الحقير و الذّليل و قيل غير ذلك من الأقوال.

١- النّحل = ١٢٥   ٢- آل عمران = ١٥٩

و قال صاحب الكشّاف و هو أعرف باللُّغة في قوله: **مَهِينٍ** و من المهانة و هي القلّة و الحقارة يريد القلّة في الرّأي و التّمييز أو أراد الكذب لأنّه حقير عند النّاس إنتهى.

أقول انّما وصف الحلاّف به لأنّ كثرة الحلف دليل على حقارة الحالف و قلّة رأيه و تمييزه بين الحقّ و الباطل و لذلك ترى الرّجال الّذين لهم رأيٌ صائب لا يحلفون إلاّ قليلاً و يظهر ذلك كثيراً في البائعين، و كيف كان لا شكّ أنّ كثرة الحلف دليلٌ على مهانة الحالف و إضطراب رأيه و من كان كذلك لا يقبل قوله إذ لو كان صائباً في رأيه صادقاً في قوله لما إحتاج إلى الحلف و لذلك قيل الحلف دليلٌ على الكذب إلاّ فيما يحتاج الحالف إليه.

هَمَّازٍ مَشَّآءٍ بِنَمِيمٍ

قال إبن زيد الهمّاز الّذي يهمز النّاس بيده و يضربهم، و اللّماز باللّسان، و قيل الهمّاز الّذي يذكر النّاس في وجوههم و اللّماز الّذي يذكر النّاس في مغيبهم، و قيل أنّ الهمّز الّذي يغتاب بالغيبة و المشّاء من يمشّي بالنّميمة بين النّاس ليفسد بينهم و هو مبالغة من المشي، و النَّميم مصدر يقال، نمَّ ينّم نمّاً و نميماً و نميمةً، و قيل النَّميم جمع نميمة.

و قال صاحب الكشّاف همّاز، أي عيّابٌ طعّانٌ **مَشَّآءٍ بِنَمِيمٍ** أي مضّربٌ نقّال للحديث من قوم إلى قومٍ على وجه السّعاية و الإفساد بينهم و النَّميم و النَّميمة السّعاية إنتهى.

أقول النّمام يقال له بالفارسيّة (سخن چين) و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى نهى نبيّه أنّ يطيع المكذّب، و الحلاّف المهين، و الهمّاز الّذي يمشي بالنَّميمة بين النّاس ثمّ أضاف إلى ذلك قوله:

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ

أي و لا تطع **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ** أي من يمنع خيره و نفعه عن غيره فلا ينتفع أحد به و انّما نهى عن طاعته لأنّه بخيلٌ و البخل من أقبح الصّفات (و المعتدّ) المتجاوز عن الحدّ في المعاملة **أَثِيمٍ** أي ذي إثم هكذا قيل و الحقّ أنّ **أَثِيمٍ** مبالغة من الإثم و هو كثير الإثم، لا ذي إثم إذ لا يوجد إنسان إلاّ و له إثم و أن كان مؤمناً إلاّ أن يكون معصوماً كالأنبياء و الأوصياء و المراد بكثير الإثم الكافر **عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ** العتلّ بضّم العين و التّاء و تشديد اللاّم الجافي الشّديد في كفره و قيل هو الشّديد الخصومة للباطل، و قيل العتلّ الفاحش السّيّئ الخلق و قيل الفاحش اللّئيم.

و قال صاحب الكشّاف هو غليظٌ جافّ من عتله إذا قاده بعنفٍ و غلظةٍ **بَعْدَ ذٰلِكَ** أي بعد ما عدّ له من المثالب و النّقائص هو **زَنِيمٍ** أي دعيّ كما قال الشّاعر:

و أنت زنيمٌ نيط في أل هاشمٍ
كما نيط خلف الرّاكب القدح الفرد

قيل كان الوليد بن المغيرة دعيّاً في قريش ليس من سنخهم إدّعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده و قيل بغت أمّه و لم يعرف حتّى نزّلت هذه الآية إنتهى كلام الكشّاف.

أقول الشّعر لحسّان بن ثابت الأنصاري و كلمة (بعد) هاهنا قيل معناه (مع) أي هو مع ذلك زنيم، أي دعيّ ملصقٌ بالقوم و ليس منهم و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

زنيمٌ ليس يعرف من أبوه
بغّي الأمّ ذو حسبٍ لئيمٍ

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ

هو متعلّق بقوله لا تطع يعني لا تطعه مع هذه المثالب ليساره و حظّه من الدُّنيا، ثمّ أنّ كلمة (أن) يقرأ بكسر الهَمَزة على الشّرط و بفتحها على أنّها مصدريّة، أمّا على الشّرط فجوابه محذوف دلّ عليه **إِذَا تُتْلَىٰ** أي إن كان ذا مالٍ يكفر، و أمّا على المصدريّة فالتّقدير لأن كان ذا مالٍ يكفر.

قال القرطبي معظّم المفسّرين على أنّ هذا نزل في الوليد بن المغيرة المخزومي و كان يطعم أهل منى ثلاثة أيّام و ينادي ألا لا يوقدّن أحد تحت برمة، ألا لا يدخلنّ أحد بكراعٍ، ألا و من أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة و كان ينفق في الحجّة الواحدة عشرين ألفاً و أكثر و لا يعطي المسكين درهماً واحداً، فقيل له منّاعٍ للخير الخ.

و قال إبن إسحاق نزلت في الأخنس بن شريق لأنّه حليفٌ ملحقٌ في بني زهرة و لذلك سمّي زنيماً، فمن قال أنّها نزلت في الوليد قال كان له ألف دينارٍ من المال و عشرة بنين و إلى ذلك أشار اللّه بقوله: **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ**.

ثمّ قال تعالىٰ شأنه:

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

فقوله: **إِذَا تُتْلَىٰ** يدلّ على جواب الشّرط الّذي هو محذوف أعني به (يكفر) هذا إذا جعلت (أن) مصدريّة و التقدير لأن كان ذا مالٍ يكفر، و الأساطير جمع أسطورة و هى القصّة الباطلة و المعنى أنّ القرأن أساطير الأوّلين أي أباطيلهم و ترّهاتهم و خرافاتهم و قد مضى الكلام فيه سابقاً.

سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ

قال إبن عبّاس أي سنخطمه بالسّيف قال خطم الّذي نزلت فيه يوم بدر بالسّيف فلم يزل مخطوماً إلى أن مات.

و قال قتادة سنسمه يوم القيامة على أنفه سمةً يعرف بها.

قال في التّبيان سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ أي سنعلم على أنفه علامة يعرف بها الملائكة أنّه من أهل النّار فالسّمة العلامة المفرقة بالرُّؤية بين الأشياء المختلفة كسمة الخيل إذا أرسلت في المروج و الخرطوم الأنف، و قيل معناه سنسمه بشئ يبقى على الأبد و قيل معناه سنسود وجهه فعبّر عن الوجه بالخرطوم لأنّه فيه.

قال إبن عبّاس كانت به زنمةٌ يعرف بها، أي بالوليد بن المغيرة.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ

الإبتلاء الإختبار، و المراد بالجنّة معناها اللُّغوي و هو البستان لا الجنّة المعروفة في الأخرة أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بإبتلاء الكفّار من أهل مكّة كما إبتلى أصحاب الجنّة المعروف خبرها عندهم و ذلك أنّها أي الجنّة كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فرسخٍ من صنعاء و يقال فرسخين و كانت لرجلٍ يؤدّي حقّ اللّه تعالى منها فلمّا مات صارت البستان إلى ولده فمنعوا النّاس خيرها و بخلوا بحقّ اللّه فيها فأهلكها اللّه من حيث لم يمكنهم دفع ما حلَّ بها.

و قال الكلبي كان بينهم و بين صنعاء فرسخين إبتلاهم اللّه بأن أحرق جنّتهم، و قيل هي جنّة بضوران و ضوران على فرسخ من صنعاء و كان أصحاب هذه الجنّة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير و كانوا بخلاء فكانوا يجدُّن التّمر ليلاً من أجل المساكين و كانوا أرادوا حصاد زرعها و قالوا لا يدخلها اليوم مسكين عليكم فغدوا عليها فإذا هي قد أقتلعت من أصلها فأصبحت كالصَّريم أي كاللَّيل و يقال أيضاً للنّهار صريم، فان كان أراد اللّيل فلاسوداد موضعها و كأنّهم و جدوا موضعها حماة و أن كان أراد بالصَّريم النّهار فلذهاب الشَّجر و الزّروع ونقاء الأرض منه، و قيل أنّهم كانوا عشرة أولاد لرجلٍ واحدٍ من

بني‌إسرائيل و كان يأخذ من بستانه كفاية سنة و يتَّصدق بالباقي فقال أولاده ليس يكفينا و حلفوا أنّهم يصرفون بستانهم ليلاً و أبى عليهم أبوهم فأقسموا أنّهم ليصرفون ثمر النَّخل إذا اصبحوا و لم يستثنوا، أي لم يقولوا إنشاء اللّه فقول القائل لأفعلنَّ كذا إلاّ أن يشاء اللّه إستثناء و معناه إن شاء اللّه منعي أو تمكين مانعي، معنى قوله تعالى: **وَ لا يَسْتَثْنُونَ.**

فَطٰافَ عَلَيْهٰا طٰآئِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نٰآئِمُونَ

يعني طاف على تلك الجنَّة طائف من ربّك أي طرفها طارق من أمر اللّه فالطّائف الطّارق كان الطّائف عليها جبرئيل عليه السلام فإقتلعها فيقال أنّه طاف بها حول البيت ثمّ وضعها حيث مدينة الطّائف اليوم و لذلك سمّيت الطّائف و ليس في أرض الحجاز بلدةٌ فيها الشَّجر و الأعناب و الماء و غيرها.

و قال البكري في المعجم سمّيت الطّائف لأنّ رجلاً من الصَّدف (منسوب إلى القبيلة) يقال له (الدَّمون) بنى حائطاً و قال قد بنيت لكم طائعاً حول بلدكم فسمّيت الطّائف و اللّه أعلم.

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ

أي فأصبحت الجنَّة كالصَّريم و هو أرضٌ معروفة باليمن لا نبات فيها تدعى صروان و أنّما قيل للّيل صروم لأنّه يقطع بظلمته عن التَّصرف في الأمور و انّما فعل اللّه بهم ذلك لأنّهم منعوا الحقوق اللاّزمة من ثمار هذه الجنّة، و الصَّرم قطع الثَّمر.

فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِينَ

إخبار من اللّه عنهم لمّا أصبحوا نادى بعضهم بعضاً يافلان يافلان و التّنادي دعاء بعضهم بعضاً.

أَنِ ٱغْدُوا عَلٰى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ

أي نادى بعضهم بعضاً بأن أغدوا، و قيل قالوا، أغدوا على حرثكم، و الحرث الزّرع، **إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ** أي قاطعين لثماركم فالصّارم قاطع ثمر الشَّجر و أصل الصَّرم القطع فلمّا دعا بعضهم بعضاً لقطع الثّمار.

فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخٰافَتُونَ

أي ذهبوا إلى حرثهم، **وَ هُمْ يَتَخٰافَتُونَ** أي يتشاورون و بعبارةٍ أخرى ذهبوا إلى الحرث و هم يخفون كلامهم و يسرُّون به لئلا يعلم بما يقولون أحد، و قيل يخفون أنفسهم من النّاس حتّى لا يروهم و أنّما فعلوا ذلك لئلا يصل خيرهم إلى المساكين، بخلاف أبيهم فأنّه كان يخبر الفقراء و المساكين فيحضرون وقت الحصاد و الصّرام و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله:

أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ

و كان قصدهم منع المساكين عن الخير.

وَ غَدَوْا عَلٰى حَرْدٍ قٰادِرِينَ

الحرد القصد أي و غدوا على قصدٍ و قدرةٍ في أنفسهم و كانوا يظّنون أنّهم تمكّنوا من مرادهم و صرام جنّتهم.

فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضٰالُّونَ

أي فلمّا رأوها، أي الجنَّة وجدوها كاللّيل الأسود و قالوا أهلكه اللّه و أفناه أو طرقه طارق من أمر اللّه و عند ذلك قالوا إنّا لضالون، أي منحرفون عن طريق الحقّ فلذلك عوقبنا بمثل ذلك و صرنا محرومين عن الثّمار و قيل معناه أخطأنا الطّريق ما هذه جنَّتنا فقال بعضهم لبعضٍ.

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ

عن الإنتفاع بالجَنَّة.

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ

أي قال أوسط الأولاد، و الأوسط من الأولاد من كان بين الأكبر و الأصغر سنّاً و هو الّذي قال لهم أي لإخوانه، ألم أقل لكم، الإستفهام للإنكار أي قلت لكم، لولا تسبّحون، أي هلاّ تستثنون، و كان إستثنائهم تسبيحاً، و هذا يدلّ على أنّ الأوسط كان أعقلهم و أعدلهم و أعلمهم و لذلك قيل المراد بالأوسط أوسطهم عقلاً و علماً و ليس المراد أوسطهم سنّاً.

قال مجاهد هذا يدلّ على أنّ الأوسط كان أمرهم بالإستثناء فلم يطيعوه قال أبو صالح كان إستثنائهم سبحان اللّه و قال غيره (إلاّ أن يشاء اللّه) و المعنى ألم أقل لكم هلاّ تسبّحون اللّه أي تقولون سبحان اللّه و تشكرونه على ما أعطاكم، و قيل معناه هّلا تستغفرونه عن فعلكم و تتوبون إليه من خبث نيّتكم.

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

فلمّا قال الأوسط لهم ذلك إعترفوا بذنبهم و معصيتهم و نزّهوا اللّه من أن يكون ظالماً فيما فعل فقالوا سبحان ربّنا، أي نستغفره من ذنبنا و معصيتنا **إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** على أنفسنا و الحاصل أنّهم إعترفوا بأنّ اللّه لم يظلمهم و أنّهم ظلموا أنفسهم كما قال تعالى: **وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(١).

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ

أي عند ذلك لام بعضهم بعضاً على سبيل الذّم.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ

١- البقرة = ٥٧

أي قالوا الويل لنا إنّا غلونا في الظُّلم و تجاوزنا الحدّ فيه و صرنا عاصين بمنع حقّ الفقراء و ترك الإستثناء ولم نشكر ربّنا على نعمه كما شكره أباؤنا من قبل.

قال بعضهم يجوز أن يكون هذا منهم توبةً و إيماناً باللّه و يجوز أن يكون على حدّ ما يقول الكافر إذا وقع في الشِّدة.

عَسٰى رَبُّنَآ أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَآ إِنَّآ إِلٰى رَبِّنَا رٰاغِبُونَ

لمّا تابوا و رجعوا إلى اللّه ظاهراً ممّا فعلوا قبل ذلك قالوا لعلَّ اللّه أعطانا خيراً ممّا زال عنّا إنّا إلى ربّنا راغبون الرَّغبة الميل أي نرغب فيه و نسأله أيتوب علينا ممّا فعلناه فأنّه غافر الذَّنب و قابل التَّوب أنّه حميدٌ مجيد و بالإجابة جديرٌ و هو قادر على أن يعطينا خيراً ممّا مضى فالتّبديل تثبيت شيءٍ مكان غيره ممّا ينافيه و مثله التّغيير و الفرق أنّ التّغيير قد يكون للشَيءِ واحد بخلاف التَّبديل فانّه لا يكون إلاّ في شيئين و قريءَ اللّفظ في الآية بالتّشديد و التّخفيف فالتّشديد التَّبديل و التَّخفيف من الإبدال و المعنى فيهما واحد.

كَذٰلِكَ ٱلْعَذٰابُ وَ لَعَذٰابُ ٱلْاٰخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ

أي العذاب في الدّنيا كما فعلناه بهؤلاء و لكن عذاب الأخرة أكبر من عذاب الدّنيا كمّاً و كيفاً لو كانوا يعلمون، أي لو كان الكفّار علموا به.

ثمّ أنّ اللّه تعالى بعد بيان أحوال الكفّار حسب ما مرَّ في الأيات أشار إلى أحوال المؤمنين المتّصفين بالتّقوى.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتِ ٱلنَّعِيمِ

أي لهم في الأخرة بساتين فيها أنواع النِّعم يتنعَّمون فيها كما يشاؤن و يشتهون فانّ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلَّذ الأعين.

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ

الهَمزة للإنكار أي لا نجعلهم كالمجرمين أبداً، و ذلك لأنّ المسلم مطيع و منقاد لربّه لأجل الإيمان به و الكافر غير مطيع له لكفره به فكما لا يعقل الجمع بين الإيمان و الكفر لأنّه من الجمع بين المتناقضين كذلك لا يعقل الجمع بين جزاء الكافر و المؤمن بأن يكون جزاء أحدهما عين جزاء الأخر فجزاء الكافر النّار و جزاء المؤمن الجنَّة و هذا مقتضى العدل كما أنّ التّساوي في الجزاء من الظُّلم و إلى هذا أشار اللّه بقوله:

مٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

ما، إستفهاميّة على وجه التّوبيخ و المعنى أيُّ شئٍ لكم أيّها العُقلاء كيف تحكمون، في المقام و يحتمل أن يكون الخطاب في **مٰا لَكُمْ** للكفّار أي ما لكم أيّها الكفّار كيف تحكمون لأنّكم لستم من المجانين الّذين لا عقل لهم بل أنتم في زمرة العقلاء بزعمكم و زعم غيركم فيكف يحكم عقلكم في المقام فأن حكم عقلكم بأنّ جزاء الكافر باللّه و المسلم المؤمن به واحدٌ فلا عقل لكم، و لكن هذا الإحتمال ضعيف و الحقّ أنّ الخطاب عامٌّ لجميع العقلاء الّذين لهم عقلٌ سالمٌ عن الأفات و الأمراض النّفسانية و الوساوس الشّيطانية.

أَمْ لَكُمْ كِتٰابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ

أي ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي من حيث الجزاء.

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمٰا تَخَيَّرُونَ

أي تختارون و تشتهون، قيل تقديره أم لكم كتاب فيه تدرسون بأنّ لكم ما تخيَّرون، فحذفت الباء و كسرت (إنّ) اللاّم في الخبر و قيل خرج الكلام مخرج التَّوبيخ و تقديره (و إنّ لكم لما تخيَّرون عند أنفسكم) و الأمر بخلاف ظنّكم، و قيل أتمَّ الكلام عند قوله تدرسون ثمّ إبتدأ:

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ

أي انّ لكم في هذا الكتاب، إذاً ما تخيَّرون أي ليس لكم ذلك و الكتابة في (فيه) الأولى و الثّانية راجعة إلى الكتاب ثمّ زاد اللّه تعالى في التّوبيخ.

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ

قالوا كسرت (إن) لدخول اللاّم في الخبر و المعنى **أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ** أي عهودٌ و مواثيق **عَلَيْنَا بَالِغَةٌ** مؤكّدةٍ و المبالغة المؤكّدة باللّه تعالى و المعنى أم لكم عهودٌ على اللّه إستوثقتم بها في أن يدخلكم الجنَّة **إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ** كسرت (إنّ) لدخول اللاّم في الخبر و هى من صلة إيمان و الموضع فيها النَّصيب ولكن كسرت لأجل اللاّم و قيل تمّ الكلام عند قوله يوم القيامة ثمّ قال **إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ** إذاً ليس الأمر كذلك.

و أمّا قوله:

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ

أي كفيل قاله إبن عبّاس و قتادة و المعنى سل يا محمّد هؤلاء الكفّار أيُّهم ضامن و كفيل يدّعي علينا أنّ لهم علينا أيماناً بالغة و هو أنّ لهم من الخير ما للمسلمين فلا يمكنهم إدّعاء ذلك ثمّ زاد في التّوبيخ أيضاً.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ

قال بعض المفسّرين، شركاء أي شهداء فليأتوا بشركائهم يشهدون على ما زعموا، أن كانوا صادقين في دعواهم، و قيل أي فليأتوا بشركائهم، إن أمكنهم فهو أمرٌ معناه التّعجيز قاله القرطبي في تفسيره.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ** ما هذا لفظه، أي ناسٌ يشاركونهم في هذا القول و يوافقونهم عليه و يذهبون مذهبهم فيه **فَلْيَأْتُوا** بهم **إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** في دعواهم يعني أنّ أصلاً لا يسلم لهم هذا و لا يساعدهم

عليه كما أنّه لا كتاب لهم ينطق به و لا عهد لهم عند اللّه و لا زعيم لهم يقوم به إنتهى كلامه.

أقول يظهر من كلام الزّمخشري أنّ المراد بالشُّركاء في الآية الشُّهداء و القرطبي و غيره من مفسّري العامّة أخذوا منه و على هذا فمعنى الآية أم لهم شهداء على ما يدّعون من أنّ لهم أيمانٌ علينا أي عهود و مواثيق بالغة أي مؤكّدة باللّه بأنّ لهم الجنَّة كما ثبت ذلك للمؤمنين المسلمين هذا.

و الّذي يظهر من كلام الشَّيخ في التّبيان هو أنّ المراد بالشُّركاء شركاء اللّه في العبادة بزعمهم من الأصنام و الأوثان و على هذا فليس المراد بالشُّركاء، شهداء، على ما إدَّعوا من العهود و المواثيق على دخولهم الجنَّة.

و قال الفيض قدّس سرّه في تفسيره **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ** يجعلونهم في الأخرة مثل المؤمنين أو يشاركونهم في هذا القول فهم يقلدُّونهم إذا لا أقلَّ من التَّقليد إلى أخر ما قال. و أنت ترى انّه يظهر من كلامه انّه سلك مسلك صاحب الكشّاف في تفسير الآية.

و قال الطّبرسي قدّس سرّه في المجمع في قوله أم لهم شركاء، أم لهم شركاء في العبادة مع اللّه و هى الأصنام فليأتوا بهؤلاء الشُّركاء إن كانوا صادقين في أنّها شركاء للّه و قيل معناه أم لهم شهداء يشهدون بالصّدق فتقوم به الحجّة فليأتوا بهم يوم القيامة يشهدون لهم على صحّة دعواهم إن كانوا صادقين في دعواهم إنتهى كلامه.

أقول الّذي ظهر لنا من الآية بعد التّأمل فيها هو أنّ المراد بالشُّركاء في الآية شركائهم في إدّعاء الإيمان أعني به العهود و المواثيق البالغة على أنّ اللّه تعالى يجعل المسلمين كالمجرمين يوم القيامة و انّ الكافرين يدخلون الجنّة كالمسلمين.

و من المعلوم انّه لا دليل لهم على ذلك و لا شهود لهم يشهدون به و انّما هو مجرّد إدّعاء لا حجّة عليه و سياق الأيات أيضاً يقتضي ذلك إذ ليس في

الأيات المذكورة في المقام بحث في الشِّرك و عبادة الأصنام و الأوثان هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لو كان الأمر كما ذكره في التّبيان من أنّ المراد بالشُّركاء شركاء العبادة لقال أم له شركاء و لم يقل ذلك بل قال أم لهم شركاء و الفرق واضح فقوله: **لَهُمْ** من أدَلّ الدّلائل على أنّ المراد بالشُّركاء شركاء الكفّار فيما كانوا يدّعون لا شركاء اللّه، فما ذهب إليه صاحب الكشّاف أولى بالإتّباع و اللّه أعلم بما أراد.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

و المعنى فليأتوا شركائهم يوم يكشف عن ساقٍ و هو يوم القيامة و المراد بالسّاق ساق الإنسان و ساق الشّجرة لما يقوم عليه بدأها و كلّ نبتٍ له ساق فهو شجر.

قال صاحب الكشّاف الكشف عن السّاق مثل في شدّة الأمر و صعوبة الخطب إنتهى.

و المعنى يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يقوم على ساقٍ كثر في كلام العرب حتّى صار كالمثل فيقولون قامت الحرب على ساقٍ و كشفت عن ساق و إلى هذا المعنى أشار الرّاجز بقوله:

قد كشفت عن ساقها فشّدوا　　　وجدّت الحرب بكم فجدُّوا

و قال أخر:

عجبت من نفسي من إشفاقها　　　و من طراد الطّير عن أرزاقها
في سنةٍ قد كشفت عن ساقها　　　حمراء بترى اللّحم عن عراقها

و قوله: **وَ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ** و الخضوع للّه تعالى: **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ** أي لا يقدرون لشدّة الأمر و صعوبة الحال، و قيل معنى الكلام أنّ شدّة الأمر تدعوهم إلى السُّجود للّه و إن كانوا لا ينتفعون به، و بعبارةٍ أخرى أنّهم أي الكفّار في الدُّنيا أبوا و إمتنعوا من السُّجود للّه و سجدوا للأصنام و الأوثان.

و أمّا يكشف عن ساق و هو يوم القيامة يدعون إلى السُّجود و لكن لا يقدرون عليه و لا ينتفعون به على فرض القدرة و في هذا الكلام حثٌّ و ترغيبٌ للمكلّف على العمل في الدُّنيا فأنّها مزرعة الأخرة و هي دار التّكليف و أمّا الأخرة فهي دار حسابٍ و لا عمل.قال أميرالمؤمنين: **اليوم عملٌ ولا حساب وغداً حسابٌ و لا عمل** و مع ذلك فيه إشارة إلى شدّة الأمر هناك كما قال تعالى:

خٰاشِعَةً أَبْصٰارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كٰانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَ هُمْ سٰالِمُونَ

الخشُوع بضمّ الخاء في الأصل الضّراعة و أكثر ما يستعمل الخشوع على الجوارح و أكثر ما تستعمل الضّراعة فيما وجد في القلب و لذلك قيل فيما روي إذا ضرع القلب خشعت الجوارح:

قال اللّه تعالى: **اَلَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خٰاشِعُونَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ كٰانُوا لَنٰا خٰاشِعينَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **خٰاشِعَةً أَبْصٰارُهُمْ**[٣].

إشارة أو كناية عن الضّراعة الّتى وجدت في قلوب الكفّار من هول المحشر و سوء العاقبة و رؤيتهم أنواع العذاب أي أنّهم لمّا رأوا ذلك خافوا فصارت أبصارهم خاشعة بسبب الخوف الّذي وجد في قلوبهم و لذلك **تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** أي تغشاهم ذلّة و حقارة يقال رهقه يرهقه رهقاً فهو راهق إذا غشيته، و رهقه الفارس إذا أدركه و ارهق الغلام إذا أدرك و أنّما ترهقهم ذلّة.

نقل القرطبي في تفسيره ماهذا لفظه، حدَّث عبد اللّه بن مسعود عند عمربن الخطّاب فقال إذا كان يوم القيامة قام النّاس لربّ العالمين أربعين عاماً

١- المؤمنون = ٢
٢- الانبياء = ٩٠
٣- القلم = ٤٣

شاخصةً أباصرهم إلى السّماء حفاة عراة يلجمهم العرق فلا يكلّمهم اللّه ينظر إليهم أربعين عاماً ثمّ ينادي منادٍ أيّها النّاس أليس عدلاً من ربّكم الّذي خلقكم و صوّركم و أماتكم و أحياكم ثمّ عبدتم غيره أن يوّلي كلّ قومٍ ما توّلوا قالوا نعم قال فيرفع لكلّ قومٍ ما كانوا يعبدون من دون اللّه فيتّبعونها حتّى تقدمهم في النّار فيبقى المسلمون و المنافقون فيقال لهم ألا تذهبون، قد ذهب النّاس فيقولون حتّى يأتينا ربّنا فيقال لهم أو تعرفونه فيقولون إن إعترف لنا عرفناه قال فعند ذلك يكشف عن ساقٍ و يتجلّى لهم فيخرّ من كان يعبده مخلصاً ساجداً و يبقى المنافقون لا يستطيعون كأنّ في ظهورهم السّفافيد فيذهب بهم إلى النّار و يدخل هؤلاء الجنّة فذلك قوله تعالى: **وَ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، خٰاشِعَةً أَبْصٰارُهُمْ** أي ذليلة متواضعة **تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** و ذلك انّ المؤمنين يرفعون رؤوسهم و وجوههم أشدُّ بياضاً من الثّلج و تسّود وجوه المنافقين و الكافرين حتّى ترجع أشدُّ سواداً من النّار.

ثمّ قال القرطبي، معنى حديث أبىموسى و إبنمسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد إنتهى كلامه.

أقول حديث إبن مسعود فقد عرفته و نقلناه، و أمّا حديث أبي موسى الّذي أشار إليه و قال انّه أيضاً ثابت في صحيح موسى فقد نقله في المقام قبل حديث إبن مسعود و لم نذكره في المقام و الآن وجب علينا نقله أيضاً ليكون القارئ على بصيرةٍ فيما نقلوه في تفسير الأيات.

قال القرطبي، قال أبو اللّيث السّمرقندي في تفسيره حدَّثنا الخليل إبن أحمد قال حدَّثنا إبن منيع قال حدَّثنا هدبة قال حدَّثنا حمّاد بن سلمة عن عدّي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة عن أبىموسى قال حدَّثني أبي قال سمعت رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول إذا كان يوم القيامة مثّل لكلّ قومٍ ما كانوا يعبدون في الدُّنيا فيذهب كلّ

قومٍ إلى ما كانوا يعبدون و يبقى أهل التّوحيد فيقال لهم ما تنتظرون و قد ذهب النّاس فيقولون أنّ لنا ربّاً كنّا نعبده في الدُّنيا، و لم نره قالو و تعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه و لم تروه قالوا إنّه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى اللّه تعالى فيَّخرون له سجّداً و تبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر فينظرون إلى اللّه تعالى فيريدون السُّجود فلا يستطيعون.

فذلك قوله تعالى: **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ** فيقول اللّه تعالى عبادي رفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل كلّ رجلٍ منكم رجلاً من اليهود و النّصارى في النّار قال أبو بردة فحدَّثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال اللّه الّذي لا إله إلاّ هو لقد حدَّثك أبوك بهذا الحديث فحلفت له ثلاثة أيمان فقال عمر ما سمعت في أهل التّوحيد حديثاً هو أحبَّ إلّي من هذا إنتهى ما ذكره القرطبي في تفسيره.

نحن نقول لا نحتاج في تفسير كلام اللّه إلى تفاسيرهم و أحاديثهم لأنّ تفسير القرأن لا يؤخذ من غير أهل البيت الّذين هم أعرف بالبيت من كلّ أحدٍ و انّما غرضنا من نقل أحاديثهم و كلماتهم في بعض الموارد أن تعرف مبلغ علمهم في معرفة اللّه و توحيده و أن تسجد للّه سجده الشُّكر حيث أنّه تعالى أنعم عليك.

و إن شئت قلت قد منَّ عليك بأن وفَّقك في معرفة ربّك من طريق أهل البيت و أدخلك في رحمتك و هداك إلى الصّراط المستقيم فلم تعبد ربّاً عبده أبوموسى الأشعري و أتباعه و أمثاله بل عبدت ربّاً عبده رسول اللّه و أهل بيته الطّاهرين.

و ليت شعري كيف يدعوننا بصّحة هذه الأحاديث الّتى تشمّئز عنها النّفوس و تأباه العقول السّليمة ثمّ كيف يعبد العاقل فضلاً عن الّذي يدّعي العلم ربّاً له ساق و غيره من الأجزاء و الأعضاء و أيُّ فرقٍ بين العابد و المعبود ثمّ أيّ فرقٍ بين الكافر الّذي يعبد الوثن و الصّنم و بين المسلم الّذي يعبد إلهاً له يدٌ و رجلٌ و ساق و أيُّ ذنبٍ أعظم من حمل كلام اللّه **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ** على كشف ساق اللّه يوم القيامة لعباده أليس هذا مصداقاً لقوله ﷺ: **من فسّر القرأن برأيه فليتبّوّأ مقعده من النّار فإعتبروا يا أولي الأبصار.**

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير كلام اللّه و نقول قوله: **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** قد مضى الكلام. و أمّا قوله: **وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ** فالمعنى قد كانوا، أي هؤلاء الكفّار، يدعون إلى السُّجود، للّه تعالى في الدُّنيا بتّوسط الأنبياء، و هم سالمون، **الواو** للحال أي و الحال أنّهم كانوا فىالدُّنيا سالمين عن الأفات أمنين من هول المحشر و عذاب يوم القيامة و ملّخص الكلام أنّهم لم يسجدوا للّه بإختيارهم في الدُّنيا، و سجدوا للّه في الأخرة لمّا رأوا العذاب، و هذا دليل على ضلالتهم و حماقتهم و عنادهم فهم فىّ النّار خالدون.

أقول أنظر إلى هذه الآية بعين البصيرة و تأمّل فيها ثمّ أعجب من حماقة البشر الّذي يعبد الجماد الّذي لا عقل له و لا شعور بإختياره و ارادته في الدُّنيا و لا يعبد الخالق الّذي خلقه و إذا رأى العذاب يوم القيامة و يدعى إلى السُّجود أراد السُّجود ولم يستطع مع أنّ السُّجود على فرض الإستطاعة لا نفع فيه.

فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ

الفاء للتّفريع أي إذا كان الأمر على هذا المنوال و أنّهم لا يسجدون للّه بإختيارهم في الدُّنيا و يكذّبون الأنبياء و الكتاب المنزل عليهم **فَذَرْنِي** يا

محمّد أي دعني و إيّاهم و فيه تهديدٌ لا تهديد فوقه **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** أي سنأخذهم إلى العقاب حالاً بعد حالٍ، و قيل على غفلةٍ لا يعلمون، يقال إستدرجه إلى كذا إذا إستنزله إليه درجة فدرجة حتّى يورطه فيه و إستدراجهم من اللّه أن يرزقهم الصّحة و النِّعمة فيجعلوا رزق اللّه ذريعةً إلى إزدياد الكفر و المعاصي و بذلك وقعوا في عذابٍ شديدٍ فانّ العذاب مسَّبب عن الأعمال.

و في قوله: **مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** نكتة لطيفة و مع ذلك خفيّة على أكثر الأفهام و هى انّ الإستدراج في حقّ الكافر يوقعه في العذاب من حيث لا يعلم لأنّه يظُن أنّ كثرة المال و الأولاد و المقام و امثال ذلك من نعم الدُّنيا أعطاها اللّه لأجل محبّته إيّاه و لا يعلم أنّ اللّه أعطاها إيّاه ليزداد إثماً و معصية و كثرة المعصية توجب كثرة العذاب و شدّته فيقع في العذاب الشدّيد من حيث لا يعلم، و هذا بخلاف الإستدراج في حقّ المؤمن المسلم و ذلك لأنّه يعلم حقيقة الأمر فلا يصرف المال في المعصية و النِّعمة في غير موضعها و إذا كان كذلك فلا يقع في العذاب بل يدخل الجنَّة و هذا هو الفرق بين الموضعين و إلاّ فالإستدراج لا يختّص بالكفر فأنّ المؤمن قد يكون متّنعماً بأنواع النِّعم في الدُّنيا إلاّ أنّه يعلم ما يفعل و الكافر لا يعلم ما يفعل لعدم إيمانه باللّه و إغتراره بالدُّنيا و نعمها و لأجل هذه الدّقيقة قال تعالى من حيث لا يعلمون ثمّ أوضح اللّه تعالى كلامه فقال.

وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

كأنّه قال قائل كيف يستدرجهم من حيث لا يعلمون، قال تعالى: **أُمْلِي لَهُمْ** أي أطيل آجالهم و أزيد نعمهم ليزدادوا إثماً **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** أي قوّي و قيل الكيد العذاب، أي إنّ عذابي لشديدٌ و قد أشار اللّه تعالى بذلك في سورة

آل‌عمران حيث قال: **وَ لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**(١) و فيه دلالة علىٰ أنّ كثرة النِّعم للكافر توجب زيادة الإثم و هى توجب زيادة العذاب كما مرَّ تفصيله.

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ، أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ

يقول اللّه تعالى لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علىٰ وجه التَّوبيخ للكفّار **أَمْ تَسْئَلُهُمْ** أي هل تسأل عن هؤلاء الكفّار ثواباً و جزاءً على ما تدعوهم إليه من الإيمان باللّه و رسوله **فَهُم مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ** اي فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يزشقُّ عليهم من بذل المال أيٍّ ليس عليهم كلفة و مشّقة في قبولهم دعوتك و فيه سعادة الدّارين و فى الآية إشارة إلى أنّ الأنبياء لم يسألوا النّاس أجراً على دعوتهم و انّما أجرهم كان على اللّه قال اللّه تعالى: **قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ**(٢).

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أي هل عند الكفّار علم الغيب إختصّوا به لا يعلمه غيرهم فهم يكتبونه و يتوارثونه نسلاً بعد نسلٍ بصحّة ما يدّعونه فأن كان كذلك فينبغي إظهاره للنّاس، ففي هذه الأيات المذكورة في هذه السُّورة قد أتّم اللّه حجّته على الكفّار عقلاً بحيث لا جواب لهم أصلاً غداً يوم القيامة فمن أصّر على كفره فقد ظلم على نفسه و ما ربّك بغافلٍ عمّا يعملون.

و حيث أنّ إنكارهم التّوحيد و النّبوة و المعاد كان ثقيلاً على نبّي الرَّحمة بل كان من أعظم المصائب الواردة على قلبه أمره اللّه تعالى بالصَّبر.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَ هُوَ مَكْظُومٌ

أي فأصبر على ما أمرك اللّه به من تبليغ الحكم و دعوتهم إلى الحقّ و أملهم إلى وقت آجالهم تدع عليهم بنزول العذاب في الدُّنيا.

١- آل عمران = ١٧٨ ٢- الشّورى = ٢٣

وَ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ و هو يونس النّبي بإستعجال عذابهم كما أنّه فعل ذلك أي إستعجل بالعذاب حين طلب من اللّه تقديم عقاب قومه و إهلاكهم و لا تخرج من بين قومك قبل أن يأذن اللّه لك في ذلك، كما خرج يونس من بينهم فإلتقمه الحوت (إذ نادى يونس) في بطن الحوت مكظوم، أي مهموم مغموم (لا إله إلاّ أنت) الآية و يستفاد من هذه الآية انّ البصر ممدوحٌ على كلّ حال عقلاً و شرعاً، و لا سيّما في النّبي الّذي مأمورٌ من قبل اللّه تعالىٰ بتبليغ الأحكام و إرشاد النّاس إلى طريقه و بالجملة إخراجهم من الكفر إلى الإيمان و من الضّلالة إلى الهداية و هذا مشكلٌ جدّاً فانّ البشر بمقتضى طبعه و غريزته الحَيوانية أسير الشّهوات النّفسانية و من المعلوم انّ النّبي يدعوه إلى تركها و يرشده إلى الحقّ و الحقّ مرٌّ و لذلك لا يقبل دعوة النّبي بل يخالفه و يزاحمه و يؤذيه لأنّه يمنعه عن متابعة الشّهوات و ملّخص الكلام أنّ النّبي بمقتضى مأموريّته حريصٌ على إخراجه من الكفر و البشر بمقتضى غريزته و طبيعته حريصٌ على عدم قبول الإيمان و لأجل هذا قلنا انّه أي عدم قبولهم الإيمان من أعظم المصائب الرُّوحية على النّبي و إذا كان الأمر على هذا المنوال فها وظيفة النّبي الاّ المداراة مع النّاس و الصّبر على كفرهم و ضلالتهم، أو الدُّعاء عليهم بنزول العذاب و موتهم و هذا الحصر أعني به الصّبر، و عدمه عقلّيٌ، فمن الإنبياء من إختار الصّبر و منهم من إختار نزول العذاب من اللّه تعالى و الّذي يستفاد من الآية و أمثالها أنّ الصّبر أولى من الإستعجال بالعذاب و لذلك أمر اللّه نبيّه ﷺ و قال: **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** أي لا تستعجل بالعذاب و لا تكن كصاحب الحوت و هو يونس النّبي عليه السلام الّذي دعا على قومه بالإهلاك فأجابه اللّه إلى ذلك إلاّ أنّ القوم قبل نزول العذاب تابوا فرفع اللّه عنهم العذاب فلّما رآى يونس ذلك خرج من بينهم و تركهم كما اللّه تعالى

عنه بقوله: **وَ ذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**(١) وَصار أمره إلى أن إلتقمه الحوت **فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ**(٢) و قد مرّت القِصّة مفصّلاً في سورة يونس فلا وجه للإعادة و إنّما نهى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون كذلك لأنّ الأنبياء بعثوا لإصلاح النّاس و إخراجهم من الضّلالة ولم يبعثوا لإهلاكهم فانّ الإستعجال في نزول العذاب يوجب النّدامة و الحسرة في أكثر الموارد كما ندم يونس على ما فعل في حَقّ قومه.

و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **إِذْ نَادَىٰ وَ هُوَ مَكْظُومٌ** أي إذ نادى يونس ربّه بقوله: **لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ**(٣) و هو مكظوم أي مهمومٌ مغموم و لا نعني بالنّدم إلاّ هذا ثمّ انّ هذا الحكم أي الصَّبر على أذى العوام كالأنعام فى من وظيفة تبليغ الأحكام.

عامٌّ لجميع المبلّغين التّابعين للأنبياء في كُل عصرٍ و زمانٍ و لا يختَّص بِالنَّبي لوجود الملاك و هو ظاهر.

لَوْلَآ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ

أي لولا أن تداركه يونس نعمةٌ من ربّه لنبذ، أي لطلرح **بِالْعَرَآءِ** و هي الصّحراء الواسعة **وَ هُوَ مَذْمُومٌ** قيل معناه هو، مليمٌ، أي أتى بما يلام عليه إختلف المفسّرون في معنى الغُمة هنا، فقيل هي النُبوة، و قيل عبادته الّتى سلفت.

قاله إبن جبير، و قيل نداؤه (لا إله إلاّ أنت) الآية في(بطن الحوت) و الحقّ أنّ المراد بالنّعمة إستجابة دعائه:

١- الانبياء = ٨٧
٢- النبياء = ٨٧
٣- الانبياء = ٨٧

قال اللّه تعالى: **فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**(١).

و إنّما قلنا ذلك لأنّ إستجابة الدُّعاء من أعظم النّعم.

لقوله تعالى: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ**(٢).

و أمّا قوله: **لَنُبِذَ بِالْعَراءِ** فالنَّبذ، الطّرح و العراء، الصحراء، و قيل الأرض العارية من النَّبات و الأبنية، و قال الفرّاء الفضاء من الأرض العاري، و كيف كان أشار اللّه تعالى بقوله هذا إلى حين خروج يونس من بطن حوت، في ساحل البحر هو المراد بالعراء، و قد مرَّ كيفيَّة ذلك في سورة يونس، و لا يبعد أن يكون المراد بالنِّعمة، إرسال الملك لحفظه و حمايته و تغذيته على ما بيَّناه هناك و اللّه أعلم و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ المخلوق في حدّ نفسه ضعيفٌ و هو محتاج إلى خالقه في جميع الأحوال و هذا ممّا لا خلاف و لا فرق في ذلك بين النَّبي و غيره:

قال اللّه تعالى: **يا أَيُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**(٣).

فَاجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّالِحِينَ فالاجتباء الإختيار أي فأختاره ربَّه للنُّبوة و جعله من الصّالحين، أي أعطاه مقامه الأوّل و ردّ إليه الوحي بعد إنقطاعه و شفَّعه في نفسه و قومه كأن لم يكن شيئاً مذكوراً و هذه نعمةٌ عظيمة.

وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، وَ ما هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

١- الانبياء = ٨٨ ٢- النّمل = ٦١
٣- فاطر = ١٥

إِنْ هي المخفّفة من الثّقيلة و لأجل ذلك دخلت اللاّم على الخبر **لَيُزْلِقُونَكَ** و التّقدير **إِنَّهُ** و المشهور ضَّم الياء في **لَيُزْلِقُونَكَ** و قرأ أهل المدينة بفتح الياء، و هما أي الفتح و الضَّم فيه لغتان، يقال زلقه و أزلقه، و المعنى واحد.

قال اللّه تعالى: **صَعِيدًا زَلَقًا** أي أرضاً ملساء يزلق فيها و مكانٌ زلق، بالتَّحريك الّذي لا تثبت فيه القدم.

أقول هو ألّذي يقال به بالفارسيّة (لغزندة) قال يونس لم يسمع الزّلق و الإزلاق إلاّ في القرآن و كيف كان إتّفق المفسّرون على أنّ المراد بالإزلاق هو إصابة العين.

قالوا **لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ** أي يصيبونك بعيونهم، و قد أنكر الجبائي الإصابة بالعين و قال الرّماني ما ذكره ليس بصحيح لأنّه لا يمتنع أن يكون اللّه تعالى أجرى العادة بصّحة ذلك لضرب من المصلحة فلا وجه للإمتناع من ذلك و عليه إجماع المفسّرين و هو المعروف بين العقلاء و المسلمين و غيرهم فينبغي أن يكون مجُوزاً نقله الشّيخ في التّبيان ثمّ.

قال قدس سره و روي أنّ أسماء بنت عميس قالت يا رسول اللّه أنّ بني جعفر يصيبهم العين فأسترقي لهم قال نعم، ولو كان شئ سابق القدر سبقة العين.

قال بعض المفسّرين أخبر اللّه في هذه الآية بشّدة عداوتهم للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم فأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه صلى الله عليه و آله و سلم قومٌ من قريش و قالوا ما رأينا مثله مثل حججه و قيل كانت العين في بني أسد حتّى أنّ البقرة السّمينة أو النّاقة السّمينة تمُر بأحدهم فيعاينها ثمّ يقول يا جارية خذي (الملل) و الدّرهم فأتيناه بلحم هذه النّاقة فما تبرح حتّى تقع الموت فنحر.

و قال الكلبي و كان رجل يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة ثمّ يرفع جانب الخباء فتمُر به الإبل أو الغنم فيقول لم أر كاليوم إبلاً و لا غنماً أحسن من هذه فما تذهب إلاّ قليلاً حتّى تسقط منها طائفة هالكة فسأل الكفّار هذا الرّجل أن يصيب لهم النّبي بالعين فأجابهم فلّما مرَّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنشد.

قد كان قومك يحسبونك سيّداً و أخا رسول أنّك سيّد معيونُ

فعصم اللّه نبيه عن إصابة عينه و نزلت الآية: **وَ إِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ** و قال بعضهم أنّ العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً، في نفسه و ماله تجّوع ثلاثة أيّام ثمّ يتّعرض لنفسه و ماله فيقول تااللّه ما رأيت أقوى منه و لا أشجع و لا أكبر منه و لا أحسن فيصيبه بعينه فيهلك هو و ماله فأنزل اللّه هذه الآية و بعد اللتيا و اللّتي لاشكّ في إصابة العين المشهورة بينَ الخاصّة و العامّة قديماً و حديثاً إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية.

فنقول وَ إِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا معناه قارب الّذين كفروا فأنّ معنى (كاد) في اللُّغة (قرب) قال رسول اللّه ﷺ **الفقر كاد أن يكون كفراً** أي قرب **لَيُزْلِقُونَكَ** أي ليصيبوك **بِأَبْصَارِهِمْ** أي يصيبونك بعيونهم **لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ** يعني القرآن **وَ يَقُولُونَ** هؤلاء الكُفّار **إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ** قد غلب على عقله **وَ مَا هُوَ** أي ليس القرآن **إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** أي هو شرفٌ إلى أن تقوم السّاعة، و قيل المعنى و ما محّمد إلاّ ذكرٌ للعالمين يتّذكرون به قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ**(١).

■

١- الزّخرف = ٤٤

سُورَةُ ٱلْحَاقَّةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَ مَا أَدْرٰيكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ
﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ
ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعٰى
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرٰى لَهُمْ مِنْ
بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَ جَاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ
ٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَاءُ
حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَ حُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَ ٱلْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ
﴿١٥﴾ وَ ٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾
وَ ٱلْمَلَكُ عَلٰى أَرْجَائِهَا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ
فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا

تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي
ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ
﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا
أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي
سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾
إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ
عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا
حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا
يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا
تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا
تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ
﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ
عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ
﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ
أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

﴿٤٨﴾ وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَ إِنَّهُ
لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَ إِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ
﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

◄ اللّغة

ٱلْحَاقَّةُ: إشارة إلى القيامة لأنّه يحقّ فيه الجزاء يقال حاقته أي خاصمته في الحقّ فغلبته.

ثَمُودُ: بفتح الثّاء إسم قبيلة و كذلك.

عَادٌ: و قيل عاد إسم رئيس القبيلة.

بِالْقَارِعَةِ: القيامة و هى مأخوذة من القرعة في رفع قومٍ و حطّ أخرين.

بِالطَّاغِيَةِ: الطّاغية مصدر مثل العاقبة مأخوذ من الطّغيان.

بِرِيحٍ: الرّيح الهواء إذا كانت فيه حركة.

صَرْصَرٍ: الرّيح الشدّيدة الصّوت بما يسمع لها من الصّرير و قيل صرصر ريحٌ باردة فكأنّه يصطل الأسنان بما يسمع من صوتها لشّدة بردها.

عَاتِيَةٍ: العاتي الخارج إلى غلظ الأمر الّذي يدعو إليه قساوة القلب.

حُسُومًا: يقال حسم طعمه إذا قطعه فالحسم القطع.

صَرْعَى: الصرع الطِّرح صرعى أي مطرحين.

أَعْجَازُ: أي أصول.

خَاوِيَةٍ: أي نخرة.

رَابِيَةً: أي زائدة في الشّدة.

فِى ٱلْجَارِيَةِ: الجارية السَّفينة.

وَ تَعِيَهَآ: الوعي الحفظ.

وٰاعِيَةٌ: أي حافظة.

فَدُكَّتٰا: الدَّك ضرب بعض الشّيئ على بعض.

وٰاهِيَةٌ: أي شدّيدة الضّعف.

أَرْجٰآئِهٰا: الأرجاء النّواحى.

هٰآؤُمُ: أي تعالوا و قيل هو إسم فاعل أي خذوا.

قُطُوفُهٰا دٰانِيَةٌ: القطف أخذ الثّمرة بسرعةٍ من موضعها من الشّجر، و الدُّنو القرب.

لٰا يَحُضُّ: الحضّ الحثّ.

غِسْلِينٍ: بكسر القاف صديد أهل النّار.

كٰاهِنٍ: الكاهن الّذي يسجع في كلامه.

تَقَوَّلَ: التقوّل نسبة القول إلى الغير كذباً.

اَلْوَتِينَ: نياط القلب.

حٰاجِزِينَ: الحجز المنع.

◀ الإعراب

اَلْحٰاقَّةُ خبر مبتدأ محذوف أو هي مبتدأ و ما بعده الخبر و(ما) الثّانية مبتدأ و مٰآ أَدْرٰيكَ الخبر و الجملة بعده في موضع نصب و سَخَّرَهٰا صفة و قيل هو مستأنف و حُسُومًا مصدر و صَرْعىٰ حال كَأَنَّهُمْ حال أخرى من الضّمير في، صرعى، و خاوية، على لغة من أنّث النّخل و بٰاقِيَةٍ نعتٌ و يَوْمَئِذٍ ظرف هٰآؤُمُ إسم الفعل بمعنى خذوا و كِتٰابِيَهْ منصوبٌ بإقرأوا و بِالْيَمِينِ متعلّق بأخذنا أو هو حال من الفاعل و قيل من المفعول مِنْ أَحَدٍ من زائدة و (أحد) مبتدأ و الخبر مِنْكُمْ.

◀ التّفسير

ٱلْحَاقَّةُ، مَا ٱلْحَاقَّةُ، وَ مَآ أَدْرَيٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ

إتّفق المفسّرون على أنّ الحاقّة من أسماء القيامة سمّيت بذلك لأنّ الأمور تحقّ فيها قاله الطّبرى.

كأنّه جعلها من باب (ليلٌ نائمٌ) و قيل سمّيت، حاقّة، لأنّها تكون من غير شكّ و قيل سمّيت به لأنّ فيها يصل كلّ إنسانٍ إلى حقّه بجزاء و عمله كان لا خلاف بين المفسّرين في أنّ المراد بالحقّة القيامة فالقيامة حاقّة لأنّها يحقّ كلّ محاقّ في دين اللّه بالباطل أي كلّ مخاصم و عن الصّحاح، حاقّه أي خاصمه و إدّعى كلّ واحدٍ منهما الحقّ فإذا غلبه، قبل حقّه.

و قوله: **مَا ٱلْحَاقَّةُ** معناها ما هي و اللّفظ إستفهام و معناه التّعظيم و التّفخيم لشأنها كما تقول زيد ما زيد على التّعظيم لشأنه.

وَ مَآ أَدْرَيٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ فاللّفظ إستفهام أيضاً و معناه التّعظيم، و أمّا الأولى فهي نافية أي لست تعلم ما القيامة و من المعلوم أنّ النّبي كان عالماً بها و لعلّ المراد أوصاف القيامة و يحتمل أن يكون المراد العلم بحقيقتها فأنّ العلم بوجود الشّئ غير العلم بماهيّته و حقيقته هذا كلّه مضافاً إلى أنّ النّبي لا يعلم إلاّ ما علّمه اللّه ثمّ ذكر اللّه بعد ذلك من كذّب القيامة و ما فيها:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادُ بِالْقَارِعَةِ

ثَمُود بفتح الثّاء و ضمّ الميم قيل هو عجّمي و قيل هو عرّبي و ترك صرفه لكونه إسم قبيلة و هو فعولٌ من الثّمد و هو الماء القليل الّذي لا مادّة له و منه قيل فلان مثمود ثمدته النّساء أي قزعت مادّة مائه لكثرة غشيانه لهنَّ، و مثمود إذا كثر عليه السّؤال حتّى فقد مادّة ماءه و كان بنو ثمود بوادي القرى بين المدينة و الشّام و قد أرسل اللّه إليهم صالحاً و هو إبن ستّة عشر سنة يدعوهم إلى التّوحيد و رفض الأصنام و قيل كان سنّه أكثرالأقوى و اللّه أعلم.

و كيف أنّ قومه لم يؤمنوا باللّه و رسوله و أنكروا التّوحيد و النّبوة و المعاد و عقروا ناقة صالح و أكلوا لحمها على ما مرَّ تفصيله في سورة، فصلّت، و حيث أنّا فصَّلنا الكلام في قصّة صالح و كفر قومه فلا نعيد الكلام فيها في المقام حذراً من الإطناب.

و أمّا عاد، فلمّا توّفى نوح النّبي بقي قومه و ذريّته المؤمنون دهراً طويلاً يترقّبون هود و ينتظرون ظهوره حتّى طال عليهم الأمد و قست قلوب كثيرة منهم و إرتّدوا عن الدّين و أقبلوا على عبادة الأصنام و كان أشدَّهم بأساً و أكثرهم كفراً و طغياناً قوماً منهم سكنوا أرض اليمن و بنوا فيها الأبنية و مدَّنوا فيها المدائن و كان يقال لهم قوم عاد، و كان نبيّهم هود ولد فيهم و هو، هود بن عبد اللّه بن رباح بن جلوث بن عاد بن عوض بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام و نشأ بينهم تقيّاً أميناً حتّى أرسله اللّه إليهم بالنّبوة فدعاهم إلى التَّوحيد و رفض الأصنام فلم يقبلوا منه و قد فصَّلنا الكلام فيه أيضاً و ذكرنا كيفيّة هلاك قومه في (فصلّت و الأحقاف) إن شئت الوقوف عليه فراجع السُّورتين.

و المقصود أنّهما أي قوم عاد و ثمود كذَّبوا القيامة فلم يؤمنوا بالمعاد و لم يقبلوا دعوة نبيّهم إلى أن أهلكوا.

كما قال تعالىٰ:

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ

فالطّاغية مصدر مثل العاقبة و المعنى أنّهم أهلكوا بسبب طغيانهم و تمّردهم عن الحقّ و قد مضى فيما تقدَّم أنّ اللّه أهلكهم بالصَّيحة العظيمة التّي أصبح جوابها جاثمين أي هالكين بعد ما قال لهم نبيَّهم.

قال اللّه تالى: **تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**[١].

١- هود = ٦٥

ففي اليوم الأوّل أصبحوا و وجوههم مصفرّة، و في اليوم الثّاني إحمرّت وجوههم مثل الدّم اليوم الثّالث أصبحوا و وجوههم مسوّدة فلمّا كان موعد العذاب من اللّيلة الرّابعة خرج صالح و من معه من المؤمنين من بين القوم و نزل جبرئيل بأمر الملك الجليل و صرخ بهم صرخةً خرقت أسماعهم و خلعت قلوبهم و صدّعت أكبادهم و هلكوا بأجمعهم بأقلّ من طرفة عينٍ و لم يبق متّنفسٌ منهم و لا من مواشيهم و أنعامهم و أصبحوا في ديارهم موتى هالكين ثمّ أرسل اللّه تعالى عليهم بعد الموت ناراً من السّماء فأحرقتهم أجمعين:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ**(١).

وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ

لمّا حان اليوم الموعود الّذي أخبرهم نبيّهم هود به أذن اللّه سبحانه بإنطلاق الرّيح العقيم الّتي هي تحت الأرض فأوحى اللّه تعالى إلى خزنة تلك الرّيح أن تخرجوا منها مثل ثقب الخاتم كما ذكر ذلك في قوله: **وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ، ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**(٢) وَلَم يأذن اللّه بشيءٍ منها بالخروج إلاّ على قوم عاد على ما مرَّ تفصيل الكلام فيه فيما مضى، و الصّرصر الرّيح الشّديدة الصّوت بما يسمع لها من الصّرير في شدّة حركتها، فالصّرصر الشّديد الغصون المجاوزة لحدّها المعروف.

و قال قتادة صرصر باردة فكأنّه يصطّل الأسنان بما يسمع من صوتها لشدّة بردها، و أنّما وصفها بقوله: **عاتِيَةٍ** لأنّ العاتي الخارج إلى غلظ الأمر الّذي يدعوا إليه قساوة القلب يقال عتى يعتوا عتوّاً فهو عاتٍ و الرّيح عاتية تشبيهاً بحال العاتي في الشدّة.

١- الاعراف = ٧٨ ٢- الذّاريات = ٤٢ / ٤١

سَخَّرَهٰا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيٰالٍ وَ ثَمٰانِيَةَ أَيّٰامٍ حُسُوماً فَتَرَى اَلْقَوْمَ فِيهٰا صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِيَةٍ

التّسخير إستعمال الشّئ بالإقتدار و المعنى أرسلها و سلّطها عليهم سبع ليالٍ و ثمانية أيّام لا تنقطع فأنّ الحسم القلع، و قيل الحسم الإستئصال.

و قال الرّاغب في المفردات، الحسم إزالة أثر الشّي يقال قطعه فحسمه أي أزال مادتّه و به سمّي السَّيف حساماً إنتهى.

أقول و على هذا فقوله: **حُسُوماً** معناه حاسماً أثرهم، و قيل قاطعاً لعمرهم و كلّ ذلك داخل في عمومه و قوله: **فَتَرَى اَلْقَوْمَ فِيهٰا صَرْعىٰ** أي فترى القوم في تلك الأيّام و اللّيالي، صرعى، و الصَّرع الطَّرح أي مطروحين على الأرض.

كَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِيَةٍ أي كأنّ القوم أصول نخلٍ بالية، و قيل خالية الأجواف لا شئ فيها، و النّخل يذكّر و يؤنّث.

قال بعضهم يحتمل أنّهم شبّهوا بالنّخل الّتى صرعت من أصلها فهو إخبارٌ من عظم أجسامهم و يحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع أي أنّ الرّيح قد قطعتهم حتّى صاروا كأصول النّخل الخاوية أي أنّ الرّيح تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنّخل الخاوية الجوف.

و الحاصل أنّهم ماتوا و خلت الدّيار منهم كأن لم يكن شيئاً مذكوراً كما أشار اللّه تعالى إلى هذا المعنى بقوله:

فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِيَةٍ

الإستفهام للإنكار أي لا ترى لهم من باقية فالباقية بمعنى المصدر مثل العافية و العاقبة و معناه فهل ترى لهم من بقيّة.

كأن لم يكن بين الحجون الى الصّفا   أنيسٌ ولم يسمر بمكّة سامرُ

و لمّا كان فرعون و من تبعه أيضاً من المكذّبين بالقارعة أشار اللّه تعالى اليه بقوله:

وَ جَآءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ ٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ، فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً

قد مرّ ذكر فرعون في تضاعيف الكتاب غير مرّةٍ ذكرنا قصّته مع موسى مفصّلاً و أنّما أشار الى فرعون و أتباعه ليعلم أنّه كان في زمرة المكذّبين الهالكين و المعنى و جاء فرعون و من قبله، بفتح القاف على المشهور و بكسر القاف و فتح الباء على قراءة أبو عمر و الكسائي، فعلى المشهور معنى الكلام، جاء فرعون و الّذين من قبله من الكفّار و المؤتفكات أي و جاء أهل القرى المؤتفكات أي المتقلّبات بأهلها و هى قرى قوم لوط.

و أمّا على قراءة الكسائي فالمعنى جاء فرعون و من معه من قومه و المؤتفكات الخ.

و كلتا القرائتين لا بأس بهما و المشهور سكون الباء و عليه المصاحف فعلاً و محصلّ الكلام أنّ فرعون و المؤتفكات جاؤوا بعد قوم عاد و ثمود و تبعوهما في تكذيب الأنبياء و إنكار البعث و القيامة فالملاك و هو التّكذيب كان موجوداً فيهم أيضاً و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد و لذلك وقعوا فيما وقع قوم عاد و ثمود من العذاب في الدُّنيا و الأخرة و المؤتفكات هي القراءة المشهورة و قرأ الحسن و الجحدري (و المؤتفكة) على التّوحيد و عليها فالمراد بها الجنس و المعنى واحد.

قال قتادة سميّت قوم لوط و قراها بالمؤتفكة لأنّها ائتفكت بهم أي أنقلّبت و ذكر الطّبري عن محمّد بن كعب القرظي خمس قريات، صبعة، و صعرة، و عمرة، و ذوما و سدوم و هى القرية العظمى و قوله: **بِالْخَاطِئَةِ** فالخاطئة مصدر بمعنى الخطيئة، أي أهلكوا بالخطيئة و هى الكفر و المعصية.

و قال مجاهد بالخطايا الّتى كانوا يغطونها و هى اللّواط و الحقّ أنّ العذاب معلول الكفر و تكذيبهم القيامة كقوم عاد و ثمود و كيف كان فالأمر سهل بيّن اللّه تعالى ذلك في قوله: **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ** و هو موسى بن عمران **فَأَخَذَهُمْ** اللّه **أَخْذَةً رابِيَةً** أي عالية زائدة على الأخذات و على عذاب الأمم و منه الرّبا إذا أخذ المعطي أكثر ممّا أعطى يقال ربا الشّئ يربوا و تضاعف.

و قال مجاهد معنى رابية شديدة كأنّه أراد زائدة في الشّدة ثمّ بعد ذلك أشار اللّه الى قصّة نوح و السّفينة فقال:

إِنّا لَمّا طَغَا ٱلْمآءُ حَمَلْناكُمْ فِى ٱلْجارِيَةِ، لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَهآ أُذُنٌ واعِيَةٌ

يقول اللّه تعالى في هذه الآية **إِنّا لَمّا طَغَا ٱلْمآءُ** في قصّة نوح و طغيان الماء كثرته و تجاوزه عن الحدّ المتعارف في العظم.

قال قتادة زاد على كلّ شئٍ خمسة ذراعاً **حَمَلْناكُمْ فِى ٱلْجارِيَةِ** أي في السّفينة أي حملنا نوح النّبي و من معه من المؤمنين فيها فلم يعرفوا و أنمّا فعلنا ذلك **لِنَجْعَلَها** أي السَّفينة **تَذْكِرَةً** وعظةً لمن بعدهم من الأمم **وَ تَعِيَهآ أُذُنٌ واعِيَةٌ** أي تحفظها أذنٌ حافظة فيعتبرون بها حقّ الإعتبار هذا تفسير ألفاظ الآية و فيها نقاط خفيّة على أكثر الأفهام فلا بأس بالإشارة اليها إجمالاً لمن كان له قلبٌ و اللّه أعلم.

فنقول منها، أنّ الأيات المذكورة من أوّل السُّورة ذكر اللّه تعالى أنّه أنزل العذاب على قوم عاد و ثمود و فرعون و غيرهم و بيَّن فيها أنّ العذاب النّازل عليهم بسبب كفرهم و نفاقهم و عصيانهم و عنادهم للحقّ و تكذيبهم الأنبياء، ثمّ قال في هذه الآية **إِنّا لَمّا طَغَا ٱلْمآءُ حَمَلْناكُمْ فِى ٱلْجارِيَةِ** و من المعلوم أنّ هذه الآية نزلت لهذه الأمّة بدليل الخطاب في قوله: **حَمَلْناكُمْ** فانّ الخطاب في حملناكم لجميع الأمّة و فيه إشارة الى أنّ المرحومة من ذريّة المؤمنين من

قوم نوح الّذين نجوا من الغرق و حيث أنّ الأمّة لم تكن موجودة في زمان نوح ظاهراً فالمخاطب آباءهم و أجدادهم أي حملنا آباءكم في الجارية و أنجيناهم من الغرق ولو ذلك لغرقوا و لم تكونوا بموجودين في زمان الخطاب فبذلك امتنَّ اللّه على هذا الأمّة و هو ظاهر.

و منها، أنّ ذكر الجارية و هى السّفينة في الآية إشارة الى أنّ هذه الأمّة لها أيضاً سفينة كما لأمّة نوح فكما أنّ الرّاكب فيها في زمان نوح نجى من الغرق كذلك من ركب سفينة رسول اللّه و أهل بيته نجى من العذاب في الدُّنيا و الأخرة.

و الى هذا المعنى أشار النّبي بقوله: **مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى و من تخّلف عنها غرق، أو هلك.**

و قد روي هذا الحديث جميع فرق المسلمين من العامّة و الخاصّة و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

في الحسين عليه السلام خاصّة أنّ الحسين مصباح الهدى و سفينة النّجاة و هذا ممّا لا خلاف فيه.

و منها، أنّ قوله: **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً** أي موعظة، إشارة الى أنّ المعصية سبب العذاب و الطّاعة سبب النّجاة سواء كانتا في الأمم السّابقة أم في هذه الأمّة و آيّة موعظةٍ أحسن من الأيات القرآنية و من أصدق من اللّه قيلاً فينبغي لمن يقرأ هذه الأيات و أمثالها في الكتاب أن يتّعظ بها قال اللّه تعالى: **وَ مَآ اٰتيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[١].

و منها: أنّ القّابليّة في الإتّعاظ شرط في قبول الموعظة و الى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ تَعِيَهَآ أُذُنٌ واٰعِيَةٌ** فأنّ الواعي الحفظ أي هذه المواعظ تحفظها كلّ أذنٍ يقدر على حفظها والعمل بها و أمّا أذن أبوسفيان و معاوية و يزيد و

١- الحشر = ٧

أمثالهم ممّن تقدّم عليهم أو تأّخر عنهم لا يقدر على حفظها و ضبطها و العمل بها و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى قد منَّ على هذه الأمّة بأن جعلهم ذريّة من نجا من الغرق لكونهم في أصلابهم فالمترقّب من الأمّة متابعتهم لأباءهم في ركوبهم في سفينة النّجاة الّتى أعدَّها اللّه لهم و هذا هو المقصود من ذكر هذه الآية في هذا المقام بعد آيات العذاب فآفهم إن كنت أهلاً له.

فَإِذاٰ نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ واٰحِدَةٌ، وَ حُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَ ٱلْجِباٰلُ فَدُكَّتاٰ دَكَّةً واٰحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْواٰقِعَةُ

قيل هي النَّفخة الأولى الّتى يصعق لها من فى السّموات و من في الأرض و النّافخ هو إسرافيل و فى النّفخة الثّانية يبعث من في القبور:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاٰءَ ٱللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرىٰ فَإِذاٰ هُمْ قِياٰمٌ يَنْظُرُونَ**[١].

و أمّا قوله: **وَ حُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَ ٱلْجِباٰلُ** فالمعنى رفعت من أماكنها و قوله: **فَدُكَّتاٰ دَكَّةً واٰحِدَةً** قيل في معناه أي قطّعنا و كسرتا، و قال إبن زيد ضرب بعضها على بعضٍ حتّى صارتا غباراً، و قيل معناه بسطتا بسطةً واحدةً و منه الدّكان فقال إندك سنام البعير إذا إنفرش في ظهره، و قيل المعنى حملت الأرض و الجبال فصكّ بعضها على بعض حتّى تندكّ **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْواٰقِعَةُ** و هي القيامة و سميّت واقعة لشدّة وقعتها بما ليس لغيرها **وَ ٱنْشَقَّتِ ٱلسَّماٰءُ** أي إنصدعت و تفطّرت **فَهِىَ يَوْمَئِذٍ واٰهِيَةٌ** أي شديدة الضَّعف قيل و لا ينظر أهول من رؤيا السّماء في هذه الهيئة يقال و هى الشّيءإذا إنتقَّض بنيته.

وَ ٱلْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجاٰئِهاٰ وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَماٰنِيَةٌ

١- الزّمر = ٦٨

وَ ٱلْمَلَكُ المراد به الجنس **عَلَىٰ أَرْجَائِهَا** فالضّمير راجع على السّماء و الأرجاء الجوانب و الأطراف و المعنى أنّ الملك على أطرافها حين تنشقّ السّماء لأنّ السّماء مكانهم و قيل على أطرافها ممّا لم ينشقّ منها يريد أنّ السّماء مكان الملائكة فإذا إنشقّت صاروا في أطرافها.

و عن سعيد بن جبير معناه و الملك على حافات الدّنيا أي ينزلون إلى الأرض و يحرسون أطرافها و على هذا فالضّمير في أرجائها، راجع على الأرض.

و قال الشّيخ في التّبيان معناه، و الملائكة ذلك اليوم على جوانب السّماء تنتظر ما تؤمر به في أهل النّار من السّوق إليها و فى أهل الجنّة من التحيّة و التّكرمة فيها هذا كلّه تفسير الألفاظ و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** فهو من المعضلات و أن شئت قلت من المتشابهات الّتى لا يعلم تأويلها إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و نحن نشير إلى ما قالوا فيه على سبيل الإجمال.

قال الزّمخشري في الكشّاف في قوله (ثمانية) أي ثمانية منهم.

و عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدّهم اللّه بأربعة أخرين فيكونون ثمانية.

و روي ثمانية أفلاك أرجلهم في تخوم الأرض السّابعة و العرش فوق رؤوسهم و هم مسبّحون.

و قيل بعضهم على صورة الإنسان و بعضهم على صورة الأسد و بعضهم على صورة الثُّور و بعضهم على صورة النَّسر.

و روي ثمانية أفلاك في خلق الأوحال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً.

و عن الحسن اللّه أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية ألاف و عن الضّحاك ثمانية

و صفوف لا يعلم عددهم إلاّ اللّه و يجوز أن تكون الثّمانية من الرُّوح أو من خلقٍ أخر فهو القادر على كلّ خلقٍ إنتهى كلامه في الباب و به قال جميع المفسّرين من العامّة مع إختلاف ألفاظهم و نقلهم الأقوال قلّةً و كثرةً.

و أنت ترى أنّ هذه الأقوال ممّا لا يعتمد عليه و لا يساعده العقل و لا النّقل.

أمّا العقل فلأنّ العرش و الملائكة الحافّين به ممّا هو فوق الطّبيعة لا سبيل لحكم العقل إليه.

أمّا النّقل فلأنّهم لم يذكروا مستنداً صحيحاً فيما نقلوه من الأخبار و على هذا فالأحسن في تفسير الكلام التّمسك بأهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت و هم المعنيّون بالرّاسخين في كتاب اللّه حيث قال: **وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ**(١) فنقول:

العرش في الأصل شئٌ مسقّف و جمعه عروش و منه قيل عرشت الكرم و عرّشته إذا جعلت له كهيئة سقفٍ و قد يقال لذلك المعرّش:

قال اللّه تعالى: **وَ مِنَ ٱلشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا كٰانُوا يَعْرِشُونَ**(٣).

و سُمّي مجلس السّلطان عَرشاً إعتباراً بعُلوّه قال اللّه تعالىٰ في قصّة يُوسف:

قال اللّه تعالى: **وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ**(٤).

و قال في قصّة سليمان و هو يُخاطب بلقيس:

قال اللّه تعالى: **أَهٰكَذٰا عَرْشُكِ**(٥).

و أمّا عرش اللّه تعالى فهو ممّا لا يعلم حقيقته إلاّ اللّه تعالى و ليس كما تذهب إليه أوهام العامّة فأنّه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى عن ذلك لا محمولاً.

١- آل عمران = ٧
٢- النّحل = ٦٨
٣- الاعراف = ١٣٧
٤- يوسف = ١٠٠
٥- النّمل = ٤٢

و قال قومٌ هو الفلك و الكرسي فلك الكواكب و الأقوال فيه كثيرة كلّها من عند أنفسهم لا دليل عليه و الحقّ ما ذكرناه و هو أنّ حقيقة العرش لا علم لنا و لغيرنا بها و أنّما علمها عند خالقه الّذي خلق العرش و لنذكر في المقام حديثاً رواه المجلسي قدّس سرّه في البحار عن الكافي عن أميرالمؤمنين عليه السلام فأنّ هذا الحديث درٌّ ثمينٌ إلاّ أنّه أيضاً من غوامض الأسرار.

الكافي: عن عدّةٍ من أصحابه عن أحمد بن محمّدالبرقي رفعه قال، سأل الجاثليق أميرالمؤمنين عليه السلام فقال له أخبرني عن اللّه عزّ وجلّ يحمل العرش أو العرش يحمله فقال أميرالمؤمنين، اللّه عزّ وجلّ حامل العرش و السّموات و الأرض و ما بينهما و ما فيهما و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتآ إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَليمًا غَفُورًا[1] قال فأخبرني عن قوله: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمٰانِيَةٌ فكيف ذاك و قلت انّه يحمل العرش و السّموات و الأرض، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ العرش خلقه اللّه تبارك و تعالى من أنوارٍ أربعة، نورٌ أحمر منه إحمَّرت الحمرّة، و نورٌ أخضرّ منه إخضَّرت الخضرة و نورٌ أصفر منه إصفرّت الصُّفرة و نورٌ أبيض منه البياض و هو العلم الّذي حمله اللّه الحملة و ذلك نورٌ من نور عظمته فبعظمته و نوره أبصر قلوب المؤمنين و بعظمته و نوره عاداه الجاهلون و بعظمته و نوره إبتغى من في السّموات و الأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة و الأديان المشتبهة فكلُّ محمولٍ يحمل اللّه بنوره و عظمته و قدرته لا يستطيع لنفسه ضرّاً و لا نفعاً و لا موتاً و لا حياةً و لا نشوراً فكلّ شيءٍ محمولٌ و

١- فاطر = ٤١

اللّه تبارك و تعالى الممسك لهما أن تزولا و المحيط بهما من شئ و هو حياة كلّ شئ و نور كلّ شئ سبحانه و تعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً إنتهى موضع الحاجة منه[1].

أقول هذا الحديث أيضاً من المعضلات قال المجلسي‌ﷺ و قد تحيّرت الأفكار في معنى تلك الأنوار الّتى خلق اللّه العرش منها لأنّها من غوامض الأسرار فمنهم من قال هي الجواهر القدسيّة العقليّة الّتى هي وسائط جوده تعالى و ألوانها كناية عن إختلاف أنواعها الّذي هو سبب إختلاف الربانيّة في هذا العالم الحسّي كالعناصر و الأخلاط و أجناس الحيوانات أعني الإنسان و البهائم و السّباع و الطّيور و مراتب الإنسان أعني الطّبع و النّفس الحسّاسة و النّفس المتخيّلة و العقل و أجناس المولّدات كالمعدن و النبات و الحيوان و الإنسان.

و قيل أنّه تمثيل لبيان تفاوت تلك الأنوار بحسب القرب و البعد من نور الأنوار، فالنُّور الأبيض هو الأقرب و الأخضر هو الأبعد فكأنّه ممتّزجٌ بضربٍ من الظُّلمة و الأحمر هو المتَّوسط بينهما إلى أخر ما قال.

و قيل المراد بها صفاته تعالى، فالأخضر قدرته على إيجاد الممكنات و إفاضة الأرواح الّتى هي عيون الحياة، و منابع الخضرة و الأحمر غضبه و قهره على الجميع بالإعدام و التّعذيب، و الأبيض رحمته و لطفه على عباده قال تعالى: **وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ**[2] إنتهىٰ ما ذكره المجلسي في توضيح الحديث.

ثمّ نقل عن والده توضيحاً أخر و حكم بأنّه أحسن ما سمع في هذا الباب إن شئت الوقوف عليه فراجعه و الّذي نقول في هذا الباب أسكتوا عمّا سكت اللّه عنه، فانّا أمنّا بوجود العرش و الكرسي و اللّوح و القلم و بالجملة كلّ ما

۱- بحار الأنوار ط قديم ج ۱۴ ص ۶۳ ۲- آل عمران = ۱۰۷

نطق به الكتاب و أخبر به الرّسول و أمّا العلم بحقيقتها و ماهيّتها فلم نكلّف به كيف قال اللّه تعالى: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**(١) صَدق اللّه العلّي العَظيم.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ

أي يوم القيامة تعرضون معاشر النّاس على اللّه كما قال: **وَ عُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا**(٢) العرض للحساب و الجزاء.

لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ لأنّه تعالى عالم بكلّ شيءٍ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم و لا يقدر أحدٌ على إخفائها لأنّها أي القيامة يوم تبلى السّرائر و لمثل ذلك اليوم فليعمل العاملون فإنّا إلى ربّنا منقلبون.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَؤُا كِتَابِيَهْ

قيل نزلت الآية في أبي سلمة بن عبد الأسود و كان مؤمناً، و كان أخوه الأسود بن عبد الأسود كافراً فنزلت فيه الآية الّتى بعدها قاله الفرّاء.

أقول الحكم في الأيتين عامّ يشمل جميع النّاس و ما قاله الفرّاء لا دليل عليه متّفردٌ به و على فرض صحّته نقول خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم كما هو ثابتٌ في محلّه كما أنّ أخذ الكتاب باليمين أو الشّمال بعد الحساب لا خصوصيّته لهما في الأعمال إذ المفروض أنّه بعد الحساب لا قبله و أنّما جعل اليمين علامة النّجاة من العذاب و اليسار بالعكس و فيه دلالة على شرف اليمين على اليسار و قد جرت سنّة اللّه بذلك فجعل اليمين في الدّنيا للأكل و الشُّرب و اليسار للإستنجاء و كيف كان دلّت الآية على أنّ من أعطي الكتاب بيمينه فهو علامة النّجاة و من أعطي بيساره فهو علامة عدم قبول الأعمال.

و أمّا قوله: **هَآؤُمُ ٱقْرَؤُا كِتَابِيَهْ** فقال بعضهم (هاؤم) إسم فعلٍ بمعنى،

١- الاسراء = ٨٥ ٢- الكهف = ٤٨

خذ، و الواو علامة الجمع أي (خذجوا) و قال الأخر معناه (تعال) و الجمع (تعالوا) و قال مقاتل معناه (هلمّ).

و قال الكسائي تقول العرب، هاء يا رجل إقرأ و للأثنين (هاؤما) و للجمع (هاؤم) و قيل أنّ (هاؤم) كلمة وضعت لإجابة الدّاعي عند النّشاط و الفرح و قوله: كِتَابِيَهْ منصوب (بهاؤم) عند الكوّفيين و (إقرؤوا) عند البّصريين لأنّه أقرب العاملين و الأصل فيه (كتابي) فأدخلت الهاء في أخر اللّفظ لتبيّن فتحة الياء و كان الهاء للوقف و كذلك في أخواته مثل (حسابيه) و (ماليه) و سلطانيه.

إذا عرفت هذا فمعنى الآية مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ و هو صحيفة أعماله الّتى عمل بها في الدّنيا من الخيرات و الأعمال الصّالحة (بيمينه) و هو علامة النّجاة و صحّة الأعمال (فيقول) لمن أعطاه الكتاب أو لغيره من المؤمنين (هاؤم اقرؤوا) أي تعالوا أو خذوا و إقرؤوا كتابيه و أنّما يقول ذلك لفرط النّشاط و السُّرور و يقول أيضاً.

إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ

قيل أنّ الظّن هاهنا بمعنى العلم أي إنّي علمت في دار الدّنيا بأنّي ألقى حسابي و كنت متيقّناً بذلك و مؤمناً به لدلالة الأيات عليه و ما كنت عالماً أنّي أجازى على الطّاعة بالثّواب و على المعصية بالعقاب كما هو شأن المؤمن المعتقد بالمعاد.

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ

أي مرضيّة كقولك ماءٌ دافق أي مدفوق قاله أبو عبيدة و إختاره المفسّرون و قيل معنى راضية، أي يرضى بها صاحبها و لا شكّ أنّ من دخل الجنّة الّتى لا موت فيها و لا مرض و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ به الأعين فهو في عيشةٍ راضية.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

و أيُّ مكانٍ أعلى منها للتَّعيش و فيها جميع النِّعم.

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ

القطف أخذ الثَّمرة بسرعةٍ من موضعها من الشَّجر و الدانيّة من الدُّنو و هو القرب كأنّه قال دانية المتناول و ان شئت قلت قريب التّناول و أنّما قال ذلك لأنّ المؤمن في الجنّة إذا أراد شيئاً من الأثمار فهو حاضرٌ عنده و لا يحتاج في أخذه إلى كلفةٍ و مشقّة.

كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ

أي يقال لهم كلوا من نعم الجنّة و أشربوا من ماءها هنيئاً لكم صورته صورة الأمر و المراد الإباحة ثمّ أنّ قوله: **كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا** بعد قوله: **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ** يدلّ على أنّ (من) في قوله: **مَنْ أُوتِيَ** يتّضمن معنى الجمع و يعمّ المعنى جميع أهل السّعادة و الشّقاوة في هذه الأيات على ما بيّناه من أنّ خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم و قوله: **كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا** بصيغة الجمع أيضاً يدلّ على ما ذكرناه.

و قوله تعالى: **بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ** معناه، ما أعطيناكم من نعيم الجنّة فهو بسبب ما أسلفتم أي عملتم به في الدّنيا و الخالية الماضية أي ذلك جزاء ما عملتموه من الطّاعة و الإنقياد و إيمانكم بالتّوحيد و النّبوة و المعاد و لمّا حكم اللّه بذلك فيمن أوتي كتابه بيمينه يوم القيامة أشار إلى أحوال من ليس كذلك فقال.

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَ لَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ، مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ

و المعنى **وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِشِمٰالِهِ** أي بيساره و هم أهل الشّقاوة **فَيَقُولُ** عند ذلك **يٰا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتٰابِيَهْ** أي ليتني لم أعط هذا الكتاب و التّمني هو قول القائل (لما كان) ليته (لم يكن) و لمّا لم يكن، يقول (ليته كان) و على هذا فهو من صفات الكلام و قيل هو معنى في النّفس فهؤلاء الّذين يعطون كتابهم بشمالهم يتمنّون أن لم يعطوا كتابهم أصلاً و لم يعلموا ما لهم و ما عليهم لأنّ أعمالهم الّتى عملوا بها في الدّنيا كلّها معاصي و هم بذلك يستحقّون العقاب فلذلك يتمنّون أن لا يعرفوا حسابهم و يقولون **وَ لَمْ أَدْرِ مٰا حِسٰابِيَهْ** و الواو للعطف أي يتمنّون كذلك أي و ليتني لم أدر ما حسابيه.

يٰا لَيْتَهٰا كٰانَتِ اَلْقٰاضِيَةَ قال الفرّاء معناه ليت الموتة الأولى الّتى متنا بها لم تجئ بعدها، و القاضية الفاصلة الإماتة يقال قضى فلان إذا مات و أصله فصل الأخرة و منه قضيّة الحاكم و جمعها قضايا و منه قضاء اللّه و هو الأخبار بأنه يكون على القطع والهاء في ليتها كناية عن الحالة الّتى هم فيها و قيل كناية عن الموتة إنتهى ما ذكره في التّبيان.

و قال الزّمخشري في الكشّاف **يٰا لَيْتَهٰا** للموتة يقول ياليت الموتة الّتى منها **كٰانَتِ اَلْقٰاضِيَةَ** أي القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقي و على هذا فالضّمير للموتة، أو للحالة، أي ليست هذه الحالة الّتى كانت الموتة الّتى قضت عليّ لأنّه رآىٰ تلك الحالة أشبع و أمرّ ممّا ذاقه من مرارة الموت و شدّته فتّمناه عندها إنتهى كلامه.

فان قلت كيف يكون ذلك ولم يتقدّم مرجع الضّمير لا لفظاً و لا معنى حكماً.

قلت قد مضى حكماً و إن لم يتقدّم لفظاً و معنى ذلك لأنّ إعطاء الكتاب إيّاه في القيامة و هى بعد الموتة الأولى فالموتة الأولى تقدّمت حكماً بل معنى على القيامة و كيف كان لاشكّ أنّ الضّمير راجع اليها و على هذا فالمعنى يا

ليت الموتة الأولى كانت قاضية أي قاطعة لأمري ولم ألق ما ألقى ثمّ يقول **مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ** أي ما نفعني في القيامة ملكي الّذي كان لي في الدُّنيا و بعبارةٍ ما منع مالي شيئاً عنّي من عقاب اللّه و إنّما يقول ذلك لأنَّه صرفه في المكروه في الدُّنيا ولو صرفه في الخيرات لما قال ذلك فأنّ المعروف في الخير يمنع عن صاحبه العقاب يوم القيامة قطعاً ثمّ يقول **هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ** قيل المراد به الحجَّة أي هلك عنّي حجَّتي يوم القيامة فلا حجَّة لي أدفع بها عن نفسي و إنّما يقول ذلك لأنّ اللّه تعالى جعل لكلّ إنسانٍ سلطاناً على نفسه و ماله و أولاده و دينه و عيشه و غير ذلك في الدُّنيا يحكم فيها بما يشاء و هذه السُّلطة تزول بالموت فهو بعد الموت لا سلطان له على شئ و لذلك يقول هلك أي مات و زال عنّي سلطاني و قدرتي.

و قيل معناه هلك عنّي أمري و نهيي، و هو قريبٌ بالقول السّابق و الجمع بين الأقوال أن يقال هلك أي ذهب و زال ما كان لي في الدُّنيا فلم يبق لي منها شيئاً و هو واضح و عند ذلك يقول اللّه تعالى مخاطباً للملائكة:

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ

فالضّمير في **خُذُوهُ** راجعٌ على من أوتي كتابه بشماله و لا وجه لإختصاصه بالكُّفار كما ذهب إليه المفسّرون فإنّا نجد في هذه الآية من هو أشّد عذاباً يوم القيامة من الكفّار و كيف كان يقول اللّه تعالى للملائكة **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ** أي أوثقوه بالغلّ و هو على ما فسَّره في التّبيان أن يشدّ إحدى يديه أو رجليه إلى عنقه بجامعةٍ **ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ** فالجحيم هي النّار الغليظة الشَّديدة و هو إسم علمٍ على نار جهَّنم الّتى أعدّها اللّه تعالى للكفّار و العصاة و قوله: **صَلُّوهُ** فهو من التَّصلية و هى إلزام النّار و منه الإصلاء.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ فالسلسلة حلقٌ منتظمة كلّ واحدةٍ منها في الأخرى و يقال لها بالفارسيّة (زنجير) و قوله: **ذِرَاعًا** أي طولها **سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ** قيل أسلكوه في السلسلة اى اجعلواها فى عنقه ثمّ جرّوه بها، وا لّذي يقوي في نفسي في معناه جرُّوه إلى الجحيم بها كما يجرُّ على الأرض من مات و لم يقدر على الحركة في الحيوان ألا ترى أنّ الكلب إذا مات يجرّونه على الأرض و هكذا كلّ حيوان ثمّ أنّ اللّه تعالى بيَّن الوجه فيه.

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ

هو الأصل فأنّ من مات على الكفر إستحقّ هذا العقاب و إنّما قلنا هو الأصل لأنّ الإعتقاد بالنُّبوة و الإمامة و المعاد من فروع التَّوحيد و لذلك كان رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: **قولوا لا إله إلاّ اللّه تفلحوا، فمن لا يؤمن باللّه لا دين له أصلاً.**

وَ لَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ

أي لا يحثُّ عليه ممّا يجب عليه من الزّكوة و الكفّارات و الصّدقات و النُّذور و ذلك لأنّه يدلّ على بخله و البخيل لا يدخل الجنَّة.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ

أي فليس لمن لم يؤمن باللّه ولم يطعم المسكين و لا حثَّ عليه، اليوم، يعني يوم القيامة، حميمٌ، و هو القريب الّذي يحمي لغضب صاحبه.

وَ لَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ

يعني من صديد أهل النّار السّائل من جروحهم و فروجهم، و قيل هو شجرٌ يأكله أهل النّار، و قيل هو ما إنغسل من لحوم أهل النّار و دمائهم.

و قال قتادة هو شرُّ الطّعام و أشبه.

لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَاطِـُٔونَ

يعني المذنبون من الكفّار و غيرهم ممّن أعرض عن طريق الحقّ عمداً.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ

قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الفَّراء أنَّه ردٌّ لكلام قائلٍ فكأنَّه قال ليس الأمر على ما يقال، أقسم أنَّه يقول **رَسُولٍ كَرِيمٍ**.

الثّاني: قول من قال (لا) صلة و تقديره فأقسم.

الثّالث: قال قَّومٌ أنَّها في القسم و معناه لا يحتاج إلى القسم لوضوح الحقّ في **إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**.

و قال قتادة أقسم تعالى بالأشياء كلّها يرى و ما لا يرى ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال مقاتل سبب ذلك أنّ الوليد بن المغيرة قال أنّ محمّداً ساحرٌ و قال أبو جهل هو شاعر و قال غقبة، أنّه كاهن فقال عزّ وجلّ: **فَلَآ أُقْسِمُ** أي أقسم، (لا) هاهنا نفيٌ للقسم و الأقوال المحتملة كثيرة.

أقول اقوى الإحتمالات زيادة (لا) في الكلام و التّقدير (فأقسم) بما ترونه و ما لا ترونه، و اللّه أعلم بما أراد **إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** هو جواب للقسم و المراد جبرئيل و الضّمير في (أنّه) راجع الى القرآن و قيل المراد به محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و الدّليل على ذلك قوله: **وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ**.

فأن قلت كيف يكون القرآن قولاً للرّسول.

قلت ليس القرآن قولاً له و انّما هو قول اللّه إلاّ أنّه نسب القول إلى الرّسول لانّ الرّسول يقول عن اللّه لا عن نفسه مضافاً إلى أنّه مبلّغه فما قاله اللّه، على

أنّ هذا الإشكال يرد على قول المشهور أيضاً فأنّ القرأن ليس من كلام جبرئيل فما تقولون فيه نقول فيه أي في محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذا و الّذي نقول به هو قول المشهور و ذلك لأنّ جبرئيل أمين وحي اللّه مضافاً إلى قوله تعالى: **ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ** و هو لا يكون إلاّ جبرئيل و كيف كان لا شكّ أنّ القرأن كلام اللّه أنزله اللّه على عبده محمّد بتّوسط ملك الوحي.

وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شٰاعِرٍ قَلِيلًا مٰا تُؤْمِنُونَ

ما، نافية أي ليس هو أي القرأن بقول شاعرٍ كما زعمه أبو جهل و أمثاله قليلاً ما تؤمنون، ما، صلة و تقديره قليلاً تؤمنون به و الدّليل على ذلك أنّه إذا سئل عنهم من خلقكم قالوا اللّه.

أقول ما ذكروه لا يعدّ دليلاً على المدّعى بل الدّليل على أنّه ليس بقول شاعرٍ هو أنّه أي القرآن مباينٌ لصنوف الشّعر كلّها لأنّ الغالب من حال الشّاعر أنّه يدعوا إلى الهوى، و الرّسول يأتي بالحكمة و الموعظة الحسنة الّتى يدعوا إليها العقل للحاجة إلى العمل عليها و الإهتداء بها و هذا بخلاف الشّعر فانّ أحسن الشّعر أكذبه، و الشّعراء يتّبعهم الغاؤون مع أنّ الرّسول ليس كذلك.

وَ لاٰ بِقَوْلِ كٰاهِنٍ قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ

أي كما أنّه ليس بقول شاعرٍ كذلك ليس بقول كاهنٍ الّذي يسجع في كلامه على ضربٍ من التكلّف لتناقل المقاطع ثمّ قال تعالى: **قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ** أي تتفكّرون فيما ذكرناه قليلاً و لو تفكّرتم لعلمتم أنّ القرأن لا يشبه كلام الكاهن.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ

أي ليس القرأن بقول شاعرٍ و لا كاهن بل هو تنزيل من ربّ العالمين، أي نزّل من مقام الرّبوبيّة لهداية البشر و إرشاده إلى الحقّ و لذلك عبّر عنه بالتّنزيل.

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ

التَّقول مصدر من باب التَّفعل و هو نسبة القول إلى الغير كذباً عليه كأن يقول قال فلان كذا و كذا، ولم يقله ثمّ أنّ المتَّقول تارةً يكون في إنسانٍ في حقّ إنسانٍ أخر كتقول زيدٌ على عمر و مثلاً و تارةً يكون في إنسانٍ في حقّ اللّه تعالى بأن يقول قال اللّه كذا و كذا ولم يقله كذباً عليه على صورة العمد فهذا من أكبر الكبائر و أعظم المعاصي فأن كان القائل صائماً بزل صومه و هكذا لو قال ذلك في حقّ رسول اللّه و الأئمّة المعصومين على مذهبنا، أمّا في حقّ اللّه و رسوله فبإجماع الأمّة.

و أمّا في الأئمّة فعلى إعتقاد الشّيعة و الوجه في ذلك أنّ تكذيب الرّسول تكذيب اللّه لأنّه ما يقول عن نفسه بل يقول من اللّه فمن كذَّبه كذَّب اللّه و هكذا عندنا في الأئمّة الأثنى عشر إذا عرفت هذا فلو تقَّول الرَّسول بعض الأقاويل، أي بعض الأقوال أيّ نسب إلى اللّه قولاً كذباً عليه نعوذ باللّه منه فذنبه أعظم بمراتب من ذنب من تقَّول على اللّه غير الرَّسول من أحاد النّاس و لذلك قال تعالى: **وَ لَوْ تَقَوَّلَ** أي الرَّسول **عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ** أي بالقوّة و القدرة و إطلاق القوّة على اليمين في قول العرب كثير و منه قول الشّاعر:

إذا ما رايةُ رفعت لمجدٍ   تلَّقاها عرابة باليمين

أي بالقوّة و عرابة إسم رجلٍ من الأنصار من قبيلة الأوس و قال الأخر:

ولمّا رأيت الشّمس أشرق نورها   تناولت منها حاجتي بيمينٍ

و قال السُّدي الحكم باليمين، أي بالحقّ و الإستحقاق قال الطّبري أنّ هذا الحكم خرج مخرج الإذلال على عادة النّاس في الأخذ بيد من يعاقب كما يقول السّلطان لمن يريد هوانه خذوا يديه، و المعنى لو تقوّل علينا بعض

الأقاويل لأمرنا بالأخذ بيده و بالغنا في عقابه لأنّ تكذيب الرّسول من أرسله إلى الخلق لإرشاد النّاس و دعوتهم إلى اللّه من أقبح الكذب و أشنعه ثمّ انّه تعالى زاد على الأخذ باليمين و القدرة قطع الوتين فقال: **لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ** قيل الوتين نياط القلب.

و قال مجاهد و قتادة هو عرق في القلب متصلٌ بالظّهر إذا قطع مات الإنسان و إليه أشار الشّاعر بقوله:

إذا بلّغتني و حملت رحلي عرابة فأشرقي بدم الوتين

و قيل هو حبل القلب الّذي في الظّهر و هو النُّخاع فإذا إنقطع بطلت القوى و مات صاحبه و الموتون الّذي قطع و تينه، و الّذي حصل لنا في الباب من كلماتهم هو أنّ الوتين عرقٌ به حياة الإنسان فإذا قطع مات صاحبه.

فقوله تعالى: **لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ** كناية عن قطع حياته و المعنى لقطعنا منه الحياة، و فى هذا الكلام إشارة إلى شدّة عذاب المتَّقول على اللّه لو كان نبيّاً و مفهوم الكلام أنّ هذا العقاب في الدُّنيا مختّصٌ بالرّسول لخيانته في أمانة اللّه و أنّ تقوَّله على اللّه يوجب إضلال النّاس بالكلّية و هذا بخلاف التَّقول من غيره فأنّه و إن كان قبيحاً و صاحبه مستحقٌ للعقاب إلاّ أنّ اللّه لا يستعجل في عقابه في الدُّنيا و لا يقطع منه الوتين و يؤخّره إلى القيامة، و لعلَّ الوجه في التّأخير هو توبة المتَّقول عمّا قال قبل موته أو أنّ ضرر التّقول منه على النّاس ليس كضَّرر التَّقول من الرّسول و ذلك لمكان عصمتهم و أنّهم أمناء اللّه على خلقه.

ألا ترى أنّ اللّه تعالى أخرج أدم من الجنَّة بخطيئةٍ واحدة الّتى كانت من قبيل ترك الأولى و أن شئت قلت بعملٍ مكروهٍ فما ظنُّك بعمل الحرام كالكذب على اللّه تعالى و أمّا في غير الأنبياء فليس كذلك بل يمهلهم اللّه تعالى في الدُّنيا لما ذكرناه و لذلك ترى الكذب على اللّه و رسوله في هذه الأمّة أكثر من أن تحصى من حين موت النّبي إلى زمانانا هذا بل في حياة الرّسول أيضاً كان كذلك و لتفصيل الكلام في هذا الباب مقام أخر.

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ

الضّمير في (منه) راجع على العقاب و الحجز المنع، و ما، نافية أي ليس أحد منكم بقادرٍ على منع عقاب اللّه إيّاه و ذلك لأنّ المانع عن أعمال قدرة اللّه لابدّ من أن يكون أقدر و أقوى منه تعالى حتّى يقدر على منعه و قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّه على كلّ شيءٍ قدير فلو منعه مانعٌ عن إعمال قدرته لزم عدم قدرته على كلّ شيءٍ و هو كما ترى هذا كلّه مضافاً إلى أنّ المانع مخلوقٌ له تعالى و كيف يقدر المخلوق الضّعيف على منع القدرة.

وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

قيل أي القرآن تذكرةٌ لهم و انّما أضافه إلى المتّقين لأنّهم المنتفعون به فالتّذكرة العلامة الّتى يذكر بها المعنى فالمتّقي يتّذكر القرآن بأن يعمل عليه في أمر دينه في إعتقادٍ أو عملٍ فتمييز الحقّ من الباطل و الجائز ممّا لا يجوز فأنّ تأثير العلّة في المعلول مشروطٌ بقابليّة المعلول للتّأثر و عدم المانع بين العلّة و المعلول و لذلك ترى أنّ القرآن ليس بمذكّرٍ لأكثر النّاس لعدم قابليّتهم و لياقتهم و إستعدادهم أو لوجود الموانع الّتى تمنع عن التّأثير و التّأثر.

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ

قيل هو عطف على جواب القسم و معناه التّحذير من التّكذيب بالحقّ و أنّه ينبغي أنّ يتذكّر أنّ اللّه يعلمه و يجازي عليه و فيه إشارة إلى أنّ اللّه لا يخفىٰ عليه شيء و قوله: **مِنْكُمْ** خطابٌ للأمّة، لا للكفّار كما زعم بعضهم لأنّ الكفّار كلّهم مكذّبون ففي الكلام إيماء إلى أنّ المسلمين منهم من يكذّب و منهم من لا يكذّب فمن المكذّبين أبو هريرة و أنس و سمرة بن جندب و أمثالهم لأنّهم وضعوا أحاديث و نسبوها إلى اللّه و رسوله و كذّبوا القرآن أيضاً في العمل به و تفسيره على خلاف رضا اللّه و رسوله و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ

و المعنى أنّ القرأن لحسرة على الكافرين يوم القيامة حيث لم يصدّقوا به و لم يعملوا بما فيه.

و قيل الضّمير راجع إلى التّكذيب و المعنى أنّ تكذيبهم القرأن و التّوحيد و النّبوة لحسرة على الكافرين.

وَ إِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ

أي أنّ القرأن العظيم لحقُّ اليقين و أنّما أضافه إلى نفسه كما يقال دار الأخرة و بارحة الأولى و يوم الخميس و ما أشبه ذلك فيضاف الشّئ إلى نفسه إذا إختلف لفظه كما إختلف الحقّ و اليقين ثمّ قال تعالى لنبيّه.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ

الخطاب للنّبي و المراد جميع الأمّة و المعنى فنزّهه عمّا لا يليق بشأنه و لا يجوز عليه من صفات خلقه بإسم ربّك العظيم، أي الجليل الّذي يصغر شأن غيره في جنب شأنه بما يستحقّ من أوصافه.

روي أنّه لمّا نزلت الآية قال النّبي، إجعلوها في ركوعكم في الصّلاة.

■

سُورَةُ ٱلْمَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ
دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ
ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ ٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَ نَرَيٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ
تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَ تَكُونُ ٱلْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَ لَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ
يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَ
فَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُئْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً
لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَ
جَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَ إِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ
مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

صَلاتِهِمْ دائِمُونَ ﴿۲۳﴾ وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ
حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿۲۴﴾ لِلسّائِلِ وَ الْمَحْرُوم ﴿۲۵﴾ وَ
الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿۲۶﴾ وَ الَّذِينَ هُمْ
مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿۲۷﴾ إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ
غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿۲۸﴾ وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حافِظُونَ ﴿۲۹﴾ إِلّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ
أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿۳۰﴾ فَمَنِ ابْتَغى
وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعادُونَ ﴿۳۱﴾ وَ الَّذِينَ
هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ ﴿۳۲﴾ وَ الَّذِينَ
هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ ﴿۳۳﴾ وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى
صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ ﴿۳۴﴾ أُولئِكَ فِي جَنّاتٍ
مُكْرَمُونَ ﴿۳۵﴾ فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ
مُهْطِعِينَ ﴿۳۶﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ
﴿۳۷﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ
﴿۳۸﴾ كَلّا إِنّا خَلَقْناهُمْ مِمّا يَعْلَمُونَ ﴿۳۹﴾ فَلا أُقْسِمُ
بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنّا لَقادِرُونَ ﴿۴۰﴾
عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ
﴿۴۱﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿۴۲﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ
الْأَجْداثِ سِراعًا كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ
﴿۴۳﴾ خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ
الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ ﴿۴۴﴾

◀ اللّغة

دَافِعٌ: يقال دفعه أي منعه.

ٱلْمَعَارِجِ: من العروج و هو الصُّعود فالمعارج المصاعد.

كَالْمُهْلِ: المهل بضّم الميم و سكون الهاء و اللاّم درديّ الزَّيت هو الصّفر المذاب و قيل هو عكر الزَّيت.

كَالْعِهْنِ: فالعهن بكسر العين الصُّوف المنقوش.

حَمِيمٌ: بفتح الحاء القريب النَّسب و أصله القرب.

فَصِيلَتِهِ: الفصيلة بفتح الفاء و كسر الصّاد و سكون الياء المنقطعة من جملة القبيلة برجوعها إلى أبّوةٍ خاصّةٍ.

لَظَىٰ: هو إسمٌ من أسماء جهنّم مأخوذ من التَّوقد.

نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ: النزّاعة كثيرة النزّع و هو إقتلاع من شدّةٍ و الشَّوى بفتح الشّين المشدّدة جلدة الرّأس و قيل الشَّوى الكوارع و الأطراف.

فَأَوْعَىٰٓ: الوعي الحفظ.

هَلُوعًا: الهلوع بفتح الهاء هو شديد الحرص و قيل شديد الجزع.

جَزُوعًا: الجزع الإضطراب.

مُشْفِقُونَ: الإشفاق رقّة القلب من تحمُّل ما يخاف من الأمر.

مُهْطِعِينَ: أي مسرعين فالإهطاع الإسراع.

عِزِينَ: جماعات في تفرقة نحو الكراريس واحدهم (عزة).

يُوفِضُونَ: الإيفاض الإسراع.

◀ الإعراب

يَوْمَ تَكُونُ بدل من قريب يُبَصَّرُونَهُمْ حال و جمع الضّمير على معنى الحميم نَزَّاعَةً أي هي نزّاعة و قيل هي بدل من لَظَىٰ و قيل كلاهما خبر نُصُبٍ

حال من الضّمير في تدعوا، و **هَلُوعًا** حال مقدّرة و **جَزُوعًا** حال أخرى **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** هو إستثناء من الجنس و هو الإنسان **مُهْطِعِينَ** حال من الّذين كفروا و كذلك **عِزِينَ** و **قِبَلَكَ** معمول، مهطعين **يَوْمَ يَخْرُجُونَ** بدل من يومهم **سِرَاعًا** كأنّهم حالان و الباقي واضح.

◀ التّفسير

سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ

قال في التّبيان، قال الفرّاء الدّاعي بالعذاب هو النّضر بن كلدة أسر يوم بدر و قتل صبراً هو و عقبة بن أبي معيط.

و قال الطّبرسي في المجمع قيل أنّ هذا السّائل هو الّذي قال: **ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ**(١) و هو النّضر بن الحرث بن كلدة فيكون المعنى دعا داعٍ على نفسه بعذابٍ واقع مستعجلاً له و هو واقع بهم لا محالة عن مجاهد، و قيلَ سأل المشركون فقالوا لمن هذا العذاب الّذي تذكر يامحمّد فجاء جوابه بأنّه للكافرين، ليس له دافعٌ عن الحسن و قيل معناه دعا داعٍ بعذاب الكافرين و ذلك الدّاعي هو النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الجبائي و يكون الباء فـي (بعذاب) مزيّدة على التّوكيد كما في قوله تعالى: **وَ هُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ**(٢) و التّقدير سَأل سائلٌ عذاباً واقعاً و قيل هي أي الباء بمعنى، من، عليه تأويل قول الحسن لأنّهم سألوا العذاب لمن هو و قيل الباء للتّعدي بإنزال العذاب و عليه تأويل قول مجاهد و قيل أنّ معنى سأل سائل على قراءة من قرأ بالألف من سأل يسيأل سالاً ير سال سيلٌ بعذاب واقع و قيل سايل إسم وادي جهنّم سمّي به لأنّه يسيل العذاب عن إبن زيد هذا ما نقله الطّبرسي قدّس سرّه من الأقوال حول الآية بألفاظه و عباراته ثمّ.

١- الانفال = ٣٢ ٢- مريم = ٢٤

قال: ما هذا لفظه و أخبرنا السَّيد أبوالحمد قال: حدَّثنا الحاكم أبوالقاسمالحسكانى قال: حدَّثنا أبو عبد اللّه الشّيرازي قال: حدَّثنا أبوبكر الجرجاني قال: حدَّثنا أبو أحمد البصري قال: حدَّثنا محمّد بن سهل قال: حدَّثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال: حدَّثنا محمّد بن أيّوب الواسطي قال: حدَّثنا سفيان بن عيينه عن جعفر بن محمّدالصّادق عن آبائه قال: نصب لنا رسول اللّه ﷺ عليّاً يوم غديرخم و قال: «من كنت مولاه فعلّي مولاه» طار ذلك في البلاد فقدم على النَّبي النّعمان بن الحرث الفهري فقال أمرتنا عن اللّه أن نشهد (أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك رسول اللّه) و أمرتنا بالجهاد و الحَّج و الصُّوم و الصّلوة و الزّكوة فقبلناها ثمّ لم ترض حتّى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلّي مولاه فهذا شيُّ منك أو أمرٌ من عند اللّه فقال ﷺ: و اللّه الّذي لا إله إلاّ هو أنّ هذا من اللّه فولّى النَّضر بن الحرث و هو يقول أللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء فرماه اللّه (بالحجر) على رأسه فأنزل اللّه تعالى: سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ واقِعٍ إنتهى ما ذكره الطّبرسى.

أقول ما ذكره ﷺ حقَّ لا مرية فيه و هذا الحديث الّذي رواه عن الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة مذكورٌ في كتابه المسّمى بشواهد التّنزيل و الكتاب موجودٌ عندنا و نزيدك على ما ذكره الطّبرسي ما ذكره الحافظ المذكور في هذا الكتاب.

قال: و فى التَّفسير العتيق عن إبراهيم بن محمّد الكوفي قال: حدَّثني نصر بن مزاحم عن عمرو بنشمر عن جابرالخبعفي عن محمّدبن علّي قال: أقبل الحارث بن عمر و الفهري إلى النَّبي فقال: أنّك أتيتنا

بخبر السّماء فصَّدقناك و قبلنا منك فذكر مثله إلى قوله فأرتحل الحرث فلّما صار ببطحاء مكَّة أتتهم جندلة من السّماء فسدخت رأسه فأنزل اللّه: سَأَلَ سٰآئِلٌ بِعَذٰابٍ واٰقِعٍ للكافرين بولاية علّيٍ إنتهى.

قالٌ: حدَّثني أبو الحسن الفارّسي و ساق الأسناد إلى ربعي عن حذيفة اليمان قال: قال رسول اللّه: من كنت مولاه فهذا مولاه) قام النُّعمان الفهري فقال هذا شيٌّ قلت من عندك أو شيٍ أمر به ربَّك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لا بل أمرني به ربّي فقال: اللّهم أنزل علينًا حجارة من السّماء فما بلغ رحله حتّى جائه حجر فخرّ ميتاً فأنزل اللّه سَأَلَ سٰآئِلٌ بِعَذٰابٍ واٰقِعٍ لِلْكٰافِرِينَ لَيْسَ لَهُ داٰفِعٌ إنتهى.

ما رواه بأسناده عنً أبي هريرة قال أخذ رسول اللّه بعضد علّى بن أبىطالب يوم غدير خم ثمّ قال: (من كنت مولاه فهذا علّي مولاه فقام إليه إعرّابي فقال: دعوتنا أن نشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك رسول اللّه فصَّدقناك و أمرتنا بالصّلاة و الصّيام فصَّلينا و صمنا و بالزّكاة فأدَّينا فلم تقنعك إلاّ أن تفعل هذا فهذا عن اللّه أم عنك قال: عن اللّه لا عنّى.

قال: اللّه الّذي لا إله إلاّ هو هذا عن اللّه لا عنك قال نعم ثلاثاً فقام الإعرابي مسرعاً إلى بعيره و هو يقول اللّهم أن كان هذا هو الحقّ من عندك الآية فما إستتمّ الكلمات حتّى نزلت نارٌ من السّماء فأحرقته و أنزل اللّه في عقب ذلك: سَأَلَ سٰآئِلٌ بِعَذٰابٍ واٰقِعٍ إنتهى.

أقول هذا ما ذكره الحافظ الحسكاني في كتابه و الأحاديث عن طريق العامّة كثيرة و قد ذكر في غاية المرام و ينابيع المودَّة شطراً منها و قد ذكر القرطبي مع تعَّصبه في مذهبه هذا الحديث قال ما هذا لفظهُ **لِلْكٰافِرِينَ** أي على الكافرين

و هو النَّضر بن الحارث حيث قال اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم، فنزل سؤاله و قتل يوم بدر صبراً هو و عقبة بن أبي معيط لم يقتل صبراً غيرهما قاله إبن عبّاس و مجاهد و قيل انّ السّائل هنا هو الحارث بن النُّعمان الفهري و ذلك أنّه لمّا بلغه قول النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في علّي رضي اللّه عنه.

من كنت مولاه فعلّيٌ مولاه ركب ناقته فجاء حتّى أناخ راحلته بالأبطح ثمّ قال يا محمّد أمرتنا عن اللّه أن نشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقبلناه منك و أن نصلّي خمساً فقبلناه منك و أن نزّكي أوالنا فقبلناه منك و أن نصوم شهر رمضان في كلّ عامٍ فقبلناه منك و أن نحجَّ فقبلناه منك ثمّ لم ترض بهذا حتّى فضلّت إبن عمَّك علينا أفهذا شيٌ منك أم من اللّه فقال النَّبى: و اللّه الّذي لا إله إلاّ هو ما هو إلاّ عن اللّه فوَّلى الحارث و هو يقول اللّهم أن كان ما يقول محمّد حقّاً فأمطر علينا حجارة من السّماء أو أئتنا بعذابٍ أليمٍ فَوَاللّه ما وَصَل إلىٰ ناقَته حتّىٰ رَماه اللّه بحَجرٍ فَوَقع علىٰ دماغه و خَرَج من دُبُره فقَتله فَنَزَل سألَ سائل بعذابٍ واقع إنتهىٰ.

أقول ما ذكره القرطبي و غيره من العامّة في تفاسيرهم و كتبهم حجّةٌ عليهم يوم القيامة و لولا مخافة الإطناب لقلنا في المقام غير ما قلناه و اللّه أعلم.

لِلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ

و قد عرفت ممّا ذكرناه أنّه لم يكن له دافعٌ حين نزل عليه العذاب.

مِنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ

أي ليس له دافعٌ من اللّه ذي المعارج و بعبارةٍ أخرى ليس له دافعٌ من عذاب اللّه و قوله ذي المعارج صفة للّه تعالى أي أنّ اللّه ذو المعارج و

المصاعد و قيل معناه ذو العلُّو و الدَّرجات الفواضل و النِّعم فالمعارج مراتب أنعامه على الخلق قاله إبن عبّاس و الحقّ أنّ المعارج جمع معرج و هو محلّ العروج و الحروج الصُّعود إلى الفوق فالمعارج معناه المصاعد و يدلّ على هذا قوله بعد ذلك.

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَ ٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ

و هو يوم القيامة فقوله: **تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَ ٱلرُّوحُ** إليه معناه تصعد إليه كما قال تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ**(١) و المراد بالصُّعود في المقام ليس الصُّعود العرفي الّذي يتَّحصل من مكان سافل إلى مكان عالٍ كما في الأجسام بل المراد الصُّعود المعنّوي و ذلك لأنّ اللّه تعالى لا مكان له فعروج الملائكة إليه كناية القرب المعنّوي الّذي يحصل بسبب الطّاعة و الإنقياد.

و أمّا قوله: في **خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** فهو إشارة إلى أنّ يوم القيامة ليس مثل أيّام الدُّنيا و أمّا أنّ المرادبالسنّة ما هو فاللّه أعلم ثمّ أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه بالصَّبر.

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا، وَ نَرَيٰهُ قَرِيبًا

و المعنى فأصبر يامحمّد صبراً جميلاً و هو الّذي لا جزع فيه على أذى قومك و قيل الصَّبر الجميل هو أن يكون صاحب المصيبة لا يدرى من هو و قيل هو الصَّبر الّذي لا شكوى فيه لغير اللّه و الإنصاف أنّ الرّسول ﷺ صبر على أذى المشركين كذلك و لم يدع عليهم قطُّ بل كان يقول اللّهم أهد قومي فأنّهم لا يعلمون، بخلاف كثيرٍ من الأنبياء قبله فانّهم دعوا على من آذاهم و لذلك نزل عليهم العذاب كما مرَّ الكلام فيه.

و قوله: **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا** أي أنّ المشركين يرون العذاب أو القيامة بعيداً **وَ نَرَيٰهُ قَرِيبًا** لأنّه محقّق الوقوع و ما كان كذلك فهو في حكم الماضي فكيف يكون بعيداً ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أثار القيامة و أوصافها.

١- فاطر = ١٠

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ، وَ تَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ، وَ لَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا

لمّا قال تعالىٰ: **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَ نَرَىٰهُ قَرِيبًا** كأنّه قيل متى هذا الوعد، فذكر اللّٰه له علامات:

الأولى: أن تكون السّماء كالمهل، و هو درديّ الزّيت و عكره، و قيل ما أذيب من الرّصاص و النّحاس و الفضّة، و قيل هو القيح من دمٍ و صديدٍ.

الثّانية: أن تكون الجبال كالعهن، بكسر العين و هو الصُّوف المنقوش و قيل هو الصُّوف الأحمر و قيل العهن الصُّوف ذو ألوان، و الحقّ أنّ العهن هو الصُّوف المنقوش و كيف كان فهو من علائم القيامة.

ثالثها: **وَ لَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا** و ذلك لشغل كلّ إنسانٍ بنفسه و المشهور بين القرّاء فتح الياء بصيغة المعلوم و قرأ بعضهم بالضّم أي و لا يسأل حميمٌ عن حميمه، و لا ذو قرابةٍ عن قرابته و هذه القراءة شاذّة متروكة و ظاهر الآية يأباها أيضاً و هو ظاهر فالمعنى على المشهور لا يسأل قريبٌ قريباً.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ، وَ فَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔوِيهِ، وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ

فقوله: **يُبَصَّرُونَهُمْ** أي يرونهم أي يعرف الكفّار بعضهم بعضاً لم يفرّ بعضهم عن بعض، و قيل يعرفهم المؤمنون، و قال قوم يعرف أتباع الضّلال رؤسائهم **يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ** الوُّد الحبّ أي يتمنّى العاصي **لَوْ يَفْتَدِي** فالإفتداء إفتداء الضّرر عن الشّئ ببدلٍ منه، و الضّمير في يبصرونهم للكفّار أي يبصر بعضهم بعضاً فيتعارفون ثمّ يفرّ بعضهم من بعضٍ و الميم للأقرباء.

و قال مجاهد المعنى يبصر اللّٰه المؤمنين الكفّار في القيامة و على هذا فالضّمير في يبصرونهم للمؤمنين و الهاء و الميم للكفّار.

و قال إبن زيد، معناه يبصر الكفّار في النّار الّذي أضلّوهم في الدّنيا، فالضّمير في يبصرونهم، للتّابعين والهاء والميم للمتبوعين، و قيل يبصر المظلوم ظالمه و المقتول قاتله وتمّ الكلام عند قوله: **يُبَصَّرُونَهُمْ**.

ثمّ قال تعالى: يوم **يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ** أي يتمنّى و يحبّ **لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ** أي من عذاب يوم القيامة بأعزّ من كان عليه في الدّنيا من أقاربه **بِبَنِيهِ** يعني أولاده الذّكور **وَ صَاحِبَتِهِ** يعني زوجته **وَ أَخِيهِ** يعني إبن أبيه و أمّه **وَ فَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُؤْوِيهِ** أي عشيرته تؤويه أي تنصره في الدّنيا فالفصيلة هي المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبوّة خاصّة **وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** أي يتّمنى الذّي في العذاب أي يفتدي بهؤلاء كلّهم ليستخلّص من العذاب و بعبارةٍ أخرى يفتدي بهؤلاء الأعزّة النّجاة و خلاصه من العذاب و فيه إشارة إلى شدّته.

كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ

أي ليس ينجيه الإفتداء من عذاب اللّه و قيل كلاّ، ردعٌ و تنبيهٌ أي لا ينجيه أحد من هؤلاء، و **لَظَىٰ** بفتح اللاّم من أسماء جهنّم مأخوذ من التّوقد و الضّمير في أنّها، راجع إلى النّار و موضع **لَظَىٰ** رفع لأنّها خبر (أن) و قوله: **نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ** خبر أخر على من رفع و من نصب جعله حالاً و معنى نزّاعة كثيرة النّزع و الشّوى جلدة الرّأس، و قيل الكوارع و الأطراف لأنّ النّار تأخذ الجلدة و الأطراف بالتّغير و قيل أنّ جهنّم تنزع جلدة الرّأس و أطراف البدن و الشّوى جمع شواة و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

قالت فتيلة ماله قد حللت شيباً شواته

و قيل معنى **نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ**، أي تنزع عينيه و تسوّد وجهه و الحاصل أنّ هذه الأيات تحكي عن شدّة العذاب يوم القيامة.

تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّىٰ

أي تدعو النّار من أدبر و توَّلى، و قيل تدعو لظى و هى جهنّم من أدبر و توَّلى أي من أدبر و أعرض عن طاعة اللّه في الدُّنيا و توَّلى عن الإيمان باللّه و دعاء النّار أن تقول بلسان التّكوين، إليّ يا مشرك إلَّي يا فاسق ثمّ تلتقطهم كما يلتقط الطّير الحبّ و قال ثعلب تدعوه، أي تهلك تقول العرب دعاك اللّه أي أهلك اللّه.

و قال الخليل دعوة النّار إيّاهم تمّكنها من تعذيبهم، و قيل الدّاعي خزنة جهنّم أضيف دعاءهم إليها إلى النّار، و قيل هو ضرب مثلٍ أي أنّ مصير من أدبر و توَّلى، إليها فكأنّها الدّاعية لهم و مثله قوله الشّاعر:

و لقد هبطنا الواديين فؤادياً   يدعو الأنيس به العضيض الأبكم

وَ جَمَعَ فَأَوْعَىٰ

أي جمع المال فجعله في وعاءه و منع منه حقّ اللّه تعالى فكان جموعاً منوعاً.

إِنَّ ٱلْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا

الهلوع الشدّيد الحرص، و قيل الشَّديد الجزع من الضّجر في قول إبن عبّاس و قيل معناه خلق ضعيفاً من الصَّبر على الجزع.

و قال بعض المفسّرين المراد به الكافر و الهلع في اللُّغة أشدّ الحرص و أسوأ الجزع و أفحشه.

أقول أنظر إلى هذا التّفسير يقول اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا** و هو أي المفسِّر يقول يعني الكافر، و لا يعلم أنّ الإنسان أعمّ من الكافر، و المسلم ولو كان المراد ما ذكره لقال أنّ الكافر خلق هلوعاً، ولم يقل ذلك هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الحرص لا يختّص بالكافر بل هو من صفات البشر.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنّ أخوف ما أخاف عليكم أثنان الحرص و طول الأمل.

و في بعض الأخبار، **إتّباع الهوى و طول الأمل**، و المعنى واحد فأنّ الحرص يوجد من إتّباع الهوى و حاصل الكلام أنّ الحرص من خواصّ الإنسان سواء كان مسلماً أم كافراً ألا ترى أنّ الحرص أخرج أدم و حوّاء من الجنّة ثمّ أيّ حرصٍ أشدَّ و أفحش من ترك المسلمين في صدر الإسلام من تركهم جنازة الرّسول الأعظم و إجتماعهم في سقيفة بني‌ساعدة لأجل الوصول إلى الحكومة و الخلافة أليس هذا من مصاديق الحرص على الدُّنيا، فكأنّ القائل أراد بالحرص غير ما فهمنا منه و زعم أنّ معنى الحرص الشَّرك بالله فان أراد هذا فلا كلام لنا معه و ان أراد معناه اللُّغوي فهو مشترك بين المسلم و الكافر و العالم و الجاهل و هكذا.

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: لو كان لإبن أدم و اديان من ذهب لإبتغىٰ ورائهما ثالثاً و لا يملأ جوف إبن أدم إلاّ التُّراب و يتوب الله على من تاب إنتهى.

و قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: ليشيب إبن أدم و تشبُّ فيه خصلتان الحرص و طول الأمل إنتهى.

و قال الصّادق عليه السّلام: أنّ فيما نزل به الوحي من السّماء لو أنّ لإبن أدم و اديين يسيلان ذهباً و فضّةً لإبتغى لهما ثالثاً يابن أدم أنّما بطنك بحرٌ من البحور و وادٍ من الأودية لا يملأنه شئ إلاّ التُّراب إنتهى.

و الأخبار في ذمّه كثيرة و أظنّ أنّ هذا لا يحتاج إلى إطالة الكلام لأنّ كلّ إنسانٍ يحسّ في نفسه الحرص نعم له مراتب كثيرة شدّةً و ضعفاً و كمالاً و نقصاً و أمّا وجود الحرص في أولاد أدم ممّا لا شكّ فيه لأنّه محسوسٌ.

إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا، وَ إِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا

الخير ما يرغب فيه الكلّ كالعقل مثلاً و العدل و العلم و الفضل و الشّئ النّافع و ضدّه الشّر كالجهل و الظُّلم و الشّئ الضّار.

قال بعضهم الخير ضربان، خيرٌ مطلق و هو أن يكون الشّئ مرغوباً فيه بكلّ حالٍ و عند كلّ أحدٍ كما:

وصف رسول اللّه به الجنَّة فقال لا خير بخيرٍ بعده النّار و لا شرّ بعده الجنَّة، و خيرٌ و شّرٌ قيّدان و هو أن يكون خيراً لواحدٍ و شرّاً لأخر كالمال الّذي ربّما يكون خيراً لزيد و شّراً لعمرو و لذلك وصفه اللّه تعالى بالأمرين فقال في موضع من كتابه: **إِنْ تَرَكَ خَيْرًا** و المراد بالخير المال، و قال في موضعٍ أخر: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ**[1].

قال بعض المحقّقين لا يقال للمال خير حتّى يكون كثيراً و من مكانٍ طيّبٍ و عليه يحمل الخير في أية الوصّية.

كما روي أنّ عليّاً عليه السلام دخل على مولى له فقال المولى ألا أوصي يا أميرالمؤمينن فقال عليه السلام لا، فأنّ اللّه تعالى قال أن ترك خيراً، وليس لك مالٌ كثير.

و على هذا قوله تعالى: **وَ إِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**[2] أي المال الكثير و قيل الخير و الشّر يقالان على وجهين:

أحدهما: أن يكونا إسمين كما تقدّم و هو:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ**[3].

الثّاني: أن يكونا وصفين و تقديرهما تقدير (أفعل منه) نحو هذا خيرٌ من ذاك و أفضل و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوىٰ**[4].

١- المؤمنون = ٥٦ / ٥٥
٢- الاديات = ٨
٣- آل عمران = ١٠٤
٤- البقرة = ١٩٧

تقديره تقدير، أفعل منه فالخير يقابل به الشّر مرّةً و الضُّر مرّةً:

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[٢].

إذا عرفت معنى الخير و الشَّر فقد علمت انّ الشَّر من الأمور العدَّمية لأنّه عدم الخير فهو يقابل الخير دائماً و أمّا الشَّر بقولٍ مطلقٍ بحيث لا يوجد فيه خير أصلاً، فهو لم يوجد و لن يوجد أبداً و ذلك لأنّ الوجود خيرٌ محضٌ فالواجب تعالى خيرٌ بقولٍ مطلقٍ لأنّه حقيقة الوجود و نفسه فإذا كان الشّئ موجوداً فقد إتّصف بالخير و هو الوجود فكيف يكون شرّاً بقولٍ مطلقٍ فثبت و تحقّق أنّ الخير المطلق موجود و هو اللّه تعالى و الشّر المطلق معدوم غير قابلٍ للوجود كشريك الباريء مثلاً و على هذا فالخير و الشَّر من الأمور النسبيّة فقوله تعالى: **إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا** معناه الشَّر النِّسبي و هكذا قوله: **وَ إِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا** و معناه الخير النِّسبي إذ لا يعقل أن يمسّه الشّر المطلق لأنّه معدومٌ غير قابلٍ للوجود كما مرَّ و لا الخير المطلق لأنّ الموجود الممكن لا يكون خيراً مطلقاً و الخير المطلق هو اللّه تعالى.

و حاصل المعنى في الأيتين انّ الإنسان إذا مسَّه الشّر كالمرض و الفقر يكون جزوعاً أي مضطرباً و إذا مسَّه الخير كالغنى و الصِّحة منوعاً يمنع حقّ اللّه فيه و ذلك لضعف نفسه و جهله بالواقع فانّ المرض و الفقر مثلاً و أن كان من الشّرور بزعمه بالنّسبة إلى الغنى و الصّحة إلاّ أنّهما بحسب الواقع ليسا كذلك لأنّ المصلحة إقتضت الفقر و المرض فالفقر في الواقع خيرٌ له، و هكذا الغنى و الصّحة و أن كانا بزعمه خيراً إلاّ أنّهما بحسب الواقع يمكن أن لا يكونا خيراً له قوله تعالى: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا**[٣] و لأجل هذا يقال أنّ الأيَتين

١- الانعام = ١٧

٢- الانعام = ١٧

٣- آل عمران = ١٧٨

في ذمّ الإنسان لأنّ لجهله بالواقع يسحسب المرض و الصّحة و الفقر و أمثالهما من الشّر و المال و الصّحة من الخير و أمّا الإنسان العارف بأنّ الأفعال و الحوادث تصدر عن المصلحة لا يكون جزوعاً و لا منوعاً بل يقول المرض خير و الفقر خير و الغنى أيضاً خير و الأصل في هذه القاعدة هو قوله تعالى: **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلىٰ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِمآ اٰتيٰكُمْ**(١) فيُفوّض أمره إلىٰ اللّه و يحكم بالخير في جميع ما أراد اللّه في حقّه و أعطاه.

إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ، ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ، وَ ٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوٰلِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّآئِلِ وَ ٱلْمَحْرُومِ

إستثنى اللّه تعالى من الحكم المذكور و هو الجزع في الشّر و المنع من أداء الحقّ في الخير من أصناف الخلق صنفين:

أحدهما: الّذين يستّمرون على أداء الصّلاة الّتى أوجبها اللّه عليهم بحدودها و شرائطها و حفظها و عدم تركها.

ثانيهما: الّذين في أموالهم حقّ معلوم للسّائل و المحروم الّذي لا مال له و قيل المحروم هو الّذي لا يعطي الصّدقة و قيل هو الّذي لا يسأل النّاس.

قال القرطبي في قوله: **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** دلَّ على أنّ ما قبله في الكفّار إنتهىٰ.

أقول ليس الأمر كذلك و لا دلالة لقوله: **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** أنّ ما قبله في الكفّار، و ذلك لأنّ المستثنى منه في المقام هو الإنسان في قوله: **إِنَّ ٱلْإِنْسٰانُ خُلِقَ هَلُوعًا** و لا شكّ أنّ المراد بالإنسان جميع أفراد البشر فأنّ الحرص الشّديد و هو الهلوع لا يختّص بالكافرين بل الحرص موجود في المؤمنين أيضاً كما مرَّ الكلام فيه عند قول القرطبي يريد به الكفّار، و على هذا فالمستثنى متصّلٌ فالمعنى خلق الإنسان هلوعاً إلاّ المصلّين منهم، أي من الإنسان.

١- الحديد = ٢٣

و في قوله: **ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ** إشارة إلى حفظ المصلّي مواقيت الصّلاة و الإتيان بها بجميع شرائطها و حدودها و هذه الصّلاة هي الّتى تمنع اصلّي عمّا يضادّها من الحرص على الدّنيا و الجزع عند البلاء و البخل عن الإنفاق و ذلك لقوله تعالى: **إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَ ٱلْمُنكَرِ**(۱) و قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: **أنّ الصّلاة معراج المؤمن** و غيرهما من الأيات و الأخبار الواردة في فضيلة الصّلاة و الأثار المترّتبة عليها إذا كانت الصّلاة صحيحة فقوله تعالى: **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** إلى قوله: **دَآئِمُونَ** إشارة إلى هذه الصّلاة التّامة الأجزاء و الشّرائط لا مطلق الصّلاة كيف إتّفقت مثل صلاة أبي سفيان و معاوية و يزيد و عبيداللّه و غيرهم من الظّالمين المدّعين للإسلام ظاهراً و الكافرين واقعاً كان القرطبي و أمثاله أنّ هؤلاء الأشرار من المستثنيات في الآية لأنّهم كانوا يصلّون و يديمون عليها.

و حاصل الكلام أنّ المراد بالمصلّين في الآية الّذين كانت صلواتهم تمنعهم من الحرص على الدّنيا و الجزع على ما أتاهم اللّه إذا لم يكن موافقاً لطبائعهم.

أمّا الصّنف الثّانى: ممّا إستثناه اللّه تعالى فهم **وَ ٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّآئِلِ وَ ٱلْمَحْرُومِ** و هم الأغنياء الّذين أنعم اللّه عليهم بالأموال و جعل في أموالهم حقوقاً للفقراء و المساكين فيعطون حقوقهم و لا يمنعونهم منها و هذا يدلّ على عدم حرصهم.

على جميع الأموال فقول القرطبي و أمثاله من أنّ المراد بقوله: **حَقٌّ مَّعْلُومٌ** الزّكاة المفروضة غير صحيح بل المراد معناه العامّ الشّامل لها و لغيرها من الصّدقات و صلة الأرحام و بالجملة جميع المستّحبات فالإختصاص بالزّكاة الواجبة على المكلّف لا وجه له و هو واضحٌ لمن تدّبر في الأيات و الأخبار.

ثمّ انّ المراد بالسّائل في الآية الّذي يسأل و يطلب و المراد بالمحروم المحارف على قول إبن عبّاس و قال الحسن هو الّذي حرم أن يعطي الصّدقة

۱- العنكبوت = ۴۵

بتركه المسألة و قيل هو الّذي قد حرم الرّزق و هو لا يسأل النّاس و المعنى واضح.

وَ ٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ، وَ ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ

الواو للعطف على المستثنى و هو قوله: **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** فهذه الأيات من قوله **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** إلى قوله: **مُكرمُون**، كلّها داخل في المستثنى فالتّقدير و إلاّ الّذين يصّدقون بيوم الدّين و إلاّ الّذين من عذاب ربّهم مشفقون إلى أخر الأيات، و الحاصل من الأيات هو أنّ خلق هلوعاً أي حريصاً على الدُّنيا إلاّ من كان متّصفاً بهذه الأوصاف:

أحدها: أن يكون من المصلّين الحقيقي على ما مرَّ بيانه.

الثّاني: أن يكون من الّذين في أموالهم حقّ معلوم للسّائل و المحروم مرَّ بيانه أيضاً.

الثّالث: أن يكون من الّذين يصدّقون بيوم الدّين يعني يوم القيامة الّذي يعبّر عنه بالمعاد الّذي هو أحد أركان الدّين و هو من ضروريّاته فمن أنكره يحكم بكفره و المراد بالتّصديق الإعتقاد و الجازم به و أنّما جعل المعاد من المستثنى لأنّ المعتقد بالمعاد لا يكون هلوعاً حريصاً لعلمه بأنّ الإنسان مسئولٌ يوم القيامة عن أعماله و أقواله الّتى صدرت عنه في الدُّنيا مضافاً إلى أنّ الدّنيا فانية و الأخرة باقية و الحرص على تحصيل الشّئ الّذي لا بقاء له خلاف العقل السّليم.

الرّابع: أن يكون من الّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون، الإشفاق رقّة القلب من تحمل ما يخاف من الأمر فإذا قسى قلب الإنسان بطل الإشفاق و كذلك إذا أمن من الخوف كحال أهل الجنّة فأنّهم قد صاروا إلى غاية الصِّفة بحصول المعارف الضّرورية لهم في الجنّة فأولئك الّذين لا خوف عليهم يحزنون.

و قيل من أشفق من عذاب اللّه لم يتّعد له حدّاً و لم يضيع له فرصاً فإذا بلغ الإنسان إلى هذا المقام لا يكون هلوعاً لعلمه بأنّ الحرص على الدّنيا ناش عن حبّ الدُّنيا و قد قال رسول اللّه صلّی الله علیه و آله وسلّم: **حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة** و من المعلوم أنّ الحريص يحبّها فلا محالة يعذّب يوم القيامة، و الى ذلك أشار اللّه.

إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ

أخبر اللّه في هذه الآية بأنّ عذابه كائنٌ ثابتٌ يوم القيامة فلا يوثق بأنّه لا يكون و ان شئت قلت انّه يعلم انّ عذاب اللّه غير مأمونٍ على العصاة فإذا كان العبد عالماً بأنّ عذابه غير مأمون خاف منه و إذا خاف عمل بما هو وظيفته.

الرابع:

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ، إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعادُونَ

الْفَرج بفتح الفاء و سكون الرّاء و الجيم و هكذا الفرجة الشّق بين الشّيئين كفرجة الحائط و الفرج ما بين الرّجلين في الرّجل و المرأة و كنّي به عن السّوأة و كثر حتّى صار كالصّريح فيه:

قال تعالى في مريم: **وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها**(١).

و قال في الرّجال: **لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ**(٢).

و للمرأة: **وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**(٣).

فقوله تعالى: **وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ** الظّاهر أنّ المراد بهم الرّجال بدليل قوله: **أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ** و عليه المفسّرون، و لا يبعد أن

١- الانبياء = ٩١
٢- المؤمنون = ٥
٣- النّور = ٣١

يكون المراد من قوله: **هُمْ** الرّجال و النّساء جميعاً و تذكير الضّمير من باب التّغليب و ذلك لأنّ المستثنى منه في الأيات هو الإنسان بإتّفاق المفسّرين و المرأة داخلة في الإنسان فقوله: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا** شاملٌ للرّجال و النِّساء و إذا كان المستثنى منه عامّاً شاملاً لجميع أفراد الإنسان فلا دليل على تخصيص المستثنى بالرّجال فقط و قد مرَّ الكلام فيها و فى الآية الّتى بعد الأيات فى سورة، **قَدْ أَفلَحَ الْمُؤْمِنُون** فراجعها إن شئت و محصّل الكلام أنّ الّذين لفروجهم حافظون، عمّا حرَّم اللّه عليهم، إلاّ على أزاوجهم أو ما مملكت ايمانهم، فانّهم غير ملومين، لأنّ اللّه تعالى أباح لهم الأزواج و الملك اليمين فلا ملامة عليهم و انمّا يلامون على غير الأزواج و ما ملكت أيمانهم فلا يجب عليهم أن يحفظوا فروجهم من الأزواج و ما ملكت أيمانهم من الإماء.

نعم (**فَمَنِ ٱبْتَغَى**) و طلب وراء الأزواج و الإماء فأولئك هم العادون، الّذين تعدُّوا حدود اللّه و خرجوا عمّا أباحه اللّه لهم فالإبتغاء الطَّلب.

الخامس: ممّا إستثناه اللّه تعالىٰ قوله:

وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ

فهذه الآية أيضاً مرَّ الكلام فيها في سورة **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** و قد فصَّلنا الكلام فيها هناك و قلنا أنّ حفظ الأمانة و مراعاة العهد و الميثاق من الواجبات و نقلنا الأخبار الواردة في الباب فلا وجه للإعادة في المقام.

السّادس: ممّا إستثناه اللّه تعالىٰ قوله:

وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَآئِمُونَ

فأنّ أداء الّشهادة من الإيمان و كتمانها من النّفاق فمن كتم الشّهادة ولم يقم فهو منافق و هو أيضاً ممّا مضى الكلام فيه مراراً.

السّابع: قوله:

وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

و قد مضىٰ الكلام فيه أيضاً وحفظ الصّلاة حفظ مواقيتها و ما يجب على المصّلي مراعاته من حضور القلب، و قصد القربة و إباحة المكان و اللّباس و غيرها ممّا هو مذكورٌ في كتب الفقه ثمّ بعد ذلك قال تعالىٰ:

أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ

أي معظّمون بما يفعل اللّه بهم من الثّواب و الإكرام و هو الإعظام على الإحسان.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ

قِبَلَكَ بكسر القاف و فتح الباء و اللاّم، والإهطاع الإسراع و (ما) إستفّهامية و فيها التّهديد و الإنكار و المعنىٰ أيُّ شيٍ لهٰؤلاء الكفّار الجاحدين للتّوحيد و النّبوّة قبلك، أي نحوك أو إليك مسرعين و قيل معناه منطلقين.

و قال قتادة عامدين و جميع ذلك بمعنى الإسراع و قال الزّجاج المهطع المقبل ببصره على الشّئ لا يزايله، قيل انّما أنكر اللّه عليهم الإسراع لأنّهم كانوا يسرعون إليه ليأخذوا الحديث منه ثمّ يتفرّقون بالتّكذيب عليه اسرعوا اليه لطلب عيبٍ له و قيل معناه فما للّذين كفروا مسرعين في نيل الجنَّة مع الإقامة على الكفر، و هكذا قال في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين معناه ما بالهم مسرعين إليك مادِّين اعناقهم مدمني النَّظر إليك و ذلك من نظر العدُّو و كيف كان لا شكّ أنّ الآية نزّلت في المنافقين المستهزئين لرسول اللّه كانوا يحضرون إليه و لا يؤمنون به.

عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ عَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ

أي أنّهم كانوا يحضرونه و يجلبون عن يمينه و شماله.

و قال إبن عبّاس عن اليمين و الشّمال معرضين يستهزؤن و معنى **عِزِينَ** بكسر العين جماعات في تفرقة نحو الكراريس واحدهم (عِزة) و أصل (عِزة) **عَزوة مِن عز اه، يَعزُوه**، إذا أضافه إلىٰ غيره قال الشّاعر:

ترانا عنده واللّيل داجٍ على أبوابه حلقاً عزينا

أي متفرّقين وقال:

فَلّما أن أتَينَ علىٰ أضاجٍ فَرحنَ حَصاه أشتاتاً عِزيناه

و المعنىٰ واضح، و قيل كلّ واحدةٍ من هذه الجماعة مضافة إلى الأخرىٰ و قد ذكر بعض المفسّرين حديثاً في الباب عن رسول اللّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و هو أنّه خرج على أصحابه فرأهم حلقاً فقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **مالي أراكم عِزين ألاّ تَصّفُون كما تصّف الملائكة عند ربّها الحَديث**، ذكره القُرطبي في تفسيره واللّه أعلم.

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ، كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ

اكثر القرّاء علىٰ ضمّ الياء في (يُطمع) على ما لا يسمّ فاعله و الباقي علىٰ فتحها و الإستفهام للإنكار أي ليس كذلك و معنى الآية أيطمع كلّ إمرئٍ من الكفّار المنكرين للتّوحيد و النّبوّة و المعاد **أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** يوم القيامة قيل كان المشركون يجتمعون حول النّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يستمعون كلامه فيكذّبونه و يكذّبون عليه و يستهزؤن أصحابه و يقولون لئن دخل هؤلاء الجنّة لدخلناهم قبلهم و لئن أعطوا منها شيئاً لنعطينّ أكثر منه فنزلت الآية و قيل كان المستهزؤن خمسة رهط فقال تعالىٰ: **كَلَّآ** لا يدخلونها ثمّ إبتدأ فقال: **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ** أي يعلمون أنّهم خلقوا من نطفة ثمّ من علقةٍ ثمّ من مضغةٍ كغيرهم من أفراد الإنسان فليس لهم فضلٌ ليستوحون به الجنَّة و قيل معناه أنّما خلقت من قذر يابن أدم فإتّق اللّه هذا ما قالوه في قوله: **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية و قوله: **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ** النُّطفة فأنّ الإنسان مخلُوق منها و الكلام مرتبط بما بعده و المجموع معللٌ للرَّدع و محصّل الكلام التّعليل إنّا خلقناهم من النُّطفة و هم يعلمون فلنا أن نذهب بهم و نخلق مكانهم قوماً أخرين يكونون خيراً منهم مؤمنين غير رادّين لشئ من دين اللّه ولسنا بمسبوقين حتّى يعجزنا هٰؤلاء الكفّار و يسبقونا فندخلهم الجنَّة و ينتقص به ما قدَّرنا أن لا يدخل الجنّة كافر إنتهىٰ كلامه.

أقُول والّذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ الكفّار كانوا يفتخرون على المؤمنين بأنسابهم و أبائهم و كانوا يقولون نحن أحقّ بدخول الجنّة من هؤلاء الفقراء حول النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فإذا كان هؤلاء من أهل الجنّة فنحن أولى بها منهم فقال تعالى في جوابهم، كلاّ، أي ليس كذلك أي الكفّار لا يدخلونها أبداً ثمّ علَّل ذلك بقوله: **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ** أي أنّ الكفّار يعلمون أنّه لا مزيّة لهم على غيرهم لأنّ الجميع خلقوا من نطفة و علقة و مضغة فلا فخر لأحدهم على غيره فكيف يقولون نحن أولى بدخولها منهم و بعبارةٍ أخرىٰ لا يدخل الجنّة أحد بالنَّسب و أنّما يدخلها الإنسان بالعمل الصّالح بعد الإيمان باللّه و رسوله فكيف يقول الكافر ذلك و هو باقٍ على كفره و مات عليه هذا ما إستفدناه من الآية واللّه أعلم.

فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَ ٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ، عَلَىٰٓ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ

(لا) صلة أي أقسم بربّ المشارق و المغارب، أتىٰ بصيغة الجمع لأنّ للشّمس في كلّ يومٍ من أيّام السَّنة مشرقاً و مغرباً لا يعود إليها إلى مثل اليوم من السّنة القابلة و لذلكَ قال إبن عبّاس الشّمس لها ثلاث مائة و ستُّون مطلعاً و مغرباً كلّ يوم لها مطّلع لا تعود إليه و لأجل ذلك ترىٰ الأيّام و اللّيالي متفاوته طولاً و قصراً في أيّام السَّنة و إحتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد مشارق النّجوم و مغاربها جميعاً.

إِنَّا لَقَادِرُونَ، عَلَىٰٓ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ أي أقسم بربّ المشارق و المغارب إنّا لقادرون على إهلاك الكفّار وإيجاد قوم خيراً منهم و بعبارةٍ أخرى إنّا لقادرون على تبديل الكفّار بقومٍ مؤمنين مطيعين **وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** أي لا يفوتنا شئ و لا يعجزنا أمرٌ نريده، و ذلك لأنّ خلق الثّاني ليس بأصعب من خلق الأوّل.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ

أي أتركهم يا محمّد يخوضوا في غيّهم و ضلالهم و كفرهم و يلعبوا في دنياهم فأنّ أيّام الدّنيا قصيرة حتّىٰ يلاقوا يومهم الّذي يوعدون، و هو يوم القيامة و قد وعدهم اللّه بسبب أنبيائه و هو اليوم الّذي لا ينفع لهم مالٌ و لا ينون إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليمٍ.

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ

فسَّر اللّه تعالىٰ ذلك اليوم الموعود بيوم البعث فقال يوم يخرجون هٰؤلاء الكفّار من الأجداث، أي من القبور، فأنّ الجدث القبر واحدها، جدث، و قوله: **سِرَاعًا** أي مسرِعين فهو منصوب على الحال (كأنّهم) أي كأنّ هؤلاء الكفّار **إِلَىٰ نُصُبٍ** أي أعلامٍ يسبقون، شبَّههم اللّه تعالىٰ في إسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم يستبقون إليه و الإيفاض الإسراع قيل النُّصب نصب الصَّنم الّذي كانوا يعبدونه و قيل إسم الصَّنم نصب و جمعه نصب مثل رهن و رُهن، و قيل نَصب و نُصب بمعنىً واحد مثل، عَمر و عُمر و عُمُر.

قال الحسن كانوا يتبدرون إذا طلعت الشّمس إلىٰ نصبهم الّتى كانوا يعبدونها من دون اللّه و قوله يوفضون، أي يسرعون كما قال الشّاعر:

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجنّ يوفضن من عبقرٍ

خٰاشِعَةً أَبْصٰارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذٰلِكَ اَلْيَوْمُ اَلَّذِي كٰانُوا يُوعَدُونَ

أي يخرجون من القبور (خاشعةً أبصارهم) أي ذليلةٍ خاشعة لا يرفعونها لما يتوّقعونه من عذاب اللّه **تَرهقَهم ذِلّة** أي يغشاهم الهوان و هو سواد الوجه و الرَّهق الغشيان و منه علامٌ مراهق إذا غشي الإحتلام ذلك، هو اليوم الّذي كانوا في الدُّنيا يوعدون به و كانوا مُنكرين مستهزئين به.

■

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنّآ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلٰى قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى
لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَ ٱتَّقُوهُ وَ
أَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ
إِلىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذا جآءَ لا يُؤَخَّرُ
لَوْكُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى
لَيْلًا وَ نَهارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعآءِىٓ إِلّا فِرارًا ﴿٦﴾
وَ إِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصابِعَهُمْ
فِىٓ ءاذانِهِمْ وَ ٱسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ
ٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهارًا
﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرارًا
﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّارًا ﴿١٠﴾
يُرْسِلِ ٱلسَّمآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارًا ﴿١١﴾ وَ يُمْدِدْكُمْ
بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ
أَنْهارًا ﴿١٢﴾ ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقارًا ﴿١٣﴾ وَ
قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ

سَبْعَ سَمٰواتٍ طِباقًا ﴿١٥﴾ وَ جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فيهِنَّ
نُورًا وَ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِراجًا ﴿١٦﴾ وَ ٱللَّهُ أَنْبَتَكُمْ
مِنَ ٱلْأَرْضِ نَباتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعيدُكُمْ فيها وَ
يُخْرِجُكُمْ إِخْراجًا ﴿١٨﴾ وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
بِساطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجًا ﴿٢٠﴾ قالَ
نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني وَ ٱتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ
مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَسارًا ﴿٢١﴾ وَ مَكَرُوا مَكْرًا
كُبّارًا ﴿٢٢﴾ وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ
وَدًّا وَ لا سُواعًا وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا
﴿٢٣﴾ وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثيرًا وَ لا تَزِدِ ٱلظّالِمينَ إِلَّا
ضَلالًا ﴿٢٤﴾ مِمّا خَطيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا
نارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْصارًا ﴿٢٥﴾
وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ
ٱلْكافِرينَ دَيّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا
عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِرًا كَفّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ
ٱغْفِرْ لي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَ
لِلْمُؤْمِنينَ وَ ٱلْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ ٱلظّالِمينَ إِلَّا
تَبارًا ﴿٢٨﴾

◀ اللّغة

أَنْذِرْ: الإنذار التّخويف من عذاب اللّه.

وَ ٱسْتَغْشَوْا: الإستغشاء طلب الغشى.

ثِيٰابَهُمْ: هو جمع ثوب أي اللّباس.

جِهٰاراً: أي إعلاناً.

مِدْراراً: أي كثيرة الدُّرر بالغيث والمَطر.

طِبٰاقًا: أي طبقة فوق طبقة.

سُبُلًا: بضمّتين جمع سبيل و هو الطّريق.

فِجٰاجًا: الفجاج جمع، فجّ، و هى الطَّريقة المتّبعة المتفرّقة طرقاً مختلفة، والفجّ المسلك بين جبلين.

مَكْرًا: فالمكر الفتل بالحيلة الخفيّة إلىٰ خلاف الجهة الموافقة بما فيها مِن المضرّة.

كُبّٰارًا: بضمّ الكاف و تشدّيد الباء الكبير.

لاٰ تَذَرُنَّ: أي لا تتركوا.

وَدًّا وَ لاٰ سُواٰعًا: هما صنمان لهم كانوا يعبدونهما.

يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا: أصنامٌ لهم.

دَيّٰارًا: هو فيعال من الدّوران أي لا تذر منهم على الأرض أحداً يدور فيها بالذّهاب والمجئ.

فٰاجِرًا كَفّٰارًا: الفاجر الفاسق، و الكفّار مبالغة في الكفر.

◀ الإعراب

أَنْ أَنْذِرْ أن بمعنىٰ، أي، و قيل مصدرية نَبٰاتًا إسم للمصدر فيقع، موقع، نبات لِتَسْلُكُوا مِنْهٰا منها يجوز أن يتعلّق بتسلكوا و يجوز أن يكون حالاً وَدًّا بالضمّ و الفتح لغتان و أمّا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ فلا ينصرفان لوزن الفعل والتّصريف و قد صرّفهما قوم على أنّهما نكرتان مِمّٰا خَطِيٓـٰٔاتِهِمْ ما زائدة أي من اجل خطاياهم، أغرقوا دَيّٰارًا نصب على المفعوليّة و أصله ديوار لأنّه من دار يدور.

◀ التّفسير

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

نوح عليه السلام أوّل نبيّ بعد جدّه إدريس و كان إسمه عبد الغفّار و انّما سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكاءه مدّة خمس مائة سنة خوفاً من اللّه تعالىٰ ثمّ تحسره على ضلال أمّته و هو أوّل الأنبياء الخمسة أولى العزم المبعوثين إلى الجنّ و الإنس و الأربعة بعد نوح، إبراهيم، موسىٰ، عيسىٰ و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم سيّدهم و أفضلهم و كان نبّي اللّه نوح جسيماً عَظيم القدر و المشهور أنّه عاش (٢٥٠٠ سنة) فأنّه لمّا بعث إلى قومه كان عمره ثمان مائة و خمسين سنة و أقام في قومه يدعوهم إلىٰ اللّه تسع مائة سنة كما قال عزّ وجّل في كتابه: **فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**[1] و أقام مشتغلاً بعمل له (٢٠٠) سنة و عاش بعد هلاك قومه بالطّوفان (٥٠٠) سنة و ذلك تمّا (٢٥٠٠) سنة و قيل كان عمره أقلّ من ذلك و قد مضى الكلام في قصّه نوح مفّصلاً فيما مضىٰ والّذي نشير إليه في المقام هو أنّه لمّا بعث إلىٰ قومه أخذ يدعوهم إلىٰ اللّه ليله و نهاره و يعظّمهم و يحذّرهم العذاب سّراً و جهاراً كما أخبر اللّه تعالى في كتابه حيث قال: **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي** و سيأتي الكلام فيها.

فقوله تعالىٰ: **إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ** أي أنذرهم عن عذاب قبل نزوله و المراد به الطّوفان.

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أي ظاهر: **أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَ ٱتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ**

أمرهم نوح بمعرفة اللّه و عبادته أوّلاً فقال: **أَنِ ٱعْبُدُوا** و أتركوا الأصنام و الأوثان، ثمّ أمرهم بالتّقوىٰ ثانياً.

١- العنكبوت = ١٤

و التَّقوىٰ فعل الواجبات و ترك المحرّمات تقرّباً إلى اللّه تعالىٰ و من المعلوم أنّ التَّقوىٰ بعد الإقرار و الإعتقاد بالتَّوحيد.

ثالثاً: أمرهم بأن يطيعوه فقال: **أَطِيعُونِ** أي أطيعوني حذفت الياء و بقيت الكسرة للدّلالة عليه و إنّما قال أطيعون و لم يقل و أطيعوا اللّه لأنَّ إطاعته إطاعته و عصيته معصيته.

ثانياً: نقول، إطاعة اللّه بدون إطاعة الرَّسول غير ممكن بل هي من المحالات و ذلك لأنّ العبد لا يعلم كيفيّة الطّاعَة إلاّ بإرشاد النَّبي إيّاه فلو لم يطع النَّبي كيف تحصل له الطّاعة و هو واضح لا خفاء فيه.

بل الحقّ أنّ الأنبياء بعثوا لتعليم الطّاعة و إرشاد الخلق إليها.

يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

جزم، يغفر، بجواب الأمر و هو، إعبدوا اللّه و أتَّقوه أي أعبدوا اللّه و أتَّقوه **يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**.

قيل: (من زائدة) و قال بعض المفسّرين ليست بزائدة بل هي للتَّبعيض أي يغفر لكم بعض ذنوبكم و هو ما لا يتعلّق بحقوق النّاس و قيل المعنى يخرجكم من ذنوبكم، و قيل المعنى يغفر لَكُم مِن ذُنُوبكُم ما أستغفرتموه **وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** قال إبن عبّاس أي ينسىء في أعماركم و معناه أنّ اللّه تعالىٰ كان قضى أنَّهم إن آمنوا بارك في أعمارهم و إن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب.

قال مقاتل يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافيةٍ فلا يعاقبكم بالقحط و غيره و على هذا فالمعنى يؤخّركم عن العقوبات و الشَّدائد إلىٰ آجالكم.

أقول ما ذكروه في معنى الآية لا بَأس به والّذي يختلج بالبال واللّه أعلم أنّ الأجل على قسمين، مسمّىٰ، و غير مسمّىٰ، فالمسَّمىٰ هو الأجل الّذي ثبت

في اللُّوح المحفوظ فلا تقديم فيه و لا تأخير كما إذا قدَّر اللّه لزيد مثلاً أجلاً معيناً و هو سبعون سنة فإذا جاء أجله مات و قد يعبّر عنه بالأجل الحتمي الّذي.

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذا جآءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دآبَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**(٢).

و أمثال ذلك من الآيات كثيرة و هذا ممّا لا خلاف فيه.

أمّا غير المسمّىٰ فهو الأجل المشروط و ان شئت قلت هو الأجل المعلّق على الشَّرط و من الواضح أنّ المشروط لا يوجّد إلاّ بعد وجود شرطه و هذا كما ورد في الأخبار أنّ صلة الأرحام تزيّد في العمر و قتل الإبن أباه ينقص من عمره و هكذا الظُّلم الفاحش و القسم باللّه كذباً و معنىٰ ذلك أنّ اللّه تعالىٰ قدَّر مثلاً عمر زيد سبعين سنة مشروطاً بأن لا يكون قاتلاً لأبيه أو قاطعا لصلة أرحامه فلو قتل أبيه أو قطع صلة الأرحام ينقص من عمره من السبعين و هذا هو الأجل المتعلّق إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى** معناه إن تؤمنوا باللّه و رسوله و تتركوا عبادة الأصنام و الأوثان يؤخّركم اللّه إلى أجلٍ مسمّىٰ و هو الّذي ثبت في اللُّوح المحفوظ و كانت أعمارهم طوالاً و أمّا في صورة البقاء على الكفر والطُّغيان فيقطع اللّه أعماركم بنزول العذاب عليكم قبل حلول الأجل المسمّىٰ فلا يبقى منكم أحد و هذا كما نرىٰ أنّ اللّه أهلكهم بالطُّوفان فلم يبق منهم علىٰ الأرض ديّاراً فيظهر من الآية أنّ العذاب كان بسبب أعمالهم و من المعلوم الأجل المحتوم أو المعلّق المشروط لا تأخير فيه هذا ما خطر ببالي واللّه أعلم بما قال.

قالَ رَبِّ إِنّي دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلًا وَ نَهارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعآءِيَ إِلَّا فِرارًا

١- الاعراف = ٣٤ ٢- النّحل = ٦١

لمّا أمر اللّه نوح النَّبي بإنذار قومه قبل نزول العذاب على ما مرَّ بيانه.

قال أي قال نوح (رَبِّ) أي ربّي **إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا** بالتَّوحيد و ترك عبادة الأصنام و لم آل جهداً في ذلك و لكنّ القوم لم يقبلوا قولي بل لم يزدهم دعوتي إلى الحقّ إلاّ الفرار منه أي أصَّروا على كفرهم و عنادهم أكثر ممّا كانوا عليه قبل الدَّعوة.

فأن قُلت كيف يعقل أن تكون الدَّعوَة إلى الحقّ سبباً و علَّة للفرار منه و الإعراض عَنه.

قُلت هذا أمرٌ واضح معقول لا ينكره العقل السَّليم لأنَّ تأثير العلَّة في المعلول مشروطٌ بأن يكون المعلول قابلاً مستعدّاً للتّأثّر و أن لا يكون هناك مانع من التَّأثير و قد يعبّر عن هذه القاعدة بوجود المقتضى في العلّة و عدم المانع من التَّأثّر فى المعلول و هذه قاعدة عقليّة لا خلاف فيها عند العقلاء، كما قيل بالفارسيّة:

بر سيه دل چه سود خواندن وعظ　　　نـــرود مـيخ آهـنين در سَـنگ

و قال الآخر:

بارانى كه در لطافت طبعش خلاف نيست

در لاله زار، لاله رويد و در شورەزار خس

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**(٢) و أمثال ذلك من الآيات كثيرة.

وَ إِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِيٓ اٰذَانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا

١- الاسراء = ٩　　٢- البقرة = ٢

حكى اللّه تعالىٰ عن نوحٌ.

أنَّه قال: **وَ إِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ** أي دعوت قومي **لِتَغْفِرَ لَهُمْ** أي دعوتهم بترك الأصنام و عبادة اللّه لم يقبلوا منّي بل جعلوا أصابعهم في آذانهم لئّلا يسمعوا كلامي و دعائي **وَ ٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ** أي طلبوا ما يستترون به من الثَّياب و يختصّون به لئلاً يرون نوح النَّبي، و قيل معناه كانوا يسدُّون آذانهم و يغطون وجوههم لئّلا يسمعوا كلامه، فالإستغشاء طلب الغشي فلّما طلبوا التَّغشي بثيابهم فراراً من الدّاعي لهم كانوا قد إستغشّوا.

و قال إبن عبّاس إستغشوا ثيابهم، أي غطوا بها وجوههم لئّلا يروه و جعلوا أثوابهم على رؤسهم لئلاّ يسمعوا كلامه، فإستغشاء الثّياب زيادة في سدَّ الآذان حتّى لا يسمعوا أو لتنكيرهم أنفسهم حتّى يسكت، أو ليعرّفوه إعراضهم عنه و هو كناية عن عداوتهم و بغضهم و خبث طينتهم في قبول الحقّ كما يقال، لبس لي فلان ثياب العداوة **وَ أَصَرُّوا** على كفرهم و إلحادهم **وَ ٱسْتَكْبَرُوا** عن قبول الحقّ **ٱسْتِكْبَارًا** أي إستكبروا نوحاً من الإستكبار الّذي كان مختصّاً بهم، و ذلك لأنَّه لم يعرف من غيرهم من الكُّفار هذا النّوع من الإنكار و هو جعل الأصابع في الآذان و الإستغشاء بالثّياب لئّلا يسمعوا كلام الدّاعي و على هذا فكانوا من أخبث الكفّار و أشدّهم عداوةً للحقّ و لأجل ذلك أهلكهم اللّه بالطُّوفان و لم يبق منهم غير من تمسّك بنوح النّبي و ركب سفينته النَّجاة و هم قليلون و قد جعل اللّه تعالى لكُّل نبّيٍ في الأعصار و القرون سفينة النَّجاة لو كانوا يعلمون و هي متابعة النَّبي قَولاً و فعلاً و حيّاً و ميّتاً:

قال رسول اللّه ﷺ: مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجىٰ و من تخلّف عنها غرق.

أو هلك أي غرق في بحر الضّلالة و هلك في وادي العوامة و الشَّقاوة في الدُّنيا و الآخرة و ذلك هو الخسران المبين.

وأعلم أنّ في الآية إشارة إلىٰ نقطةٍ أخرىٰ و هى أنّ وجود المانع من تأثير العلّة في المعلول والّذي أشرنا إليه في القاعدة العقليّة تارةً يكون خارجاً عن قدرة العبد و ذلك إذا منعه مانعٌ من الخارج عن إستماع الكلام مثل أن يكون الإنسان محبوساً بأمر الحاكم الظّالم أو ممنوعاً عن ملاقاة النّبي و إستماع كلامه من قبل الظَّلمة ففي أمثال هذه الموارد لا ذنب للعبد بل الذّنب على الّذي منعه.

و تارةً أخرىٰ يكون المانع من العبد نفسه و هذا كقوم نوح فانّ جعل الأصابع في الأذان و إستغشاء الثّياب كان تحت إختيارهم لئلاّ سيمحوا كلام الحقّ و لذلك توجّه الذمّ عليهم لأنّهم بسوء سريرتهم أوجدوا المانِع.

و ملخصّ الكلام هو الفرق بين إيجاد المانع و وجوده كيف اتّفق و الى هذا اشاروا بقولهم الامتناع بالاختيار لا ينافى الاختيار فافهم ان كنت اهلاً له فافّة دقيقٌ.

ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا

اى انّى لم امتنع بدعوتهم مرة واحدة فى مكانٍ خاصّ بل دعوتهم جهاراً اى اعلاناً ثمّ انى اعلنت لهم اى اظهرت الدعاءِ لهم الى عبادتک تارةً و اسررت اى اخفيت لهم الدّعاء الى مثل ذالک كرةً اخرى و محصّل الكلام انّى لم آل جهداً فى دعوتهم بتوحيد سرّاً و علانية.

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا

اى فقولت لقومى استغفروا اى اطلبوا المغفرة من ربّكم من ذنوبكم الاتى ّذنبتموها قبل ذالك من عبادة الاصنام و انواع الظّلم **إِنَّهُ** اى ربّكم **كَانَ غَفَّارًا** للذّنب بعد التّوبة والغفّار مبالغة فى المغفرة اى انّه يغفر الذّنوب جميعاً فانّ الاسلام يجب ما قبله و المراد بلاستغفار ترک الكفر و الايمان باللّه و متابعة الرّسول فيما يدعُوهم اليه.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا

ای کثیرة الدرور بالغیث والمَطَر.

و قال بعض المفسّرین انّهم کانوا قحطوا واجدبوا و هلکت اولادهم و مواشیهم فلذالك رغّبهم نوح النبّی فی ترک ذالك بالرّجوع الی اللّه والدرور تجلب الشّیی حالاً بعد حال علی الاتّصال و المطر الکثیر الدّرور مدراراً و قیل **مِدْرَارًا** ذاغیث کثیر قال الشاعر:

اذا کان السماء بارض قوم رعیناه و ان کانوا غضابا

والّذی یخطر بالبال فی الآ یتلق انّ الآیة الاولی للاخرة و الثّانیة للدّنیا فی دعاء نوح النبّی ای ان تتوبوا الی اللّه یغفر اللّه لکم فی الاخرة و یرسل السّماء علیکم مدراراً فی الدّنیا بنزول البرکات السّماویة و من کان کذالك فقد جمع بین الدّنیا و الآخرة و ذالک هو الفوز العَظیم.

وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّٰتٍ وَ يَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا

و الواو للعطف فهذه الآیة معطُوفة علی ماقبلها، ای ان تستغفروا ربّکم و تؤمنوا به **يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَ بَنِينَ** فالامداد الحاق الثّانی بالاوّل و هو عبارة عن النصرة بعد النصرة علی النّظام حالاً بعد حال، و البنون جمع ابن و هو الذّکر من الولد و المعنی انّ اللّه تعالی یغنیکم و یزیدکم فی المال و الاولاد و انّما خصّ المال و الولد بالذکربین النعّم لانّهما الاصل فی النّعم و لذالك:

قال الله تعالی: **ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**(۱).

وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّٰتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَٰرًا امّا انّ اللّه تعالی یَجعَل لَهُم جنّات و انهار ففی معناه احتمالان:

احدّهما: ان یکون المراد بالجنّات معناها اللغوّی و هو البستان و بالانهار انهار الماء و علی هذا فهو من نعم الدُّنیا.

۱- الکهف = ۴۶

الثانى: ان يكون المراد بالجنّات الآخرة و بالانهار المياه الجارية فيها كما:

قال اللّه تعالى: **جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ**.

و المعنى الثّانى احسن لانّ الاحتمال الاوّل داخل تحت قوله: **بِأَمْوٰالٍ** بخلاف الثانى و الجمع هما امكن اولى من الطّرح و فضل اللّه ليس له حدٌّ واللّه اعلم و اليه اى الجمع اشار الشاعر حيث قال:

وآخـــر فـــاز بكـــلتيهما   قـد جَـمع الدُّنـيا مـع الآخـرة

مٰا لَكُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰارًا، وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوٰارًا

لما بيّن نوح النبىّ لهم ما يترتّب على الايمان فى الدنّيا و الآخرة قال لهم على وجه التبكيت **مٰا لَكُمْ** اى ایُّ شيّى لكم معاشر الكفار **لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰارًا** اى عظمة و قيل الرّجاء فى المقام بمعنى الخوف اى مالكم لاتخافون للّه عظمة و قدرة على احدكم بالعقوبة و قيل معناه مالكم لاترجون للّه ثواباً و لا تخافون له عقاباً.

أقول قال في لسان العرب الوقار الحلم والرَّزانة و قال في المجمع الوقار كسحاب الحِلم و الرَّزانة و السَّكينة و السُّكون و هو مصدر، و قرء بالضمّ، و التّوقير التّعظيم و فيه السَّكينة و الوقار و قوله تعالىٰ: **مٰا لَكُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰارًا** أي مالكم لا تخافون للّه عظمة من وقر بالضمّ أي عظم إنتهىٰ.

و على هذا فقوله: **لاٰ تَرْجُونَ** معناه لا تخافون و هو أحَد الإحتمالات في معنى الآية و عليه أكثر المفسّرين.

قال بعض المفسّرين ممَّن عاصرناه في تفسيره لهذه الآيـة مـا هـذا لفظه و الحقّ أنّ المراد بالرّجاء معناه المعروف و هو ما يقابل الخوف و نفيه كناية عن اليأس فكثيراً ما يكنّى به عنه يقال لا أرجوا فيه خيراً أى أنا آيسٌ من أن يكون فيه خير، والوقار الثّبوت و الإستقرار و التّمكّن و هو الأصل في معناه كما صرَّح به في المجمع و وقاره تعالى ثبوته و إستقراره في الربوبيّة المستتبع لألوهـيّته و

معبوديّته كأنّ الوثنييّن طلبوا ربّاً له وقار في الرُّبوبية يعبدوه فيئسوا منه تعالىٰ فعبدوا غيره و هو كذلك فانّهم يرون أنّه تعالىٰ لا يُحيط به أفهامنا فلا سبيل للتوجّه العبادي إليه و العبادة أداءٌ لحقّ الرُّبوبيّة الّتى يتفرّع عليها تدبير الأمور و تدبير أمور العالم مفوَّضٌ إلىٰ أصناف الملائكة و الجنّ فهم أربابنا الّذين يجب علينا عبادتهم ليكونوا شفعاء لنا عند اللّه و أمّا هو تعالىٰ فليس له الإيجاد، إيجاد الأرباب و بربوبيّتهم جميعاً دون التّدبير.

و ساق الكلام إلىٰ أن قال و محصّل الحجّة ما الّذي دعاكم إلى نفي ربوبيّته تعالىٰ المستتبع للألوهيّة واليأس عن وقاره و أنتم تعلمون أنّ اللّه تعالى خلقكم و خلق العالم الّذي تعيشون فيه طوراً من الخلق لا ينّفك من هذا النّظام الجاري فيه إنتهى ما أردنا نقله عنه.

و هو أعلم بما قال فانّي بعد التّأمل في كلامه لم يظهر لي ما ناسب معنى الآية ولسنا فعلاً بصدد التّعرض للنّقض و الإبرام في كلمات المفسّرين فانّهم بذّلوا جهدهم بقدر الإستطاعة و نحن أيضاً نذكر لك ما خطر ببالنا في معنى الآية و نجعلك قاضياً بين الأقوال فنقول.

لمّا هدَّد نوح النّبي قومه بالعذاب إن لم يؤمنوا باللّه بترك عبادة الأوثان و بقاءهم على الكفر طلبوا منه العذاب الموعود مرّةً بعد مرّةٍ و استعجلوا به و قالوا له فأئت بما تعدنا إن كنت من الصّادقين قال لهم **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**، و الوقار الحلم والرّزانة والسَّكينة والجامع بينهما التّأني في الأمور و عدم التَّعجيل فيها و على هذا فمعنى الآية ما بالكم أو أيُّ شئٍ لكم تستعجلون بالعذاب من اللّه و لا ترجون للّه وقاراً في أفعاله فأنّ الأمور مرهونة بأوقاتها واللّه تعالى أعلم بما يفعل في وقته من المصلحة و لعلَّ المصلحة إقتضت تأخير العذاب كما هو كذلك في قصّة نوح و قومه فانّه تعالى بعد إجابته دعوة نوح أمهلهم مدّة كثيرة فنزّل عليه جبرئيل و قال له انّ اللّه قد أجاب دعوتك فقل لشيعتك المؤمنين أن يغرسوا نوىٰ التّمر حتّىٰ إذ أثمر إن شئت فرجت

عنكم فشكر نوح ربّه و حمده و عرَّف شيعته بما أمروا به فإستبشروا بذلك و غرسوا النّوىٰ و الكفّار يمرُّون بهم فيسخرون منهم، ثمّ أنّه لمّا بلغ النَّخل و أثمر أتوا نوحاً و سألوه أن ينجز لهم الوعد بالعذاب فناجى ربّه فأوحى إليه أن يأمر قومه أن يغرسوا النّوىٰ ثانية و بعد أن يثمر فرج عنهم فلمّا بلَّغهم نوح ذلك إرتدّ ثلث أصحابه عن دينه و رجعوا إلىٰ كفرهم ظنّاً منهم أنّ نوحاً قد أخلف وعده، و غرس الباقون النّوىٰ حتّىٰ إذا أثمر أتوا نوحاً و طالبوه بالوعد فناجىٰ نُوح ربّه في ذلك وعاد إليه الوحي مرّةً أخرىٰ في جوابه بأن يأمر قومه بغرس النّوىٰ ثالثة و أنّما يكون بتنجيز الوعد لهم بالفرج بعد حصول الثّمر بالثّالثة و لمّا بلَّغهم نوح ذلك إرتَّد أيضاً من شيعته ثلثٌ أخر إلىٰ الكفر و لم يبق منهم إلاّ المصفّى النّقى الخالص منهم و هو الثُّلث الأخير فغرسوا النّوى و لمّا أدرك النَّخل و أثمر أقبل إليه المؤمنون الخلَّص الباقون من أصحابه وقالوا له يا نبيّ اللّه نحن لا نشكّ في أنّك صادق مرسل فعلت ما وعدت و لم تفعل فاسأل ربّك بتنجيز الوعد فأنّه لم يبق منّا إلاّ القليل فتوجّه نوح الىٰ ربّه و ناجاه فقال ياربّ لم يبق من أصحابي إلاّ هذه العاصبة و انّي أخاف عليهم الهلاك إن تأخّر الفرج عنهم فعند ذلك أجابه اللّه في دعوته فأوحى إليه أنّ الآن أسفر الصُّبح عن اللّيل حتّى صرح الحقّ عن محضه و صفي الكدر بإرتداد من كان خبيثاً و أنّي كنت أعلم جعف يقين الّذين إرتدّوا بسوء سرائرهم و انّي لو كنت أنزلت العذاب على كفّار قومك و أهلكتهم منذ أوّل مرّةٍ و أبقيت هؤلاء المرتدّين كما كنت صدقت وعدي السّابق للمؤمنين المخلصين في التّوحيد من قومك المعتصمين بحبل نبوّتك فانّي وعدتهم أن أستخلصهم خاصّة في الأرض و أمكّن لهم دينهم و أبدل خوفهم بالأمن ثمّ أمر اللّه نوحاً حينئذٍ بعمل السَّفينة و أعلم اللّه قومه فلبثوا أربعين سنة لا يولد لهم فأصابهم في تلك المدّة قحطٌ شديدٌ و هم لا يزدادون إلاّ كفراً و عناداً إلىٰ أن تعلّقت المشيّئة القاهرة بإنزال العذاب عليهم.

إذا عرفت هذا التّأني من اللّه تعالىٰ في إنزال العذاب عليهم فاعلم أنّ اللّه تعالىٰ لا يستعجل بالعذاب على عباده إلاّ بعد إمهالهم مدّةً لا يعلمها إلاّ اللّه و ذلك لإتمام الحجّة عليهم و لا نَعني بالوقار إلاّ هذا و عند ذلك قال نوح لقومه الّذين كانوا يستعجلون بالعذاب **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** أي مالكم تحملون تأخير العذاب على كذبي بما وعدتكم من نزول العذاب و لا تحملونه علىٰ وقار اللّه و حلمه و أنّه أمهلكم بتأخير العذاب عنكم لعلّكم ترشدون إلىٰ الحقّ ألا ترون أنّه خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام مع أنّه كان قادراً علىٰ خلقها في لحظةٍ واحدة ثمّ إستدلّ نوح النّبي علىٰ إثبات الوقار للّه تعالىٰ بقوله: **وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** أي طوراً بعد طورٍ والأطور إنتقال الأحوال حالاً بعد حالٍ و قيل معناه صبيّاً ثمّ شابّاً ثمّ شيخاً و قيل نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة، مع أنّ اللّه كان قادراً على خلق البشر دفعةً واحدة بغير الأحوال من حالٍ إلىٰ حالٍ كما خلق أدم و عيسى إبن مريم فإذا كان الوقار والتّأني في الخلق و الإيجاد مطلوباً معقولاً فكيف لا يكون كذلك في إنزال العذاب علىٰ خلقه الّذي خلقه.

و محصّل الكلام في الأيتين أنّ اللّه تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد على أساس المصلحة الّتى لا يعلمها إلاّ هو و هو دليل علىٰ حكمته و عنايته و لطفه لا على عجزه و ضعفه هذا ما خطر ببالي في تفسير الآية و لا أحكم ببطلان ما ذكره المفسّرُون في تفسيرها فأقض ما أنت قاض واللّه تعالىٰ أعلم بالصّواب ثمّ قال تعالىٰ:

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِبَاقًا

الخطاب في هذه الآية بعدها لجميع المكلّفين و الإستفهام للإنكار أي أنكم ترون كيف خلق اللّه سبع سمواتٍ طباقاً، أي طبقة فوق طبقة و منزلةٌ فوق منزلة، و نصب (**طِبَاقًا**) على أنّه نعتٌ لقوله: **سَبْعَ سَمٰوٰتٍ** و قيل تقديره (و جعلهنّ طباقاً) و قد مضىٰ الكلام في هذا المعنىٰ.

وَ جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا

الواو للعطف، أي ألم تروا كيف **جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ** أي في السّموات **نُورًا وَ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا** أي مصباحاً لأهل الأرض في الآية دلالة علىٰ أنّ نور القمر و جعل الشّمس سراجاً، كلاهما مجعولان من اللّه تعالىٰ لا من قبل ذاتهما و هو كذلك و أنّما قال في القمر نوراً، و فى الشّمس سراجاً، لأنّ نور القمر من الشّمس فالشّمس بمنزلة السّراج و المصباح الّذي هو مركز النُّور و الأقمار و الكواكب المضيئة نروها منشعبة من نور السّراج فهي أي الأقمار حول الشّمس بمنزلة الشُّموع حول السّراج و الحاصل أنّ الأصل فيها هو الشّمس.

وَ ٱللَّهُ أَنۢبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا

الإنبات إخراج النَّبات من الأرض حالاً بعد حالٍ و النّبات هو الخارج بالنّمو حالاً بعد حالٍ، والمعنى أنّ اللّه تعالىٰ مخرجكم من الأرض كما أخرج النّبات منها و فيه إشارة إلىٰ أنّ البشر مخلوقٌ من الأرض و هو كذلك لقوله تعالىٰ:

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ[١].

و أنّما سمّي أدم به لأنّه خُلق من أديم الأرض و قد مضىٰ الكلام فيه في سورة البقرة و غيرها، و قوله: **نَبَاتًا** يفيد النّوعية أي أنبتكم من الأرض نوعاً خاصّاً مختصّاً بكم و ذلك لأنّ الإنسان يتغذّى في معيشته ممّا ينبت من الأرض من أنواع النّبات مثل الحنطة والشّعير و الأرز و أنواع الفواكه و يصير ذلك في بدنه نطفة ثمّ تصير علقة ثمّ تصير العلقة مضغة ثمّ تصير المضغة إنساناً فتبارك اللّه أحسن الخالقين فالإنسان ينبت من الأرض في الحقيقة بعد طيّ المراحل بخلاف النّباتات إذ لا مرحلة فيها و لذلك قال تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا**.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا

١- طه = ٥٥

أي ثمّ يعيدكم في الأرض بعد الموت فأنّ الأبدان بعد الموت تدفن في الأرض ثمّ يخرجكم يوم البعث أي يحيكم بعد الموت بإخراج أجسادكم من القبور إخراجاً خاصّاً مختصّاً بكم كما قال تعالى في الإنبات فقوله إخراجاً أيضاً يفيد النّوعية فأنّ إخراج الأبدان من القبور ليس مثل إخراج النّباتات من الأرض كما أنّ إنباته غير إنبات النّباتات و ذلك لأنّ خروج الإنسان من القبر في زمانٍ معيّن لا يعلمه إلاّ اللّه و ليس خروج النّبات كذلك.

ثانياً: أنّ خروج الإنسان من القبر لأجل الحساب والجزاء من الثّواب و العقاب و ليس خروج النّبات كذلك فتحصّل من الأيتين أنّ إنبات الإنسان و إخراجه من الأرض نوعٌ خاصّ و هو المطلوب.

وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا

أي أنّ اللّه تعالىٰ جعل لكم الأرض مبسوطة حتّىٰ يمكنكم المشي عليها و الإستقرار فيها لتسلكوا منها، أي من الأرض **سُبُلًا فِجَاجًا** فالسُّبل جمع سبيل و الفجاج جمع فجّ، و هى الطّريقة المتّسعة المتفرّقة و قيل طرقاً مختلفة، و قيل، الفجُّ المسلك بين الجبلين، و قد منَّ اللّه تعالىٰ بهذه الضُّروب من النِّعم على خلقه تنبيهاً لهم على إستحقاقه المعبوديّة و أنّه عالمٌ بمصالح خلقه و مدبّرٍ لهم على ما تقتضيه الحكمة فيجب أن يشكروه على هذه النِّعم فانّ شكر المنعم واجب عقلاً يقابلونها بالكفر و الجحود و أن لا يشركوا به شيئاً لو كانوا يعلمون.

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ ٱتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَ وَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا

لمّا بالغ نوح النّبي في إرشاداته و دعاهم إلىٰ التّوحيد سرّاً و جهاراً و لم يؤمنوا به كما عرفت صار مأيوساً منهم فقال: **رَبِّ إِنَّهُمْ** أي القوم (عَصَوني) أي خالفوني و أذوني و إستهزؤا بي و اتّبعوا من لم يزده ماله و ولده، و هو

الأصنام و الأوثان **إِلَّا خَسَارًا** أي خسراناً و ضرراً في الدّارين كما هو مقتضیٰ عبادة الأوثان و الشّرك باللّه فأنّ نتيجة ذلك ليست إلاّ الخسران في الدُّنيا و الأخرة.

وَ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا

فالمكر الفتل بالحيلة الخفيّة إلىٰ خلاف الحجّة و الجهة الموافقة بما فيها من المضَّرة والكبّار الكبير و المعنى أنّهم مكروا مكراً عظيماً.

و قال المبّرد الكبّار بالتشدّيد المبالغة قيل كان مكرهم تحريصهم سفلتهم على قتل نُوح، و قيل هو تعزيرهم النّاس بما أوتوا من الدُّنيا والولد حتّى قالت الضَّعفة لولا أنّهم علىٰ الحقّ لما أوتوا هذه النِّعم.

و قال الكلبي هو ما جعلوه للّه من الصّاحبة والولد، و قيل مكرهم كفرهم و الإحتمالات كثيرة والكلّ محتمل واللّه أعلم.

وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ اٰلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُواعًا وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا

و قالوا، أي هؤلاء الكفّار بعضهم لبعضٍ **لَا تَذَرُنَّ اٰلِـهَتَكُمْ** أي لا تتركوا عبادة أصنامكم **وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُواعًا** هما صنمان كانوا يعبدونهما فكانت **وُدّ** بضمّ الواو و تشدّيد الدّال صنمٌ لكلب و **سُواع** بضمّ السّين صنمٌ لهمدان و **يَغُوث** بضمّ الغين المعجمة، لمذهج، و **يَعُوق** بضمّ العين المهملة لكنانة و نَسراً لحمير علىٰ قول قتادة.

قال إبن عبّاس هي أصنام و صور كان قوم نُوح يعبدونها ثمّ عبدتها العرب و هذا قول الجمهور و قيل أنّها للعرب لم يعبدها غيرهم وكانت أكبر أصنامهم و أعظمها عندهم فلذلك خصُّوها بالذّكر بعد قوله تعالىٰ: **لَا تَذَرُنَّ اٰلِـهَتَكُمْ** و يكون معنىٰ الكلام كما قال قوم نوح لأتباعهم **لَا تَذَرُنَّ اٰلِهَتَكُمْ** فأنّ العَرب قالت لأولادهم و قومهم لَا تَذَرُنَّ وَدًّا و لا سواعاً و لا يغوث و لا يعوق نَسراً.

أقول نقل القُرطبي في تفسيره لهذه الآية بعد ذكر ما نَقلناه من عُروة بن الزّبير و غيره إشتكى آدم عليه السّلام و عنده بنوه، ودّ، و سواع و يغوث، و يعوق و نسر و كان (وُدّ) أكبرهم و أبرّهم به و عن محمّد بن كعب كان لأدم عليه السلام خمس بنين، وُدّ، و سواع، و يغوث، و يعوق، و نسرٌ و كانوا عبّاداً فمات واحد منهم فحزنوا عليه فقال الشّيطان أنا أصوّر لكم مثله إذا نظرتم اليه ذكرتموه قالوا إفعل فصوّره في المسجد من صغرٍ و رصاصٍ ثمّ مات آخر فصوَّره حتىٰ ماتوا كلّهم فصَّورهم الى أن تركوا عبادة اللّه بعد حينٍ فقال لهم الشّيطان مالكم لا تعبدون شيئاً قالوا ما نعبدُ قال آلهتكم وآلهة آباءكم ألا ترون في مصلّاكم فعبدوها من دون اللّه حتّى بعث اللّه نوحاً فقالوا: **لَا تَذَرُنَّ اٰلِهَتَكُمْ** ثمّ أطال الكلام في هذا المعنىٰ و الإنصاف أنّ ما ذكره لا يعتمد عليه فانّها فالقصص و الأساطير أشبه أن شئت الوقوف عليه فعليك بكتابه.

و الحقّ في المقام ما ذكره أهل البيت عليهم السّلام.

فعن كتاب علل الشّرائع بأسناده الىٰ جعفر بن محمّد عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ اٰلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُوَاعًا وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا قال عليه السلام: كانوا يعبدون اللّه عزّ وجلّ فماتوا فضجّ قومهم فشقّ ذلك عليهم فجاءهم إبليس لعنه اللّه فقال لهم أتّخذ لكم أصناماً علىٰ مثالهم فكانوا يعبدون اللّه عزّ و جلّ و ينظرون الىٰ تلك الأصنام فلمّا جاءهم الشّتاء و الأمطار أدخلوا الأصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون اللّه عزّ وجلّ حتّىٰ هلك ذلك القرن و نشأ أولادهم فقالوا أنّ آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم مِن دون اللّه عزّ وجلّ فذلك قول اللّه تعالىٰ: وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُوَاعًا إنتهىٰ.

وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ لَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا

يقول نوح النّبي **وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا** أي خلقاً كثيراً أي أضلّ كبراؤهم كثيراً من أتباعهم و علىٰ هذا فهو عطف علىٰ قوله: **وَ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**(١) و قيل أنّ الأصنام أضَلّوا كثيراً، أي ضلَّ بسببها كثير فأجرىٰ عليهم وصف ما يعقل و قيل أنّما جعل الأصنام بالواو لما أسنَد اليها ما يسند الىٰ العالم من إستحقاق العبادة.

و قوله: **وَ لَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا** أي و لا تزد الظّالمين إلاّ عذاباً سمّي العذاب كقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ**(٢).

قال صاحب الكشّاف قوله: **وَ لَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا** معطوف على قوله: **رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي** فعلىٰ هذا التّاء في قوله: **وَ لَا تَزِدِ** لِلخطاب و المخاطب هو اللّه تعالىٰ و هو دُعاء علىٰ قومه يقول نُوح في مقام الدُّعاء عليهم **لَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا** أي عذاباً و الجمهور أخذوا بهذا القول الحقّ:

مِمَّا خَطِيٓـٰٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَنْصَارًا

ما صلة مؤكّدة و تقدير الكلام من خطاياهم أو من خطيئاتهم **أُغْرِقُوا** بالطّوفان علىٰ وجه العُقوبة **فَأُدْخِلُوا** بعد ذلك **نَارًا** أي نار جهنّم ليعاقبوا فيها **فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ** أي لأنفسهم **مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَنْصَارًا** من الأصنام الّتى عبدوها في الدُّنيا.

وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا

قيل ما دعا نوح عليهم بهذا الدُّعاء إلاّ بعد ما تَبيَّن له أنّ قومه لا يؤمنون و ذلك بعد ما أنزل اللّه تعالىٰ عليه **أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**(٣) فلمّا أنزل اللّه عليه ذلك دعا عليهم بما دعا و قال: **رَبِّ** أي ربّي لا تذر أي لا تترك

١- نوح = ٢٢ ٢- القمر = ٤٧
٣- هود = ٣٦

من هؤلاء القوم علىٰ الأرض ديّاراً، و **الّديار** بفتح الدّال فيعال من الدَّوران أي لا تذر منهم من يدور علىٰ الأرض بالذّهاب و المجئ، و **الديّار** أصله، ديوار (فيعال) فقلبت الواو و أدغمت أحداهما في الأخرىٰ.

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِرًا كَفَّارًا

إستدلّ نُوح علىٰ إثبات دعاءه بقوله: **إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ** أي تتركهم و لا تهلكهم **يُضِلُّوا عِبادَكَ** عن طريق الحقّ بالإغواء والدُّعاء الىٰ خلافه **وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِرًا كَفَّارًا** الفاجر من فجر الفجور و هى الكبيرة الّتى يستحقّ بها الذّم والكفّار من أكثر من فعل الكفر لانّه مبالغة و كافر يحتمل القليل و الكثير.

رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبارًا

التّبار الهلاك دعا نوح النّبي لبعضٍ و دعا علىٰ بعضٍ آخر فقال فيمن دعا له **رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ** و هما أبوه و أمّه **وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا** قيل المراد بالبيت مسجده و مصّلاه مؤمناً أي مصدّقا باللّه، و قيل أراد سفينته.

و من المعلوم أنّ ذلك على وجه الإنقطاع اليه تعالى لأنّ النّبي لا يفعل معصية يستحقّ بها العقاب و أمّا والداه و المؤمنون و المؤمنات فلا يبعد أن يكون بينهم عصاة محتاجة الىٰ الإستغفار **وَ لا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبارًا** فهذا مِمّن دَعا عليه فأنّ الظّالم يستحقّ بذلك قال تعالىٰ: (ألا لَعنة اللّه علىٰ الظّالمين) هذا تمام الكلام في سُورة نُوح و لا يخفىٰ علىٰ المتدّبر فيها ما فيها من المواعظ.

■

سُورَةُ ٱلْجِنِّ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا
إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ
فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَ أَنَّهُ تَعَالٰى
جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَاحِبَةً وَ لَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَ أَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللّٰهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَ أَنَّا
ظَنَنَّآ أَنْ لَنْ تَقُولَ ٱلْإِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا
﴿٥﴾ وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا
ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللّٰهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَ أَنَّا لَمَسْنَا
ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا
﴿٨﴾ وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ
يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَ أَنَّا لَا
نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ
رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَ أَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ
ذٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَ أَنَّا ظَنَنَّآ أَنْ لَنْ
نُعْجِزَ ٱللّٰهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَ

أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا
يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿۱۳﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ
وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟
رَشَدًا ﴿۱۴﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا
﴿۱۵﴾ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم
مَّآءً غَدَقًا ﴿۱۶﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن
ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿۱۷﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿۱۸﴾ وَأَنَّهُۥ
لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿۱۹﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿۲۰﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا
﴿۲۱﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ
مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿۲۲﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَ
رِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿۲۳﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا
يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ
عَدَدًا ﴿۲۴﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ
يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿۲۵﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ
عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿۲۶﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ
فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا
﴿۲۷﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ
بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿۲۸﴾

◀ اللّغة

جَدُّ رَبِّنَا: يقال فلان جدَّ في قومه إذا عظم فيهم و قيل الجدّ الحَظ.
شَطَطًا: الشّطط الظّلم و الخروج عن الحقّ.
يَعُوذُونَ: العياذ الإعتصام.
رَهَقًا: أي إثماً و طغياناً.
شُهُبًا: شهب بضمّتين جمع شهاب و هو نور يمتدّ من السّماء من النّجم.
بَخْسًا: البخس النّقص (رَقعاً) أي ظلماً.
غَدَقًا: أي كثيراً و الغدق بفتح الدّال المصدر و بكسرها إسم الفاعل.
لِنَفْتِنَهُمْ: أي لنختبرهم فالإفتنان الإختبار.
صَعَدًا: أي متصدِّعاً في العظم.
مُلْتَحَدًا: أي ملتجأ إليه.
أَمَدًا: الأمد الغاية.

◀ الإعراب

شَطَطًا نعت لمصدر محذوف أي قولاً شططاً و كذلك كَذِبًا أي قولاً كذباً رَصَدًا أي مرصداً أو ذا إرصادٍ أَشَرٌّ فاعل فعل محذوف أي أريد شرّ و هَرَبًا مصدر في موضع الحال لِبَدًا بكسر اللاّم جمع لبدة و يقرأ بضمّ اللاّم و فتح الباء و هو نعت للمبالغة.

◀ التّفسير

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا

قلنا فيما مضى مراراً أنّ الإيحاء إلقاء المعنى إلى النّفس خفيّاً كالإلهام و إنزال الملائكة لخفائه على النّاس إلاّ على النّبي الّذي أنزل اليه و المراد به

هاهنا انزال الملك به عليه ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ ما أوحى إلى رسوله فقال: **أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ** و الإستماع طلب الصّوت بالإصغاء إليه إذا عرفت هذا فنقول.

روي الطّبري في تفسيره عن إبن عبّاس أنّه قال ما قرأ رسول اللّه على الجنّ و لا رآهم، إنطلق رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في نفرٍ من أصحابه عامدين إلىٰ سوق عكاظ قال و قد حيل بين الشياطّين و بين خبر السّماء و أرسلت عليهم الشّهب فرجعت الشّياطين إلىٰ قومهم فقالوا مالكم حيل بيننا و بين السّماء و أرسلت علينا الشُّهب فقالوا ما حال بينكم و بين خبر السّماء إلاّ شئٌ حدث قال فأنطلقوا فأضربوا مشارق الأرض و مغاربها فأنظروا ما هذا الّذي حدث قال فأنطلقوا يضربون الأرض مشارقها و مغاربها يتتبعون ما هذا الّذي جال بينهم و بين خبر السّماء قال فأنطلق النّفر الّذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بنخلةٍ و هو عامدٌ الىٰ سوق عكاظ و هو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر قال: فلمّا سمعوا القرآن إستمعوا له فقالوا هذا واللّه الّذي حال بينكم و بين خبر السّماء قال فهنالك حين رجعوا الىٰ قومهم فقالوا يا قومنا إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرُّشد فآمنّا به و لن نشرك بربنا أحداً قال: فأنزل اللّه علىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم: **قُل أوحي الّي أنّه إستمع نفر مِن الجنّ** و إنّما أوحي إليه قول الجنّ إنتهىٰ ما ذكره الطّبري.

ثمّ أنّ الجنّ بكسر الجيم و تشدّيد النُّون جيلٌ رقاق الأجسام خفّية علىٰ صور مخصوصة الملائكة و النّاس و هو مخلوق من النّار أي زاد الجنّ الإنس و حقّاً، أي خطيئةً و اثماً فأنّ الإثم في كلام العرب كما قال الأعشمي:

لا شى ينفعنى من دون رؤيتها هل يشتفى وامقٌ مالم يصب رهقاً

و المقصود من الآية أنّ التعوُّذ ينبغي أن يكون باللّه الّذي خلق الجنّ لأنّ الإنس زادوا الجنّ طغياناً و كفراً بهذا التّعوذ حتّىٰ قالت الجنّ سدنا الإنس و الجنّ و لا خفاء انّ الإستعاذة بالجنّ دون الإستعاذة باللّه كفرٌ و شركٌ واللّه أعلم.

يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا

هذه الآية حكاية عن قول الجنّ و ذلك انّهم لمّا استمعوا القرآن قالو **يَهْدِيٓ** اى هذا القرآن يهدى النّاس الى مافيه الرّشاد الى الحقّ **فَـَٔامَنَّا بِهِۦ** اى بالقرآن و انّه كلام اللّه **وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا** اى لانتّخذ له شريكاً فى العبادة فلانعبد غيره ابداً.

وَ أَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَ لَا وَلَدًا

و المعنى انّ اللّه تعالى يعلوا شانه و يعلم قدره يقال جدّ خلاف فى قوله اذا عظم فيهم و من المعلوم انّ العظمة للّه تعالى و حده و ماسواه حقّه فى جنب عظمته **مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَ لَا وَلَدًا** ما، نافية اى ليست له تعالى **صَٰحِبَةً وَ لَا وَلَدًا** لانّ اتّخاذ الصّاحبة من شئون الجسم و هكذا الولد واللّه تعالى منزّه عن شوائب الامكان و قد قر الكلام فى الباب و سيأتى البحث فيه مفصّلاً فى سورة التّوحيد.

وَ أَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا

من كسر الهمرة استانف و من فتحهما عطف على قوله: **وَ أَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا** قيل ارادوا بقولهم: **سَفِيهُنَا** ابليس لانّه كان من الجنّ والشطط السّرف فى ظلم النّفس و الخروج عن الحق و فى قولهم هذا اعتراف منهم بانّ ابليس كان يخرج عن الحلة بما يرى به الخلق و يدعوهم الى الظّلال و قيل المراد بقولهم: **سَفِيهُنَا** هو المشركون من الجنّ.

قال قتّادة عصى اللّه سفير الجنّ كما عصاه سفير الانس والشطط الغلّو فى الكفر و قيل هو الجور الحاصل انّ الجنّ الّذين استمعوا القرآن اقروا بالتّوحيد بعد استعماعهم القرآن و حكموا بانّ القول باتّخاذ الولد والصاحبة و غير ذالک ممّا لايليق بشأنه تعالى من السّفهاء والحمقاء و هذا القدر يكفى فى اثبات ايمانهم ثمّ قالوا:

وَ أَنَّا ظَنَنَّآ أَنْ لَنْ تَقُولَ ٱلْاِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا

فيه اخبار باعترافهم بانّهم ظنّوا ان لا يقول **ٱلْاِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا** و كلمة **لن** لنفى الابد اى ظننّا ان لن تقول ذالك ابداً و ذالك لانّ الكذب على اللّه من اقبح القبائح و اكبر الكبائر و لمّا ظننّا ذالك فى حقّهم صدّقناهم ى قولهم انّ اللّه صاحبة و ولداً و يظهر من هذا الكلام انّهم اعنى القائلين بهذا القول كانو قبل استماعهم القرآن من المشركين القائلين بانّ اللّه تعالى صاحبة و ولد فلمّا سمعوا كلام اللّه و آمنوا به اعتذروا عن كفرهم السّابق بانّا ظنّنا عدم الكذب على اللّه فى حقّهم و لذالك صدّقناهم و كفرنا باللّه و قرأ يعقوب و احجدرى و ابن اسحاق «أَنْ لَنْ تَقَّولَ» والمعنى واحد قيل انقطع الاخبار عن الجنّ قناهم و على هذا.

وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْاِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا

هو اخبار من اللّه تعالى عن نفسه دون الحكاية عن الجنّ فالعوذ الاعتصام و منه قوله «اعُوذ باللّه» اى اعتصم به و معنى الآية انّ رجالاً من النس كانوا يقتصمون برجال من الجنّ.

قال قتادة و مجهد كان الرّجل من العرب اذا نزَل الوادى فى سفره قال اعوذ بعزيز هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه و معنى **يَعُوذُونَ** يستجيرون.

قال مقاتل اوّل من كان تعوذ بالجنّ قوم من اهل اليمن ثمّ من بني حنيفة ثمّ مشا دالك فى العرب فلمّا جاء الاسلام عاذوا باللّه و تركوهم و قال ابن ابى السّابت خرجتُ مع ابى الى المدينة اوّل ما ذكر النّبى ﷺ فاونا المبيت الى راعى غنم فلمّا انتصف الليّل جاء الثب فحمل حملاً من الغنم فقال الرّاعى يا عامر الوادى اذا جارک فنادای منادٍ يا سرجان ارسله فاتى الحمل يشدّ و انزَل اللّه الى رسوله بمكة **وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْاِنْسِ** و معنى فزادوهم اى زاد الجنّ الانس رهقاً اى خطيئتهً و اثماً فانّ الرّهق الاثم فى كلام العرب كما قال الاعشى:

لاشيي يـنفعني مـن دون رؤيـتها هل يشتفى وامقٌ مالمنصيب رهقاً

و المقصود من الآية انّ التعوذ ينبقى ان يكون باللّه الّذى خلق الجنّ و ذالك لانّ الانس زادوا الجنّ طغياً و كفراً بهذا التّعوذ حتى قالت الجنّ شـدنا الانس و الجنّ و لا خفاء انّ الاستعاذة بالجنّ دون الاسـتعاذة بـاللّه كـفرٌ و شـرک و اللّـه اعلم.

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا

حكى اللّه تعالىٰ عَن الجنّ و قال: **أَنَّهُمْ** أي الجنّ **ظَنُّوا** و حسبوا **كَمَا ظَنَنْتُمْ** معاشر النّاس (**أن لن يبعث اللّه يوم القيامة للحساب والجزاء علىٰ الأعمال أحداً، فأنكروا البّعث كما أنكرتموه**) و يظهر من هذه الآية أنّ الجنّ منهم كافرٌ و منهم مؤمنٌ باللّه و هو دليل علىٰ أنّهم مكلّفون والرّسول مبعوث إليهم كما أنّه مبعوث إلينا و هذا من عقائد المسلمين و يدلّ عليه الإجماع و الكتاب و السُّنة و العقل.

وَ أَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا

حكى اللّه عنهم أي عن الجنّ أنّهم قالُوا: **وَ أَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ** للمسّ المسّ باليد أي إنّا مسسنا السّماء بأيدينا أي طلبنا الصُّعود إلى السّماء فـعبّر عـن ذلك باللمسّ مجازاً، و قيل إنّا طلبنا خَبرها كـما جـرت عـادتنا بـه **فَـوَجَدْنَاهَا** أي وجدنا السّماء **مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا** أي حفظةً من الملائكة الموكّلين عليها و الحرس جمع حارس، الحافظ و انّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا قـبل ذلك يـطلبون خبر السَّماء من غير مانع يمنعهم منه.

قوله: **شَدِيدًا وَ شُهُبًا** منصوب على التّمييز فقوله: **شَدِيدًا** نعتٌ للحرس وَ **شُهُبًا** عطف علىٰ **حَـرَسًا** والتّقدير وجـدنا السّـماء (فَـمُلِئَت مِـن الحَـرَس و الشُّهُب) المتُّصفين بالبأس والشدّة والشُّهُب، بضمّ الشّين و الهاء جمع شهاب و

هو نور يمتدّ من السّماء من النَّجم هكذا و قيل هو إنفضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السَّمع كالنّار:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**[١].

وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا

ثمّ حكى اللّه عنهم أنّهم قالوا وَ **أَنَّا كُنَّا** في سالف الزّمان **نَقْعُدُ مِنْهَا** أي من السَّماء **مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ** و المقاعد مواضع القعود لإستماع الخبر أي كنّا نقعد مواضع يقعد في مثلها لإستماع الأخبار من السَّماء و الآن منعنا عن ذلك فكأنَّهم تعجّبوا من هذا المنع و لذلك قالوا: **فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا** أي لا يقدر على الإستماع فعلاً فمن يستمع في هذا الزّمان يجد له، أي لإستماعه **شِهَابًا رَصَدًا** بدل الخبر و ذلك لأنَّه يرمى بالشُّهب أعني بها الكواكب المحرقة و محصّل كلامهم إنّا نقعد ألآن في المواضع الّتى كنّا نقعد فيها لإستماع خبر السَّماء من قبل و لم نتجاوز عن الحّد و مع ذلك منعنا عنه.

قيل لم يكن انفضاض الكواكب إلاّ بعد مبعث النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و هو آية من آياته و أختلف السَّلف هل كانت الشّياطين تقذف قبل المبعث أو كان ذلك أمراً حدث بعد مبعث النّبى.

فقال الكلبي قال قوم لم تكن تحرس السَّماء في أيّام الفترة بين عيسىٰ عليه السلام و محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم خمس مائة عام و أنّما كان من أجل بعثة النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فلمّا بعث محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم منعوا من السّموات كلّها و حرست السَّموات بالملائكة و الشُّهب.

فعن عبداللّه بن عمر أنّه قال لمّا كان اليوم الّذي بعث رسول اللّه منعت الشّياطين من إستماع أخبار السّماء و رموا بالشُّهب.

١- الملك = ٥

و قال قوم لم تكن السّماء تحرس في الفترة فلمّا بعث رسول الّله ﷺ حرست السّماء و رميت الشّياطين بالشُّهُب.

و قال نافع بن جبير كانت الشّياطين في الفترة تسمع فلا ترمى فلمّا بعث النّبي ﷺ رميت بالشُّهُب، و قال قوم كانوا من قبل يسترقون و يرمون في بعض الأحوال فلمّا بعث النّبي إشتدَّ المنع بدليل قوله: (مُلِئت) أي زيد في حرسها واللّه أعلم.

وَ أَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا

هذا أيضاً حكاية عن الجنّ و الواو للعطف و المعنىٰ وَ **أَنَّا لَا نَدْرِىٓ** أي لا نعلم **أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ** من الخَلق أي إهلاكاً لهم بكفرهم و عقوبة علىٰ معاصيهم **أَمْ أَرَادَ بِهِمْ** أي أراد اللّه بخَلقه **رَشَدًا** و إرشاداً إلىٰ الحقّ.

و قال إبن زيد، قال إبليس لا ندري هل أراد اللّه بهذا المنع أن ينزل علىٰ أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولاً، و قيل هو من قول الجنّ قبل أن يسمعوا القرأن من النّبي ﷺ أي لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض بإرسال محمّد ﷺ فأنّهم يكذّبونه و يهلكون بتكذيبه كما هلك من كذَّب من الأمم، أم أراد اللّه بهم أن يؤمنوا به فيهتدوا، فالشّر والرُّشد على هذا الكفر و الإيمان و عليه كان عندهم علمٌ بمبعث النّبي ﷺ و لمّا سمعوا قراءته علموا أنّهم منعوا من السّماء حراسةً للوحي، و قيل هذا قول قالوهم لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين، أي لمّا امنوا اشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا أنّا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما أمنّا به أم يؤمنون، و كيف كان فلا يخلو الأمر أي منعهم من خبر السّماء من الخير و الشّر و بعبارةٍ أخرىٰ الرّشد و الهداية أو العقاب و العذاب و الحصر عقليٌّ.

وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا

هذا أيضاً من قول الجنّ أي قال بعضهم لمّا دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم و انّا كنّا قبل إستماع القرأن منّا الصّالحون و منّا الكافرون، و قيل و منّا دون ذلك، أي من دون الصّالحين في الصّلاح.

و قال بعض المفسّرين انّ هذا الكلام حكاية عمّا قالته الجنّ للّذين أمنوا عند سماع القرأن قالوا: **وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ** و هم الّذين عملوا الصّالحات و سميّ صالحاً لأنّه عمل بما يصلح في دينه و أمّا المصلح فهو فاعل الصّلاح الّذي يقوم به أمراً من الأمور و لهذا وصف تعالى بأنّه مصلح و لم يجز وصفه بأنّه صالح و قوله: **وَ مِنَّا دُونَ ذٰلِكَ** أي دُون ذلك في الرُّتبة فانّ الصّلاح له مراتب.

و قوله: **كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا** معناه كنّا قبل ذلك علىٰ مذاهب مختلفة، مسلم و كافر و صالح و دون صالح و الطّرائق جمع طريقة و هى الجهة المستمرّة مرتبةً بعد مرتبة و القدد جمع، قدّة و هى المستمرّة بالقد في جهة واحدة.

و قال السُّدي، أي فرقاً شتّىٰ، و قال الضّحاك، أدياناً مختلفة، و قال قتادة أهواء متباينة و منه قول الشّاعر:

القابض الباسط الهادي بطاعته   في فِتنة النّاس إذا هواؤهم قددُ

وَ أَنَّا ظَنَنَّآ أَنْ لَنْ نُعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُۥ هَرَبًا

قيل الظنّ هاهنا بمعنى العلم أي أنّا علمنا و فيه إعتراف منهم بأن علموا أنّ اللّه لا يفوت منه شئ يذهب في الأرض و لا إذا هَرب منه بسائر ضروب العرب، و المقصود انّا علمنا بالإستدلال و التفكُّر في آيات اللّه انّا في قبضته و سلطانه لن نفوته بهربٍ و لا غيره.

قال صاحب الكشّاف **فِى ٱلْأَرْضِ**، و **هَرَبًا** حالان أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنّا فيها، و لن نعجزه هاربين منه إلىٰ السّماء، و قيل لن نعجزه في الأرض أن أراد بنا أمراً ولن نعجزه هرباً أن طلبنا.

أقول و قد جمع أميرالمؤمنين كلمات المفسّرين حول الآية في جملةٍ واحدةٍ و هى قوله عليه السلام: **«ولا يُمكن الفرار من حكُومتك»**.

وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَ لَا رَهَقًا

هذا أيضاً إخبار عن الجنّ و انّهم قالوا: **وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ** و هُو القرأن من النّبى **ءَامَنَّا بِهِۦ** أي أمنّا بأنّه كلام اللّه والقاريّ رسُوله أنّا أمنّا باللّه و رسوله **فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ** الّذي خلقه و ربّاه في مراحل الحلقة من بدو النُّطفة إلى أخر المراحل **فَلَا يَخَافُ بَخْسًا** أي نقصاً **وَ لَا رَهَقًا** أي عدواناً، البخس في اللُّغة النُّقصان قال تعالىٰ: **وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ**(١) و معنىٰ عدم الخَوف من البخس أنّ العبد المؤمن بربّه الكريم لا يخاف ان ينقص من حسناته و لا أن يزاد في سيّئاته و أن شئت قلت لا يخاف ان ينقص من جزاءه و بعبارةٍ أخرى لا يخاف ظلماً و لا عدواناً، و ذلك لعلمه بعدل ربّه، و أنّه قائمٌ بالقسط قال تعالىٰ: **وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**(٢).

وَ أَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا، وَ أَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا

هذه الآية أيضاً حكاية عن قول الجنّ فهي معطوفة علىٰ سابقتها قالوا: **وَ أَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ** كلمة، مِنْ، في المسلمين، و القاسطين للتّبعيض و المسلم المستسلم لأمر اللّه و المنقاد له و القاسط، الجائر عن طريق الحقّ و معنى الآية أنّهم قالوا منّا من أسلم و إنقاد لأمر اللّه و منّا من أعرض عن الحقّ و جار، أى بعضنا مسلمٌ و بعضنا جائر ظالمٌ لم يؤمن باللّه حقّ الإيمان ثمّ حكموا بأنّ القاسطين كانوا حطب جهنّم يوم القيامة و أمّا المسلمون فأولئك تحرّوا رشداً

١- يوسف = ٢٠ ٢- فصّلت = ۴۶

أي طلبوا الهدىٰ الى الحقّ فصاروا من الفائزين برحمة اللّه هذا تفسير ألفاظ الآية و يستفاد منها أنّ هذا الحكم الّذي حكموا به و حكى اللّه تعالىٰ عنهم حكمٌ ثابت في الجنّ و غيره أعني به الإنسان لإشتراكهم في التّكلّيف فإذا كان المسلم من الجنّ على طريق الحقّ و القاسط على الباطل و انّه حطب جهنّم فهو في الإنسان أيضاً كذلك لما ذكرناه من أنّه أي الحكم ثابت للمكّلف و التّكليف أمرٌ مشترك بين الجنّ و الإنس إذا عرفت هذه المقدّمة فنقول:

الإنسان أيضاً منه مسلمٌ و منه قاسطٌ و الحكم ثابت للقاسطين من أفراد الإنسان كائناً من كان و على هذا يحكم بأنّ أصحاب معاوية الّذين كانوا من القاسطين بصريح الأخبار و أجماع الأمّة حطب جهنّم اللّهم إلاّ أن يدَّعي الخصم أنّ القاسطين من الجنّ غير القاسطين من الإنس فالقاسط في الجِنّ جائر و أمّا القاسط في الإسلام عادلٌ على طريق الحقّ و لا يبعد من المعاند هذا الإدّعاء و القول بثبوتهم علىٰ فرض الصِّحة مثل القول بتوبة فرعون حين الغرق و الجواب الجواب فأفهم.

و أمّا القول بكونهم مجتهدين و المجتهد مصاب فهو يجري في القاسطين من الجنّ أيضاً فلا ذنب لهم و هو كما ترى.

وَ أَنْ لَّوِ ٱسْتَقَٰامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰاهُمْ مَّآءً غَدَقًا

قيل المراد بالطّريقة الهدى بدليل قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَٰامُوا ٱلتَّوْرَيٰةَ وَ ٱلْإِنْجِيلَ وَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَٰا عَلَيْهِم بَرَكَٰاتٍ مِنَ ٱلسَّمَٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لَٰكِنْ كَذَّبُوا**(٢).

١- المائدة = ٦٦ ٢- الأعراف = ٩٥

و قيل المعنى لو إستقاموا علىٰ طريقة الكفر بدليل قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْلَآ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ**(١).

ذكر هذين الوجهين في التّبيان و لم يقل أيُّهما أحسن و أقوى عنده و أنّما نقل القولين فحسب و قال صاحب الكشّاف، أن مخّففة من الثّقيلة و هو من جملة الموحى و المعنى، و أوحي إلّي أنّ الشّأن و الحديث لو إستقام الجنّ على الطّريقة المثلى أي لو ثبت أبوهم الجانّ على ما كان عليه من عبادة اللّه و الطّاعة و لم يستكبر عن السُّجود لأدم و لم يكفر و تبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم و لوسعنا رزقهم و ذكر الماء الغدق و هو الكثير بفتح الدّال و كسرها و قرئ بهما، لأنّه أصل المعاش وسعة الرِّزق إنتهىٰ كلامه.

والّذي يختلج بالبال في معنىٰ الآية هو أنّ المراد بالطّريقة الطّريقة المعهودة المذكورة في قوله تعالىٰ: **كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا** و علىٰ هذا فاللاّم في الطّريقة للعهد الذِّكري ليتقدّم ذكرها و حيث أنّ الطّرائق كانت للصّالحين بحسب مراتبهم فكانت مرضيّة كلّها لا بعضها فقط لما قلناه من مراتب الصّلاح إلاّ أنّهم إختلفوا بعد ذلك فمنهم من بقي على الصّلاح و منهم من لم يبق عليه فقال اللّه تعالىٰ: **لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ** أي طريق الحقّ كما كانوا عليه لأسقيناهم ماءً غدقاً أي كثيراً، و إختصاص الماء بالذِّكر من بين النِّعم لإحتياجهم إليه أكثر من غيره او لأنّه الأصل بالنّسبة إلى غيره لقوله تعالىٰ: **وِ مِنَ الْماء كُلّ شَيئٍ حيٍّ** هذا كلّه مضافاً إلىٰ أنّهم وقعوا في القحط بحبس المطر عنهم سبع سنين، فالمقصود من الآية أنّ حبس المطر عنهم كان لأجل أعمالهم و معاصيهم.

لِنَفْتِنَهُمْ فيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذابًا صَعَدًا

١- الزُّخرف = ٣٣

اللاّم للتّعليل أي أنّما فعلنا بهم ما فعلنا من القحط و حبس المطر لنختبرهم فيه أي في القحط أو فيما فعلنا بهم و من يعرض عن ذكر ربّه و سلك مسلكاً غير الحقّ يسلكه عذاباً صعداً أي متصعداً في العظم أي ندخله عذاباً صعداً أي شاقّاً شديداً فأنّ الصَّعد المشقّة، ثمّ أنّ قوله: **يَسْلُكْهُ** بالياء قراءة الكُوفّين و عبّاس عن أبىعمرو و إختاره أبوعبيدة و أبوحاتم و قرأ الباقون، **نُسلكه بالنّون** بضمّ **النّون** و كسرها و هما لغتان ثمّ أنّ العذاب المذكُور في الآية عذاب الأخرة و أمّا العذاب في الدُّنيا فقد ذكره اللّه تعالىٰ في قوله: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**(١) أي صعباً.

وَ أَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا

عطف عند جميع المفسّرين علىٰ قوله: **أُوحِيَ** كأنّه قيل، أوحي إلّي أنّ المساجد للّه، و المعنىٰ الأخبار منه تعالىٰ بأن لا يذكر مع اللّه في المساجد أحدٌ، و المراد بالمساجد المواضع الّتى وضعت للصّلاة و بقوله أحدٌ، أي علىٰ وجه الإشتراك في عبادته أي فلا تجعلوا في المساجد أحداً شريكاً للّه في عبادته لتكون عبادتكم خالصة للّه تعالىٰ قيل من السُّنة إذا دخل المصّلي المسجد ان يقول لا إله إلاّ اللّه لا أدعوا مع اللّه أحداً.

و عن الفّراء أنّه قال المراد بالمساجد مواضع السُّجود من الإنسان، الجبهة، و اليدان و الرِّجلان، و زاد أصحابنا عيني الرُّكبتين و المعنى لا ينبغي لأحد أن يسجد بهذه الأعضاء لأحد سوىٰ اللّه تعالىٰ قاله في التّبيان.

و نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية هذا القول عن سعيد بن المسيّب أنّهما قالا أراد بالمساجد الأعضاء الّتى يسجد عليها العبد و هى القدمان و الرّكبتان و اليدان و الوجه، فانّ هذه الأعضاء أنعم اللّه بها عليك فلا تسجد لغيره بها فتجحد نعمة اللّه.

١- طه = ١٢٤

و في الصّحيح عن إبن‌عبّاس عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال صلى الله عليه وآله وسلم: **أُمِرتُ أن أسَجُد علىٰ سَبعَة أعَظُم، الجبهة وأشار بيَده إلىٰ أنفه واليَدَين والرَّكبتين وأطراف القَدَمين** و من المعلوم انّ اضافه المسجد إلى اللّه إضافة تشريف و تكريم كما أضاف الرُّوح إلى نفسه و قال (مِن رُوحي) والبيت العتيق.

قال: **وطَهِّر بَيتى** إذ لا شكّ انّ اللّه تعالىٰ منزّهٌ من أن يكون له روحاً او بيتاً لتجرّده و تنَزّهه عن المكان.

وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا

إتّفق المفسّرون على أنّ المراد بعبد اللّه هو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و يجوز الفتح في الألف أي أوحى اللّه إليه أنّه لمّا قام، و يجوز كسر الألف علىٰ الإستئناف و المعنى لمّا قام عبداللّه أعني به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ الصّلاة ليدعوا اللّه **كَادُوا** أي قربوا **يَكُونُونَ عَلَيْهِ** أي على محمّد **لِبَدًا** أي جماعات متكاتفات بعضها فوق بعض ليزيلوه عن دعوته بإخلاص الإلٰهيّة.

و قيل معناه يزدحمون عليه متراكمين تعجباً ممّا رأوا من عبادته و إقتداء أصحابه به قائماً و راكعاً و ساجداً و إعجاباً ممّا تلىٰ من القرأن لأنّهم رأوا ما لم يروا مثله و سمعوا بما لم يسمعوا بنظيره.

و قيل لمّا قام رسولاً يعبد اللّه وحده مخالفاً للمشركين في عبادتهم الألهة من دونه كاد المشركون لتظاهرهم عليه و تعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين لبداً جمع لبدة و هو ما تلبد بعضه علىٰ بعضٍ و منها لبدة الأسد.

قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّى وَ لَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا

أي قل، يا محمّد أنّما أدعو ربّي أشرك به أحداً من الأصنام و الأوثان فأنّ العبادة ينبغي أن تكون خالصةً له تعالىٰ.

قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا رَشَدًا

و المعنى أنّي لا أقدر على دفع الضّرر عنكم و لا أقدر على ايصال الخير إليكم و أنّما يَقدر علىٰ ذلك من هو علىٰ كلّ شيءٍ قدير و هو اللّه تعالىٰ شأنه، و يحتمل أن يكون المراد بالضّر الكُفر و بالرَّشد الإيمان و المعنىٰ أنّي لا أقدر علىٰ رفع الكفر عنكم كما لا أقدر علىٰ إيصال الإيمان إليكم فأنّ الأمور بيد اللّه و أنا عبدٌ من عباده و فيه إشارة إلىٰ أنّ الرّسول يدعوا النّاس إلى اللّه لا إلى نفسه و يقول من اللّه لا من عند نفسه كما قال تعالىٰ:

قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا

أي **قُلْ** لهم يا محمّد **إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ** أي لا يقدر على دفع العذاب عنّي أحد أن أراد اللّه عذابي أبداً و لن أجد **مِنْ دُونِهِ** أي من دون اللّه **مُلْتَحَدًا** أي ملتجأ ألجأ إليه لينجيني من عذاب اللّه.

قيل أضافه إلىٰ نفسه و المراد أمّته، لأنّه لا يفعل قبيحاً فيخاف عقاب لمكان عصمته و المقصود أنّه لا ملجأ للعبد إلاّ ربّه.

إِلَّا بَلَاغًا مِنَ ٱللَّهِ وَ رِسَالَاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

الإستثناء منقطع من قوله: **لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا رَشَدًا** أي لا أملك لكم إلاّ بلاغاً، أي إلاّ أن أبلّغكم ما أرسلت به من اللّه و رسالاته و فيه إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: **مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ** و قوله: **وَ رِسَالَاتِهِ** أي رسالاته الّتى أمرني اللّه بتبليغها.

و قيل معناه إلاّ أن أبلغ عن اللّه و أعمل برسالته و الحاصل إنّي رسول ربّكم إليكم ذلك لايكون إلاّ بتبليغ الحكم و إداء الرّسالَة **وَ مَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** في التّوحيد و العبادة و متابعة الرّسول قولاً و فِعلاً.

فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا على وجه التّأييد:

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَ أَقَلُّ عَدَدًا

أي حتّىٰ رآى الكُفّار يوم القيامة **مَا يُوعَدُونَ** من عذاب اللّه **فَسَيَعْلَمُونَ** هٰؤلاء الكُفّار أو العصاة للّه و رَسُولَه **مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَ أَقَلُّ عَدَدًا** الكفّار أم المؤمنون الّذين أطاعوا اللّه و رسوله.

و قيل أجند اللّه أم عبدة المشركون:

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ أَمَدًا

إن نافية، أي قل لهم يا محمّد لست **أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ** يعني قيام السّاعة، و قيل عذاب الدُّنيا أم يجعل له أي لما توعدون **رَبِّيٓ أَمَدًا** أي غاية وأجلاً و المقصود أنّ علم السّاعَة عند اللّه و ما أدري أقريبٌ هي أم بعيد، و هَل جَعَل له) أي لما توعدون إليه أجلاً أم لا فأنّه أي علم السّاعة من الغيب الّذي لا يعلمه إلاّ اللّه.

عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِٓ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا

الغيب مصدرغابت الشّمس وغيرها إذا إستترت عن العين وأستعمل في كلّ غائب عن الحاسّة و عمّا يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب و يقال للشّئ غيب و غائب باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالىٰ فأنّه لا يغيب عنه شئ كما لا يعزب عنه مثقال ذرَّةٍ لا في السّمٰوات و لا في الأرض و قوله: **عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ** أي عالمٌ بما يغيب عنكم تشهدونه إذا عرفت معنى الغيب فنقول **عَالِمُ ٱلْغَيْبِ** أي هو تعالىٰ عالم الغيب **فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِٓ أَحَدًا** أي فلا يطّلع على غيبه أحداً، من خلقه **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ** أي إلاّ من اصطفىٰ و أختار لذلك من رسولٍ فأنَّه يطَّلعه علىٰ ما يشاء عنه ليكون ذلك دّالاً على نبوّته.

فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان فيحفظه الوحي من إستراق الشّياطين و الإلقاء إلى الكهنة.

و قيل المراد من بقوله: **مِنْ رَسُولٍ** هو جبرئيل و على هذا فمعناه إذا نزّل الملك ما يوحي أرسل معه رصداً يحفظون الملك من أن يأتي أحد من الجنّ و يسمع الوحي، و نصب، رصداً على المفعول كأنّه قال يجعل رصداً يسلك بين يديه و من خلفه **لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ** أي ليظهر المعلوم من التّبليغ.

و قال قتادة معناه ليعلم محمّداً أنّ الرُّسل قبله قد أبلغوا رسالت ربّهم **وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ** أي أحاط علمه بما لديهم فيصير في معلومه بمنزّلة ما أحيط به **وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** أي أحاط بعدد كلّ شئٍ هذا تفسير ألفاظ الأيات و فيها مباحث لا بأس بالإشارة اليها على نحو الإختصار:

الأوّل: أنّه تعالى عالم الغيب، فلوجوهٍ:

أحدها: أنّ ما غاب عن الحاسّة و هو الّذي يعبّر عنه بالغيب، ليس غيباً له تعالىٰ و انّما هو غيبٌ باعتبار بالنّاس فإذا لم يكن غيبا باعتباره الى اللّه فهو حاضرٌ عنده فهو عالمٌ به.

الثّاني: أنّ المسمّىٰ بالغيب شئ موجود و كلّ شئٍ معلول و مخلوق له تعالىٰ فلا يعقل أن لا يكون عالماً به.

الثّالث: أنّه تعالىٰ عالم بذاته بالضّرورة و ذاته علّة لما سواه و قد ثبت عقلاً أنّ العلم بالعلّة يستلزمٌ للعلم بالمعلول تفصيلاً لأنّ المعلول رشحٌ من رشحات العلّة فعلمه بذاته هو بعينه علمه بمعلولاته و هو المطلوب.

الرّابع: أنّ الجهل ضدّ العلم فإذا فرضنا عدم علمه بشئٍ من الأشياء فهو جاهل به لعدم الواسطة بين العلم و الجهل، و الجهل نقصٌ و النّقص من لوازم الإمكان فلو كان جاهلاً فهو ممكنٌ و قد ثبت أنّه واجب الوجود.

الخامس: أنّ الصِّفة في الواجب عين الموصوف بمعنى أنّ العلم و القدرة و غيرهما عين ذاته المقدّسة فليس هناك ذاتٌ و علمٌ كما هو كذلك في المخلوق أو ذات و قدرة، بمعنى عروض الصّفة على الموصوف و على هذا فعلمه و قدرته و ذاته واحدة مصداقاً متغايرة مفهوماً و اعتباراً و إذا كان كذلك فعدم علمه بشئٍ عدم علمه بذاته و هو غير معقولٌ و الدّلائل العقليّة في المقام كثيرة و لكن للبحث فيه مقام أخر.

و قد أشار اللّه تعالىٰ الى الجميع بقوله:

قال اللّه تعالى: **أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَ ٱلْاٰخِرُ وَ ٱلظَّاهِرُ وَ ٱلْبَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا**[٣].

و الآيات كثيرة فهذا أي العلم بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها و حاضرها و غائبها في حقّ اللّه تعالىٰ ممّا لا كلام فيه و لم ينكره أحدٌ ممّن أمن به فلا وجه لإطالة الكلام فيه.

البَحث الثّانى: في قوله تعالىٰ: **فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**.

فقوله: **أَحَدًا** نكرة في سياق النّفي و هى تفيد العموم أي أنّ العلم بالغيب مختصٌّ به تعالىٰ لا غيره كائناً من كان، ثمّ إستثنىٰ من ذلك العموم من ارتضى من رسولٍ فقال: **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** فأنّ اللّه يظهره على غيبه ثمّ علّل ذلك بقوله: **فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا** أي أنّ الملائكة يحفظوا من أن يأتي أحد من الجنّ و يسمع الوحي و يطلّع على

١- البقرة = ٢٣١ ٢- الحديد = ٣

٣- الطّلاق = ١٢

الغيب، ففي الآية دلالة على أنّ من إرتضاه اللّه لحفظ الغيب أعطاه منه بقدر لياقته و استعداده سواء كان المراد بالرّسول في الآية جبرئيل أو ملك أخر أمّ النّبي فأنّ الرّسول يطلق عليهما فاذا ثبت هذا في حقّ الرّسول ثبت في حقّ وصّيه أيضاً لعدم القول بالفصل ولوجود الملاك فيه أيضاً و ذلك لأنّ الوصّي حائزٌ لجميع فضائل الاّ النّبوة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **لعليٍ أنت منّي بمنزلة هارُون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي**، مَعناه لو كان بعدي نبّي فهو أنت لا غيرك فمن صلح للنبوّة بعد النّبي صلح لجميع فضائل النّبي و منها العلم بالغيب و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً و لا ينافي قوله تعالىٰ: **لا يَعْلَمُ الْغَيبَ إلاّ هُوَ** لأنّ علم اللّه تعالىٰ بالغيب هو من ذاته و نفسه و علم الرّسول من ربّه و الفرق بين المقامين واضح.

و حاصل الكلام أنّ المخلوق كائناً من كان محتاج إلى ربّه و ليس له شئ من عند نفسه و ذاته بل اللّه تعالىٰ خلقه فهو و جميع فضائله من اللّه فقولنا أنّ الرّسول يعلم الغيب يرجع إلىٰ أنّ اللّه يعلم الغيب لأنّ العلم إذا كان من الغير فهو مع قطع النّظر من الغير لا علم له فأيَن الشِّرك الّذي يدّعيه من لا يفهم معناه فثبت و تحقّق أنّ الرّسول عالم بالغيب الّذي أعطاه اللّه و أمّا الغيب الّذي لم يعطه أحداً كعلم السّاعة و أمثالها فلا.

البَحث الثّالث: في قوله: **لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ** و حاصل الكلام في هذه الآية أنّا أطّلعناه علىٰ الغيب ليعلم أنّ الرّسل قبله قد أبلغوا الرّسالة كما بلّغ هو الرّسالة و بعبارةٍ أخرىٰ اخبرناه بحفظنا الوحي اليه ليعلم أنّ الرُّسل قبله كانوا على مثل حالته من التّبليغ بالحقّ و الصّدق و قيل ليعلم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أن قد أبلغ جبرئيل و من معه إليه رسالة ربّه إذ لم ينزّل الوحي إلاّ و معه أربعة حفظة من الملائكة.

و المقصود أنّ النّبي ممَّن إرتضاه اللّه للإطّلاع على الغيب بقدر ما أعطاه اللّه منه لا يقدر ما يعلمه اللّه و حيث إنجرّ الكلام إلىٰ العلم و لا سيّما العلم بالغيب فلا بأس بذكر بعض الأخبار الواردة عن أهل البَيت عليهم السّلام فنقول:

عن أصول الكافي بأسناده عن سُدير السَّيرفي قال سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عن قوله تعالىٰ: عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا فقال أبو جعفر عليه السلام: إلاّ من إرتضىٰ من رسولٍ و كان واللّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ممّن إرتضاه.

و أمّا قوله: عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فأنّ اللّه عزّ وجلّ عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدر مِن شيءٍ و يقضيه في علمه قبل أن يخلقه و قبل أن يقضيه إلى الملائكة فذلك ياحمران علمٌ موقوف عنده اللّه فيه المشيّته فيقضيه إذا أراد و يبدوا له فيه فلا يمضيه و أمّا العلم الّذي يقدره اللّه عزّ وجلّ و يقضيه و يمضيه فهو العلم الّذي إنتهىٰ إلىٰ رسول اللّه ثمّ إلينا و الحديث طويلٌ أخذنا منه موضع الحاجة.

و بأسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنّ للّه عزّ وجلّ علمين علماً عنده لم يطّلع عليه أحداً من خلقه و علماً نبذه إلى ملائكته و رسله فما نبذه إلى ملائكته و رسله فقد إنتهىٰ إلينا إنتهىٰ.

ما رواه علّي بن إبراهيم بأسناده عن ضريس قال سمعت أباجعفر يقول: أنّ لِللّه عزّ وجلّ علمين، علمٌ مبذول و علمٌ مكفوف، فأمّا المبذول فأنّه ليس من شيءٍ تعلمه الملائكة و الرُّسل الاّ نحن نعلمه و أمّا المكفوف فهو الّذي عند اللّه عزّ وجلّ في أمّ الكتاب إذا خرج نفذ إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: الإمام إذا شاء أن يعلم علم إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي بصير قال: قال عليه السلام أبو عبد اللّه أيُّ إمامٍ لا يعلم ما يصيبه و الىٰ ما يصير فليس ذلك بحجّة اللّه علىٰ خلقه.

و بأسناده عن حمران بن أعين عن أبي عبد اللّه قال، أنّ جبرئيل أتىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الرّمانتين فأكل رسول اللّه إحدايهما و كسر الأخرى بنصفين فأكل نصفاً و أطعم عليّاً نصفاً أخر ثمّ قال له رسول اللّه يا أخي هل تدري ما هاتين الرُّمانتين قال عليه السلام لا قال صلى الله عليه وآله وسلم لهما الأُولىٰ فالنّبوّة ليس لك فيها نصيب و أمّا الاخرىٰ فالعلم أنت شريكي فيه فقلت أصلحك اللّه فكيف كان يكون شريكاً فيه قال عليه السلام: لم يعلم اللّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم علماً إلاّ و أمره أن يعلّمه عليّاً إنتهىٰ.

و في حديث أخر أنت شريكي فيه وأنا شَريكك فيه قال عليه السلام: فلم يعلم واللّه رسول اللّه حرفاً ممّا علّمه اللّه عزّ وجلّ إلاّ و قد علّمه عليّاً ثمّ إنتهىٰ العلم إلينا ثمّ وضع يده على صدره إنتهىٰ.

و عن الخرائج و الجرائح، روى محمّد ابن فيصل الهاشمي عن الرّضا عليه السلام قال: أنظر إلى ابن هذاب فقال إن أنا أخبرتك أنّك ستبتلى في هذه الأيام بدم ذي رحم لك لكنت مصدّقاً لي، قال لا، فأنّ الغيب لا يعلمه إلاّ اللّه تعالىٰ قال عليه السلام أو ليس اللّه يقول فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ، فرسُول اللّه عند اللّه هو المرتضى و نحن ورثة ذلك من الرّسول الّذي أطلعه اللّه على ما يشاء من غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة والحديث طويل أخذنا منه مَوضع الحاجة.

أقول الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[١].

و الأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً كلّها يدلّ على أنّ علم الرّسول عند أوصيائه و يظهر عنه أنّ الأئمّة عليهم السّلام ورثة علم النّبي و هو يدلّ على أنّهم عليهم السّلام داخلون في قوله تعالىٰ: **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ** و ذلك لأنّ نورهم واحد فما ثبت للرّسول من الفضائل و الكمالات النّفسانية فهو ثابت لهم بمقتضى وحدة النُّور إلاّ النّبوّة لأنّها ختمت برسول اللّه ﷺ و أنّما تعرّضنا لعلم الأئمّة و قلنا علمهم علم رسول اللّه لأنّ كثيراً من ضعفاء العقول أنكروا علم الغيب عليهم ولم يعلموا أنّهم لم يعلموا إلاّ ما علّمهم اللّه بواسطة رسوله و أيّ إشكالٍ فيه عقلاً و شرعاً بعد تصريح الآية بالإستثناء بقوله: **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ**.

و أيضاً نقول، أن كان علم الغيب مختصّاً باللّه تعالى و لا يسري الى غيره من الخلق كما يقول به الخصم فما معنى قوله: **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ** و ان كان يسري الى غيره بحكم الإستثناء فأيّ إشكالٍ في سراية العلم من الرّسول الى أوصيائه بأذن اللّه.

و محصّل الكلام في المقام هو إستحالة العلم بالغيب لغير اللّه بغير إذنه أي من عند نفسه و أمّا العلم بالغيب لعبد من عباد اللّه من عند ربّه فأيّ إشكالٍ فيه عقلاً و شرعاً و أنّما أطلنا الكلام في هذا الباب لأنّ الموضوع من أهمّ الموضوعات واللّه أعلم.

■

١- ج ٥ ص ٤٤١ إلىٰ ص ٤٤٤

سُورَةُ ٱلْمُزَّمِّلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ
أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ
ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَ أَقْوَمُ قِيلًا
﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَ ٱذْكُرِ
ٱسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ
ٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَ ٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَ
ذَرْنِى وَ ٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا
﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَ جَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَ طَعَامًا ذَا
غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَ
ٱلْجِبَالُ وَ كَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ
ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ
إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ

مُنْفَطِرٌ بِهِ كٰانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ
فَمَنْ شٰآءَ ٱتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ
ثُلُثَهُ وَ طٰآئِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَ ٱللّٰهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ
وَ ٱلنَّهٰارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا مٰا
تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْاٰنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضىٰ
وَ اٰخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ
ٱللّٰهِ وَ اٰخَرُونَ يُقٰاتِلُونَ في سَبِيلِ ٱللّٰهِ فَاقْرَؤُا مٰا
تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَ
أَقْرِضُوا ٱللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللّٰهِ هُوَ خَيْرًا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا
وَ ٱسْتَغْفِرُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

ٱلْمُزَّمِّلُ: بضمّ الميم و فتح الزّاء المشدّدة و كسر الميم أصله المتزمل، من باب أزّمل، يزّمل، فأدغمت التّاء في الزّاء و كذلك المُدَّثِر، أصله المتذّثر فأدغمت التّاء في الميم و معناه المتَلَفف يقال تزّمل و تدّثر بثوبه إذا تغطّىٰ به و زّمل، غيره إذا غطّاه و كلّ شئٍ لفّف فقد زُّمل.

رَتِّلِ: أمرٌ من رتّل ترتيلاً، الترتّيل التّنضيد والتّنسيق و حُسن النظام أي إقرأ القرأن في مهلٍ و بيان و قيل حرفاً حرفاً.

نٰاشِئَةَ ٱللَّيْلِ: قيل هي التّهجد في اللّيل و قيل ناشئة اللّيل بعد العشاء الأخرة و قيل هو القيام أخر اللّيل إلىٰ صلاة اللّيل.

وَطْـًٔا: الوطأ المهاد المذلّل للتقلّب اليه.

سَبْحًا: السَّبح بفتح السّين المرّ السَّهل في الشّئ كالمرّ في الماء.

تَبَتَّلْ: التبتّل الإنقطاع.

وَٱهْجُرْهُمْ: الهجر التَّرك.

ذَرْنِي: أي أتركنى.

أَنْكَالًا: واحدها نكل و هو القيد.

تَرْجُفُ: الرجفة التحرّك بإضطراب شديد.

كَثِيبًا: الكَثيب الرَّمل المجتمع.

مَهِيلًا: مفعول من حلت الرَّمل و ذلك إذا حرَّك أسفله فسال أعلاه.

وَبِيلًا: الوبيل الثَّقيل الشدّيد.

مُنْفَطِرٌ: أي متصدّعٌ بشدّة ذلك اليوم و الباقي واضح.

◀ الإعراب

نِصْفَهُۥٓ بدلٌ من اللّيل بدل بعض من كلّ و إِلَّا قَلِيلًا إستثناء من نصفه وَطْـًٔا تمييزٌ وَ ٱلْمُكَذِّبِينَ هو مفعول معه و قيل هو معطوف يَوْمَ تَرْجُفُ هو ظرف للإستقرار و قيل هو وصفٌ لعذاب يَوم مفعول تتَّقون، و قيل هو مفعول كَفَرْتُمْ يجعل الولدان، نعتٌ اليوم ان سَيَكُونُ أن مخفَّفة من الثّقيلة.

◀ التَّفسير

يَآ أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ، قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ ٱلْقُرْاٰنَ تَرْتِيلًا

الخطاب للرّسول صلى الله عليه و آله و سلم و قيل أنّ المؤمنين داخلون في الخطاب على وجه التَّبع فقوله: **يَآ أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ** قيل فيه ثلاثة أقوال:

الأوّل: قول عكرمة يا أيُّها المُزَّمِل بالنبوّة و الملتزم للرّسالة.

الثّانى: ياأيُّها المُزَّمِل بالقرأن.

الثّالث: المُزَّمِل بثيابه قاله قتادة و غيره ذلك أنّ الرّسول كان متزّملاً بقطيفة و معنى المُزَّمل هو الملتّف و قيل معناه، المتحمّل من زلل الشّيء إذا حمله.

إعلم أنّ المُزَّمل ليس من أسماء النّبي ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض النّاس وعدُّوه من أسمائه و انّما هو إسمٌ مشتقٌ من حالته الّتى كان صلى الله عليه و آله و سلم عليها حين الخطاب و كذلك المدَّثر قيل في خطابه بهذا الإسم فائدتان:

إحداٰهما: الملاطفة فأنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب و ترك المعاتبة سمّوه بإسم مشتّق من حالته الّتى هو عليها فقوله تعالى لنبيّه **يٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ** قم فيه تأنيسٌ و ملاطفة ليشعر أنّه غير عاتبٍ عليه.

الثّانية: التّنبيه لكلّ متزّملٍ راقدٍ ليله ليتنبّه إلىٰ قيام اللّيل و ذكر اللّه تعالى فيه لأنّه الإسم المشتقّ من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كلّ من عمل ذلك العمل و اتّصف بتلك الصّفة، قيل في نزول الآية أنّه صلى الله عليه و آله و سلم تزّمل بثيابه لِمنامه و قيل بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه فاشتّد عليه فتزّمل في ثيابه و تدَّثر فَنزلت، يا أيُّها المزَّمل و يا أيُّها المدَّثر و قيل كان هذا في إبتداء ما أوحي إليه فأنّه لمّا سمع قول الملك و نظر إليه أخذته الرَّعدة فأتى أهله فقال زَّملوني دَّثروني و قال عكرمة معناه المتزّمل بعباءة النبوّة و كلّ شيءٍ لفَّ فقد تزَّمل، كما قال امرؤ القيس:

كأن أبانا في أفانين ردفه　　　كبير أُناسٍ في بجاد مُزَّمِل

و البجاد الكساء **قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** أمرٌ من اللّه تعالىٰ لنبيّه بقيام اللّيل إلاّ قليلاً منه و لذلك كانت صلاة اللّيل واجبة علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

و قال الحسن أنّ اللّه فرض صلاة اللّيل على النّبي و المؤمنين بأن يقوموا ثلث اللّيل فما زاد فقاموا حتّىٰ توّرمت أقدامهم ثمّ نسخ تحفيفاً عنهم و قال

غير ما هو نفلٌ لم ينسخ لأنّه لو كان فرضاً لما كان مخيّراً في مقداره ذكره الجبائي و انّما بيّن تخفيف النّفل قاله في التّبيان.

نِصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا هذا بيان لقوله: **قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** أي إلاّ قليلاً منه لا تقوم فيه فكأنّه قيل و ما معنى إلاّ قليلاً فقال تعالىٰ نصفه أي نصف اللّيل أو أنقص منه أي من نصف اللّيل أو زِد علىٰ نصف اللّيل **وَ رَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا** قيل ذلك قبل أن يتعبّد بالخمس صلوات و قوله: **وَ رَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا** أمَر اللّه نبيّه بترتيل القرأن و هو ترتيب الحروف على حقّها في تلاوتها و قيل معناه لا تعجل بقراءة القرأن بل إقرأه في مهلٍ و بيان مع تدّبر المعاني، و قيل معناه إقرأه حرفاً حرفاً.

و قال مجاهد أحقّ النّاس و أحبّهم بالقرأن عند اللّه أعقلهم عنه و التّرتيل التّنضيد و التّنسيق و حسن النّظام.

أقُول ما ذكروه لا بأس به إلاّ أنّه شرح الألفاظ الآية من حيث اللّغة و الحقّ أنّه تعالى أمر بالتّرتيل لأنّه يوجب التّأمل و التدبّر في الأيات بخلاف القراءة سريعاً و من المعلوم أنّ التفكّر في أيات اللّه هو المطلوب من قراءته لأنّ الألفاظ وضعت للرّسُول إلى المعنى و حيث أنّ التّرتيل أعني به التّأني في القراءة يوجب فهم المعنى و هو يزيد في التّوحيد و معرفة اللّه أمره اللّه به والخطاب و أن كان للنّبي ظاهراً إلاّ أنّ المراد جميع الأمّة.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا

الالقاء الطّرح و اختلفوا في القول الثّقيل فقيل هو القول الّذي يثقل العمل به لمشّقةٍ فيه و قيل معناه، العمل به ثقيل في الميزان والأجر، ليس بشّاقٍ، و قيل قولٌ عظيم الشّأن، و قيل هو متّصل بما فرض من قيام اللّيل أي سنلقي عليك بإفتراض صلاة اللّيل قولاً ثقيلاً يثقل حمله لأنّ اللّيل للمنام فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيّأ له ذلك إلاّ بحمل شديد على النّفس و مجاهدة الشّيطان.

أقول ما ذكروه ليس من القول الثّقيل والّذي يقوّي في النّفس أنّ القول الثّقيل عبارة عن ثقل الرّسالة هل كانت الخلق مثل قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰآ أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا**(٢).

و أمثال ذلك من الأيات و علىٰ هذا فالمراد بثقل القول ثقل المسئوليّة الّتى توجد بالأمر.

إِنَّ نٰاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَ أَقْوَمُ قِيلًا

قيل ناشئة اللّيل التّهجد في اللّيل و قيل هو ما كان بعد العشاء الأخرة.

عن أبي جعفر عليه السلام و أبي عبد اللّه عليه السلام أنّهما قالا هو القيام أخر اللّيل إلىٰ صلاة اللّيل، و قيل ناشئة اللّيل أوقاته وساعاته لأنّ أوقاته تنشأ أوّلاً يقال نَشَأ الشّيئ إذا إبتدأ و أقبل شيئاً بعد شيئ، و قيل النّاشئة مصدر بمعنى قيام اللّيل كالخاطئة و الكاذبة أي أنّ نشأة اللّيل هي أشدّ وطأ و الوطأ بفتح الواو و سكون الطّاء الثّقل و منه قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **اللّهم أشدد وطأك على مضره.**

و علىٰ هذا فالمعنى أنّها أثقل على المصّلي من ساعات النّهار، **وَ أَقْوَمُ قِيلًا** أي القراءة باللّيل أقوم منها بالنّهار أي أشدّ إشتقاقه و استمراراً علىٰ الصّواب و محصّل الكلام هو أنّ الصّلاة في اللّيل بعد مضي النّصف منه و قراءة القرأن أشدّ و أثقل على المكلّف من الصّلاة و القراءة بالنّهار و لذلك ورد في فضلها ما ورد في الأخبار و الوجه فيه ظاهر و هو أنّ اللّيل وقت منام و توّدع و إجمام فمن شغله بالعبادة تحمّل المشقّة العظيمة و هو محسوسٌ لكلّ أحدٍ.

إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهٰارِ سَبْحًا طَوِيلًا

١- سَبَأ = ٢٨   ٢- الفتح = ٨

قال قتادة معناه أنّ لك يا محمّد في النّهار متصرّفاً و منقلباً أي ما تقضي فيه حوائجك و السَّبح الجري والدَّوران و منه السّابح في الماء لتقلّبه بيديه و رجليه و فرسٌ سابح شدّيد الجري قال إمرؤ القيس:

مسحٌ إذا ما السّابحات على الونىٰ أثرن الغبار بالكديد الموكَّل

و قيل السَّبح الفراغ أي أنّ لَك فراغاً للحاجات بالنّهار و قيل السَّبح التَّمدّد و هو كناية عن النّوم أي أنّ لك نوماً بالنّهار ذكره الخليل.

و عن إبن عبّاس و عطاء **سَبْحًا طَوِيلًا** يعني فراغاً طويلاً لنومك و راحتك فأجعل ناشئة اللّيل لعبادتك و المقصود إن فاتك في اللّيل شئ فلك في النّهار فراغ الإستدراك هذا بناءً على قراءة المشهورة و هى بالحاء المهملة و عليها المصاحف فعلاً و قرأ يحيى بن يعمر و أبو وائل، سبخا، بالخاء المعجمة و معناه النّوم و قيل معناه الخفّة و السّعة و الإستراحة و منه قول الشّاعر:

فسَّبخ على الهمّ و أعلم بأنّه إذا قدَّر الرّحمٰن شيئاً فكائنُ

و قال ثعلب السَّبخ بالخاء التّردّد و الإضطراب، و السَّبخ أيضاً السّكون **ومنه قول النّبي ﷺ: الحَمىٰ من قيح جهنّم فسَّبخوها بالماء أي سكّنوها.**

أقُول المأل في القراءتين واحد و المقصود من هذا الكلام أنّ النّهار للتردّد و العمل و اللّيل للنّوم و العبادة.

وَ ٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا

بعد أمره تعالى نبيّه بصلاة اللّيل أمره ثانياً بذكر ربّه و الإنقطاع إليه فأنّ التّبتل الإنقطاع إلى عبادة اللّه و منه مريم البتول و فاطمة البتول لإنقطاع مريم الى عبادة اللّه و انقطاع فاطمة عن القرين و المراد بذكر الرّب ليس الذّكر اللّساني فقط كما توّهم بل المراد ذكره لساناً و قلباً و عملاً و بعبارةٍ أخرىٰ التوجّه إلى

المعبود في جميع الأحوال كأنّه يراه فأن لا يراه فهو تعالى يراه قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**(١) و قد مضى الكلام فيه.

و قوله: **وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** أي إنقطع إليه إنقطاعاً يليق بشأنه فإقطع الرّجاء عمّا سواه كائناً ما كان و فوّض أمرك إليه و توكّل عليه في جميع شئونك فأنّه يكفيك فمن يتوكّل علىٰ اللّه فهو حسبه.

فعن الصّادق عليه السلام أنّه قال: أوحى اللّه تبارك و تعالىٰ إلىٰ داود النّبي عليه السلام ما اعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحدٍ من خلقي عرفت ذلك من نيّته ثمّ تكيده السّموات و الأرض و من فيهنّ إلاّ جعلت له المخرج من بينهنّ، و ما إعتصم عبدٌ من عبادي بأحدٍ من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلاّ قطعت أسباب السّموات من بين يديه و أسخت الأرض من تحته و لم أبال في أيّ وادٍ هلك إنتهىٰ.

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول اللّه عزّ وجلّ و عزّتي و جلالي و عظمتي و كبريائي و نوري و علوّي و إرتفاع مكاني، لا يؤثّر عبدٌ هواه علىٰ هواي إلاّ شتّت عليه أمره و لتشتّت عليه دنياه و شغلت قلبه بها و لم أوته منها إلاّ ما قدّرت له، و عزّتي و جلالي و عظمتي و كبريائي و نوري و علّوي و إرتفاع مكاني لا يؤثّر عبدٌ هواي على هواه إلاّ استحفظته ملائكتي و كفلت السّموات و الأرض رزقه و كنت له من وراء تجارة كلّ تاجر و أتته الدّنيا و هي راغمة إنتهىٰ.

و قال عليه السلام: من إنقطع إلى اللّه كفاه اللّه مؤنته و رزقه من حيث لا يحتسب و من انقطع إلى الدّنيا و كلّه إليها إنتهىٰ.

و الأحاديث كثيرة(٢).

١- طه = ١٢٤

٢- مشكاة الأنوار ص ١٦ إلىٰ ص ١٨

قال بعض العرفاء المراد بالذِّكر وجدان المذكور و حضوره في القلب لا ذكره باللّسان وحده مع غفلة القلب فانّه غير معتبر عندهم، و أوّل مراتب الذِّكر بهذا المعنى نسيان الغير لأنّك إن لم تنس الكلّ ما وجدته و لأنّك إذا كنت موصوفاً بنسيان الغير و ذكر الرَّب كانت نفسك مذكورة في ضمن هذا الذِّكر في هذه الدَّرجة فإذا أوقفك اللّه على هذه العلّة نسيت نفسك في ذكر ربّك لأنّ تحقّق المذكور يوجب نفي الغير، و أنيتك تثبت الغيريّة فإذا بلغت هذه الرُّتبة كان ذكرك ذكره لغيبتك عن نفسك فنسيت ذكرك في ذكرك ثمّ اذا إستمرّ ذلك و استحكم شهدته ذاكراً لذاته فنسيت في ذكر الحقّ ذاته كلّ ذكرٍ و ذاكرٍ فكأنّ هو الذّاكر و المذكور إنتهىٰ.

أقوَل بحث الذِّكر عند العُرفاء من أشرف الأبحاث و أنفعها و لهم فيه تحقيقات رشيقة إلاّ أنّ إطالة الكلام فيه يُخرجنا عمّا نحن بصدده في هذا الكتاب و علىٰ هذا ففيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية و الفطانة.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا

لمّا أشار اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة إلىٰ ذكر الرّب و قال وأذكُر ربّك، الآية بيَّن في هذه الآية أنّ المراد بالرَّب الّذي ينبغي ذِكره و الإنقطاع إليه، هو ربّ المشرق و المغرب أي ربّ مطلع الشّمس و هو موضع طلوعها و ربّ المغرب يعني موضع غربها و هو المتصرّف فيها، و المدبّر لما بينهما من الخلق و هذا الرَّب ليس إلاّ اللّه الّذي لا إلٰه إلاّ هُو، فلا أحد غيره يستحقّ العبادة و الإنقطاع إليه **فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** أي توكّل إليه في جميع أمورك و فوّض الأمور إليه و أرض برضاءه و قضاء فالوكيل الحفيظ بأمر غيره معناه إتّخذه كاملاً لما وعدك به من النّصر و الظّفر علىٰ أعداءك فأنّ اللّه علىٰ كلّ شيءٍ قدير و بالإجابة جديرٌ.

و أمّا قوله: **وَ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ففيه أمران من اللّه تعالىٰ لنَبيّه:

أحدهما: الصَّبر.

الثّاني: هجر الجَميل عن الكفّار.

أمّا الأوّل: و هو الصَّبر علىٰ ما يقولون، هٰؤلاء الكفّار من الأذىٰ و الإستهزاء و نسبة الجنون و السِّحر إليه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أمره اللّه تعالىٰ بالصَّبر لأنّ الصَّبر مفتاح الفرج و لذلك كان جميع الأنبيا مأمورين به كما قال تعالىٰ: **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**(١).

و قد مرَّ الكلام في الصَّبر و ما يترتّب عليه من الأجر في كثير من الأيات و نقلنا شطراً من الأخبار الواردة في فضلها فلا نُطيل الكلام فيه في المقام و أمّا الأمر الثّاني و هو قوله: **وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** فالهجر في الأصل التّرك و الهجر الجميل إظهار الجفوة من غير ترك الدّعاء الىٰ الحقّ علىٰ وجه المناصحة فالمعنى و أصبر على أذاهم و أتركهم أي لا تتعرّض لهم و لا تشتغل بمكافاتهم فأنّ في ذلك تركُ الدُّعاء الىٰ اللّه.

قال قتادة كان هذا قبل الأمر بالقتال ثمّ أمر اللّه بعد ذلك بقتالهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها من التَّرك.

أقول لا دليل على نسخ الآية بل الآية كانت بحالها و ذلك لأنّ الهجر الجميل من مكارم الأخلاق و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: **إنّي بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**.

و من المعلوم أنّ الغلظة و الشدّة ولو في حقّ الكافر لا يعدّ من مكارم الأخلاق كيف و قد قال اللّه تعالىٰ لنبيّه **وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**(٢) **وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا**

١- الاحقاف = ٣٥ ٢- القلم = ٤

غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ(١) و من كان كذلك فهو لا يليق بشأنه الغلظة و ان شئت قلت انّ اللّه تعالىٰ أدَّب نبيَّه بهذا الكلام و أمثاله فينبغي للامّة متابعة النّبي في جميع ما أمره اللّه به و هذا من أحسن المواعظ لمن كان له قلب ثمّ بعد أمر اللّه نبيّه بالهجر الجميل و ترك التَّعرض لهم قال:

وَ ذَرْنِي وَ ٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا

يقول اللّه تعالىٰ علىٰ سبيل التّهديد للكفّار الّذين أمر نبيّه بتركهم و قال: **وَ ذَرْنِي** يا محمّد أي أتركني و هٰؤلاء الكفّار والمكذّبين بالتّوحيد و النبوّة و المعاد **أُولِى ٱلنَّعْمَةِ** أىّ أي أولي الغنىٰ و الترّفه واللذّة في الدُّنيا **وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا** الىٰ مدّة آجالهم فأنّ لكلّ شيٍ أجل قيل لمّا نزلت هذه الآية لم يكن إلاّ يسيراً حتّىٰ وقعت وقعة بدر فمنهم من قتل و منهم من أسرّ و كان وعد اللّه مفعولاً ثمّ قال تعالىٰ:

إِنَّ لَدَيْنَآ أَنْكَالًا وَ جَحِيمًا، وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا

أي أنّ ما وقع بهم من القتل والأسر هو عذاب الدُّنيا و أمّا عذاب الأخرة **إِنَّ لَدَيْنَآ أَنْكَالًا** أي قيوداً و سلاسل و أغلالاً يوم القيامة في جهنّم أعدَّت للكافرين **وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ** بشوكٍ يأخذ الحلق فلا يدخل و لا يخرج و قيل معناه يأخذ بالحلقوم لخشونته و شدّة تكرهّه، و هو الغسلين و الزُّقوم و الضَّريع قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ، طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ**(٢) والمعنىٰ واحد.

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَ ٱلْجِبَالُ وَ كَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا

ثمّ بيَّن اللّه تعالىٰ متىٰ يكون ذلك فقال: **يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ** أي أعتدنا هذه الأنواع من العذاب في يومٍ تتَّحرك الأرض بإضطرابٍ شديد فالرّجفة

١- آل عمران = ١٥٩　　٢- الدّخان = ٤٤ / ٤٣

الإضطراب وَ **ٱلْجِبَالُ** أي و الجبال كذلك و كانت الجبال كثيباً، أي رملاً فالكثيب الرّمل المجتمع الكثير **مَهِيلًا** أي رملاً سائلاً، و قيل هو الّذي إذا وطئه القدم زلّ من تحتها، و أصل مهيل، مهيول، و هو مفعول من قولك، هلّت عليه التّراب أهيله هيلاً إذا صببته يقال، مهيل و مهيول و مكيل و مكيول و مدين و مديون و معين و معيون، و فيه إشارة الىٰ فزع ذلك اليوم و شدّته.

ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ علّل ما وقع بهم من العذاب بقوله:

إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا

كأنّ المعذّبون قالوا لِم لَم يكون هذا العذاب فقال تعالىٰ في جوابهم **إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا** في الدّنيا **شَاهِدًا عَلَيْكُمْ** بالتمرّد والطّغيان كما أرسلنا قبل ذلك الىٰ فرعون رسولاً، و هو موسىٰ عليه السلام شبّههم اللّه بفرعون في مخالفتهم الرّسول كما قال:

فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا

فالوبيل الشدّيد من العذاب و المعنى لمّا عصىٰ فرعون الرّسول و لم يؤمن باللّه و رسوله أخذناه عذاباً شديداً، و المقصود أنّ العذاب يوم القيامة يكون بعد تماميّة الحجّة على العبد في الدّنيا فأنّ العقاب بلا بيان قبيحٌ على الحكيم و هذا حكمٌ كلّيٌ عقلي في جميع الأزمنة و فى حقّ جميع الأمم و لا فرق في ذلك بين فرعون و غيره من العصاة كما لا فرق بين موسىٰ عليه السلام و غيره من الأنبياء.

و محصّل الكلام أنّ سبب العذاب هو المعصية و هى موجودة فيكم كما كانت موجودة في فرعون و متابعيه و فى قوله تعالىٰ: **شَاهِدًا عَلَيْكُمْ** إشارة الىٰ قوله: **إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَ مُبَشِّرًا**(١) فأنّ الرّسول شاهد علىٰ أُمّته يوم القيامة ثمّ قال تعالىٰ مهدّداً لهم.

١- الفتح = ٨

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدٰانَ شِيبًا

قال بعضهم معناه، إن كفرتم باللّه و جحدتم نعمه و كذّبتم رسوله و أنـمّا يجعل ذلك اليوم الولدان و هم أولاد الصّغار شيباً لشدّة العذاب و عظم أهواله.

و قيل في الكلام تقديم و تأخير أي كيف تتّقون يوماً يجعل الولدان شيباً ان كفرتم، و كذا قراءة عبد اللّه و عطيّة، و قال الحسن معناه، بأيّ صلوة تتّقون العذاب و بأيّ صوم تتّقون العذاب و فيه إغمار أي كيف تتّقون عذاب يوم كذا، و على هذا (فيوماً) مفعول تتّقون وليس بظرف و أن قدّموا الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول، كفرتم، و قال بعض المفسّرين وقف التّمام على قوله: **كَفَرْتُمْ** و الإبتداء يوماً، و على هذا فاليوم مفعول **يَجْعَلُ** و الفعل للّه عزّ وجلّ كأنّه قال، يجعل اللّه الولدان شيباً في يوم.

أقول تفسير الآية واضح و لا يحتاج الى هذه التكلّفات الّتى هي من قبيل الأكل من القفا، و ذلك لأنّ التّقوىٰ من الوقاية و هى الحفظ فالمتّقي من يحفظ نفسه من المعصية و هو أي حفظ النّفس يتحقّق بترك المعاصي و فعل الواجبات فمن حفظ نفسه عن فعل المعصية و ترك الواجب فهو متّصفٍ بالتّقوىٰ قطعاً.

إذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ** معناه، أي كيف تحفظون أنفسكم، إن كفرتم باللّه و رسوله **يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدٰانَ شِيبًا** من شدّة العذاب و علىٰ هذا فالتّقدير كيف تحفظون أنفسكم من العذاب في يومٍ يجعل الولدان شيباً، فقوله: **يَوْمًا** مفعول **تَتَّقُونَ** و **ٱلْوِلْدٰانَ** مفعول، يجعل، و **شِيبًا** حالٌ من الولدان، و بعبارةٍ أخرى كيف تحفظون أنفسكم من العذاب في ذلك اليوم الشدّيد و المفروض أنّكم كفرتم باللّه و رسوله في الدُّنيا.

اَلسَّمٰاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كٰانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً

ثمّ زاد اللّه في صفته شدّة ذلك اليوم فقال: **ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ** أي متّصدعٌ لشدّة ذلك اليوم، قيل معنىٰ (به) أي (فيه) أي في ذلك اليوم لهوله **كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا** أي وعده بالقيامة و الحساب و الجزاء كائنٌ لا شكّ فيه إذ لو لم يكن كذلك لزم الكذب فيما وعده و هو قبيحٌ علىٰ اللّه تعالىٰ لأنّه منزّهٌ عن القبائح.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا

أي أنّ هذه الأيات عظةٌ و تذكرةٌ لمن تدبّر فيها حقّ التّدبر **فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا** معناه إنّا بيّنا طريق العذاب و طريق النّجاة كما قال تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**(١) و لا شكّ أنّ طريق النّجاة من العذاب منحصر في طاعة اللّه و رسوله فمن لم يطع اللّه و رسوله فقد ظلم على نفسه و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَ نِصْفَهُۥ وَ ثُلُثَهُۥ وَ طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَ ٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَ ءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَ ءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَ مَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا وَ ٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ

إِنَّ رَبَّكَ يا محمّد **يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ** لصلاة اللّيل، و قيل معنى تقوم، نصّلي **أَدْنَىٰ** أي أقلّ **مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَ نِصْفَهُۥ وَ ثُلُثَهُۥ** إختلفوا، في قراءة **نِصْفَهُۥ وَ ثُلُثَهُۥ** فمنهم من كسر الفاء في نِصفه، و الثّاء في، ثلثه، و على هذه القراءة فالتّقدير من نصفه و ثلثه بمقتضى العطف على **ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ** و المعنى انّ ربّك

١- الدّهر = ٣

يعلم أنّك تقوم للصّلاة أدنىٰ و أقلّ من ثُلثي اللّيل و من نصفه و من ثلثه أي و أدنىٰ من نصفه و أدنىٰ من ثلثه، و قرأ الباقون بالنّصب في الفاء و الثّاء و علىٰ هذه القراءة فالمعنى أنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل، و نصفه و ثلثه، و علىٰ هذا فقوله: **نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ** معطوفٌ على قوله: **أَدْنىٰ** و هو في محلّ النّصب علىٰ أنّه مفعول **تَقُومُ** و هذه القراءة اكمل و احسن و المصاحف فعلاً عليها.

و أمّا القراءة الأولى و هى الجرّ فهي شاذّة نادرة و كيف كان فمعنى الكلام أنّ ربّك يعلم قيامك باللّيل **وَ طَآئِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ** أي أنّ اللّه يعلم قيامك باللّيل للصّلاة و يعلم قيام طائفة ممّن معك من المؤمنين **وَ ٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ** معناه أنّ اللّه الّذي يقدّر اللّيل و النّهار علم أن لن تحصوه، أي علم أن لن تقدروا على ذلك أو لن تطيقوه أي لن تطيقوا القيام باللّيل هكذا قيل.

أقول هذا التّفسير يتّم بناءً علىٰ القول بوجوب صلاة اللّيل أوّلاً علىٰ الجيمع ثمّ نسخ و الحقّ انّ الأمر في أوّل السّورة علىٰ وجه النّدب لأنّ الأمر لو كان للغرض لما كان محيّزاً في مقداره و انّما بيّن تخفيف النّقل و على هذا فالتّخفيف في النّقل لا في الوجوب فقوله: **عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ** خطاب للطّائفة لا للنبّى.

يقول اللّه تعالىٰ لمن معه من المؤمنين علم اللّه أن لن تحصوه أي أنّها توجب المشّقة و الحرج عليكم **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** أي لم يلزمكم اثماً كما لا يلزم التّائب أي رفع التّبعة فيه كرفعها عن التّائب هكذا فسرّه الشّيخ في التّبيان مع أنّ قد نصّ فيه بأنّ صلاة اللّيل من أوّل الأمر كان علىٰ النّدب فلا وجه للتّنافي حتّىٰ ينسخ بعضها ببعضٍ.

و لقائلٍ أن يقول لو كان الأمر في أوّل السّورة علىٰ وجه النّدب فكذلك هاهنا، فأيُّ معنىٰ كقوله تعالىٰ: **عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ** و من

المعلوم أنّ ترك النّدب لا يُوجب إثماً فما معنىٰ قولكم، أي لم يلزمكم اثماً كما لا يلزم التّئب و أيُّ إثم في ترك النّدب حتّىٰ صحّ قوله: **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** والّذي يقوّي في النّفس هو أنّ الصّلاة في اللّيل كانت واجبة على جميع المؤمنين كما كان واجبة على الرّسول بدليل قوله و طائفة من المؤمنين معك ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ خفَّف عنهم أي عن الّذين كانوا مع النّبي لما ذكره في هذه الأيج من المرض و السّفر و غير ذلك فرفع الوجُوب و بقي النَّدب على حاله و يؤيّد ما إحتملناه ما ذكره علّي بن إبراهيم في تفسيره في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام عن قوله تعالىٰ: **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ** ففعل النّبي ذلك و بشّر النّاس به فإشتدّ ذلك عليهم و علم أن لن تحصوه، الرّجل يقوم و لا يدري متىٰ ينتصف اللّيل و متى يكون الثّلثان و كان الرّجل يقوم حتّى يصبح مخافة أن لا يحفظه، فأنزل اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ** إلىٰ قوله: **عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ** يقول متىٰ يكون النِّصف و الثُّلث فنسخت هذه الآية بقوله تعالىٰ: **فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْاٰنِ** و أعلموا أنّه لم يأت نبيٌّ قطّ إلاّ خلا بصلاة اللّيل و لا جاء نَبيٌّ قطّ بصلاة اللّيل في أوّل اللّيل إنتهىٰ.

فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْاٰنِ هو أمرٌ من اللّه علىٰ سبيل النّدب بقراءة القرأن بدل صلاة اللّيل و أنّما قلنا علىٰ سبيل النّدب لأنّ الفَرع لا يزيد على الأصل ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ علّة النَّسخ فقال: **عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ** و المريض لا يَقدر علىٰ صلاة اللّيل و حفظ مواقيتها إلاّ لصعوبة الّتى تستلزم الجمح و المشّقة و الجرح منّفيٌ في الدّين للّه تعالىٰ.

قال اللّه تعالى: **مَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**(١).

١- المائدة = ٦

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**(١).

و لا شكّ أنّ القيام في اللّيل في وقتها حرج على المريض و هو ظاهر.

وَ ءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ أي ومنكم قوم أخرون ليسوا بمرضى و لكن يسافرون في الأرض لتحصيل الرّزق كالتّجار و أمثالهم.

قال رسُول اللّه ﷺ: ما من جالب يجلب طعاماً من بلدٍ إلى بلدٍ فيبيعه بسعر يومه إلاّ كانت منزّلته عند اللّه منزّلة الشّهداء ثمّ قرأ رسُول اللّه هذه الآية (و اٰخرُون يُقاتِلُونَ في سَبيل اللّه) وهُم المجاهدون.

فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ أي ما تيسّر من القرأن بدل الصّلاة في اللّيل فأنّ اللّه يجزيكم أجرها يوم القيامة ثمّ خاطب اللّه المسلمين و قال: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ** و هي الصّلوات المفروضة **وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ** المفروضة بشرائطها.

وَ أَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا أي أنفقوا في سبيل اللّه و الجهات الّتى أمركم اللّه بها، قيل سمّي ذلك قرضاً تلطفاً في القول لأنّ اللّه تعالىٰ من حيث أنّه يجازيهم على ذلك بالثّواب فكأنّه إستقرض منهم ليردّ عوضه هكذا قيل و يحتمل أن يكون المراد بالقرض في الآية القرض المعروف بين النّاس فأنّه أيضاً من القرض الحسن و من أقرض غيره للّه فكأنّما أقرض اللّه و الأحسن حمل الكلام على معناه العامّ و الأمر واضح و قد تكلّمنا في الصّلاة و لازّكاة و القرض فيما مضى من الأيات الواردة في فضلها و شرفها غير مرّةٍ بما لا مزيد عليه ثمّ قال تعالىٰ.

وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا أي ما تقدّموا لأنفسكم من خيرٍ، في الدُّنيا من الأعمال و الخيرات و

١- الحجّ = ٧٨

المبّرات تجدوه، أي تجدوا ثوابه و جزاءه يوم القيامة عند اللّه و قوله: **هُوَ خَيْرًا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا** قيل هو عطفه علىٰ **خَيْرٍ** أي ما تجدوه لأنفسكم من خيرٍ، هو خيراً و أعظم أجراً.

أقول يظهر من كلام صاحب الكشّاف أنّ **خَيْرٍ** ثاني المفعولين لقوله: **تَجِدُوهُ** و المعنىٰ تجدوه خيراً و اعَظَم أجراً، و علىٰ هذا فقوله: **عِنْدَ ٱللَّهِ هُوَ** فصل بين المفعولين، و قرأ أبوالسَّمال هو خيرٌ و أعظم أجراً، برفع الخير على أنّه خبر، هو، و أظنّ أنّ هذه القراءة أوفق بنظم العبارة واللّه أعلم.

و كيف كان فالأمر أوضح من أن يخفى على أحدٍ ثمّ أمرهم اللّه بالإستغفار فقال: **وَ ٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ** علىٰ معاصيكم **إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** إذا تبتم و رجعتم إليه فأنّ رحمته وسعت كلّ شئٍ.

■

سُورَةُ ٱلْمُدَّثِّرِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰٓا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾
وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَ ٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَ لَا تَمْنُنْ
تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذٰا نُقِرَ فِى
ٱلنّٰاقُورِ ﴿٨﴾ فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى
ٱلْكٰافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَ جَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَ
بَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ
يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلّٰآ إِنَّهُ كٰانَ لِاٰيٰاتِنٰا عَنِيدًا
﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ ﴿١٨﴾
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ
نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ ٱسْتَكْبَرَ
﴿٢٣﴾ فَقٰالَ إِنْ هٰذٰآ إِلّٰا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هٰذٰآ
إِلّٰا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَ مٰآ
أَدْرٰيكَ مٰا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لٰا تُبْقِي وَ لٰا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
لَوّٰاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَ مٰا
جَعَلْنٰآ أَصْحٰابَ ٱلنّٰارِ إِلّٰا مَلآٰئِكَةً وَ مٰا جَعَلْنٰا

عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَ يَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَ لَا
يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ
ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ ٱلْكَافِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِى
مَنْ يَشَآءُ وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ مَا هِيَ إِلَّا
ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿۳۱﴾ كَلَّا وَ ٱلْقَمَرِ ﴿۳۲﴾ وَ ٱللَّيْلِ إِذْ
أَدْبَرَ ﴿۳۳﴾ وَ ٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿۳۴﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى
ٱلْكُبَرِ ﴿۳۵﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿۳۶﴾ لِمَنْ شَآءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿۳۷﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ
﴿۳۸﴾ إِلَّآ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ ﴿۳۹﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿۴۰﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿۴۱﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿۴۲﴾
قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿۴۳﴾ وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ
ٱلْمِسْكِينَ ﴿۴۴﴾ وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿۴۵﴾
وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿۴۶﴾ حَتَّىٰٓ أَتَيْنَا ٱلْيَقِينُ
﴿۴۷﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ ﴿۴۸﴾ فَمَا لَهُمْ
عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿۴۹﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ
﴿۵۰﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿۵۱﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ
مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿۵۲﴾ كَلَّا بَلْ لَا
يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿۵۳﴾ كَلَّآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿۵۴﴾ فَمَنْ
شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿۵۵﴾ وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ
هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَى وَ أَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿۵۶﴾

◀ اللّغة

ٱلْمُدَّثِّرُ: أصله المتدثّر أدغمت التّاء في الدّال لكونهما من مخرج واحد مع أنّ الدّال أقوى بالجهر و المعنىٰ المُتدثّر بثيابه.

قُمْ: فعل أمرٍ من قامَ يَقُوم.

فَأَنْذِرْ: الإنذار التّخويف.

ٱلرُّجْزَ: بضمّ الرّاء و سكون الجيم الإثم و المعصية، قال الكسائي هو، بكسر الرّاء العذاب و بفتحها الصَّنم و الوثن.

فَاهْجُرْ: الهجر التَّرك.

نُقِرَ: أي نفخ النّاقور الصّور.

مَمْدُودًا: من المُدّ و هو الإمتداد و هو كناية عن الكثرة.

عَنِيدًا: العنيد الذّاهب عن الشّيء على طريق العداوة المعاند.

سَأُرْهِقُهُ: الإرهاق الإعجال بالعنف.

عَبَسَ: أي قبض وجهه تكرّهاً للحقّ.

بَسَرَ: بدو التُّكرّه في الوجه.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ: الإصلاء إلزام موضع النّار و أصله اللُّزوم و سقر بفتح السّين و القاف إسم من أسماء جهنَّم.

لَوَّاحَةٌ: أي مغيّرة و قيل حرّاقة.

أَدْبَرَ: أي ولّىٰ.

أَسْفَرَ: أي كشف وأنار.

ٱلْيَقِينُ: الموت.

حُمُرٌ: بضمّ الحاء المهملة و الميم جمع حمار.

مُسْتَنْفِرَةٌ: من الفرار الذّهاب عن الشّيء خوفاً منه.

قَسْوَرَةٍ: قيل هي الرّماة و قيل هي الأسد.

مُنَشَّرَةً: النَّشر الغبط. و الصُّحف جمع صحيفة.

◀ الإعراب

ٱلْمُدَّثِّرُ كالمزّمل و قد ذكر تَسْتَكْثِرُ بالرّفع علىٰ أنّه حال و بالجزم علىٰ أنّه جواب أو بدل و بالنّصب على تقدير ليستكثر فَإِذَا نُقِرَ إذا ظرف و العامل فيه فَذَٰلِكَ لأنّه إشارة إلىٰ النّقر و يَوْمَئِذٍ بدل من إذا و (ذلك) مبتدأ و يَوْمٌ عَسِيرٌ الخبر وَ مَنْ خَلَقْتُ هو مفعول معه أو معطوف و وَحِيدًا حال من التّاء في خلقت لَا تُبْقِي حال من سقر لَوَّاحَةٌ بالرّفع أي هي لوّاحة جُنُودَ رَبِّكَ هو مفعول يلزم تقديمه ليعود الضّمير إلىٰ مذكور نَذِيرًا حال من الفاعل في قُمْ في أوّل السُّورة أو حال من الضّمير في، فأنذر فِي جَنَّاتٍ حال من أصحاب اليمين أو من الضّمير في يتسائلون لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ جواب مَا سَلَكَكُمْ و مُعْرِضِينَ حال من الضّمير في الجار فَرَّتْ حال وقد، معها مقدّرة إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ أي في وقت مشيّئة اللّه.

◀ التّفسير

يَآ أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ

الخطاب للنّبي و المعنىٰ أيُّها المتدّثر بثيابه فأدغمت التّاء في الدّال لأنّ مخرجهما واحد مَع أنّ الدّال أقوى بالجهر فيها يقال دثر الرّسم إذا محى أثره و قرأ أبّي بن كعب يا أيُّها المُتدثّر علىٰ الأصل قيل معظم هذه السُّورة في الوليد بن المغيرة.

روى القُرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، في صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري و كان مِن أصحاب رسول اللّه ﷺ كان يحدّث قال: قال رسُول اللّه ﷺ و هو يحدّث عن فترة الوحي قال في حديث فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السّماء فرفعت رأسي فإذا المَلَك الّذي جاءني بحراء جالساً على

كرسي بين السّماء و الأرض قال رسول اللّه ﷺ فرجعت و قلت زمّلوني زمّلُوني فدَّثروني إنتهىٰ.

قُمْ فَأَنْذِرْ

أي خوف المشركين من أهل مكّة و حذّرهم العذاب يوم القيامة إن لم يسلموا و قيل الإنذار هُنا إعلامهم بنبوّته و قيل هو دعائهم إلىٰ التّوحيد.

وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ

أى عظّمه وصفه بما هو يليق بشأنه قال بعض العُرفاء هذا القول و أن كان يقتضي بعمومه تكبير الصّلاة فأنّه يراد به التّكبير وا لتّقديس و التّنزيه لخلع الأنداد والأصنام دونه و لا تتَّخذ وليّاً غيره و لا تعبد سواه.

وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ

أي و طهّر ثيابك فهو منصوب به و هكذا قوله: **وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ** أي فكبّر ربّك و قوله: **فَطَهِّرْ** الطّهارة و النّظافة الّتى تتحقّق بإنتفاء النجاسة.

فعن إبن عبّاس في قوله: **وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** معناه من لبسها علىٰ معصيته كما قال تعالىٰ الشّاعر:

و انّي بحمد اللّه لا ثوب فاجر لبست و لا من غدرةٍ أتقنّع

و ذكر بعض المفسّرين فيه ثمانية أقوال:

أحدهما: أنّ المراد بالثّياب العمل.

الثّاني: القلب.

الثّالث: النَّفث.

الرّابع: الجسم.

الخامس: الأهل.

السّادس: الخلق.

السّابع: الدّين، الثّياب الملبوسات على الظّاهر، فمن ذهب إلى القول الأوّل قال تأويل الأية، و عملك فأصلح و به قال مجاهد و ابن‌زيد، قيل إذا كان الرّجل خبيث العمل قالوا أنّ فلاناً خبيث الثّياب و إذا كان حسن العمل قالوا فلان طاهر الثّياب ثمّ.

روى عن النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم: أنّه قال يحشر المرء في ثوبيه اللّذين مات عليهما يعني العمل الصّالح و الطّالح.

أقول أخلاق الثّياب على العمل أو القلب أو النّفس و غيرهما ممّا لا كلام فيه فأنّ باب المجاز واسع كما يقال زيد كثير الرّماد مثلاً و هو كناية عن جوده فإرادة الجود من كثير الرّماد مجازاً لا يوجب حمل الرّماد عليه أينما وجد الرّماد في اللّفظ.

و حاصل الكلام أنّ ما ذكروه في المقام من الوجوه كلّها مجاز لا يطلق الثّياب عليها حقيقةً و اذا دار الأمر بين الحقيقة و المجاز فالحمل علىٰ الحقيقة أولى و أيُّ إشكالٍ في المقام في حمل لفظ الثّياب علىٰ معناه الحقيقي حتّىٰ نحتاج إلىٰ هذه التكلّفات الباردة الّتى ينكرها العقل السّليم و علىٰ هذا فنقول معنى الكلام هو تطهير الثّياب و لا سيّما في الصّلاة فأنّ طهارة الثّوب شرط في صحّتها.

و من المعلوم أنّ هذه الخطابات و أن كانت ظاهرة للنّبي إلاّ أنّ المراد بها الأمّة.

وَ ٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ

الرُّجز بضمّ الرّاء الإثم و المعصية و قيل هُو الاوثان و الأصنام و عن ابن‌عبّاس أنّه قال معناه المأثم ما ترك.

و قال الكسائي الرُّجز بالضمّ الصّنم و بالكسر النّجاسة و المعصية و بالنَّصب الوعيد و الحقّ أنّ معناه كلّما يوجب الإثم فأتركه و هذا معنى يشمل الجميع.

وَ لَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ

قال ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و غيرهم معناه لا تعط عطيّة لتعطي أكثر منها.

و قال الحسن و الرّبيع و أنس، معناه لا تمنّن حسناتك على اللّه مستكثراً لها.

و قال إبن زيد لا تمّنن ما أعطاك اللّه من النبوّة والقرأن مستكثراً إطاعتك.

و قال قومٌ لا تمّنن على النّاس، بما تنعم به عليهم على سبيل الإستكثار لذلك ثمّ أنّ **تَسْتَكْثِرُ** مجزومٌ على جواب النّهي و هو في مواضع الحال هذا كلّه ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قد ذكر القرطبي أحد عشر تأويلاً في معنى الكلام و نحن أعرضنا عن نقلها لعدم الفائدة فيها و إن شئت الوقوف عليها فعليك بكتابه والّذي نقول في معنىٰ الآية.

ما روي عن الصّادق عليه السلام في هذه الآية وهُو أنّه قال لا تستكثر ما عملت من خيرٍ للّه.

و عن الباقر عليه السلام: لا تعط العطيّة تلتمس أكثر منها.

ففي الحقيقة نهى اللّه تعالىٰ نبيّه ظاهراً و جميع الأمّة واقعاً عن إستكثار الخير و العمل، لأنّه يوجب العجب و هو من الأفات و انّما نهىٰ اللّه عن ذلك لأنّ كلّ يفعله العبد من الخيرات فهو من توفيق اللّه إيّاه فلا معنى لمنّة العبد و المفروض أنّه لا يقدر علىٰ شئ من عند نفسه.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره ماهذا لفظه، و المعنى لا تمّنن إمتثالك لهذه الأوامر و قيامك بالإنذار و تكبيرك ربّك و تطهيرك ثيابك و هجرك الرُّجز حال كونك ترى ذلك كثيراً و تعجبه فأنّما أنت عبدٌ لا تملك من نفسك شيئاً إلاّ ملّكك اللّه و أقدرك عليه و هو المالك لما ملّكك والقادر على ما عليه أقدرك

فله الأمر و عليك الإمتثال ثمّ بعد نقله بعض الأقوال، قال، و قيل هو نهيٌ عن الرّبا المحرم أي لا تعط شيئاً طالباً أن تعطى أكثر ممّا أعطيت إنتهىٰ.

أقول ما ذكره ﷺ و اختاره لا إشكال فيه و هو قريبٌ ممّا ذكرناه من أنّ الخيرات الّتي تجري علىٰ يد العبد من توفيق اللّه و أمّا قوله فهذه الأوامر و إمتثالها كذا و كذا فهي داخلة تحت الهموم لأنّها من الخيرات فلا وجه لتطبيق الآية عليها فقط و أنّ المراد بقوله و لا تمّنن تستكثر، هو إمتثال هذه الأوامر.

وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ

قيل معناه و لأجل ربّك فأصبر على عطيّتك، و قيل فأصبر على أذىٰ المشركين، و قيل فأصبر على ما أمرك به من أداء الرّسالة و تعليم الدّين و ما ينالك من الأذىٰ و التّكذيب.

أقول لا شكّ أنّ الصّبر علىٰ المكاره من أحسن الصّفات و قد أمر اللّه جميع أنبيائه به على ما نالهم من الأذىٰ و التّكذيب من ناحية الكفّار كذلك لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

قال اللّه تعالى: **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**[1] فأن الصّبر مفتاح الفَرج.

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ

النّاقور فاعول من النّقر كأنّه الّذي من شأنه أن ينقر فيه للتّصويت و النّقر في كلام العرب اصّوت و منه قول إمرؤ القيس:

أخفّضه بالنّقر لمّا علوته ... يرّفع طرفاً غير خافٍ غضيّض.

۱- الاحقاف = ۳۵

فالمعني فإذا نفخ في الصُّور و هو يوم البعث فذلك اليوم يومٌ شديدٌ على الكافرين غير يسير أي غير سهلٍ و لا هيّن و ذلك أنّ عقدهم لا تنحّل إلاّ إلى عقدةٍ أشدّ منها بخلاف المؤمنين المذنبين فانّها تنحلّ إلى ما هو أحطّ منها حتّى يدخلوا الجنّة و المقصود أنّ اللّه تعالىٰ يقول لنبيّه **لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** إلىٰ اليَوم الموعود الّذي يرونه بعيداً و نراه قريباً ثمّ قال تعالىٰ لنبيّه:

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَ بَنِينَ شُهُودًا، وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا

ذرني، أي دعني و هى كلمة وعيد و تهديد، و من خلقت وحيداً، أي دعني و من خلقته وحيداً، فقوله: **وَحِيدًا** حال من ضمير المفعول المحذوف أي خلقته وحده لا مال له و لا ولد ثمّ أعطيته بعد ذلك ما أعطيته.

قال المفسّرون هو الوَليد بن المغيرة المخزومي و أن كان النّاس خلقوا مثله لا أنّه خصّ بالذّكر لإختصاصه بكفر النّعمة و إيذاء الرّسول و كان يسمّىٰ الوحيد في قومه.

قال إبن عبّاس كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظيرٌ و لا إلى المغيرة نظيراً و كان يسمّىٰ الوحيد، و قال قوم أنّ **وَحِيدًا** يرجع إلىٰ الرَّب تعالىٰ على معنيين:

أحدهما: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الإنتقام منه من كلّ منتقم.

الثانى: أنّي إنفردت بخلقه و لم يشركني فيه أحد فأنا أهلكه و لا أحتاج إلى ناصرٍ في إهلاكه و على هذا فقوله: **وَحِيدًا** حال من ضمير الفاعل التّاء في خلقت و الأوّل قول مجاهد.

و الثّاني: قول الجمهور و هو أقرب الى الصَّواب و أمّا قوله: **وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا** أي خولّته و أعطيته مالاً ممدوداً أي كثيراً، و أمّا ما ذكره بعض المفسّرين من تعيين مقدار المال فلا دليل عليه و لا نحتاج إليه فأنّ كثرة المال

تشمل جميع ما ذكروه أو أقلّ أو أكثر و فى هذا الكلام إشارة إلىٰ أنّ كثرة النّعمة توجب الطُّغيان علىٰ الرَّب غالباً.

وَ بَنِينَ شُهُودًا البنين أولاد الذُّكور كما أنّ البنات أولاد الاناث و قوله: **شُهُودًا** معناه أنّه يتمتّع بمشاهدتهم و ينتفع بحضورهم، و قيل كان بنوه لا يغيبون عنه لغنائهم عن ركوب السَّفر في التّجارة قاله في التّبيان.

و قال مجاهد و قتادة كانوا عشرة و قيل أثنى عشر و قيل سبعة ولدوا بمكّة و خمسة بالطّائف و قيل كانوا ثلاثة عشر ولداً، و قال مقاتل كانوا سبعة أسلم منهم ثلاثة، خالد بن هشام و الوليد بن الوليد قال فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان في ماله و ولده حتّىٰ هلك.

و قال بعضهم في معنىٰ الشّهود أنّه أي الوليد إذا ذكر ذكروا معه، و قيل معناه قد صاروا مثله في شهود ما كان يشهده و القيام بما كان يباشره و قيل غير ذلك و الكلّ محتمل لا دليل عليه والّذي نصَّ عليه القرأن هو أنّه كان له بنين و شهوداً و معنىٰ الشّهود الحضور.

وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا أي بسطت له في العيش بسطاً و قيل سهَّلت له التَّصرف في الامور تسهيلاً، و التَّمهيد عند العرب التَّوطئة و التَّهيئة و منه (مَهدُ الصَّبي).

و قال إبن عبّاس أي وسَّعت له ما بين اليَمن و الشّام.

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ

أي أنّه لَم يشكر علىٰ هذه النِّعم و كفر بها و معذلك يطمع الزّيادة فيها.

كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأيَٰاتِنَا عَنِيدًا

كلاّ، للرَّدع و الزَّجر و المعنىٰ ليس يكون كذلك مع كفره أي لا نزيد على ما أعطيناه شيئاً فأنّ زيادة النّعمة مسبّبةٌ عن الشّكر عليها كما أنّ العذاب على

النّعمة مسبّبٌ عن الكفر بها قال تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَـئِنْ كَـفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**[۱].

و على هذا فمن كفر بالنِّعمة كيف يطمع الزّيـادة عـليها اللّـهم إلاّ أن يـطمع زيادة العذاب ثمّ علّل الزّجر و المنع عن الزّيادة بقوله: **إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا** أي معانداً منكراً لها و المراد بالأيات أمّـا أيـات الكـتاب المـعبّر عـنها بـالأيات التّشريعيّة، و أمّا النبوّة و المعجزات المعبّر عنها بالأيات التّكوينيّة و يـظهر مـن الآية أنّه كان منكراً للجميع كما هو شأن الكافر المعاند.

سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا

الإرهاق الإمجال بالعنف أي سألجاه و قيل معناه سأكلّفه صعوداً فـالصُّعود جبلٌ من نار يتصعّد فيه سبعين خريفاً ثمّ يهوي فيه أبـداً الصُّـعود العـقبة الّـتى يصعب صعودها و هى الكئود و الكدود في إرتفاعها و نقيض الصُّعود الهـبوط ثمّ علّل اللّه ذلك العذاب بقوله:

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَ ٱسْتَكْبَرَ

ذكر اللّه تعالىٰ من أوصافه الّتى أوجبت له العذاب في القيامة أموراً:

أحدها: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ أي فكر فكراً باطلاً لأنّه لو فكر على وجه الحقّ و طلب الرّشاد به لم يكن مذموماً، و قيل أنّه فكر في شأن النّبي و القرأن **وَ قَدَّرَ** أي هيَّأ الكلام في نفسه فقال أنّه كذّب و نسب النّبي إلىٰ السِّحر و الجنون فـي القرأن أنّه من أساطير الأوّلين و امثال ذلك من الأباطيل.

روي أنّه لما نَزَل، **حٰمٓ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** الى قـوله: **إِلَـيْهِ الْمَصِيرُ**[۲] فسمعه الوليد و قال واللّه لقد سمعت منه كـلاماً مـا هـو مـن كـلام

۱- إبراهيم = ۷

۲- غافر = ۱ الى ۳

الإنس و لا هو من كلام الجنّ و أنّ له لحلاوة، و أنّ عليه لطلاوة، و أنّ أعلاه لمثمر، و أنّ أسفله لمغدق، و أنّه ليعلوا و لا يعلى عليه، و ما يقول هذا بشر فقالت قريش صبا الوليد لتصبون قريش كلّها و كان يقال للوليد ريحانة قُريش.

الثّاني: قوله: **فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** أي لعن و عذّب كيف قدّر، و قيل كيف تعجبٌ كما يقال للرَّجل تتعجّب من صنيعه كيف فعلت هذا و ذاك كقوله تعالىٰ: **أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ**(۱).

الثّالث: **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** أي لعن لعناً بعد لعنٍ، و قيل عوقب بعذابٍ أخر كيف قدَّر من ابطال الحقّ تقديراً أخر، و قيل لعن بما يجري مجرى القتل.

الرّابع: قوله **ثُمَّ نَظَرَ** أي نظر بأيّ شئٍ يردّ الحقّ و يدفعه.

الخامس: قوله **ثُمَّ عَبَسَ** أي قبض وجهه تكرّهاً للحقّ يقال عبس يعبس عبوساً، فالعبوس و التّكليح و التّغطيب نظائر و ذلك أنّه مرَّ على جماعة المسلمين فدعوه إلىٰ الإسلام فعبس في وجوههم و **بَسَرَ** فالبسور بدو التكرّه الّذي يظهر في الوجه و أصله من قولهم بسر بالأمر إذا عجل به قبل حينه.

السّادس: قوله **ثُمَّ أَدْبَرَ وَ ٱسْتَكْبَرَ** الإدبار الإعراض و هو ضدّ الإقبال يقال أدبر عن الشّئ أي أعرض عنه و المراد في الآية الإعراض عن الحقّ و لازم ذلك الإقبال إلى الباطل و الإستكبار من الكبر أي تكبّر و تعظّم عن أن يؤمن باللّه و رسوله و هذا كما أنّ الشّيطان أبي و إستكبر عن السُّجود لأدم فهذه الصّفات المذكورة أوجبت له خزي الدُّنيا و عذاب الأخرة.

فَقَالَ إِنْ هٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ

أي الّذي أتىٰ به محمّد ﷺ من الأيات و المعجزات ليس إلاّ سحراً يؤثر أي يأثره عن غيره و السِّحر الخديعة و قيل هو إظهار الباطل في صورة الحقّ و

۱- الاسراء = ۴۸

الأثِرة من أثرت الحديث إذا ذكرته من غيرك فقوله: **سِحْرٌ يُؤْثَرُ** معناه سحرٌ أخذه من غيره و(إن) نافية بمعنى ليس أي ليس هذا إلاّ سحرٌ أخذه من غيره.

إِنْ هٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ

إن، أيضاً نافية أي ليس هذا أي الكتاب إلاّ قول البشر و ليس كلام اللّه.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ

لمّا قال الوليد بن المغيرة ما قال من الأباطيل و حمل معجزات النّبي علىٰ السِّحر و قال أنّ القرأن ليس إلاّ قول البشر قال اللّه تعالى مهدّداً له و متوعّداً إيّاه **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** أي ألزمه جهنّم و بعبارةٍ أخرى سأدخله نار جهنَّم، فقوله: **سَقَرَ** من أسماء جهنَّم و الإصلاء إلزام موضع النّار و أصله اللُّزوم ثمّ قال تعالىٰ لنبيّه.

وَ مَآ أَدْرٰيكَ مَا سَقَرُ

أنّما قال ذلك إعظاماً لها و تهويلاً و المعنىٰ ما أعلمك اللّه كنه جهنَّم و حقيقتها.

لَا تُبْقِي وَ لَا تَذَرُ

قيل معناه لا تبقي من فيها حيّاً و لا تذره ميتاً، و قيل معناه لا تبقي أحداً من أهلها إلاّ تناولته من العذاب، و قيل لا تترك عظماً و لا لحماً و لا دماً إلاّ أحرقته.

لَوّٰاحَةٌ لِلْبَشَرِ

أي مغيرةٌ من (لاحَه) إذا غيره و قراءة العامّة لوّاحةٌ، بالرَّفع علىٰ أنّها نعتٌ لقوله: **سَقَرُ** أي و ما أدراك ما سقر لوّاحةٌ للبشر ثمّ أنّهم إختلفوا في معناها.

فقال مجاهد معناها مغيّرة لجلد الإنسان الّذي هو البشرة، و قيل لوّاحة بمعنى، حرّاقةٌ و قيل، تلفح وجوههم لفحةً تدعها أشدّ سواداً من اللّيل.

عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ

أي على سقر و هى جهنَّم تسعة عشر من الملائكة الموكّلين عليها يلقون فيها أهلها.

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلاّ مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ وَ ما هِيَ إِلاّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ

فقوله: وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلاّ مَلائِكَةً لأنهم خلاف جنس المعذّبين من الجنّ و الإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرِّقة والرّأفة و لأنّهم أقوم خلق اللّه بحقّ اللّه و بالغضب له و لأنهم أشدَّ خلق اللّه بأساً و أقواهم بطشاً هكذا قيل في وجه كون أصحاب النّار من الملائكة و عليه أكثر المفسّرين فيما نعلم و الحقّ أنّ ما ذكروه من مستخرجات ظنونهم و أهواءهم إذ لا دليل من العقل و النّقل على صحّة ما ذكروه و الآية لا تدلّ على أكثر ممّا يظهر منها من أنّ اللّه تعالى جعل على النّار ملائكة و لا يبعد أن تكون الملائكة الموكّلين علىٰ النّار من جنس النّار بخلاف الملائكة الموكّلين على الجنَّة واللّه أعلم.

وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا أي ما جعلنا عدّة الملائكة الموكّلين علىٰ النّار، تسعة عشر، إلاّ فتنةً و اختباراً للكفّار، و قيل إلاّ محنةً و تشدّيداً للتّكليف للّذين كفروا نعم اللّه و جحدوا ربوبيّته ليلزمهم النّظر في ذلك ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين أي جعلنا ذلك بسبب كفرهم و سبب العذاب.

قال إبن عبّاس لمّا نزل **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمّهاتكم، أسمع إبن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة جهنّم تسعة عشر و أنتم الدّهم، أي العدد و الشّجعان فيعجز كلّ عشيرة منكم أن يبطشوا بواحدٍ منهم فقال أبوالأسود بن كلدة لا يهولنّكم التّسعة عشر أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة و بمنكبي الأيسر، التّسعة ثمّ تمرُّون إلى الجنَّة يقولها مستهزءاً.

و في رواية أنّ الحرث بن كلدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر و أكفوني أنتم أثنين، و قيل أنّ أبا جهل قال أفيعجز كلّ مائة منكم أن يبطشوا بواحدٍ منهم ثمّ تخرجون من النّار، و قيل أنّ افتنانهم به هو استبعادهم أن يتولى هذا العدد تعذيب أكثر الثّقلين.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَ يَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِيمَانًا أي أنّما فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب يقيناً أنّ محمّداً صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صادق من حيث أنّه أخبر بما في كتبهم من غير قراءةٍ لها و يزداد الّذين أمنوا، بمحمّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و ما جاء به (إيماناً) مضافاً إلىٰ إيمانهم لأنّهم وجدوا ما أخبرهم النّبي حقّاً.

وَ لَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ و هم اليهود و النّصارىٰ و (المؤمنون) الّذين أمنوا باللّه و رسوله و بعبارةٍ أخرىٰ لا يشكّ أهل الكتاب و أهل الايمان في أنّ ما في الكتاب أعني التّوراة و الإنجيل و ما أخبرهم النّبي حقّ لا مرية فيه.

وَ لِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ ٱلْكَافِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا أي و ليقول الّذين في قلوبهم نفاق و العناد و الكافرون باللّه و رسوله و اليوم الأخر، ماذا أراد اللّه بهذا (يعني بعَدَد خَزَنة جهنّم).

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ أي مثل ما فضح اللّه هؤلاء الكفّار و ذمّهم، يضلّ من يشاء منهم، لا ما زعم هؤلاء الكفّار و القائلون بالجبر من أنّ اللّه خلقهم كافراً و أعجزهم عن الإيمان و المقصود أنّا نختبرهم في الدُّنيا فمنهم من يؤمن و منهم من يكفر بالإيمان و الكفر بسوء إختيارهم و عنادهم ربّك بظلاّمٍ للعبيد.

وَ مٰا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّٰ هُوَ وَ مٰا هِيَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْبَشَرِ أي أنّما قُلنا (تسعة عَشَر) لأجل الإختبار و الإمتحان ليهلك من هلك عن بَيّنة و يحيا من حيّ عنها، و إلاّ فجنود ربّك لا تعدّ و لا تحصى لا يعلمها إلاّ خالقها و ما هي أي الجنود إلاّ ذِكرىٰ، أي تذكرةٌ للبشر وعظةٌ له فأنّ اللّه تعالىٰ لا يحتاج إلىٰ ناصرٍ و معينٍ و محصّل الكلام في هذه الآية هو إختبار النّاس من المؤمن و الكافر كما قال: **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنَّا وَ هُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ**(١).

قال رسُول اللّه صلّى اللّه عليه و آله وسلّم: وطّت السّماء وحقٌّ أن تئط ما فيها موضع قدمٍ إلاّ و فيه ملك واضع جبهته للّه ساجداً إنتهىٰ.

كَلاّٰ وَ ٱلْقَمَرِ، وَ ٱللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَ ٱلصُّبْحِ إِذٰآ أَسْفَرَ، إِنَّهٰا لَاِحْدَى ٱلْكُبَرِ، نَذِيرًا لِلْبَشَرِ، لِمَنْ شٰآءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ

قال الفرّاء، كلاّ، صلة للقسم و التّقدير **وَ ٱلْقَمَرِ** و قيل المعنىٰ حقّاً، و القمر، أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنّه يقاوم خزنة النّار كما نقلناه عن أبي جهل و أتباعه ثمّ أقسم اللّه عزّ و جلّ على ذلك بالقمر و ما بعده فقال حقّاً أقسم بالقمر، و اللّيل إذا أدبر، أي أقسم باللّيل إذا أدبر أي، ولّى، و قال بعض أهل اللّغة، دبر اللّيل إذا مضىٰ، و أدبر معناه أخذ في الإدبار و الصُّبح إذا أسفر، أي أقسم بالصُّبح إذا أسفر أي أضاء يقال أسفر وجهه حسناً أي أشرق، و سفرت إمرأة، كشفت عن وجهها **إِنَّهٰا لَاِحْدَى ٱلْكُبَرِ** هي جمع (كُبرىٰ) و هي العظمى، و هو جواب القسم أي أقسم بالقمر و اللّيل إذا أدبر، أنّها أي نار جهنّم لإحدى الكبر أي لإحدى الدَّواهي، و قيل الكبر، من أسماء النّار و قيل معناه أنّ السّاعة لإحدى الكبر هي العظائم من العقوبات قال الرّاجز:

يابن المعلّىٰ نزّلت إحدى الكبر   داهية الدَّهر و صمّاء الغير

١- العنكبوت = ٢

و قوله: **نَذِيرًا لِلْبَشَرِ** أي النّار أو السّاعة، نذيراً، أي منذراً، و مخوّفاً للبشر فقوله: **نَذِيرًا** نصب على الحال من الضّمير في أنّها، و أنّما ذكّر لأنّ معناه العذاب أو أراه ذات إنذار على معنى النّسب كقولهم إمرأة طالق و طاهر.

و قال الخليل النّذير كالنّكير و لذلك يوصف به المؤنّث **لِمَنْ شَآءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** أي نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير أو يتأخّر، أو أنّها أي السّاعة و القيامة تكون نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدّم و يسرع إلى الإيمان بها أو يتأخّر فالمعنى واضح ثمّ قال تعالىٰ.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، إِلَّآ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ

حكمٌ كلّي لا إستثناء فيه لأحدٍ من الخلق و المعنى كلّ نفسٍ مرتهنةٌ بكسبها من خيرٍ أو شرٍّ.

قال بعض الأدباء، أنّ رهينة إسمٌ بمعنى الرّهن كالشّتيمة بمعنى الشّتم كأنّه قال كلّ نفسٍ بما كسبت رهينٌ و منه بيت الحماسة:

أبعد الّذي بالنّصف نصف كويكبُ رهينة رمسٍ ذي ترابٍ و جندل

فليست **رَهِينَةٌ** صفة للنّفس لأنّه لو قصدت الصّفة لقيل (رَهين) لأنّ (فَعيلاً) بمعنىٰ مفعُول يستوي فيه المذكر و المؤنّث إنتهىٰ.

أقول فعلىٰ هذا يكون المعنى كلّ نفسٍ رهنٌ بكسبها عند اللّه **إِلَّآ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ** إستثنى من الحكم أصحاب اليمين.

قال صاحب الكشّاف فأنّهم فكّوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم كما يخلص الرّاهن بأداء الحقّ.

و قال في التّبيان إستثنى من النّفوس فقال: **إِلَّآ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ**، و الإستثناء منقطع لأنّ أصحاب اليمين ليسوا من الضّلال الّذين هم رهنٌ بما كسبوه إنتهىٰ.

أقول فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالىٰ: **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** هو نفوس الكفّار و الضلاّل.

إن قلت أن كان الحكم في المستثنى منه عامّاً بمعنى أنّ كلّ إنسان رهنٌ بما كسبه فما معنى الإستثناء أليس أصحاب اليمين من أفراد الإنسان و علىٰ هذا فيلزم أن يكون الحكم مختصّاً بغير أصحاب اليمين من أوّل الأمر فلا عموم فيه.

قلت الإستثناء لا ينافي عموم الحكم فأنّ العموم باقٍ على حاله إلاّ أنّ بعض الأفراد يفكُّون رقابهم عن الرَّهن في الدُّنيا بسبب الإيمان و الإتيان بالأعمال الصّالحة فيردون المحشر و رقابهم منفكّة عن الرَّهن و هذا لا ينافي كونهم قبل الفكّ رهين الكسب و بعبارةٍ أخرى الإنسان بما هو هو مرهون بكسبه إلاّ أنّ بعض الأفراد يفكُّون الرّهن في الدُّنيا و هم أصحاب اليمين و بعضهم ليس كذلك و هم أصحاب الشّمال و على هذا فالإستثناء متّصل ثمّ أن ّاللّه تعالى أشار إلى أحوال أصحاب اليمين فقال: **فِي جَنَّاتٍ** أي أنّهم مقيمون بها و يتنعّمون فيها بأنواع النِّعم.

يَتَسَاءَلُونَ أي يسأل بعضهم بعضاً فأنّ التّسائل التَّفاعل و هو يتحقّق من الطَّرفين مثل التَّضارب و هو أن يضرب بعضهم بعضاً.

عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ

أي يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين و هم الكفّار و المشركون و العصاة.

و قال بعض المفسّرين **يَتَسَاءَلُونَ** أي يسئلون عن أحوال المجرمين فيقال لهم إسألوا عنهم فيقولون لهم.

ما سلككم أي أدخلكم في سقر أي يسأل الرّجل من أهل الجنّة الرَّجل من أهل النّار بإسمه فيقول يا فلان ما سلكك في سَقر، أي أيُّ شئٍ أدخلك في النّار (قالوا) أي قال المجرمون.

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ

أي لم نك في الدُّنيا من المؤمنين الذّين كانوا يصّلون.

وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينِ و هُو الفقير **وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ**

أي كنّا نخالط أهل الباطل في باطلهم فقلنا ما قالوا من الكفر و فعلنا ما فعلوا من الأعمال القبيحة و بعبارةٍ أخرىٰ تابعنا الكفّار و العصاة قولاً و فعلاً و إعتقاداً هو معنى الخوض لا صرف المخالطة و المعاشرة.

وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ

أي كنّا نكذّب بيوم الجزاء و هو يوم القيامة و كنّا كذلك.

حَتَّىٰٓ أَتىٰنَا ٱلْيَقِينُ

أي حتّىٰ أتانا الموت فمتنا على الكفر و الالحاد ذكر اللّه تعالى في هذه الأيات أنّ الّذي أوقعهم فيما أوقعهم من الدُّخول في النّار هو تركهم الصّلاة أوّلاً.

و البخل عن الإنفاق ثانياً.

و متابعة العصاة ثالثاً.

و إنكار المعاد رابعاً.

فهم في الحقيقة أنكروا أصول الدّين بالكلّية و لا نعني بالكفر إلاّ هذا فقولهم لم نكُ من المصلّين، دليلٌ علىٰ عدم إيمانهم باللّه و رسوله ففيه إنكار التّوحيد و النبوّة و قولهم (وكُنّا نُكذّب بالدّين) دليلٌ علىٰ إنكارهم المعاد و عدم الإعتقاد به و لا نعني بالأصول الثّلاثة الّتى عليها مدار الإسلام إلاّ التّوحيد و النبوّة و المعاد هذا كلّه مضافاً إلى بخلهم و امساكهم من إطعام المساكين و الإنفاق عليهم فأنّ البخيل لا يدخل الجنَّة و فى قولهم: **حَتَّىٰٓ أَتىٰنَا ٱلْيَقِينُ** اشارة إلىٰ عدم توبتهم من الكفر قبل الموت و لذلك عبَّر اللّه تعالى عنهم

بالمجرم **يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ** و من المعلوم أنّ من كان كذلك لا تنفعه شفاعة الشّافعين لو كانت و إلى هذا المعنىٰ أشار اللّه بقوله:

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ

الّذين يشفعون لهم و الّذي يخطر بالبال هو أنّ المراد بالشّافعين في الآية قولهم في الأصنام و الأوثان **هَٰؤُلَآءِ شُفَعَآؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ**[۱] و علىٰ هذا فالمعنىٰ ما تنفعهم شفاعة الشّافعين الّذين كانوا يزعمون أنّهم شفعاؤهم عند اللّه.

فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ

ما، إستفهاميّة على سبيل التّهديد و التّخويف و المعنى أيُّ شئٍ لهم و لم أعرضوا و تولّوا **عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ** و النّبوة و الّرشد و لم يتّعظوا به إلى أن صاروا إلىٰ جهة الضّلال، و قيل المراد بهم أهل مكّة من الكفّار، أي فأيُّ شئٍ لأهل مكّة قد أعرضوا وتولوا عن الحقّ فأنكروا التّوحيد و النّبوّة و المعاد بعد إتمام الحجّة عليهم بوجود النّبي و إنزال القرأن، هكذا قيل و أنت ترى أنّه لا دليل علىٰ تخصيص الآية بأهل مكّة فأنّ الآية علىٰ عمومها تشمل جميع الكفّار في كلّ عصرٍ و زمانٍ فأنّ الأوصاف المذكورة في أيّ شخصٍ وجدت فهو من مصاديق الآية فأنّ تعليق الحكم على الوصف مشعرٌ بالعلّية ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ شبّه هؤلاء القوم بالحمر الوحشيَّة فقال:

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ

حُمُر بضمّ الحاء و الميم جمع حمار.

و قال إبن عبّاس المراد به الحمار الوَحشي فانّه يفرّ من الإنسان أو من الرّماة و السّبع و أمّا الحِمار الأهلي فَليس كذلك و الإستنفار و النّفر بمعنى **فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** الفرار الذّهاب عن الشّئ خوفاً منه والفارّ الهارب والهرب نقيض

۱- يونس = ۱۸

الطَّلب و القسورة، الأسد و المعنى أنّهم أي الكفّار كالحمر الوَّحشيّة الّتى تفرُّون من الأسد خوفاً منه، و قيل المراد بها، هو الرّامي للصّيد و به قال إبن عبّاس. و في روايةٍ أخرى عنه هي جماعة الرّجال.

أقُول القسورة من أسماء الأسد بلا كلام و من أسماء الأسد الغضنفر، و اللّيث، و الحارث، و الهزبرة، و الحيدر، و الضَّيغم، أيضاً و كيف كان فقد شبَّههم اللّه تعالىٰ بالحمر الوحشيّة عن الأسد أو الصَّياد ولم يعلموا أنّ الأنبياء لم يبعثوا إلاّ لإرشادهم إلى طريق الحقّ و إخراجهم من الظُّلمات إلىٰ النُّورالجهل إلى العلم فهم لهم بمنزلة الطَّبيب الَّذي يريد معالجة المريض فيأمره بشرب الدّواء و ترك الأكل ممّا يضرّ به و المريض الجاهل لا يعلم بذلك لا سيّما إذا كان المريض من الصِّبيان الَّذين لا يعلمون خيرهم من شرّهم و نفعهم من ضررهم فيظنُّون أنّ الطَّبيب من أعدائهم و ما أقبح ذلك الظَّن بالرّجل الّذي يدّعي العقل و الفهم و مع ذلك كان عمله عمل الصبيّ الّذي لا عقل له و لقد صدق اللّه تبارك و تعالىٰ و من أصدق من اللّه قيلاً حيث شبَّههم بالحمر الوحشيّة قال تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها** الىٰ قوله: **أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ثمّ قال تعالىٰ.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً

أخبر اللّه تعالىٰ عن هؤلاء الكفّار بأنّه يريد كلّ إمرئٍ منهم، أي كلّ واحدٍ من رجالهم أن يؤتى صحفاً منشّرة، أي كتباً تنزل من السّماء كتاباً إلىٰ فلان و كتاباً إلى فلان و أن أمنوا بمحمّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قيل أنّ أبا جهل و جماعة مِن قريش قالوا لرسول اللّه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يا محمّد أئتنا بكتبٍ من ربّ العالمين مكتوبٌ فيها أنّي أرسلت محمّداً صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إليكم فأتّبعوه.

و قال إبن عبّاس كانوا يقولون أن كان محمّداً صادقاً فيما إدَّعاه من النّبوّة فليصبح عند كلّ رجل منّا صحيفة فيها براءته و براءة أمّته من النّار و قيل أنّهم

أرادوا أن يعطوا بغير عملٍ و غير ذلك من الإحتمالات فقال تعالىٰ في الجواب **كَلَّا** أي ليس يكون ذلك **كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ** لعدم إعتقادهم بها **كَلَّآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ** يعني القرأن تبصرةٌ و موعظة لمن عمل به و إتّعظ بما فيه.

فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ

أي فمن شاء أن يتذكّر بالقرأن و يتعظّ به، فعل لأنّه قادرٌ عليه.

وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوٰى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ

أي و ما يتذكّرون و لا يتعظّون إلاّ أن يشاء اللّه **هُوَ أَهْلُ التَّقْوٰى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** أي أنّ اللّه تعالىٰ هو أهل أن يتّقى عقابه و أهل أن يعمل بما يؤدّي إلى مغفرته و على هذا فقوله: **هُوَ** أي اللّه تعالىٰ هكذا فسّروا الكلام.

اقول يحتمل أن يكون مرجع الضّمير من يتذكّر و يتعظّ بالقرأن و المعنى أي المتذكّر و المتعظّ أهل التّقوىٰ و المغفرة هذا ما خطر ببالي واللّه أعلم بما قال وأراد.

■

سُورَةُ ٱلْقِيٰمَةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ ﴿١﴾ وَ لَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ
ٱللَّوّٰامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ
﴿٣﴾ بَلٰى قٰادِرِينَ عَلٰىٓ أَنْ نُسَوِّىَ بَنٰانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ
يُرِيدُ ٱلْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ ﴿٥﴾ يَسْئَلُ أَيّٰانَ يَوْمُ
ٱلْقِيٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذٰا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَ خَسَفَ ٱلْقَمَرُ
﴿٨﴾ وَ جُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنْسٰانُ
يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلّٰا لاٰ وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلٰى رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ بِمٰا
قَدَّمَ وَ أَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنْسٰانُ عَلٰى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ
﴿١٤﴾ وَ لَوْ أَلْقٰى مَعٰاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لاٰ تُحَرِّكْ بِهِ لِسٰانَكَ
لِتَعْجَلَ بِهِٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْاٰنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذٰا
قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنٰا بَيٰانَهُ ﴿١٩﴾
كَلّٰا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعٰاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَ تَذَرُونَ ٱلْاٰخِرَةَ
﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلٰى رَبِّهٰا نٰاظِرَةٌ
﴿٢٣﴾ وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بٰاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ
بِهٰا فٰاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلّٰآ إِذٰا بَلَغَتِ ٱلتَّرٰاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَ قِيلَ

مَنْ راٰقٍ ﴿۲۷﴾ وَ ظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِراٰقُ ﴿۲۸﴾ وَ ٱلْتَفَّتِ
ٱلسّاٰقُ بِالسّاٰقِ ﴿۲۹﴾ إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَساٰقُ
﴿۳۰﴾ فَلاٰ صَدَّقَ وَ لاٰ صَلّىٰ ﴿۳۱﴾ وَ لٰكِنْ كَذَّبَ وَ
تَوَلّىٰ ﴿۳۲﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلىٰٓ أَهْلِهِ يَتَمَطّىٰٓ ﴿۳۳﴾
أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰ ﴿۳۴﴾ ثُمَّ أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰٓ ﴿۳۵﴾
أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْساٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿۳۶﴾ أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ ﴿۳۷﴾ ثُمَّ كاٰنَ عَلَقَةً فَخَلَقَ
فَسَوّىٰ ﴿۳۸﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ
ٱلْأُنْثىٰٓ ﴿۳۹﴾ أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقاٰدِرٍ عَلىٰٓ أَنْ يُحْيِيَ
ٱلْمَوْتىٰ ﴿۴۰﴾

◀ اللّغة

ٱللَّوّاٰمَةِ: كثيرة اللّوم.
بَناٰنَهُ: البنان عند العَرب الأصابع.
بَرِقَ: أي لمع.
خَسَفَ ٱلْقَمَرُ: أي ذهب ضوءه.
لاٰ وَزَرَ: الوَزَر في اللُّغة ما يلجأ اليه من حصنٍ أو جبلٍ أو غيرهما.
مَعاٰذِيرَهُ: المعاذير جمع معذار و هو السِّتر.
ناٰضِرَةٌ: من النُّضرة الّتى هي الحُسن والنّعمة.
ناٰظِرَةٌ: من النّظر.
فاٰقِرَةٌ: الفاقرة الدّاهية والأمر العظيم يقال كَسرَتْهُ الفاقِرة أي الدّاهية.
ٱلتَّراٰقِيَ: أي بلغت الرُّوح التّراق و هو الّذي يقال له الترقوة.

راقٍ: من رَقيٰ يَرقىٰ إذا صعد.
ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ: أي الشدّة بالشدّة.
ٱلْمَسَاقُ: المصير والمرجع.
يَتَمَطّىٰٓ: أي يتبختر إفتخاراً بذلك.
سُدًى: أي يخّلى مهملاً و قيل سدىً، ترعىٰ بلا راعٍ.

◀ الإعراب

قٰدِرِينَ حال من الفاعل و أَمَامَهُ ظرف بَلِ ٱلْإِنْسَانُ هو مبتدأ و بَصِيرَةٌ خبره و وُجُوهٌ مبتدأ و نَاضِرَةٌ خبره و جاز الإبتداء بالنّكرة لحصول الفائدة و مَنْ مبتدأ و راقٍ خبره و سُدًى حال و ألفه مبدّلة من واو.

◀ التّفسير

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ، وَ لَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ

قيل، لا في الموضعَين صلة و التّقدير، أقسم، و قيل هي تأكيد كقولك لا واللّه، بلى واللّه، ما كان كذا، و قال الحسن أقسم اللّه تعالىٰ بيوم القيامة و لم يقسم بالنّفس اللّوامة بل نفى أن يقسم بها، و قيل أنّ جواب القسم محذوف و تقديره ليس الأمر علىٰ ما تتوهّمون، و قال اللّيث السّمرقندي، أجمع المفسّرون علىٰ أنّ معنىٰ (لا أُقسِم) أقسم، و أختلفوا في تفسير (لا) فقال بعضهم، لا زيادة في الكلام للزّينة و يجري في كلام العرب زيادة (لا) كقوله تعالىٰ: **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ**[1] يعني أن تسجد، و قال بعضهم (لا) ردّ لكلامهم حيث أنكروا البَعث فقال تعالىٰ، ليس الأمر كما زعمتم قال إمرؤالقيس:

فلا و أبيك إبنه العامِرى   لا يدّعي القوم أنّي أفرّ

١- الاعراف = ١٢

و كيف كان فاللّوامة صفة للنّفس و اللّوامة الكثيرة اللّوم لقلّة رضاها بالأمر.

قال سعيد بن جبير هي الّتى تلوم على الخير و الشرّ، و قيل معناه لا صبر لها على محن الدُّنيا و شدائدها فهي كثيرة اللَّوم فيها، و قال الحسن اللّوامة هي الّتى تلوم نفسها علىٰ ما ضيَّعت من حقّ اللّه يوم القيامة و هى نفس الكافر، و قيل أي بنفس المؤمن الّذي لا تراه إلاّ يلوم نفسه دائماً قاله إبن عبّاس و مجاهد و الحسن و غيرهم.

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ

الإستفهام للإنكار أي تجمع العظام قطعاً و هذا ردٌّ على منكري البعث و النُّشور قيل هذا جوابٌ للقسم أي أقسم بيوم القيامة و بالنّفس اللّوامة لنجمعنّ العظام للبعث و قيل جواب القسم محذوف أي لنبعثنّ و المراد بالإنسان هنا الكافر المكذِّب للبعث نزّلت الآية في عدِّي بن ربيعة قال للنبي حدثني عن يوم القيامة متى تكون و كيف أمرها وحالها فأخبره النّبي بذلك فقال: **لو عانيت ذلك اليوم لم أصدَّقك يا محمّد و لم أومن بك (به) أو يجمع اللّه العظام و لهذا كا النّبي** ﷺ **يقول اللّهم أكفني جاري السُّوء عدِّي بن ربيعة و الأنس بن شريق**، و قيل نزلت في أبىجهل أنكر البعث بعد الموت، فأجاب اللّه تعالىٰ بقوله:

بَلىٰ قٰادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّىَ بَنٰانَهُ

البنان عند العرب الأصابع واحدها بنانة، و ذلك لأنّ من خلقه أوّلاً من نطفةٍ قادرٌ على خلقه ثانياً كيف أراد و فى قوله تعالىٰ: **نُسَوِّىَ** إشارة الىٰ أنّ الخالِق الّذي سوّىٰ أعضاءه و جوارحه في أوّل الأمر في خلقه آدم حيث قال:

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدينَ[١].

١- الحجر = ٢٩

قادرٌ علىٰ تسويتها ثانياً و ثالثاً و هكذا وسيأتي الكلام في هذا الباب إن شاء اللّه.

بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ

قال إبن عبّاس يعني الكافر يكذِّب بما أمامه من البعث و الحساب و دليله قوله تعالىٰ:

يَسْـَٔلُ أَيّٰانَ يَوْمُ ٱلْقِيٰمَةِ

فأنّ هذا السؤال لا يكون من المعتقد بالمعاد أي يسأل متى يكون على وجه الإنكار والتَّكذيب و ممّا يدلّ على أنّ المراد بالفجور التَّكذيب أنّ أعرّابياً قصد عمربن‌الخطّاب و شكىٰ اليه نقب أبله و دبرها و سأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله فقال الأعرابي:

أقسم باللّه أبو حفص عمر　　ما مسّها من نقب و لا دبر

فأغفر له اللّهم أن كان فجر

يعني أن كان كذّبني فيما ذكرت، و قيل معناه أنّ الكافر يعجل المعصية و يسُّوف التّوبة و الفجور أصله الميل عن الحقّ والإقبال الىٰ الباطل.

أقول قولهم أنّ المراد بالإنسان الكافر لا دليل عليه و هو قول قالوا من عند أنفسهم والمراد بالإنسان جنسه و الحكم بإعتبار الأغلب اذ ما من عامٍ و إلاّ و قد خصّ و معنى الآية أنّ الإنسان يريد الحياة ليتعاطىٰ الفجور فيها أو ليذنب فيها أو يذنب و يقول، غداً أتوب ثمّ لا يتوب فيكون ذلك فجور لبذله عهداً لا يفي به و سمّى الكاذب فاجراً لكون الكذب بعض الفجور و أنت ترى أنّ الفجور بالمعنى الّذي ذكروه لا يختصّ بالكافر بل أكثر أفراد الإنسان كذلك إلاّ قليلاً منهم و أمّا قوله: **يَسْـَٔلُ أَيّٰانَ يَوْمُ ٱلْقِيٰمَةِ** فهو لا يدلّ على إنكاره و تكذيبه و بعبارة اخرىٰ هذا السؤال ممّا لا إشكال فيه و لا يستفاد منه الإنكار و

التّكذيب أصلاً نعم في بعض الموارد يكون علىٰ وجه الإنكار كما إذا كان السّائل كافراً معانداً منكراً للبعث فأنّ سؤاله يكون على وجه الإستهزاء فمعنى الآية ما ذكرناه.

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ، وَ خَسَفَ ٱلْقَمَرُ، وَ جُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ، يَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ

هذه علامات ليوم القيامة و هى ثلاثة:

الأولىٰ: قوله **فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ** قيل معناه، إذا لمع بصره من شدّة شخوصه.

قال مجاهد و هذا عند الموت و قال الحسن هذا يوم القيامة هذا بناءً على قراءة **بَرَقَ** بفح الرّاء مثل صرب، و قرأ بعضهم بكسر الرّاء مثل (عَلِم) و علىٰ هذا فمعناه تحيّر و لم يطرف قال الخليل و الفرّاء **بَرِقَ** بكسر الرّاء معناه، فزع و بهت و تحيّر و العرب تقول للإنسان المتَّحير المبهوت قد برق.

أقول هذا المعنى أوفق بوصف القيامة و سياق الكلام من قراءة الفتح لأنَّ رؤية المحشر توجب الحيرة و البهت و الفزع إلاّ أنَّ المشهور بين القرّاء الفتح في الرّاء و عليه المصاحف فعلاً و على هذا فالمعنى إذا برق و لمع البصر من شدَّة الخوف و الفزع و حقٌّ له أن يفزع من القيامة إذ لا يدري عاقبة أمره إلى الجنَّة أو إلى النّار.

الثّانية: قوله **وَ خَسَفَ ٱلْقَمَرُ** الخسف ذهاب ضوئه و الفرق بين خسوف القمر في الدُّنيا و خسوفه في القيامة، هو أنّ الخسوف في الدُّنيا له أجل و مدَّة قلّ أو كثر و هذا بخلاف الآخرة فأنّ الخسوف فيها لا إنجلاء لَه.

الثّالثة: قوله **وَ جُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ** قيل في معناه أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشَّمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه، و إنّما قال و جمع، و لم يقل، و جمعت، لأنَّ المعنى جمع بينهما و قيل هو على تكليف المذَّكر كما قد يعبّر عنهُما (بِالبَّينَة و القمرين.

و قال المبَّرد، التّأنيث في الشّمس غير حقيقّي.

قال إبن عبّاس، جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب يوم القيامة أسودين مكوّرين، مظلمين، لقوله تعالىٰ: **إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ** و سيأتي الكلام فيه ثمّ أنّ المراد بالجمع بين الشَّمس و القمر إمّا جمعهما في مكانٍ واحد أو في زمانٍ واحدٍ أو هو من قبيل جمع الإعراض في المحلّ و على التّقادير جمع الشَّيئين في حكمٍ واحدٍ مجاز و المقصود من جعلها واحداً هو رفع الاثنينيّة عنهما بذهاب نورهما والله أعلم.

و أمّا قوله: **يَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ** فالمَفرّ بفتح الميم مَصدَر و بالكسر مَكان الفرار و المعنى أنّ الكافر و العاصي إذا رأى القيامة و ما فيها من الخوف و الجزع و هو كناية عن هول المطلع يقول بلسان الحال أو بلسان المقال، أين المفرّ أهرب إليه من عذاب اللّه ذلك اليوم الّذي يفرُّ المرء من أخيه و أمّه و أبيه و صاحبته و بنيه، و لا مفرّ له إذ لا يمكن الفرار من حكومته.

كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ، يُنَبَّؤُا ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ

إذا قال الإنسان أين المفرّ، يقال في جوابه كلاّ لا وَزَر، أي لا ملجأ ذلك اليوم يمكن الفرار لأحدٍ من النّاس. والوَزر بفتح الواو والزّاي الملجأ من جبلٍ يتحصّن به أو غيره من الحصون المنيعة قال الشّاعر:

أين المفرّ والكباش تنتطح   وأيُّ كبشٍ حاد عنها يفتضح

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ أي المرجع الّذي يفرُّ فيه، و هو أي المستقرّ على وجهين:

مستَّقرٌ إلى أمدٍ و مستقرٌّ إلى الأبد وحاصل الكلام أنّه لا ملجأ يوم القيامة من عذاب اللّه إلاّ هو تعالىٰ و ذلك لأنّه تعالىٰ هو الحاكم ذلك اليوم و لا يقدر أحدٌ على دفع العذاب أو رفعه عن العباد إلاّ اللّه و إذا كان كذلك فهو الملجأ لا غيره.

يُنَبَّؤُا ٱلْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ النّبأ الخبر و المعنى يخبر إبن أدم برّاً كان أو فاجراً مسلماً كان أو كافراً، بما قدّم من الأعمال، أو أخّر، في الدُّنيا من خيرٍ و شّرٍ و فى قوله: **وَ أَخَّرَ** إشارة إلى الأعمال الّتى لم يفعلها الإنسان بنفسه في حياة الدُّنيا و لكن سنَّ سنَّةً سيّئة أو حسنة، عملوا بها بعد موته فهو في حكم ما فعل فأنّ من سنَّ سنّةً ليستنَّ بها من بعده كان عليه مثل وزر من عمل بها و لا ينقص مِن وزرهم شيئاً و من سنَّ سنّةً حسنة ليستنَّ بها بعده فهو كذلك أي لَه مثل ثواب من عمل بها من دون أن ينقص من ثوابهم شيئ و هذا هو المراد بقوله: (أو أخَّر) و بعبارةٍ أخرى يخبر الإنسان بأوّل عمله وأخره و أنّما يعلم ذلك من صحيفة أعماله.

روى أبو نعيم الحافظ من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال رسول اللّه ﷺ: سبعٌ يجري اجر من للعبد بعد موته و هو في القبر، من علّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورَّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد مَوته إنتهىٰ.

و في حديثٍ أخر قال رسول اللّه ﷺ أنّ ممّا يلحق المؤمن من عمله و حسناته بعد موته، علماً علّمه و نشره أو ولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لإبن السّبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحّته و حياته تلحقه من بعد موته إنتهىٰ.

و الأحاديث في الباب كثيرة، والّذي مقلناه نقلناه عن تفسير القرطبي، و الأمر أوضح من أن يخفي على أحدٍ فلا حاجة إلى إطالة الكلام فيه فأنّ كلّ إنسانٍ بما كسبت نفسه رهينة و لا فرق في ذلك بين أن يكون مباشراً للعمل بنفسه و أن يكون سبباً للعمل به بعد موته كالبدع الّتى أبدعها المبدعون في الدِّين.

بَلِ ٱلْإِنْسٰانُ عَلٰى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَ لَوْ أَلْقٰى مَعٰاذِيرَهُ

أي ولو أرخى ستوره و السَّتر بلغة أهل اليمن معذار و جمعه على معاذير كما قال الشّاعر:

ولكنّها ضنَّت بمنزل ساعةٍ   علينا وأطَّت فوقها بالمعاذر

و المعنى أنّ الإنسان له بصيرة بنفسه فيعلم ما يفعل و ما فعل.

و قال الأخفش، جعله هو البصيرة، كما تقول للرّجل أنت حجّةٌ على نفسك.

و قال إبن عبّاس، بصيرة، أي شاهدة و هو شهود جوارحه عليه، يداه بما بطش بهما، و رجلاه بما مشىٰ عليهما، و عيناه بما أبصر بهما و البصيرة الشّاهد، كما قيل:

كأنّ علىٰ ذي العقل عيناً بصيرةً   بمقعده أو منظرٍ هو ناظره

يحاذر حتّىٰ يحسب النّاس كلّهم   من الخوف لا تخفى عليهم ضرائره

قيل و تأنيث البصيرة لأنّ المراد بالإنسان هاهنا الجوارح لأنّها شاهدة على نفس الإنسان فكأنّه قال بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة و قيل هذه الهاء في قوله: **بَصِيرَةٌ** هي الّتى يسمّيها أهل الإعراب هاءُ المبالغة كالهاء في قولهم داهية و علاّمة و رواية.

و قال بعض المفسّرين تقدير الكلام **بَلِ ٱلْإِنْسٰانُ عَلٰى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** أي شاهدٌ فحذف حرف الجرَّ و يجوز أن يكون **بَصِيرَةٌ** نعتاً لإسم مؤنّث تقدير (بَل الانسان علىٰ نَفسه عينٌ بصيرة) و أنشدّ الفرّاء كأنّ على ذي العقَل عيناً بصيرةً.

و هذه الوجوه ذكرها القرطبي في تفسيره.

و قال صاحب الكشّاف (بَصيرة) حجّة بيّنة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الأيات بالأبصار في قوله: **فَلَمّٰا جٰآءَتْهُمْ اٰيٰاتُنٰا مُبْصِرَةً**[1] أو عَينٌ مبصرة إنتهىٰ كلامه.

۱- النّمل = ۱۳

والّذي يخطر بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ الأصل في الآية **بَلِ ٱلْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** و لا يبعد أن تكون الآية المنزلة في الكتاب كذلك، كما يحتمل أن تكن الآية **بَلِ ٱلْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** فألحقت التّاء في أخر الآية رعايةً للسّمع بدليل قوله: **مَعَاذِيرَهُ** و علىٰ هذا فالتّاء ليست للتّأنيث والوجه الأوّل أقوى في النّظر فأنّ تدوين الأيات في الكتابة غير نزولها إذ من المحتمل إشتباه الكتّاب و عدم تفطّن القرّاء بذلك و أنّما قلنا ذلك لأنّ معنى الآية لا يستقيم بغير ذلك والوجوه المذكورة في التّفاسير عليلة لا يعتمد عليها، و التّقدير خلاف الأصل.

و أمّا قوله: **وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** أي أرخى ستوره و السّتر بلغة أهل اليمن، معذار، و الجمع منه، معاذير، و المعنى و لو أقام الإعتذار عند النّاس في دار التّكليف و إستتر بالمعاصي بإرخاء السّتر.

و قال السُّدي ولو أرخى السّتور و أغلق الأبواب بذكر العذر.

أقول إرخاء السّتور كناية عن كتمان المعصية عن غيره كما إذا أراد العاصي أن يزني بإمرأة في البيت يرخي السّتور لئلّا يراه النّاظر، كذلك بعض النّاس يستترُّون بالمعاصي أي يخفونها ثمّ يعتذرون به و يقولون لم يكن شيئاً، و علىٰ هذا فالمعنىٰ أنّ الإنسان بصيرٌ بنفسه ممّا فعل قولاً و فعلاً ولو أرخى أي أطلق ستور المعاصي لئلا يعلم غيره، و ذلك لأنّ الملائكة الموكّلين عليه يكتبون ما فعله واللّه تعالىٰ محيطٌ بهم فلا يخفى عليه شئ و لا يقبل منه عذرٌ إن إعتذر.

و قال مقاتل و أبوالعالية و الفرّاء و غيرهم معنىٰ قوله: **وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** أنّه لو أدلى و إعتذر بعذرٍ أو حجّةٍ لم ينفعه ذلك نظير قوله تعالىٰ:

وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ(۱).

و قوله: **يَوْمَ لا يَنْفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ**(۲).

۱- المرسلات = ۳۶ ۲- غافر= ۵۲

فالمعاذير علىٰ هذا مأخوذٌ من العذر، كما قال الشّاعر:

وإيّـاك والأمـر الّـذي إن تـوّسعت　　مـوارده ضـاقت عـليك المـصادر

فـما حسـن أن يـعذر المـرء نـفسه　　وليس له مـن سـائر النّـاس عـاذرُ

و إعتذر رجلٌ إلى إبراهيم النَّخعي فقال له قد عذرتك غير معتذرٍ أنّ المعاذير يشوبها الكذب ذكره القرطبي في تفسيره، و الحقّ أنّ المعذير جمع، معذار، و المعاذر، بدون الياء جمع معذرة، و المكاتب جمع مكتبة و المراحل جمع مرحلة و هكذا و على هذا فما نقله القرطبي عن إبراهيم النَّخعي أنـه قال أنّ المعاذير يشوبها الكذب، لا يصّح والصَّحيح أنّ المعاذر يشوبها الكذب و من أمثال العرب قولهم (المعاذر مكاذب) و بالجملة لم يقل أحدٌ من علماء اللّغة فيما نعلم أنّ المعاذير جمع معذرة من العذر بل إتّفقوا علىٰ أنّها جمع، معذار كما يقال مفتاح و مفاتيح و مقدار و مقادير و ميزان و موازين و هكذا.

نعم يحتمل أن يكون المراد بالمعذار آلة العذر و هى الحجّة الّتى يقيمها المعتذر علىٰ إثبات عذره و ذلك كما أنّ الميزان آلة الوزن و المكيال آلة الكيل و على هذا فالمعنى و لو ألقىٰ المعتذر حجّته و برهانه على إثبات عذره و بعبارةٍ أخرى، ولو ألقى الحجّج على إعتذاره فلا ينفعه و علىٰ هذا فلا نحتاج إلى لغة أهل اليمن لأنّ ما ذكرناه هو لغة قريش. واللّه أعلم.

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَ قُرْءَانَهُۥ، فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ

الخطاب لرّسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال إبن عبّاس و غيره كان النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا نزل عليه القرأن عجّل بتحريك لسانه لحبّه إيّاه، و قيل يريد أن يحفظه فنهاه اللّه عن ذلك و قال لا تحرّك به لسانك و لا تعجل بحفظه، إنّ علينا جمعه، أي جمع القرأن في صدرك ثمّ نقرؤه أي بعد الجمع في صدرك نقرأه، فإذا قرأناه، أي إذا قرانا القرأن، فإتّبع قرأنه، أي فاستمع له و انصت.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ

أي بيان القرأن من الأحكام الموجودة فيه أعني بها الحلال و الحرام و الحدود و القصاص و النّكاح و الطّلاق و غيرها فأنّ القرأن جامع لها و يحتاج إلىٰ البيان و محصّل الكلام في هذه الأيات هو أنّ اللّه تعالىٰ نهى رسوله عن التّعجيل في حفظ القرأن و ضبطه في صدره و أخبره بأنّ جمع القرأن في صدره و كيفيّة قراءته على اللّه تعالىٰ كما أنّ بيان أحكامه أيضاً على اللّه تعالىٰ و هو كذلك بقوله تعالىٰ: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**[١].

ثمّ قال تعالىٰ:

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ

قال إبن عبّاس المعنى أنّ أباجهل و أمثاله لا يؤمنون بتغيير القرأن و بيانه بل تحبُّون العاجلة أي أنّ الكفّار يريدون المنافع العاجلة في الدُّنيا و يركنون اليها.

وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ

أي و تتركون عمل الأخرة الّذي يستحقّون به الثّواب، قاله في التّبيان.

و لقائلٍ أن يقول قوله تعالىٰ: **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ** التّاء في الآية للخطاب فمن المخاطب في الآية فأن كان المخاطب بها الكفّار كما فسَّرتم الآية به و قلتم معناه الأخبار عن اللّه تعالىٰ أنّ الكفّار يريدون العاجلة، فلم لم يقل بل يحبُّون العاجلة، أليس الخطاب يشمل الجميع من الكافر و المسلم و لا دليل علىٰ تخصيص الخطاب بقومٍ دون قومٍ، و إن كان المخاطب بالآية جميع النّاس كما هو الظّاهر فلم خصَّصتم بالكفّار و قلتم أنّ المراد به الكفّار.

و الحقّ أنّ المخاطب بالأيتين جميع النّاس من المسلم و الكافر و نقل

١- الحجر = ٩

القرطبي عن إبن عبّاس أنّه قال، أي أنّ أباجهل لا يؤمن بتفسير القرأن و بيانه و قيل، أي كلاّ، لا يصلّون و لا يزّكون يريد كفّار مكّة **بَلْ تُحِبُّونَ** أي بل تحبُّون يا كفّار أهل مكّة **ٱلْعٰاجِلَةَ** أي الدّار الدُّنيا و الحياة فيها **وَ تَـذَرُونَ** أي تـدعون **ٱلْاٰخِرَةَ** و العمل لها و العجب أنّ القرطبي نقل عن بعض المفسّرين أنّه قال قرأ أهل المدينة و الكوفيون (بَل تُحبُّون، وتَذَرُون) بـالتّاء فـيهما عـلىٰ الخـطاب و اختاره أبوعبيد و قال لولا الكراهة لخلاف هؤلاء القُرّاء لقرأتـهما بـالياء لذكـر الإنسان قبل ذلك.

و قرأ الباقون بالياء على الخبر و هو إختيار أبىحاتم، فمن قـرأ، بـالياء فـرداً علىٰ قوله تعالىٰ: **يُنَبَّؤُا ٱلْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ بِمٰا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ** ثمّ قال: (كلاّ بَل يحبُّون العاجلة و تذرون الأخرة) و أمّا من قرأ بالتّاء فعلى أنّه واجههم بالتّقريع لأنّ ذلك أبلغ في المقصود إنتهىٰ كلام القرطبي.

أقُول أمّا علىٰ المختار و هو القراءة بالياء فالمعنىٰ واضح و أمّـا عـلىٰ قـراءة المشهور و هى التّاء فالأحسن أن يقال هو مـن بـاب الإلتـفات مـن الغيبة إلى الخطاب و هو من محسّنات البديعيّة و لا إشكال فيه كيف كان فالمراد الإنسان و هو بمعنى النّاس و لذلك أتىٰ بصيغة الجمع و لا ربط لها بالقرأن.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ، إِلىٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَةٌ، وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بٰاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهٰا فٰاقِرَةٌ

أخبر اللّه تعالىٰ أنّ يوم القيامة بعض الوجوه و هو وجوه المـؤمنين بـاللّه و رسوله و اليوم الأخر، ناضرة أي مشرقة مضيئة فالنَّضرة الصُّـورة الحسـنة الّـتى يملأ القلب سوراً عند الرُّؤية و النُّضرة مثل البهجة و الطّلاقة و ضدّه العبوس و البسور فوجوه المؤمنين المستّحقّين للثّواب بهذه الصّفة بما جـعل اللّـه تـعالىٰ عليها من النُّور علامة للخلق و المَلائكة على أنّهم مؤمنون مستحقّون للثّواب و هذا ممّا لا كلام فيه لدلالة الأيات و الأخبار عليه.

و أمّا قوله: **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** فهي من النَّظر و النَّظر لا يتحقّق إلاّ بالعين الباصرة و لذلك صارت الآية معركة الأراء بين المفسّرين من العامّة والخاصّة، و حيث أنّ الموضوع من أهمّ الموضوعات الإعتقاديّة فلابدّ لنا من التّكلم فيه و قبل بيان المقصود نشير إلى أقوالهم و آرائهم ثمّ نقضي بما هو الحقّ عندنا في الباب و من اللّه التّأييد و به الإعتصام.

فنقول جمهور المفسّرين من العامّة علىٰ أنّ المراد بالنَّظر هو النَّظر بالعين الباصرة يوم القيامة.

قال القرطبي **نَاظِرَةٌ** أي تنظر إلى ربّها و على هذا جمهور العلماء الباب حديث صهيب خرَّجه مسلم و قد مضىٰ في يونس عند قوله تعالىٰ: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ**[1] و كان إبن عمر يقول أكرم أهل الجنَّة على اللّه من ينظر إلى وجهه غدوةً و عشيّة ثمّ تلا هذه الآية **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**.

و روى يزيد النَّحوي عن عكرمة أنّه قال تنظر إلى ربّها نظراً، و كان الحسن يقول نَضرت وجُوههُم ونَظَرُوا إلىٰ ربّهم، وساق الكلام إلىٰ أن قال.

و في التّرمذي عن إبن‌عمر قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ أدنى أهل الجنَّة منزلةً لمن ينظر إلى جنّاته و أزواجه و خدمه و سرره مسيرة ألف سنة و أكرمهم على اللّه من ينظر إلى وجهه غدوةً و عشيّةً ثمّ قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرة إنتهىٰ. و قد روي عن إبن‌عمر و لم يرفعه، و فى صحيح مسلم عن أبى‌بكر بن عبد اللّه بن قيس عن أبيه عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: جنَّتان من فضّة أنيتهما و ما فيهما، و جنّتان من ذهبٍ أنيتهما و ما فيهما و ما بين القوم و ما ينظروا إلى ربّهم جلَّ و عزَّ إلاّ رداء الكبرياء علىٰ وَجهه في جنّة عدنٍ إنتهىٰ.

١- يونس = ٢٦

و روى جرير بن عبداللّه قال كنّا عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال صلی الله علیه و آله و سلم: أنكم ترون ربّكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامُّون في رؤيته ثمّ قرأ صلی الله علیه و آله و سلم و سبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس، الآية إنتهىٰ.

و قد ذكر في تفسيره كثيراً من الأحاديث من هذا النّمط و ذكر أشعاراً في هذا المعنىٰ عن العرب.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** تنظر إلى ربّها خاصّة لا تنظر إلى غيره و هذا معنى تقديم المفعول يفيد الإختصاص إلى أخر ما قال و الأصل في جميع تفاسير العامّة هو تفسير الطَّبري فأنّه أمامهم في التّفسير بلا كلام و هذه الأخبار الّتى نقلناها عن القرطبي نقلها عن تفسير الطَّبري و هو أي الطَّبري من المصّرين على ذلك و ذكر في تفسيره لهذه الآية أخباراً كثيرة ثمّ قضى بأنّ الصّواب عندنا لقول الّذي ذكرناه عن الحسن و عكرمة من أنّ معنىٰ ذلك تنظر إلىٰ خالقها و بذلك جاء الأثر عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم و ممّا نقله عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنّه صلی الله علیه و آله و سلم قال:

أنّ أهل الجنَّة منزلةً لمن ينظر في ملكه ألفي سنة و أنّ أفضلهم منزلةً لمن ينظر في وجه اللّه كلّ يوم مرَّتين ثمّ تلا رسول اللّه هذه الآية وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ قال بالبياض و الصّفاء قال إلىٰ ربّها ناظرة، قال ينظر كلّ يوم في وجه اللّه جلَّ و عزَّ إنتهىٰ.

و قال الآلوسي في تفسيره المسمّىٰ عنده بروح المعاني في هذه الآية بعد نقله الأخبار عن تفسير الطَّبري و غيره و إطالة الكلام في الباب بما لا يفهمه الأنام بعد ما روى حديث إبن عمر على ما مرَّ ذكره ماهذا لفظه:

و من المعلوم أنّه صلی الله علیه و آله و سلم أعلم الأوّلين و الأخرين لا سيّما بما أنزل عليه من كلام ربّ العالمين و مثل هذا فيما ذكر ما أخرجه الدّار قطني و الخطيب في

تاريخه عن أنس أنّ النّبي أقرأه **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** فقال: واللّه ما نسخها منذ أنزلها يرون ربّهم تبارك و تعالىٰ فيطعمون و يسقون و يطيبون و يحلّون و يرفع الحجاب بينه و بينهم فينظرون إليه و ينظر اليهم عزّ و جلّ، و هذا الحجاب على ما قال السّادة من قبلهم لا من قبله، ثمّ أنّ أجهل الخلق عندهم المعتزلة و أشدّهم عميً و أدناهم منزلةً حيث أنكروا صحّة رؤية من لا ظاهر سواه بل لا موجود علىٰ الحقيقة إلاّ إيّاه و أدلّة إنكارهم صحّة رؤيته مذكورة مع ردودها في كتب الكلام و كذا أدلّة القوم علىٰ الصّحة و كأنّي بك بعد الإحاطة و تدقيق النّظر تميل الى أنّه سبحانه و تعالى يرى لكن لا من حيث ذاته سبحانه البحت و لا من حيث كلّ تجلٍّ حتّى تجلّيه بنوره الشّعشعاني الّذي لا يطاق إنتهى كلام الألوسى.

و أنمّا نقلنا كلامه بعد كلمات القوم لتعلم أنّ منهم من كان مدّعياً للتّحقيق و التفوّه بكلمات الفلاسفة و العرفاء بزعمه الباطل و لم يعلم أنّ ما ذكره من نوره الشّعشعاني من هفوات الشّيطان و لا يعلم معنى هذه الكلمات إلاّ الشّياطين الّذين يوحون الى أولياءهم في كلّ عصر و زمانٍ نعم ما ذكره الألوسي و أمثاله يدلّ على مبلغ علمهم و قبح إعتقادهم في حقّ خالقهم الّذي خلقهم و هو منزّهٌ من كلّ عيبٍ و نقصٍ و لا ينبغي للمسلم العاقل أن يفسّر كلام ربّه هكذا و قد قال رسول اللّه **من فسّر القرآن برأيه فليتبوّء مقعده من النّار**، فأنتظر إنّا معك من المنتظرين ليوم الموعود.

إذا عرفت هذا فنقول القول بجواز الرّؤية يوم القيامة للأشاعرة و أمّا المعتزلة من أهل السّنة فأنّهم لا يقولون به، و الأشاعرة أخذوا أصول إعتقاداتهم عن أبيالحسن الأشعري، و أمّا المعتزلة فأنّهم وافقونا في إستحالة الرّؤية على اللّه في الدّنيا و الأخرة ثمّ أنّ المفسّرين من الشّيعة بل جميع علماء أصحابنا إتّفقوا علىٰ إستحالة الرّؤية علىٰ اللّه عقلاً و نقلاً و لم يخالف أحدٌ منّا في ذلك الحكم و النشر الىٰ ما قالوا في تفسير الأية.

قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** أي منتظرة نعمة ربّها و ثوابه أن يصل اليهم، قال الشّاعر:

وجوهُ يوم بدرٍ ناظراتُ ... الىٰ الرّحمٰن تأتي بالفلاح

أي منتظرة للرّحمة الّتى تنزل عليهم، و قال الفيض قدّس سرّه في الصّافي **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** أي ينظرون الىٰ وجه اللّه أي الىٰ رحمة اللّه و نعمته و فى العيون عن الرّضا عليه السلام: **يعني مشرقة ينتظر ثواب ربّها.** و في التّوحيد و الإحتجاج عن أميرالمؤمنين **ينظرون الى ربّهم كيف يثيبهم** فذلك قوله تعالىٰ: **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** و أنمّا يعني بالنّظر اليه النّظر الىٰ ثوابه تبارك و تعالىٰ إنتهىٰ.

و على هذا جميع المفسّرين من أتباع أهل البيت و عليه إجماعهم فلا حاجة الىٰ نقل الأقوال و العقل السّليم أيضاً يحكم بذلك فأنّ الموجود المجرّد عن المادّة و المدّة و المنزّه عن المكان و عن الجهة و الموضع و غير ذلك ممّا هو من شئون الجسم كيف يعقل أن يرىٰ و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ من شرائط تحقُّق الرّؤية كون المرئي في جهة فما ليس في جهة لا يمكن رؤيته و اللّه تعالىٰ منزّهٌ عن الجهة لأنّ كلّ ما في الجهة فهو محدودٌ فيها و كلّ محدودٍ متناهٍ و كلّ متناهٍ مخلوقٌ ممكنٌ و اللّه واجب الوجود و أن شئت قلت هو صرف الوجود و حقيقة الوجود صرف الشّئ لا يمكن رؤيته، و إستدلال أبي حنيفة و من تبعه من الأشاعرة و غيرهم، بأنّ الشّئ إذا كان موجوداً فلا بدّ من أن يرىٰ إمّا في الدُّنيا و إمّا في الأخرة فما لا يرىٰ لا وجود له أصلاً، عاطلٌ باطلٌ، و ذلك لأنّ الرُّوح أو النّفس أو ما شئت فسَّمه موجودٌ لا كلام في كلّ إنسانٍ حيّ و لا يشكّ فيه أحد و هو لا يرىٰ، فهل يجوز للعاقل أن ينكر وجوده و لذلك قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **من عرف نفسه فقد عرف ربّه** فإذا كان الإنسان لا يقدر روحه و نفسه كيف يقدر على رؤية خالق الرّوح الّذي هو محيطٌ بجميع الأشياء غير متناهٍمحدود في ذاته و صفاته منزّهٌ عن شوائب الإمكان، هذا كلّه مضافاً الى نّص القرآن و هو قوله تعالىٰ: **لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَ**

هُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ(١) فقوله لا تدركه الأبصار و قوله: **لَن تراني** الآية صريح في إستحالة الرّؤية و قد تكلّمنا في هذه الأيات فيما مضىٰ و أشبعنا الكلام فيه و القول بأنّ عدم الرّؤية مختّص بالدُّنيا، و أمّا الرّؤية في الآخرة خارجة عن الحكم، شططٌ من الكلام فأنّ التّخصيص يحتاج إلى الدّليل مضافاً إلى أنّ الحكم المذكور من الأحكام العقليّة و قد ثبت في الفلسفة أنّ العقليّات لا تخصيص فيها فثبت و تحقّق أنّ القول بجواز الرُّؤية و وقوعها في الأخرة لا شبهه شئ بالهذيان هذا كلّه بالنّظر إلىٰ الإستدلال عقلاً و شرعاً على إستحالة الرُّؤية.

ثمّ نقول قوله: **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** لا يدلّ على مدّعاهم من حيث اللّفظ أيضاً و ذلك لأنّ النَّظر لا يدلّ علىٰ الرُّؤية أصلاً، و ذلك لأنّ النَّظر عبارة عن تقليب البصر و البصيرة لإدراك الشّئ و رؤيته و قد يراد به التّأمل و الفحص و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص و هو الرُّؤية، يقال نظرت ولم تنظر أي لم تتّأمل و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ** أي تأمّلوا، و إستعمال النَّظر في البصر أكثر عند العامّة كالأشاعرة و فى البصيرة أكثر عند الخاصّة كالشّيعة الأثنى عشريّة أتباع أهل البيت كما قال أميرالمؤمنين: **لم أعبد ربّاً لم أره.** أي لم أره بالبصيرة إذا عرفت هذا.

فقوله: **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** لا يدلّ على أكثر من ثبوت النَّظر يوم القيامة و أمّا أنّ النَّظر يوجب رؤية الحقّ فهو أوّل الكلام ألا ترى أنّه يقال نظرت إلى القمر فلم أره، فلو دلّ النَّظر على الرُّؤية لزم إجتماع النّقيضين لأنّ الرُّؤية و عدمها متناقضان.

قال بعض أهل اللُّغة يقال نظرت إلى كذا إذا مددت طرفك إليه رأيته أو لم تره، و يقال نظرت فيه إذا تدّبرته، قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ**

١- الانعام = ١٠٣

خُلِقَتْ[1] أي أفلا يتَّدبرون في خلق الإبل، يقال نظرت في نفسي فرأيتها أمّارةً بالسُّوء، يعني تأمَّلت فيها و امثال ذلك كثيرة، و لذلك قالوا أنّ النَّظر الإنتظار يقال نظرته و إنتظرته و أنظرته أي أخَّرته.

قال بعضهم يكون النَّظر بمعنىٰ المقابلة و منه المناظرة في الجدل و منه نظر الرَّحمة، أي قابله بالرَّحمة، و يقال هو ينظر إلى فلان أي و ينتظر خبره و ليس النَّظر بمعنى الرُّؤية أصلاً بدليل قولهم نظرت إلىٰ الهلال فلم أره و لأنّهم يجعلون الرُّؤية غاية للنَّظر يقولون ما زلت أنظر إليه حتّى رأيته و لا يجعل الشّئ غاية لنفسه لا يقال ما زلت أراه حتّىٰ رأيته و الأمثلة في الباب كثيرة و إذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف يقال قوله: **نٰاظِرَةٌ** يدلّ على الرُّؤية فالنَّظر في الآية بمعنى الإنتظار و المعنى وجوهٌ يومئذٍ تنتظرون رحمة الرَّب، أو أمر الرَّب، أو حكم الرَّب و يؤيّده ما ذكرناه قول الصَّادق عليه السلام أنّ التّقدير وجوهٌ يومئذٍ ناظرةٌ إلى امر ربّها ناظرة، و على هذا فهو بتقدير المضاف كما في قوله تعالىٰ **وَاسأل الْقَريِة** أي أهلها و كيف كان لا تدُّل الآية علىٰ صحّة مذهب الأشاعرة أصلاً لا شرعاً و لا عقلاً و لا عرفاً و لا لغةً.

هذا و أمّا قوله: **وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بٰاسِرَةٌ** فالبسور ظهور حال الغمّ في الوجه معجّلاً قبل الإخبار عنه.

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهٰا فٰاقِرَةٌ فالفاقرة الكاسرة الفقار الظَّهر بشّدةٍ و قيل معنىٰ باسرة، كاشرة كالحة.

و قال مجاهد الفاقرة الدّاهية، و قال إبن زيد الأبدة بدخول النّار و المقصود أنّ النّاس يوم القيامة علىٰ صنفين، مؤمنٌ و غير مؤمن، فالمؤمن في عيشةٍ راضية ينتظر رحمة ربّه، و الكافر في حال الحزن و الغمّ من عاقبة أمره، لأنّه يرىٰ العذاب الشدّيد أعاذنا اللّٰه منه.

١- الغاشية = ١٧

كَلَّآ إِذا بَلَغَتِ ٱلتَّراقِىَ، وَ قيلَ مَنْ راقٍ، وَ ظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِراقُ، وَ ٱلْتَفَّتِ ٱلسّاقُ بِالسّاقِ، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَساقُ

كلاّ، ردعٌ و زجرٌ أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة و ما فيها من النِّعم في الجنّة و العذاب في النّار و قيل، كلاّ، معناه حقّاً أي حقّاً إذا بلغت التّراقي، فالتّراقي جمع ترقوة و هى العظام المكتنفة لنقرة النّحر و هو مقدّم الحلق من أعلىٰ الصّدر موضع الحشرجة، و المعنى كلاّ أنّ الكافر لا يؤمن، ثمّ إستأنف الكلام و قال: **إِذا بَلَغَتِ ٱلتَّراقِىَ** أي إذا بلغت الرُّوح أو النّفس التُّرقوة حين الموت و ذلك لأنّ الرُّوح حين خروجها عن البدن تصل إلىٰ التّرقوة أخر الأمر فإذا خرجت عنها مات و فيه إمهالٌ من اللّه تعالى للتّوبة.

وَ قيلَ مَنْ راقٍ قالوا أي طبيبٌ شاف أي أهله يطلبونه ليداويه فلا يجدونه أي فلا يجدون من يشفيه و يمنعه من الموت و قيل معناه، قالت الملائكة من يرقي روحه، أملائكة الرَّحمة أم ملائكة العذاب و المشهور بينهم هو المعنى الأوّل، قال الشّاعر:

هل للفتىٰ من بنات الدّهر من واقٍ أم هل له من حمام الموت من راقٍ

وَ ظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِراقُ الظَّن هاهنا اليقين و المعنى أيقن أنّه الفراق، من المال و الأولاد و الأحبَّة و ذلك حين عاين الملائكة و لنعم ما قيل:

فــراقٌ ليس يشـبهه فـراقُ قد انقطع الرّجاء من التّلاق

وَ ٱلْتَفَّتِ ٱلسّاقُ بِالسّاقِ أي و إتَّصلت الشّدة بالشّدة، أي إتَّصلت شدّة أخر الدُّنيا و هى سكرات الموت و الفراق، بشدّة الأخرة و هو الحساب و شدائد الأخرة و أنواع العذاب للكافر، و قيل إلتَّفت ساق الكفن بساق الميّت، إلتَّفت ساق الإنسان عند الموت، و قيل إلتَّفت حال الموت بحال الحياة، و الأظهر عندي أنّ المراد **ٱلْتَفَّتِ ٱلسّاقُ بِالسّاقِ** أي الرِّجل بالرِّجل في الكفن أي جمعهما و إلتفافهما فيه.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ

أي يساقون إلى المحشرالّذي لا يملك فيه الأمر و النّهي غير اللّه تعالى و المساق مصدر من السَّوق أشار اللّه تعالىٰ في هذه الأيات إلى شدائد الموت و هول المطلع، و لمثل هذا فليعمل العاملون.

فَلَا صَدَّقَ وَ لَا صَلَّىٰ، وَ لٰكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ، أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ

قال الحسن معناه لم يتَّصدق ولم يتّصل.

و قال قوم معناه فلا صدَّق بربّه، أي لم يؤمن باللّه و رسوله و اليوم الأخر صلّىٰ.

و قال قتادة، فلا صدَّق بكتاب اللّه و لا صلّي للّه، و قيل لا أمن بقلبه عمل ببدنه.

أقول قوله فلا صدَّق بتشديد الدّال معناه لا أمن لأنّ الإيمان هو التَّصديق بالقلب و مصدر (صدَّق) التَّصديق فقول بعضهم لم يتَّصدق بماله لا معنىٰ له لوجود الفرق بين، صدَّق و تصَّدق من حيث المعنىٰ فالتَّصدق هو إعطاء المال للفقراء و التَّصديق الإعتقاد بالقلب و أين هذا من ذاك فالحقّ أنّ معنىٰ الكلام أنّ الكافر لم يؤمن باللّه و رسوله قلباً و لا صلّىٰ عملاً و فيه إشارة إلى أنّ الإيمان التّصديق بالقلب بدون العمل لا معنىٰ له و أنّما ذكر الصّلاة من بين الأعمال لأنّها أفضل الأعمال البدَّنية بعد الإيمان بالقلب و لذلك قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم:

الصّلاة عمود الدّين إن قبلت قبل ما سواها و إن ردَّت ردّ ما سواها.

هذا مضافاً إلى أنّ الصّلاة جعلت للتّنزيه عن الكبر كما أنّ الإيمان مطّهرٌ عن الشِّرك قالت سيّدة نساء العالمين عليها السلام: **فجعل اللّه الإيمان لكم تطهيراً للشّرك و الصّلاة تنزيهاً عن الكبر.**

و قوله: **وَ لٰكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّىٰ** أي كذَّب الكافر رسول اللّه لمّا دعاه الرَّسول إلىٰ التّوحيد و النّبوة و المعاد و قوله: **وَ تَوَلّىٰ** أي أعرض عن الحقّ فأنّ التوّلي هو الإعراض عن الشّيء فلمّا كان هذا الجاهل الكافر معرضاً عن الحقّ بتركه إلىٰ خلافه من الباطل لزمه الذّم.

و قوله: **ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطّىٰ** فالتّمطي التَّبختر و المعنىٰ أنّه بعد تكذيب الرّسول و عدم قبول الإيمان ذهب إلى أهله و عياله و أقاربه و أولاده يتَّبختر و يتّكبر بذلك التّكذيب.

و قال بعضهم التَّمطي، هو تمدُّد البدن عن الكسل و التّثاقل فهو يتثاقل عن الدّاعي إلىٰ الحقّ فعلى هذا، أصله يتَّمطط، فأبدل من الطّاء ياء كراهةً للتَّضعيف و التَّمطي يدلّ علىٰ قلّة الإكتراث و هو التَّمدد كأنّه يمُّد ظهره و يلويه من التكّبر و التّبختر.

أَوْلٰى لَكَ فَأَوْلٰى، ثُمَّ أَوْلٰى لَكَ فَأَوْلٰىٓ في هذا الكلام تهديدٌ بعد تهديد و وعيدٌ بعد وعيد، قيل أنّ الآيتين نزلتا في أبي جهل و على هذا فالخطاب في قوله (لَك) له لعنة اللّه و علىٰ هذا فالأيات السّابقة أعني قوله فلا صدَّق صلّىٰ أيضاً له، أي فلا صدَّق أبو جهل بربّه و لا صلّىٰ له تعالىٰ و لكن كذَّب نبيّه و أعرض عن الحقّ، ثمّ ذهب إلىٰ أهله، و أقاربه يتّمطى و يتَّبختر به، فالذّنوب أربعة:

الأوّل: ترك التَّصدّيق بربّه.

الثّاني: ترك التَّصلية.

الثّالث: التّكذيب.

الرّابع: التَّولي و الإعراض عن الحقّ.

فجاء الوعيد و التّهديد أيضاً كذلك أي جاء الوعيد مقابلاً لترك الخصال الأربعة، فالمعنىٰ، فأولىٰ لك يا أبا جهل العذاب علىٰ ترك الإيمان، و بعد ذلك

أولىٰ لك العـذاب بـتركك الصّـلاة، ثـمّ أولىٰ لك العـذاب بـتكذيبك النّبي و المعاد، ثـمّ أولىٰ لك تـرك العـذاب بـإعراضك عـن الحقّ، أو يـقال، أولىٰ لك الإيـمان التّـصديق بـاللّه و رسـوله، ثـمّ أولىٰ لك الصّـلاة، ثـمّ أولىٰ لك تـرك التكذيب، ثمّ أولىٰ لك الإعراض عن الحقّ.

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى

الحسبان الظّن و قوله: **سُدًى**، بضمّ السّـين أي مـهملاً عـن الأمـر و النّـهي فالسُّدىٰ عمل من غير أمرٍ يؤخذ به.

قال إبن عبّاس **سُدًى** أي هملاً لا يؤمر و لا ينهى مع كمال عـقله و قـدرته على العمل و فيه وعيدٌ و تـهديدٌ للكـافر و العـاصي و أنّ ظنّه بـاطل فأنّ اللّـه تعالى ما ترك شيئاً سدىً.

قال الشّاعر:

فأُقسم بـاللّه جـهد اليـمين مـا تـرك اللّـه شـيئاً سـدىً

و الوجه فيه أنّ المخلوق المهمل عبثٌ و لغوٌ و اللّه تـعالىٰ مـنزّهٌ عـن فـعل العبث إذ لا يفعل العبث إلاّ الجاهل، ثمّ أنّ اللّـه تـعالىٰ قـال عـلىٰ وجـه التّنبيه علىٰ أنّ خلق الإنسان لأجل المعرفة و العبادة و علىٰ أنّـه قـادرٌ عـلىٰ إعـادته و إحياءه بعد موته كما أحياه أوّلاً.

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنٰى

فالمنّي نطفة الذّكر الّتى يجيئ منها الولد.

ثُمَّ كٰانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّٰى

العَلَقة بفتح العَين و اللاّم و القاف قطعة من الدّم المنعقد جـامدة لا تـجري، فخلق اللّه منها هذا الإنسان الّذي هو فـي أحسـن تـقويم و هـو المـراد بـقوله: **فَسَوّٰى** أي فسوّاه تسويةً وعدّ له تعديلاً ثمّ جعل الرُّوح فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[١].

فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثىٰ

أي فجعل من الإنسان و قيل من المنّي الزّوجين الذّكر و الأنثى، أي الرّجل و المرأة.

أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتىٰ

الإستفهام للإنكار أي بلىٰ هو قادر علىٰ ذلك أي أنّه قادر علىٰ أن يحي الموتىٰ يوم البعث كما أحياه أوّلاً من المنّي و الخلق الثّاني أعني به إحياء الموتى ليس بأصعب من الأوّل بل هو أسهل لبقاء المادّة و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً و سيأتي الكلام إن شاء اللّه في محلّه عند بحثنا في المعاد.

■

١- الحجر = ٢٩

سُورَةُ ٱلْإِنْسَانِ (الدّهر)

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتٰى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ
شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا
هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلاَ وَ أَغْلاَلاً وَ سَعِيرًا ﴿٤﴾
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللّٰهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ
شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَ يُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلٰى حُبِّهِ
مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ
ٱللّٰهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَآءً وَ لَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا
نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقٰيهُمُ ٱللّٰهُ شَرَّ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَ لَقّٰيهُمْ نَضْرَةً وَ
سُرُورًا ﴿١١﴾ وَ جَزٰيهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا
شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا

وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَ يُطٰافُ عَلَيْهِمْ
بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوٰابٍ كٰانَتْ قَوٰارِيرَا ﴿١٥﴾
قَوٰارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهٰا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَ
يُسْقَوْنَ فِيهٰا كَأْسًا كٰانَ مِزٰاجُهٰا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾
عَيْنًا فِيهٰا تُسَمّٰى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ
وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ إِذٰا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَ إِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عٰالِيَهُمْ ثِيٰابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ
إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسٰاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ
شَرٰابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَ كٰانَ
سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ
ٱلْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاٰ تُطِعْ
مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَ ٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً
وَ أَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَ مِنَ ٱللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ
لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ يُحِبُّونَ ٱلْعٰاجِلَةَ وَ
يَذَرُونَ وَرٰاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنٰاهُمْ
وَ شَدَدْنٰا أَسْرَهُمْ وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰا أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلًا
﴿٢٨﴾ إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ ٱتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ ٱللّٰهُ إِنَّ
ٱللّٰهَ كٰانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي
رَحْمَتِهِ وَ ٱلظّٰالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

◀ اللّغة

حِينٌ: الحين بكسر الحاء المهملة و سكون الياء و النُّون وقت بلوغ الشّـئ و حصوله و هو مبهم المعنىٰ و يتَّخصص بالمضاف إليه.

أَمْشَاجٍ: بفتح الألف جمع مشيج و هو الخلط.

نَبْتَلِيهِ: الابتلاء الإختبار.

سَلَاسِلَ: جمع سلسلة.

أَغْلَالًا: جمع غلّ.

سَعِيرًا: السَّعير بفتح السّين النّار المسعرة.

تَفْجِيرًا: التَّفجير تشقيق الأرض لجري الماء و منه إنفجار الصُّبح.

مُسْتَطِيرًا: أي ظاهراً.

قَمْطَرِيرًا: أي شديداً و قيل القمطرير الشدّيد في الشَّر.

نَضْرَةً: النَّضرة حسن الألوان.

ٱلْأَرَآئِكِ: هي جمع أريكة و هى كلّ ما يتّكأ عليه من مسـورةٍ أو غـيرها و قيل هي الحجال فيها الأسرة.

زَمْهَرِيرًا: فالزَّمهرير أشدّ ما يكون من البرد و قيل البرد الشدّيد (دانية) مـن الدُّنو و هو القرب.

قُطُوفُهَا: القطوف الثّمار.

بِآنِيَةٍ: هي جمع إناء و هو الظَّرف.

أَكْوَابٍ: الأكواب الميزان العظام واحدها، كوب.

قَوَارِيرَا: واحدها قارورة.

سَلْسَبِيلًا: فالسَّلسبيل الشّراب اللّذيذ.

مَنْثُورًا: أي مفرقاً في عرصة المجلس.

سُنْدُسٍ: ما رَّق من الدَّيباج.

وَ إِسْتَبْرَقٌ: ما غلظ منه.

و حُلُوٓا: النَّحيلة الزِّينة.

◀ الإعراب

لَمْ يَكُنْ شَيْئًا حال من الإنسان أَمْشَاجٍ بدل أو صفة نَبْتَلِيهِ حال من الإنسان أو من ضمير الفاعل مِنْ كَأْسٍ المفعول محذوف أي خمراً أو ماءً من كأس عَيْنًا بدل من موضع، من كأسٍ، أو من كافور أو بفعلٍ محذوفٍ أي أعني عيناً، مُتَّكِئِينَ: حال من المفعول في جزاهم أو صفة لجنَّةً لَا يَرَوْنَ حال من الضّمير المرفوع في، متّكئين، و دَانِيَةً معطوف على متّكئين وَ ذُلِّلَتْ حال و قيل هو مستأنف قَوَارِيرَا خبر، كان أو حال و كان، تامّة قَدَّرُوهَا نعتٌ لقوارير أو هو مستأنف و خُضْرٌ بالجرّ صفة لسندس و بالرّفع صفة، لثواب وَ ٱلظَّالِمِينَ منصوب بفعلٍ محذوف تقدير و يعذّب الظّالمين.

◀ التّفسير

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا

في الآية مسائل:

الأولىٰ: أنّ هل، ما معناها هاهنا، فقال أكثر المفسّرين أنّها بمعنى (قد) أي قد أتىٰ علىٰ الإنسان.

قال الزّجاج معناه ألم يك علىٰ الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً، يعني قد كان شيئاً إلاّ أنّه لم يكن مذكوراً لأنّه كان تراباً و طيناً إلىٰ أن نفخ فيه الرُّوح و قال قومٌ (هل) يحتمل معناها أمرين:

أحدهما: أن تكون بمعنىٰ (قد).

الثّاني: معنها أتىٰ علىٰ الإنسان و الأغلب عليها الإستفهام و الأصل فيها معنىٰ (قَد) لتجري علىٰ نظائرها بمعنىٰ ضمن معنىٰ الألف و أصله و من ذلك قول الشّاعر:

أم هل كبيرُ بكىٰ لم تقضي عبرته أثــر الأحبَّة يـوم البـين مشكـومُ

و قال الفرّاء(هَل) تكون جحداً و تكون خبراً و هذا من الخبر لأنَّك تـقول هـل أعطيتك، تقرَّره بأنَّك أعطيته، و الجحْد أن تقول:(هَل يقدر أحـدٌ عـلىٰ مـثل هـذا) أي لا يقدر، و قيل هي بمنزلة الإستفهام بمعنىٰ (أتـىٰ) والمشـهور بـين المـفسّرين أنَّها هاهنا بمعنىٰ (قَد) و به قال الكسائي و الفَّراء و أبو عبيدة حكىٰ عن سيبويه (هَل) بمعنىٰ، قد و قال صاحب الكشّـاف (هَـل) بـمعنىٰ، قـد فـي الإسـتفهام خاصَّة و الأصل (أَهَل) فالمعنىٰ (أَقَد أَتىٰ) على التَّقرير و التَّقريب جـميعاً، أي أتىٰ علىٰ الإنسان قبل زمانٍ قريب **حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا** أي كان شيئاً منسياً غير مذكور نطفة في الأصلاب إنتهىٰ ما ذكروه في معنىٰ (هَل).

المسئلة الثّانية: أنَّه ما المراد بالإنسان، فقال الحسن الإنسـان هـاهنا، آدم، و المعنى قد أتىٰ علىٰ آدم **حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا** أي قد كان شيئاً إلاّ أنَّه لم يكن مذكوراً وبه.

قال قتادة و سفيان و قيل أنّ آدم لمّا خـلقه اللّـه بـقيت جـثَّته عـلى الأرض أربعين سنة لم تلج فيه الرُّوح كان شيئاً ولم يكن مذكوراً فلّما نفخ فيه الرُّوح و بلغ إلى ساقه كاد ينهض للقيام فـلّما بـلغ عـينيه و رآىٰ ثـمار الجنَّة بـادر إليـها ليأخذها فلذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**[١] و قال غيره المـراد بـه كـلّ إنسـانٍ المشهور بين المفسّرين و الإنسان في اللُّغة حيوان علىٰ صورة الإنسانيّة.

قال الزَّمخشري في الكشّاف المراد بالإنسان جنس بنيآدم بدليل قوله: **إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**.

المسئَلة الثّالثَة: إختلفوا في معنىٰ **حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ** فقال صاحب الكشّاف معناه طائفة من الزّمان الممتّد، و قيل (الحِين) مدَّة من الزّمان يقع عـلىٰ القـليل

١- الأنبياء = ٣٧

و ألكثير، و قال قوم كلّ سنة، و الدَّهر مرور اللّيل و النّهار جمعه أدهر و دهور و الفرق بين الدّهر و الوقت، أنّ الوقت بجعل جاعلٍ كما أنَّ اللّه تعالىٰ جعل لكلّ صلاةٍ مفروضة وقتاً للصيام وقتاً و قد يجعل الإنسان لنفسه وقتاً يدرس فيه و وقتاً مخصوصاً لنومه و غذائه، و إمّا الدَّهر فليس كذلك.

أقول قد مرَّ في شرح اللّغات، أنّ الحين في الأصل وقت بلوغ الشّئ و حصوله و هو مبهم المعنىٰ و يتَّخصص بالمضاف إليه نحو قوله تعالىٰ: **وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ** فقد يأتي للأجل نحو قوله تعالىٰ: **وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**(۱) و قد يأتي للمنَّة نحو قوله: **تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**(۲) وللسّاعة نحو **حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ**(۳) وللزّمان المطلق نحو قوله: **هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ** و ما نحن فيه من هذا القبيل.

و أمّا الدّهر، فهو الأصل إسمٌ لمدَّة العالم من مبدأ وجوده إلىٰ إنقضائه، و إذا كان الحين بمعنىٰ الزّمان، فالمعنىٰ زمانٌ من الدَّهر فيصير معنىٰ الآية قد أتىٰ علىٰ الإنسان زمانٌ من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً، هذا علىٰ مذاق القوم لأنّهم قالوا معناه أنّه كان شيئاً إلاّ أنّه لم يكن مذكوراً.

و لقائلٍ، أن يقول الشّيء مساوقٌ للوجود فكلّ شئٍ موجودٌ فما لا وجود له لا شيئيّة له، و علىٰ هذا فإذا كان شيئاً، معناه كان موجوداً فما معنىٰ أنّه لم يكن مذكوراً و قد ثبت أنّ كلّ موجودٍ مذكورٌ أي يتعلّق به الذّكر أي قابلٌ له و الّذي يخطر بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ النّفي تعلَّق بالشّيء المتّصف بالذّكر، لا بالذّكر فقط كما زعموه فعلىٰ قولهم المنّفي في الآية هو قوله: **مَذْكُورًا**.

و أمّا قوله: **شَيْئًا** فهو ليس بمنفّي، لأنّهم أثبتوا الشَّيئية و نفوا الذّكر، و أمّا على قولنا، فالمنفيّ الموصوف و الصّفة معاً، و علىٰ هذا فالمعنىٰ قد أتىٰ علىٰ

۱- يوسف = ۹۸
۲- ابراهيم = ۲۵
۳- الروم = ۱۷

الإنسان حينٌ أي زمان من الدَّهر لم يكن، الإنسان، **شَيْئًا مَذْكُورًا** أي لم يكن الإنسان متّصفاً بالذّكر أي بأن يذكر، لكونه في ديار العدم و من المعلوم انّ المعدوم لا يذكر و محصّل الكلام أنّ الآية الشّريفة إشارة إلىٰ أنّ الإنسان كان معدوماً غير متّصفٍ بالشّيئية حتّىٰ يذكر هذا ما إستفدناه من الآية و اللّه أعلم.

إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه خلقَ الإنسان من نطفةٍ أمشاج، أي أخلاط من ماء الرّجل و ماء المرأة، و قيل معناه أنّا خلقناه أطواراً، طوراً، نطفة، و طوراً، مضغةً و طوراً عظماً إلىٰ أن صار إنساناً.

أقول العرب تقول مشجت هذا بهذا أي خلطته فهو ممشوج أي مخلوطٌ و علىٰ هذا فالإمشاج، هو إختلاط النُّطفة بالدَّم، أو إختلاط ماء الرَّجل و ماء المرأة و الدَّم و العلقة و أمّا قوله: **نَبْتَلِيهِ** فالإبتلاء الإختبار أي نختبره في الدّنيا بالخير و الشَّر، أو بالشُّكر في السَّراء و الصَّبر في الضَّراء و الأصل فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **الٓمٓ، أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**(٢).

و قد مرَّ البحث في أمثال هذه الآية فيما مضىٰ فلا وجه للإعادة.

و هكذا قوله: **فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** و أنّما ذكر اللّه هاتين الصِّفتين أعني بها السَّمع و البصر لأنّهما أشرف القوىٰ و أفضلها بإتّفاق المحقّقين و أنّما الخلاف في ترجيح أحدهما على الأخر و تعيين الأفضل منهما و قد مرَّ الكلام فيه أيضاً:

إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا

١- العنكبوت = ٢ / ١ ٢- القيمة = ٣٦

اللاّم للجنس و المعنىٰ أنّا بيّنا للإنسان و عرّفناه طريق الهدىٰ و الضّلال و الخير و الشّر و الإيمان و الكفر و السّعادة و الشّقاوة بواسطة الرُّسل المبعوث إليهم فمن تبعهم كان شاكراً لما أنعم اللّه عليه من الدّين و من خالفهم و أنكرهم كان كافراً جاحداً بما أنعم اللّه عليه و من المعلوم أنّ من شكر فأنّما يشكر لنفسه و من كفر فعليها و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد.

و قيل معنىٰ الكلام أنّا بيّنا له سبيل التّوحيد بنصب الأدلّة عليه و هو يرجع إلى ما ذكرناه ففي الآية إشارة إلىٰ ثبوت الإختيار للإنسان في أخذه بأحد الطّريقين، الهداية، و الضّلالة، و فيه ردٌّ علىٰ الأشاعرة القائلين بالجبر فأنّ الهداية هي إراءة الطّريق حقّاً كان أو باطلاً، و هى تنافي الجبر الّذي لا إختيار للمكلّف فيه و قد مرَّ البحث في هذا الباب غير مرّةٍ.

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَ أَغْلَٰلًا وَ سَعِيرًا

هدّد اللّه تعالىٰ في هذه الآية من إختار الكفر علىٰ الإيمان و الشّقاوة علىٰ السّعادة و الضّلالة علىٰ الهداية بسوء سريرته و خبث طينته و إنكاره التّوحيد و النّبوة و المعاد و متابعة الشّيطان و غير ذلك من طرق الضّلالة فقال: **إِنَّآ أَعْتَدْنَا** أي هيّأنا و أدّخرنا لهم جزاءً علىٰ كفرهم و معاصيهم بإختيارهم **سَلَٰسِلَاْ وَ أَغْلَٰلًا وَ سَعِيرًا** فالسّلاسل جمع سلسلة و الأغلال جمع غلّ، و السّعير هي النّار المسعرة و قد تقدّم، قيل السّلاسل القيود في جهنّم طول كلّ سلسلةٍ سبعون ذراعاً كما مضىٰ في الحاقّة.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا

لمّا أخبر اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة أنّه أعدَّ لهم سلاسل و أغلالاً و سعيراً، لكفرهم و طغيانهم و إنكارهم الحقّ أشار في هذه الآية إلىٰ أحوال المؤمنين يوم القيامة فقال: **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ** و هم المؤمنون الّذين عملوا الصّالحات

يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ و هو إناء الشّراب إذا كان فيه و لا يسمّىٰ كأساً إذا لم تكن فيه شراب قاله الزّجاج و إليه أشار الشّاعر بقوله:

صددت الكأس عنّا أمّ عمروٍ و كان الكأس مجراها اليمينا

كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا قيل ما يسمّ من ريحها لا من جهة طعمها، و قيل أي شرابها و طعامها و منه مزاج الإنسان و هو ما يمازجه من الصّفراء و السّوداء و الحرارة و البرودة، و الكافور إسم عين ماء في الجنّة، قيل الكافور في ريحها لا في طعمها، قال الشّاعر:

كأنّ بسيئةُ من بيت رأسٍ يكون مزاجها عسلُ و ماءُ

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا

إختلفوا في نصب **عَيْنًا** فقال الفرّاء أنّ الكافور إسم لعين ماء الجنّة و قوله: **عَيْنًا** بدلٌ من كافور، كأنّه قيل ما الكافور، فقال عيناً يشرب، الآية و قيل هو بدل من **كَأْسٍ** علىٰ الموضع، هو حال من المضمر في مزاجها، و قيل نصب علىٰ المدح كما يذكر الرّجل فيقول العاقل للّبيب، أي ذكرتم العاقل اللّبيب.

و قيل، التّقدير: يشربون عيناً، و قوله: **يُفَجِّرُونَهَا**، فالتّفجير تشقيق الأرض بجري الماء و منه إنفجار الصُّبح و قوله: **تَفْجِيرًا**، مفعول مطلق و هو يفيد النّوع أي أنّهم يشّققون العين شقّاً كما يفجر الرّجل النّهر هاهنا و هاهنا إلىٰ حيث يريد.

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا

ثمّ وصف اللّه تعالىٰ هؤلاء المؤمنين فقال أنّهم **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ** و يجوز أن يكون في موضع الحال فكأنّه قال يشرب بها عباد اللّه الموفون بالنّذر الخائفون **يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا** و هو يوم القيامة، لأنّ شرّه للكافر يكون مستطيراً أي ظاهراً لا خفاء فيه.

وَ يُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَ لَا شُكُورًا، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا

هذا وصف ثان للمؤمنين الّذين يوفون بالنّذر فأنّهم يطعمون الطّعام علىٰ حبّه، أي علىٰ شهوتهم له أو علىٰ محبّتهم للّه تعالىٰ: **مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا** فالمسكين الفقير و اليتيم هو الّذي لا والد له من الأطفال، و الأسير هو المأخوذ من أهل دار الحرب و قيل هو المحبوس و قوله: **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ** إخبار عن قول المؤمن أي أنّهم يقولون أنّما نطعمكم لوجه اللّه أي قربةً إلىٰ اللّه، لا نريد منكم، معاشر الفقراء جزاءً و لا شكوراً، علىٰ إطعامنا إيّاكم كما هو مقتضىٰ الإخلاص في الإنفاق و ذلك.

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا أي عابساً، قمطريراً، أي شديداً فالقمطرير الشدّيد في الشّر و هو يوم القيامة و المشهور بين المفسّرين أنّ هذه الأيات نزلت في علّي و فاطمة و الحسن و الحسين فأنّهم آثروا المسكين و اليتيم و الأسير ثلاث ليال علىٰ إفطارهم.

قال القرطبي و هو من أعيان العامّة في تفسيره لهذه الأيات ما هذا لفظه:

قال أهل التّفسير نزلت في علّي و فاطمة رضي اللّه عنهما و جارية لهما إسمها فضّة، قلت و الصّحيح أنّها نزلت في جميع الأبرار و من فعل فعلاً حسناً فهي عامّة.

و قد ذكر النّقاش، و الثّعلبي و القشيري و غير واحدٍ من المفسّرين في قصّة علّي و فاطمة و جاريتهما حديثاً لا يصّح و لا يثبت.

رواه ليث عن مجاهد عن إبن عبّاس في قوله عزّ وجلّ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا**.

الأيات قال مرض الحسن و الحسين فعادهما رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و عادهما عامّة العرب فقالوا يا أبا الحسن و رواه جابر الجعفي عن قنبر مولىٰ علّي مرض

الحسن و الحسين حتّیٰ عادهما رسول اللّه ﷺ فقال أبو بكر، يا أبا الحسن، رجع الحديث إلیٰ حديث ليث بن أبي سليم لو نذرت عن ولديك شيئاً و كلّ نذرٍ له وفاء فليس بشئٍ فقال رضي اللّه عنه أن برأ ولد اي صمت للّه ثلاثة أيّام شكراً و قالت جارية لهم ثويبة إن برأ سيّداي صمت للّه ثلاثة أيّام شكراً و قالت فاطمة مثل ذلك و في حديث الجعفي قال الحسن و الحسين مثل ذلك فألبس الغلامان العافية و ليس عند أل محمّدٍ قليلٌ و لا كثيرٌ فإنطلق عليٌ إلیٰ شمعون بن جارية الخيبري وكان يهوديّاً فإستقرض منه ثلاثة أسبوع من شعيرٍ فجاء به فوضعه ناحية البيت فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته و إختبزته و صلّیٰ عليٌ مع النّبي ثمّ أتیٰ المنزل فوضع الطّعام بين يديه.

في حديث الجعفي فقامت الجارية إلیٰ صاع من شعيرٍ فخبزت منه خمسة أقراص لكلّ واحدٍ منهم قرص فلمّا مضیٰ صيامهم الأوّل وضع بين يديهم الخبز و الملح الجريش إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب و قال السّلام عليكم أهل بيت محمّد في حديث الجعفي أنا مسكين أمّة محمّد ﷺ و أنا و اللّه جائع أطعموني أطعمكم اللّه من موائد الجنّة فسمعه عليٌ فأنشأ يقول:

فأطعم ذات الفضل و اليقين　　يابنت خير النّاس أجمعين
أمـا ترين البائس المسكين　　قـد قـام بـالباب له حـنينٌ
يشكـو إلى اللّـه و يسـتكين　　يشكـوا إليـنا جـائعٌ حـزين
كـلّ إمـرٍ بكسـبه رهـين　　و فـاعل الخـيرات يسـتبين
مـوعدنا جـنّة عـلّيين　　حـرّمها اللّـه عـلى الضّنين
و للـبخيل مـوقفٌ مـهينٌ　　تـهوي بـه النّـار إلیٰ سجّين
شـرابـه الحـميم و الغسلين　　من يـفعل الخـير يـقم سـمين
و يدخل الجنّة أيّ حين

فأنشأت فاطمة رضي اللّه عنها تقول:

أمرك عندي يابن عمٍّ طاعة — مابي من لؤم و لا وضاعة
غذيت في الخبز له صناعة — أطعمه و لا أبالي السّاعة
أرجوا إذا أشبعت ذا الحاجة — أنّ الحقّ الأخيار و الجماعة
و أدخل الجنّة في شفاعة

فأطعموه الطّعام و مكثوا يومهم و ليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلاّ الماء القراح فلمّا أن كا ن في اليوم الثّاني قامت إلىٰ صاعٍ فطحنته و أخبزته و صلّىٰ عليٌّ مع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ أتىٰ المنزل فوضع الطّعام بين أيديهم فوقف في الباب يتيمٌ فقال السّلام عليكم أهل بيت محمّدٍ يتيمٌ من أولاد المهاجرين إستشهد والدي يوم العقبة أطعموني أطعمكم اللّه من موائد الجنّة فسمع عليٌّ فأنشد يقول:

فاطم بنت السيّد الكريم — بنت نبيٍّ ليس بالزّنيم

إلىٰ أخر الأشعار الّتى نقلها القرطبي في اللّيلة الثّانية و الثّالثة و قال في أخرها، فأعطوه الطّعام و مكثوا ثلاثة أيّام و لياليها لم يذوقوا شيئاً إلاّ الماء القراح فلمّا أن كان في اليوم الرّابع و قد قضى اللّه النّذر أخذ بيده اليمنىٰ الحسن و بيده اليسرىٰ الحسين و أقبل نحو رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و هم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع فلمّا أبصرهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال يا أبا الحسن ما أشدَّ مايسوئني ما أرى بكم إنطلق بنا إلى إبنتي فاطمة فإنطلقوا اليها و هي في محرابها و قد لصق بطنها بظهرها و غارت عيناها من شدّة الجوع فلمّا رأها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و عرف المجاعة في وجهها بكىٰ و قال واغوثاه يا اللّه أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يموتون جوعاً فهبط جبرئيل و قال السّلام عليك، ربّك يقرئوك السّلام يامحمّد خذه هنيئاً في أهل بيتك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فما أخذنا ياجبرئيل فأقرأه هل أتى على الإنسان، الآية إلىٰ قوله: **شُكُورًا**، إنتهى ما

ذكره القرطبي في تفسيره و نحن نقلناه عنه عين ألفاظ الحديث إلاّ أنّا حذفنا بعض الأشعار حذراً من الإطالة إن شئت الوقوف عليها فعليك بتفسيره(١).

ثمّ أنّ القرطبي نقل كلاماً من التّرمذي في تضعيف الحديث فقال ما هذا لفظه:

قال التّرمذي الحكيم أبو عبد اللّه في نوادر الأصول، فهذا حديثٌ مروّقٌ مزيّفٌ قد تطرّف فيه صاحبه حتّى تشبّه علىٰ المستمعين فالجاهل بهذا الحديث يعضّ علىٰ شفتيه تلهفاً ألاّ يكون بهذه الصّفة و لا يعلم أنّ صاحب هذا الفعل مذمومٌ و قد قال اللّه تعالىٰ في تنزيله **وَ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ** و هو الفضل الّذي يفضل عن نفسك و عيالك و جرت الأخبار عن رسول اللّه ﷺ متواترة بأنّ خير الصّدقة ما كان عن ظهر غنىً، و أبدأ بنفسك ثمّ بمن تعول و أفترض اللّه علىٰ الأزواج نفقة أهاليهم و أولادهم قال رسول اللّه ﷺ: كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت أفيحسب عاقل أنّ عليّاً جهل هذا الأمر حتّىٰ أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ستّ علىٰ جوع ثلاثة أيّام و لياليهنّ حتّىٰ تضوّروا من الجوع و غارت العيون منهم لخلاء أجوافهم حتّىٰ أبكىٰ رسول اللّه ﷺ ما بهم من الجهد هب أنّه أثر علىٰ نفسه هذا السّائل فهل كان يجوز له أن يحمل أهله علىٰ ذلك، وهب أنّ أهله سمعت بذلك لعلّي فهل جاز له أن يحمل أطفاله علىٰ جوع ثلاثة أيّام بلياليهنّ ما يروج مثل هذا إلاّ علىٰ حمقىٰ جهّال أبىٰ اللّه لقلوب متنبّهة أن تظّن بعلّي مثل هذا و ليت شعري من حفظ هذه الأبيات كلّه ليلةً من علّي و فاطمة و إجابة كلّ واحدٍ منهما صاحبه حتّىٰ أدّاه إلىٰ هؤلاء الرّواة فهذا و أشباهه من أحاديث السّجون فيما أرىٰ بلغني أنّ قوماً يخلّدون في السّجون فيبقون بلا حيلة فيكتبون أحاديث في السّمر و أشباهه و مثل هذه الأحاديث مفتعلة فإذا صارت إلىٰ

١- ج ١٩ ص ١٣٠ إلىٰ ص ١٣٤

الجهابذة رموا بها و زيّفوها و ما من شيءٍ إلاّ له آفة و مكيدة آفة الدِّين وكيده أكثر إنتهىٰ ما نقله القرطبي عنه.

أقول أنّما نقلنا ما نقله القرطبي عن التّرمذي بطوله و تفصيله حفظاً للأمانة لئّلا يظُّن ظانّاً أنّ التِّرمذي لم يقل ذلك و أنت ترىٰ أنّ التِّرمذي أنكر أصل القضيّة و هى أنّ الأيات نزلت في علّي عليه‌السلام و فاطمة في إطعامهم المسكين و اليتيم و الأسير ثلاثة أيّام و إيثارهم هؤلاٴء المساكين علىٰ أنفسهم و لذلك حكم في صدر كلامه بأنّه حديثٌ مزّوقٌ مزّيقٌ ثمّ حكم ثانياً بأنّ صاحب هذا الفعل مذمومٌ إلىٰ أخر كلامه.

و نحن نقول إن كان إعتراضه علىٰ ألفاظ الحديث فهي من الرّاوي و لا ربط لها بأصل القضية فأنّ الحديث نقلوه بطرقٍ مختلفة من العامّة و الخاصّه و لذلك ترىٰ الألفاظ مختلفة.

و إن كان إعتراضه بل إنكاره علىٰ أصل الحديث فهو جاهل بالأخبار أو معاندٌ لأهل البيت فأنّ نزول الأيات في علّيٍ و فاطمة و الحسن و الحسين ممّا لا خلاف فيه عند الشّيعة و أكثر علماء العامّة، أمّا الشّيعة فلا نحتاج إلىٰ نقل أقوالهم في الباب لأنّهم متّفقون علىٰ أنّ سورة هل أتىٰ نزلت في علّيٍ و فاطمة و الحسن و الحسين، و أمّا العامّة فنشير إلىٰ بعضهم.

أبوالمؤيّد أحطب خوارزم موّفق إبن أحمد من علماء العامّة بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ إلىٰ أخر) قال مرض الحسن و الحسين رضي اللّه عنهما فعادهما جدّهما رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و ساق الحديث إلىٰ أخره(۱).

منهم، إبراهيم بن محمّد الحمويني في كتاب فوائد السِّمطين بأسناده عن مجاهد عن إبن عبّاس(۲).

۱- غاية المرام الباب الحادِي والسَّبعُون ص ۳۶۸
۲- ص ۳۷۰

منهم، الحافظ السَّيوطي في الدُّر المنثور عند تفسيره لهذه الأية[۱].

منهم، الحافظ الحسكاني في كتابه المسمّىٰ بالشّواهد التّنزيل بأسناده عن علّي إبن موسى الرّضا عن أبائه عن علّي بن أبي طالب قال عليه السلام: **لمّا مرض الحسن و الحسين عادهما رسول اللّه، و نقل الحديث بطوله**[۲].

و أيضاً بأسناده عن إبن عبّاس الحديث[۳] و أيضاً بسَندٍ أخر عنه[۴].

و هكذا كثيرٌ من علماء العامّة إعترفوا بأنّ الأيات نزلت في علّي و أهل بيته و مع ذلك كلّه كيف يقول التّرمذي فهو حديث مزّوقٌ مزَيفٌ، و العجب كلّ العجب من هذا الحكيم على قول القرطبي، حيث حكم بتزويق هذا الحديث و تزييفه مع أنّ الأكابر منهم نقلوه في كتبهم و أهل البيت الّذين طهّرهم اللّه عن كلّ رجسٍ إتّفقوا على صحّته، ولم يحكم بأنّ ما نقله أبو بكر عن رسول اللّه: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) مزّوقٌ مزَيفٌ مع مخالفته لنّص الكتاب، و هكذا لم يحكم بأنّ ما نقلوه عن رسول اللّه: (أصحابي كالنُّجوم بأيُّهم إقتديتم إهتديتم) مزّوقٌ مزَيفٌ، مع أنّ أبوسفيان ومعاوية وأمثالهما من أصحابه.

و أيضاً لم يحكم بأنّ ما نقلوه عن رسول اللّه (سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر) مزّوقٌ مزَيفٌ، و هكذا و هكذا فإعتبروا يا أولي الأبصار.

فَوَقَيٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَ لَقَّيٰهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُورًا، وَ جَزَيٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا

الوقاية الحفظ و منها التّقوىٰ بمعنىٰ حفظ النّفس عن المحرّمات و فعل الواجبات، فمعنىٰ الأية، أنّ اللّه تعالىٰ حفظهم شرّ ذلك اليوم أي يوم القيامة فأنّه شرٌّ بالنّسبة إلىٰ العصاة و خيرٌ بالنّسبة إلىٰ المطيعين و المراد بالشَّر في الآية العذاب أو الخوف و الوحشة.

۱- ج ۶ ص ۲۹۹
۲- ج ۲ ص ۳۰۰
۳- ص ۳۰۳
۴- ص ۳۰۵

و قوله: **وَ لَقّيٰهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُورًا** معناه أتاهم و أعطاهم نضرةً، أي حسناً، و سروراً و قيل، لقّاهم، أي إستقبلهم به و النُّضرة حسن الألوان، و قيل حسن الصُّورة، و قيل، ناضرة أي ناعمة، و السُّرور هو إعتقاد وصول المنافع إليه في المستقبل، و قيل هو لذةٌ في القلب بحسب متعلّقه بما فيه النّفع و ذلك لأنّ كلّ مسرورٍ لابدّ له من متعلّقٍ كالسُّرور بالمال و الولد و السُّرور بالإكرام و الإجلال و السُّرور بالشُّكر و الحمد و السُّرور بالثّواب و أنّما أعطاهم اللّه ذلك لأنّهم اوفوا بنذرهم في إطعامهم المساكين لوجه اللّه و إيثارهم علىٰ نفوسهم المسكين و اليتيم و الأسير و أنّهم فعلوا ذلك خالصاً مخلصاً لوجه اللّه و خوفاً من عذاب يوم القيامة ولمّا فعلوا في الدُّنيا كذلك أخبرهم اللّه بما أعدَّ لهم من الجزاء فقال: **فَوَقيٰهُمُ اَللّٰهُ**.

و يستفاد من الآية ترّتب الحكم علىٰ نفس العمل من أيّ شخصٍ صدر إذا كان علىٰ أساس الإيمان و الإخلاص.

وَ جَزٰيهُمْ بِمٰا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا أي أثابهم اللّه علىٰ صبرهم علىٰ محن الدُّنيا و شدائدها وتحّملهم مشّاق التّكليف، و قيل بما صبروا علىٰ الفقر، علىٰ الصَّوم و قيل علىٰ الجوع ثلاثة أيّام و هى أيّام النّذر و قيل بصبرهم علىٰ طاعة اللّه و صبرهم علىٰ معصيته و محارمه و (ما) مصّدرية، قيل أنّ الآية نزلت في جميع الأبرار.

أقول الحقّ أن يقال أنّ الحكم يشمل جميع الأبرار و أمّا الآية فقد نزلت في أهل البيت، و هم في رأس الأبرار بلا كلام، و قوله: **جَنَّةً وَ حَرِيرًا** معناه أدخلهم الجنَّة و ألبسهم الحرير فيها.

مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى اَلْأَرٰائِكِ لاٰ يَرَوْنَ فِيهٰا شَمْسًا وَ لاٰ زَمْهَرِيرًا

لمّا أشار اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة إلىٰ أنّ مكانهم الجنَّة و لباسهم فيها الحرير، أشار في هذه الآية و ما بعدها من الأيات إلىٰ سائر النِّعم الّتى أنعم اللّه

بها عليهم في الجنّة فقال: **مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ** فالإتّكاء الإعتماد و الأرائك جمع، أريكة، و هى الحلة فيها الأسرة و المعنىٰ أنّ هؤلاء الأبرار يعتمدون علىٰ الحجال الّتى عليها.

و قال الزّجاج الأريكة كلّ ما يتّكأ عليه من مسورةٍ أو غيرها و قد شوّق اللّه إلىٰ تلك الحال و هى غاية الرّفاهية **لَا يَرَوْنَ فِيهَا** أي في الجنّة **شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيرًا** فالزّمهرير أشدّ ما يكون من البرد، قال المفسّرون معنىٰ الكلام لا يرون في الجنّة شدّة حرّ كحرّ الشّمس و لا زمهريراً أي برداً مفرطاً.

و قال بعضهم لا شمساً، يتأذون بحرّها و لا زمهريراً، يتأذون ببردها، و المعنىٰ واحد.

و قال صاحب الكشّاف في معنىٰ الكلام يعني أنّ هواءها معتدل لا حرّ شمسٍ يحمي و لا شدّة بردٍ تؤذي، و قيل الزّمهرير القمر و عن ثعلب أنّه في لغة طيّ و أنشد:

و ليلةُ ظلامها قد إعتكر   قطعتها و الزّمهرير ما زهر

و المعنىٰ أنّ الجنّة ضياء فلا يحتاج فيها إلىٰ شمسٍ و قمر إنتهىٰ كلامه.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير قوله لا شمساً و لا زمهريراً.

و لقائلٍ أن يقول أن كان المراد من الكلام نفي الحرّ و البرد، فلم لم يقل لا حرّاً و لا برداً، فلا يبعد أن يكون في ذكر الشّمس نقطةٍ أخرىٰ و هى أنّ طلوع الشّمس علّة لوجود النّهار و غروبها لوجود اللّيل فلو كان هناك شمسٌ فلا محالة يكون النّهار موجوداً بوجودها، و اللّيل بغروبها ولازم ذلك وجود الفصل فيها و هو الصّيف و الشّتاء و قد ثبت أنّ اللّيل و النّهار يلبيان كلّ جديد، و المفروض أنّ الأخرة باقية علىٰ حالها لا زوال لها و لا تغيُّر فيها فلا صيف فيها و لا شتاء فالمؤمن مخلّدٌ في الجنّة و الكافر في النّار.

و علىٰ عذا فقوله **شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيرًا** كنايتان عن نفي الصّيف و الشّتاء و انتفاء العلّة توجب إنتفاء المعلول هذا ما خطر ببالي و اللّه أعلم.

وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا

أي ظلّ الأشجار في الجنَّة قريبة من الأبرار فهي مظلّةٌ عليهم زيادةٌ في نعيمهم و أن كان لا شمس و لا قمر ثمّ، كما أنّ أمشاطهم الذّهب و الفضّة و أن كان لا وسخ و لا شعث ثمّ، و قوله: **دانِيَةً** من الدُّنو و هو القرب و المعنىٰ إذا إشتهىٰ المؤمن ثمرة الأشجار ذانت الشَّجرة أي قربت إليه حتّىٰ يتناولها و إنتصبت دانيةً علىٰ الحال عطفاً علىٰ متّكئين و علىٰ هذا يأكل المؤمن من ثمرتها و هو متّكئٌ علىٰ الأريكة فلا يحتاج إلىٰ القيام و المشي إلىٰ جانب الشَّجرة بل الشَّجرة تقرب إليه، **فالقطُوف** بضّم القاف الثّمار و الواحد منها **قِطف** بكسر القاف فمعنىٰ الأية، و قريبة عليهم، أي علىٰ الأبرار **ظِلالُها** أي ظلّ الأشجار (و ذلِّلت) أي سخّرت **قُطُوفُها** أي ثمار الأشجار **تَذْلِيلًا** أي خضوعاً تكوينّياً، و قيل هو تأكيد.

وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا، قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيرًا

أي يطاف علىٰ الأبرار في الجنَّة **بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍوَ أَكْوابٍ** هو جمع كوب و هو إناء الشَّراب.

و قال إبن عبّاس الأكواب الأقداح، و قيل هي صغار القوارير و هى فضّة فلذلك قال **كانَتْ قَوارِيرَا** و قيل الأكواب الأباريق الّتى ليس لها خراطيم، و قيل الأكواب من فضَّة في صفاء القوارير لا تمنع الرُّؤية، و قيل أرض الجنَّة من فضَّة و الأواني تتَّخذ من تربة الأرض الّتى هي منها.

قال بعضهم ليس في الجنَّة شيءٌ إلاّ قد أعطيتم في الدّنيا شبهه إلاّ القوارير من فضَّة **قَدَّرُوها تَقْدِيرًا** معناه أنّهما علىٰ قدر ما يشتهون من غير زيادةٍنقصان حتّىٰ تستوفي الكمال و المعنىٰ قدَّرتها الملائكة الّتى تطوف عليهم.

و قيل أنّ الشّاربين قدَّروا لها مقادير في أنفسهم علىٰ قدر ما إشتهوا.

وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا، عَيْنًا فِيهَا تُسَمّٰى سَلْسَبِيلًا

أي يسقون الأبرار فيها، أي في الجنَّة **كَأْسًا** و هى الخمر في الإناء **كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا** قيل، كان، صلة، أي مزاجها زنجبيل، قيل كانت العرب تستَلذ من الشّراب ما يمزج بالزّنجبيل يطيب رائحته لأنّه يحذو اللّسان و يهضم المأكول.

قال مجاهد الزّنجبيل إسمٌ للعين الّتى منها مزاج شراب الأبرار، و قيل هو إسمٌ للعين الّتى يشرب بها المقَّربون صرفاً و تمزج لسائر أهل الجنَّة و قيل غير ذلك و المعنىٰ كان فيها زنجبيلاً **عَيْنًا** بدل من كأسٍ و قيل نصب علىٰ أنّه بدل من زنجبيلاً، فعلىٰ الأوّل نصبها علىٰ الموضع أي موضع، كأس، و السّلسبيل الشّراب السّهل اللذيذ، و هو في اللُّغة إسمٌ لما كان في غاية السّلاسة فكأنّ العين سمَّيت بعضها و عن إبن عبّاس و مجاهد، أنَّها الحديدة الجزي تسيل في حلوقهم إنسلالاً و منه.

قول حسّان إبن ثابت:

يسقون من وزد البريض عليهم ‏ ‏ ‏ ‏ بردىٰ يصَّفق بالرَّحيق السّلسل

و قال أبو الغالية و مقاتل أنّما سمّيت سلسبيلاً، لأنّها يستسل عليهم في الطَّريق و فى منازلهم تنبع من جنّة عدن إلىٰ أوّل الجنّة.

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا، وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا

و المعنىٰ، يطوف علىٰ هؤلاء الأبرار في الجنَّة، ولدانٌ مخلّدون، أي لا يموتون بل باقون علىٰ ما هم عليه من الشّباب و الغضاضة، و قيل معناه لا يهرمون و لا يتَّغيرون و يكونون علىٰ سنٍّ واحدةٍ علىٰ مرِّ الأزمنة (إذا رأيتهم) أي إذا رأيت الولدان **حَسِبْتَهُمْ** و ظنَّنتهم لؤلؤاً منثوراً، أي مفرعاً في عرصة المجلس من كثرتهم و حسنهم **وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ** ثمّ، ظرف مكانٍ أىّ هناك في الجنّة و الفاعل فيه معنىٰ رأيت أي و إذا رأيت ببصرك، ثمّ.

قال الفرّاء في الكلام، ما، مضمرة، أي و إذا رأيت ماثمّ **رَأَيْتَ نَعِيمًا** أي سائر ما يتّنعم به **وَ مُلْكًا كَبِيرًا** إختلفوا في معناه، فقال بعضهم الملك الكبير هو إستئذان الملائكة عليهم قاله السُّدي.

و قال الكلبي هو أن يأتي الرَّسول من عند اللّه بكرامةٍ من الكسوة و الطّعام و الشّراب و التُّحف إلىٰ ولّي اللّه و هو في منزله يستأذن عليه فذلك الملك العظيم، و قيل الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم دليله قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْمَلآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدّارِ** (١) و قيل الملك الكبير كون التّيجان علىٰ رؤوسهم كما تكون علىٰ رأس ملكٍ من الملوك.

و قيل ملك الكبير ملكٌ لا يتعقَّبه هلكٌ و موتٌ و الأقوال كثيرة و الذّي يظهر من أخبار أهل البيت عليهم السّلام هو أنّ الملك الكبير في الأخرة هو الّذي لا يزول و لا يفنى، و هذا هو الحقّ فأنّ الملك الّذي فيه الزّوال و الفناء لا يكون كبير بل هو صغير لا قيمة له كما أنّ الملك في الدُّنيا كذلك هذا كلّه مضافاً إلىٰ أنّ الملك في الأخرة منه ما تشتهيه الأنفس و تلّذ به الأعين بغير همٍّ و لا مصيبة و أعظم من ذلك كلّه حسن الجوار و هو الحشر مع الصُّلحاء و الصّديقين.

عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقيٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرابًا طَهُورًا

قرأ نافع و حمزة وبهن محيص **عاليهم** ساكنه الياء و إختاره أبو عبيد إعتباراً بقراءة إبن مسعود، و قرأ الباقون بفتح الياء علىٰ الظّرف، و منهم من قرأ **عاليتهم** بالتّاء و الثّياب جمع ثوب و هو ما يلبس.

و **السُّندس** بضّم السّين ما رّق من الدّيباج، و الإستبرق ما غلظ منه و قوله **حُلُّوا** بضّم الحاء و اللاّم المشدّدة بصيغة المجهول يقال حلي الرّجل الفضّة، و

١- الرعد = ٢٣/٢٤

حلي المرأة الذَّهب، فالتَّحلية الزِّينة بما كان من الذَّهب أو الفضّة و لا يختّص بالإنسان بل قد تكون في غيره كحلية السَّيف و حلية المركب، و معنى الآية أنّ عاليهم أي عالي الأبرار، و قيل عالي الولدان **ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ** من حيث اللّون **وَ إِسْتَبْرَقٌ** معطوفٌ على سندسٍ، و حاصل المعنىٰ أنّ لباس الأبرار أو الولدان، من سندسٍ و إستبرق، أي من الدّيباج الرَّقيق و الغليظ و أنّما قلنا ذلك لأنّ قوله: **عَالِيَهُمْ** يمكن أن يكون حالاً من الولدان و أن يكون حالاً من الأبرار ثمّ قال تعالىٰ: **وَ حُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ** و قال تعالىٰ في سورة الحجّ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ**(١).

فقال بعض المفسّرين الذَّهب للنّساء و الفضّة للرّجال، و قال الأخر تارةً يلبسون الذَّهب و تارةً يلبسون الفضّة.

أقول لا نحتاج إلى هذه التّكلفات فأنّ التَّحلي بالذَّهب حرامٌ علىٰ الرّجال في الدُّنيا لا في الأخرة إذ لا تكليف هناك فلا مانع من إستعمال الذَّهب في الأخرة و هكذا الفضّة و لا فرق في ذلك بين الرّجال و النّساء فيها.

وَ سَقَيٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا نقل القرطبي في تفسيره عن عليٍ عليه السلام أنّه قال:

إذا توّجه أهل الجنَّة إلىٰ الجنّة مرُّوا بشجرةٍ يخرج منها تحت ساقها عينان يشربون من إحدايها فتجري عليهم بنضرة النَّعيم فلا تتَّغير أبشارهم و لا تتشعَّث أشعارهم أبداً ثمّ يشربون من الأخرىٰ فيخرج من الأخرىٰ ما في بطونهم من الأذىٰ ثمّ تستقبلهم خزنة فيقولون لهم سلامٌ عليكم طبتم فأدخلوها خالدين، إنتهىٰ و اللّه أعلم.

و قال النَّخعي و أبو قلابة هو إذا شربوه بعد أكلهم طهَّرهم و صار ما أكلوه شربوه رشح مسك.

١- الحجّ = ٢٣

أقول ما ذكروه في تفسير الآية ذكروه من عند أنفسهم و قد رأيت في حديثٍ رواه في روضة الكافي و الحديث طويلٌ رواه أبو جعفرعليه السلام عن جدّه رسول اللّه و فيه ما هذا لفظه:

و عن يمين الشَّجرة التّي في باب الجنَّة عينٌ مطّهرة مزكيّة فيسقون منها شربةٌ فيطّهر اللّه بها قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشَّعر و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ و سقاهم ربُّهم شراباً طهوراً، من تلك العين المطّهرة ثمّ قال عليه السلام يصرفون إلىٰ عينٍ أخرىٰ عن يسار الشَّجرة فيغتسلون فيها و هي عين الحياة فلا يموتون أبداً الحديث.

إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰآءً وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه يقال للمؤمنين لمّا أعطاهم من النّعيم في الجنّة ما أعطاهم علىٰ ما مرَّ ذكره في الأيات المذكورة **إِنَّ هٰذٰا** الّذي أعطيتم من الدّخول في الجنّة تلتّذون به **كٰانَ لَكُمْ جَزٰآءً** على ما فعلتم في الدُّنيا من الطّاعات **وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ** في مرضات اللّه **مَشْكُورًا** أي جوزيتم عليه فكأنّه شكر لكم فعلكم ثمّ أخبر اللّه عن نفسه.

إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ اَلْقُرْآنَ تَنْزِيلًا، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا

إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ اَلْقُرْآنَ ما إفتريته و لا جئت به من عندك كما يدَّعيه المشركون قيل وجه إتّصال هذه الآية بما قبلها أنّه سبحانه لمّا ذكر أصناف الوعد و الوعيد بيَّن أنّ هذا الكتاب يتَّضمن ما بالنّاس حاجة إليه فليس بسحرٍ و لاكهانة و لا شعر و أنّه حقٌّ لا مرية فيه و فى قوله: **تَنْزِيلًا** إشارة إلىٰ إنزال القرأن أية بعد أية ولم ينزل جملة واحدة و قد مضىٰ الكلام في هذا المعنىٰ ثمّ أمر اللّه نبيّه بأمورٍ:

أحَدها: الصَّبر علىٰ أذىٰ المشركين و إستهزؤاهم إيّاه و إنكارهم القرأن و غير ذلك و إليه أشار بقوله: **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** فأنّ الصَّبر مفتاح الفرج.

الثّانى: عدم الإطاعة من الكفّار قولاً و فعلاً فقال: **وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ** أي من الكفّار أثماً، مذنباً، أو كفوراً، بنعمة اللّه، قيل نزلت في عتبة بن ربيعة و الوليد بن المغيرة، و كانا أتيا رسول اللّه ﷺ يعرضان عليه الأموال و التّزويج على أن يترك ذكر النّبوة، و الآثم عتبة بن ربيعة و الكفور، هو الوليد لأنّه كان ذا مالٍ و أولادٍ و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً.

قال مقاتل، الّذي عرض التّزويج عليه هو عتبة بن ربيعة فقال أنّ بناتي من أجمل نساء قريش فأنا أزوَّجك إبنتي من غير مهرٍ و أرجع عن هذا الأمر، الوليد إن كنت ما صنعت لأجل المال فأنا أعطيك من المال حتّىٰ ترضىٰ و أرجع عن هذا الأمر فنزلت.

الثّالث: أمره اللّه تعالىٰ بذكر ربّه، فقال: **وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا** قيل معناه صلِّ لربّك أوّل النّهار و أخره ففي أوّله صلاة الصُّبح و فى أخره صلاة الظُّهر و العصر.

و قال بعضهم معناه، و أذكر ربّك بما يستحقُّه من الصّفات و الأسماء الحسنىٰ و البكرة الغداة و الأصيل العشي و هو أصل اللّيل و جمعه آصال.

أقول ما ذكروه لا بأس به فأنّه من مصاديق الذِّكر إلاّ أنّ حمل الذّكر علىٰ معناه العامّ أولىٰ و أحسن و المعنىٰ أذكر ربّك باللّيل و النّهار فالغداة كناية عن النّهار و الأصيل عن اللّيل و فيه إشارة إلىٰ أنّ العبد المطيع ينبغي أن يكون في جميع ساعات اللّيل و النّهار متّوجهاً إلىٰ ربّه غير غافلٍ عنه و لا تشغله الدُّنيا و ما فيها عن ذكر ربّه و التّوجه إليه و إن شئت قلت مراده بالذّكر وجدان المذكوره و حضوره بالقلب لا ذكره باللّسان وحده مع غفلة القلب فأنّه غير معتبرٍ عند السّالك، فأوّل مراتب الذِّكر نسيان الغير لأنّك إن لم تنس الكلّ ما وجدته فإذا

كان العبد موصوفاً بنسيان الغير و ذكر الرَّب كانت نفسه مذكورة في ضمن هذا الذِّكر في هذه الدَّرجة.

قال بعض العرفاء أفضل الذِّكر لا إله إلاّ اللّه فأنّها كلمة التّوحيد و التّنزيه عن الشّرك و الفارق بين الكفر و الإيمان و لكونها أجمع للقلب مع اللّه و أنفىٰ للغير و أشدّ تزكيةً للنّفس و تصفيةً للباطن و تنقيةً من حديث النّفس و أطرد للشّيطان أجمعوا علىٰ أنّ العبد يجب أن يداوم علىٰ هذا الذّكر وحده في الذّكر اللّساني إلاّ أنّ الذّكر اللّساني وحده لا يكفي في تحقّق الذّكر بقولٍ مطلق بل ينبغي أن يكون العبد قولاً و فعلاً و قلباً ذاكراً متوجّهاً إلىٰ معبوده و الكلام في هذا الباب يحتاج إلىٰ كتاب أخر ثمّ أمر اللّه نبيّه بعد ذلك بالتّهجد في اللّيل.

وَ مِنَ ٱللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا

كلمة (مِن) للتّبعيض أي بعض اللّيل و المعنىٰ فأسجد له في بعض اللّيل، جميع اللّيل لأنّه مستلزم للحرج و المشّقة ولم يجعل اللّه في دينه حرجاً علىٰ أحدٍ من خلقه كما قال: **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ**(١).

و قد مرَّ الكلام فيه و قوله: **وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا** فالتَّسبيح التَّنزيه أي نَزِّ ربّك عمّا لا يليق بشأنه في اللّيل الطَّويل و قد مضىٰ تفسيره في المزَّمل.

إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا

هؤلاء إشارة إلىٰ أبناء الدُّنيا و محبّيها و لا وجه لتخصيصه بالكفّار و المشركين كما قال المفسّرون، فأنّ حبّ العاجلة و هى الدُّنيا لا يختّص بهم كما هو واضح فأنّ حبّ الدُّنيا و ترك الأخرة من الأعراض النّفسانية الّتى لا تجد تاركه إلاّ قليلاً فأكثر النّاس من الكافرين و المسلمين من مصاديق هذه الآية و

١- المُزَّمل = ٢٠

أيّ كافرٍ أو مشركٍ كان أحرص علىٰ الدُّنيا و ما فيها من المسلمين المنافقين الّذين فعلوا بعد موت النّبي ما فعلوا بل نقول أنّهم كانوا أحرص عليها من أبي جهل و عتبة و شيبة و امثالهم ممّن قتلوا في غزوة بدر، لأنّهم أسلموا طمعاً، و الكفّار لم يسلموا أصلاً، و البقاء علىٰ الكفر و الموت عليه أحسن من النّفاق و الموت عليه لأنّ الأوّل ظلم على نفسه و الثّاني على نفسه و على غيره و الإنصاف أنّ ضرر الكفّار الّذين أنكروا نبّوة نبيّنا أمثال أبي جهل و أبي لهب و عتبة و غيرهم ما كان أكثر و أشدّ و أفظع و أقبح من ضرر أبي سفيان و معاوية و يزيد و عبدالملك و هكذا على الإسلام و المسلمين أليس هذا أدَّل دليلٍ على حبّهم العاجلة أتظُّن أنّهم فعلوا بعد النّبي ما فعلوا لأجل الأخرة والتّقرب الىٰ اللّه لا لأجل الدُّنيا و حبّها، و حاصل الكلام أنّ اللّه تعالىٰ أخبر في هذه الآية أنّ هؤلاء الكفّار و المنافقين من المسلمين يحبُّون الدُّنيا و يتركون وراءهم يوماً كان ثقيلاً، و هو الأخرة أي لا يخافون فيها و لا يعلمون أو لا يعتقدون أنّه يوم علىٰ الظّالمين عسيرٌ.

نَحْنُ خَلَقْنٰاهُمْ وَ شَدَدْنٰآ أَسْرَهُمْ وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰآ أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلًا

أشار بهذه الآية الى أنّ هؤلاء الّذين يحبّون العاجلة لا يقدرون علىٰ الفرار من سلطاننا و ذلك لأنّ المخلوق تحت قدرة الخالق فقال: **نَحْنُ خَلَقْنٰاهُمْ** و أوجدناهم، **وَ شَدَدْنٰآ أَسْرَهُمْ** أي خلقهم، و قيل الأسر القوّة أي شدَّدنا قوّتهم بالمال و الأولاد.

وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰآ أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلًا أي إذا شئنا أهلكنا هؤلاء و جئنا بقومٍ آخرين بدلهم نخلقهم و نوجدهم و الأسر مشتّق من الإسار و هو الّذي يشتدّ به الأقتاب يقال أسرت ألقتب أسراً أي شدَّدته و ربطته، و من المعلوم أنّ اللّه علىٰ كلّ شئٍ قدير، إلاّ أنّ المصلحة إقتضت أن يمهلهم في دار الدُّنيا و أمّا حسابهم ففيٍ الأخرة.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا

أي أنّ هذه الأيات هذه السُّورة من أوّلها الى آخرها تـذكرة و مـوعظة لمـن يتذّكر و يتّعظ بما فيها من آيات الوعد و الوعيد و التّخويف و التّرغيب.

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا أي طريقاً موصلاً الىٰ طاعته و طـلب مرضاته فهذه الآية صريحة في أنّ الإنسان مختارٌ في الدُّنيا وليس عـلىٰ اللّـه و رسوله إلاّ الإرشاد و إرائة طريق الحقّ خلافاً للأشاعرة القائلين بالجبر و أنّ العبد لا إختيار له و ذلك لأنّ قوله: **فَمَن شَآءَ** صريحٌ في المدّعىٰ و هو الإختيار فلو كان الإنسان مجبوراً لا إختيار له، فما معنىٰ هذا الكلام و يؤيّد ما ذكـرناه قـوله تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ**(١) ثمّ قال بعد ذلك.

وَ مَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

قال القرطبي و هو من القائلين بالجبر في تفسير هـذه الآيـة مـا هـذا لفـظه، فأخبر أنّ الأمر اليه سبحانه ليس اليهم و أنّه لا تنفد مشيّئتة أحـدٍ و لا تـتّقدم إلاّ أن مشيّئته و ساق الكلام الىٰ أن قال و قيل أنّ الآية منسوخة و الأشبه أنّها ليس بنسخ بل هو مبين أنّ ذلك لا يكون إلاّ بمشيّته و نقل عن الفرّاء أنّه قـال: **وَ مَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ** جواب لقوله: **فَمَنْ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا** ثمّ أخبرهم أنّ الأمر ليس اليهم فقال: **وَ مَا تَشَآءُونَ** ذلك السّبيل إلاّ أن يشاء اللّه لكم إنتهىٰ كلام القرطبي.

و نحن نقول أن كان الأمر ليس اليهم، فما معنىٰ قوله: **إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا** أليس للعبد أن يقول يوم القيامة لربّه أنّك أخبرتنا، أنّ الأمر ليس الينا، فلا ذنب لي ثمّ أنّ هذا الكلام أشبه شئ بإجتماع النّقيضين فأنّ قوله: **فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ** يثبت الإختيار، و قوله ليس الأمر اليهم علىٰ قـول

١- البقرة = ٢٥٦

القرطبي يسلب الإختيار عنهم فالعبد مختار و غير مختار و هذا هو التّناقض بعينه لأنّ نقيض كلّ شيءٍ رفعه فكأنّ اللّه تعالىٰ قال لهم، فمن شاء منكم إتّخذ الىٰ ربّه سبيلاً، أو فليتّخذ الىٰ ربّه سبيلاً، و ليعلم أنّ الأمر ليس اليه، أي لا يقدر علىٰ الإتّخاذ بل الأمر بيد اللّه لا إليه، و لا أظنّ أنّ العاقل يتفوّه بهذا الكلام الّذي لا يساعده العقل و النّقل و هذا فبلغهم من العلم و لم يعلموا أنّ القائل بهذا الكلام و حمل كلام اللّه عليه مسئولٌ يوم القيامة.

أن قلت فما معنىٰ الأية.

قلت المشيّئة في قوله: **إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ** بمعنىٰ العلم أي لا تشاؤن إلاّ أنّ اللّه تعالىٰ عالمٌ به و بعبارةٍ أخرىٰ ما تشاؤن إلاّ ما علم اللّه به و قد ثبت أنّ العلم الأزلي ليس علّةً لفعل العبد.

يُدْخِلُ مَنْ يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ ٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي يدخل اللّه تعالى من يشاء من عباده في رحمته الواسعة و أمّا الظّالمون المنكرون للحقّ المتجاوزون عن الحدّ أعدَّ لهم عذاباً أليماً، يوم القيامة بما كسبت أيديهم و ما ربّك بظلامٍ للعبيد.

■

سُورَةُ ٱلْمُرْسَلاٰتِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَ ٱلْمُرْسَلاٰتِ عُرْفًا «١» فَالْعاٰصِفاٰتِ عَصْفًا «٢» وَ
ٱلنّٰاشِراٰتِ نَشْرًا «٣» فَالْفاٰرِقاٰتِ فَرْقًا «٤»
فَالْمُلْقِياٰتِ ذِكْرًا «٥» عُذْرًا أَوْ نُذْرًا «٦» إِنَّماٰ
تُوعَدُونَ لَواٰقِعٌ «٧» فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ «٨» وَ
إِذَا ٱلسَّمآٰءُ فُرِجَتْ «٩» وَ إِذَا ٱلْجِباٰلُ نُسِفَتْ «١٠»
وَ إِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ «١١» لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ «١٢»
لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ «١٣» وَ مآٰ أَدْرٰيكَ ماٰ يَوْمُ ٱلْفَصْلِ
«١٤» وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ «١٥» أَلَمْ نُهْلِكِ
ٱلْأَوَّلِينَ «١٦» ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْاٰخِرِينَ «١٧» كَذٰلِكَ
نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ «١٨» وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ
«١٩» أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مآٰءٍ مَهِينٍ «٢٠» فَجَعَلْناٰهُ فى
قَراٰرٍ مَكِينٍ «٢١» إِلٰى قَدَرٍ مَعْلُومٍ «٢٢» فَقَدَرْناٰ
فَنِعْمَ ٱلْقاٰدِرُونَ «٢٣» وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ «٢٤»
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفاٰتًا «٢٥» أَحْيآٰءً وَ أَمْواٰتًا
«٢٦» وَ جَعَلْناٰ فيهاٰ رَواٰسِيَ شاٰمِخاٰتٍ وَ أَسْقَيْناٰكُمْ
مآٰءً فُراٰتًا «٢٧» وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ «٢٨»

ٱنْطَلِقُوٓا إِلىٰ ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿۲۹﴾ ٱنْطَلِقُوٓا
إِلىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلاثِ شُعَبٍ ﴿۳۰﴾ لا ظَلِيلٍ وَ لا
يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿۳۱﴾ إِنَّها تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ
﴿۳۲﴾ كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ ﴿۳۳﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿۳۴﴾ هٰذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ﴿۳۵﴾ وَ لا
يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿۳۶﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿۳۷﴾ هٰذا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿۳۸﴾ فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿۳۹﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿۴۰﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
ظِلالٍ وَ عُيُونٍ ﴿۴۱﴾ وَ فَواكِهَ مِمّا يَشْتَهُونَ ﴿۴۲﴾
كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا هَنِيٓئًا بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿۴۳﴾ إِنّا
كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿۴۴﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿۴۵﴾ كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ
مُجْرِمُونَ ﴿۴۶﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿۴۷﴾ وَ إِذا
قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴿۴۸﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿۴۹﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿۵۰﴾

◀ اللّغة

عُرْفًا: بضّم الغَين معناه التّتابع أي متتابعة كعرف الفرس.

فَالْعاصِفاتِ: يقال عصفت الرّيح إذا إشتّد هبوبه.

وَ ٱلنّاشِراتِ: النّشر التّفرق و منه نشر السّحاب في الهواء.

فَالْفارِقاتِ: هي الّتى تفرق بين الحقّ و الباطل.

فَٱلْمُلْقِيٰتِ: فالالقاء طرح الشّيْ.

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا: قال أبو علّي (عذر و نذر) بضَّم الذّال فيهما جمع عاذر و ناذر.

طُمِسَتْ: بضمّ الطّاء و كسر الميم بصيغة المجهول فالطَّمس ذهاب الضَّوء.

فُرِجَتْ: بضمّ الفاء بصيغة المجهول، فالفرج الشّق.

نُسِفَتْ: يقال نسفت الشّئ و أنسفته إذا أخذته كلّه بسرعةٍ.

أُقِّتَتْ: بضمّ الألف و كسر القاف معناه، جمعت، و هو من الوقت بمعنىٰ الأجل.

أُجِّلَتْ: التَّأجيل التّأخير أي أخّرت.

مَهِينٍ: المهانة الضَّعف و الحقارة، أي ضعيفٌ حقيرٌ.

كِفَاتًا: الكفاة الغَّمام يقال كفت الشّئ يكفته كفتاً و كفاتاً إذا ضمَّه، و قيل الكفاة الوعاء.

رَوٰسِيَ: فالرَّواسي الثّوابت.

شٰامِخٰاتٍ: الطُّوال و منه قولهم فلان شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً.

فُرٰاتًا: الفرات بضمّ الفاء الماء العذب.

ظِلٍّ: الظلّ بكسر الظّاء الدُّخان.

مِنَ ٱللَّهَبِ: بسكون الهاء مصدر قولك لهب لهباً فاللّهب ما يعلوا علىٰ النّار إذا إضطربت من أحمرٍ و أصفرٍ و أخضرٍ.

بِشَرَرٍ: واحدته، شررة و هو ما تطاير من النّار في كلّ جهةٍ و أصله من شررت الثّوب إذا بسطته للشّمس ليجف.

كَٱلْقَصْرِ: القصر البناء العالى.

جِمٰالَتٌ صُفْرٌ: و هى الإبل السُّود و أنّما سميّت صفراً لأنّه يشوب سوادها شيءٌ من صفرة (في ظلالٍ و عيون) ظلال جمع ظلّ، والعيون جمع عين.

◀ الإعراب

عُرْفًا في موضع الحال أي متتابعة **عَصْفًا** مصدر مؤكّد **ذِ كْرًا** مفعول به **عُذْرًا أَوْ نُذْرًا** فيها وجهان:

أحدهما: سكون الذّال فيهما أو ضمّها، فهما علىٰ هذا مصدران.

الثّانى: أنّهما جمع عذير و نذير، فعلىٰ الأوّل نصبهما علىٰ المفعول له أو علىٰ البدل من، ذكراً، و علىٰ الثّاني هما حالان من الضّمير في الملقيات أي معذرين و منذرين **إِنَّمَا** هاهنا بمعنىٰ، الّذي و الخبر، لواقع، و لا تكون ما، مصدريّة، و لا كافة **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ** هو جواب إذا في قوله **فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ** ويلٌ، هو مبتدأ و **يَوْمَئِذٍ** نعتٌ له أو ظرف له **وَالْمُكَذِّبِينَ** الخبر **إِلَىٰ قَدَرٍ** في موضع الحال **أَحْيَآءً** قيل هو مفعول، كفاتاً و قيل هو المفعول الثّاني، لجعلنا **لَا ظَلِيلٍ** نعتٌ لظلّ **هٰذا** هو مبتدأ **يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ** خبر.

◀ التّفسير

وَ ٱلْمُرْسَلاتِ عُرْفًا

الواو للقسم و ما بعدها للعطف، و **الْمُرسَلات** بضّم الميم و فتح السّين الرّياح، و قوله: **عُرْفًا** معناه متتابعات و قيل المراد بها الملائكة و قيل الأنبياء.

فَعلىٰ القَول الأوّل: معناه، أقسم بالرّياح المتتابعات لأنّ معنى **عُرْفًا** يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس تقول العرب النّاس إلىٰ فلان عرفٌ واحد إذا توّجهوا إليه فأكثروا و هو نصب علىٰ الحال و قيل **عُرْفًا** أي معروفاً إرسالها.

علىٰ القَول الثّانى و الثّالث: فالعرف بمعنىٰ المعروف أي جاء الأنبياء و الملائكة بالمعروف.

فَالْعاصِفاتِ عَصْفًا

العصوف مرور الرّيح بشدّةٍ يقال عصفت الرّيح عصوفاً إذا.

إشتَّدت هُبُوها وَ ٱلنّٰاشِراٰتِ نَشْرًا

و قال قتادة هي الرّياح لأنّها تنشر السّحاب للغيث كما تلحقه المطر، و قيل هي الملائكة تنشر الكتب عن اللّه و قيل أنّها الأمطار لأنّها تنشر النّبات، و قيل النّاشرات الملائكة الموّكلون بالسُّحب ينشرونها.

فَالْفٰارِقٰاتِ فَرْقًا

أي الفارقات بين الحقّ و الباطل و المراد الملائكة قتادة هي أيات القرأن و قيل هو القرأن يفرق بين الحقّ و الباطل.

فَالْمُلْقِيٰاتِ ذِكْرًا

أي إيقاعه علىٰ غيره فأنّ الذِّكر يلقي بالبيان و الأفهام و هو من صفة الملائكة.

أقول و الأحسن أن يقال أنّ المراد بهم الأنبياء ثمّ الأوصياء ثمّ العلماء فأنّهم يلقون الذِّكر على النّاس و المراد بالذِّكر التّوحيد و النّبوة و المعاد و جميع الأحكام الفَّرعية.

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا

قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائي بإسكان الذّال في **نُذراً** و الباقي بضمّ الذّال.

و أمّا **عُذراً**، فقد إتَّفقوا على إسكان الذّال فيه سوى (عاصم) فأنّه قرأ بضمّ الذّال فيه، ثمّ أنّهم إختلفوا، فقال بعضهم هما جمع، عذير و نذير.

و قال الآخرون هما مصدران أي أعذاراً من اللّه أو إنذاراً إلىٰ خلقه من عذابه و قيل يعني الرُّسل، **يعذرون و ينذرون**، و قيل هما جمع **عاذر و ناذر**

كقوله تعالىٰ: **هٰذا نَذِيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ**(١) فيكون نَصباً علىٰ الحال مِن الإلقاء أي يلقون الذِّكر في حال القدرة و الإنذار.

إِنَّما تُوعَدُونَ لَواٰقِعٌ

و الأصل أنّ ما توعدون لواقع، فما، موصولة بمعنى الّذي و المعنى أنّ الّذي توعدون بواسطة الأنبياء من أهوال القيامة، لواقع بكم و نازلٌ عليكم قطعاً فهو أي قوله: **لَواٰقِعٌ** جواب ما تقدّم من القسم من المرسلات إلىٰ أخرها، فأنّ الواو في جميعها للقسم أي أقسم بما ذكرناه أنّ ما توعدون لواقع ثمّ بيَّن اللّه تعالىٰ وقت وقوع القيامة فقال:

فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ

الطَّمس محو الأثر الدّال علىٰ الشَّيْ و المعنىٰ ذهب ضوءها و محي نورها كطمس الكتاب و النُّجوم الكواكب المضيئة و من علائم القيامة ذهاب نور الكواكب.

وَ إِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ

الفرج الشَّق أي شقّقت السّماء و صدّعت.

وَ إِذَا ٱلْجِبالُ نُسِفَتْ

نسف الجبال إذهابها حتّىٰ لا يبقىٰ لها في الأرض أثره و قيل، نسفت أي ذهب بها كلّها بسرعةٍ يقال نسفت الشّيْ و أنسفته إذا اخذته كلّه بسرعةٍ.

وَ إِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ

قيل في معناه، أي أعلمت وقت الثّواب و وقت العقاب فالتَّوقيت تقدير الوقت لوقوع الفعل، و قيل معناه جمعت لوقتها ليوم القيامة و الوقت الأجل

١- النّجم = ٥٦

الّذي يكون عنده الشّئ المؤخّر إليه فالمعنىٰ جعل لها وقتٌ و أجل للفصل و القضاء بينهم و بين الأمم كما قال تعالىٰ: **يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ**[1].

قال الفرّاء، الهمزة في **أُقِّتَت**، بدل من الواو، و أصله وقتت، لأنّه من التّوقيت، و قيل لما كان الرُّسل قد قدّر إرسالها لأوقات معلومة بحسب صلاح العباد فيها كانت قد وقتت تلك الأوقات بمعنىٰ أعلمت وقت الثّواب و وقت العقاب.

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ

أي أخّرت فالتّأجيل التّأخير إلىٰ أجلٍ فالرُّسل قد أجّلت أي أخّرت بموعودها إلىٰ يوم الفصل و هو يوم القيامة و فى هذا الكلام تعظيم لذلك اليوم فهو إستفهام علىٰ التّعظيم أي **لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ** أجلّت و هو اليوم الّذي يفصل فيه بين النّاس بأعمالهم إلىٰ الجنّة أو إلى النّار.

فقد روي أنّه إذا حشر النّاس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً شاخصة أبصارهم إلىٰ السّماء ينظرون الفصل، و كيف كان لا شكّ أنّ يوم القيامة لا يمكن أن يوصف في هوله و شدّته و لذلك قال تعالىٰ:

وَ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ

ما، نافية أي لا تعلم أي يوم يوم الفصل، فما في قوله: **مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ** إستفهاميّة بمعنىٰ (أيٌّ) أي لست تعلم أيُّ شئٍ يوم الفصل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

الويل، بفتح الواو، وادٍ في جهنّم، فيه ألوان العذاب، قيل روي عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال، عرضت علّي جهنّم فلم أر فيها وادياً أعظم من الويل.

و روي أنّه مجمع ما يسيل من قبيح أهل النّار و صديدهم.

١- المائدة = ١٠٩

و قال بعضهم أنّ ذلك الوادي مجمع صديد أهل الكفر و الشّرك ليعلم ذوا العقول أنّه لا شئ أقدر منه و لا أنتن منه نتناً، و لا أشدّ منه مرارةً و لذلك وصفه رسول اللّه بما وصف و قال: لم أر فيها وادياً أعظم من الويل أعاذنا اللّه منه.

ثمّ قال تعالىٰ أنّه للمكذّبين، أي الويل أعدّه اللّه لمن كذّب رسله ولم يؤمن بهم و ذلك لأنّ تكذيب الرّسول هو تكذيب اللّه في الحقيقة و أيُّ كفرٍ أشدّ من تكذيب اللّه.

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ، ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ، كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

الإستفهام للإنكار أي أهلكنا الأوّلين من الأمم الماضين، كقوم نوح و قوم عاد و ثمود، و فرعون و من تبعه إلىٰ غير ذلك من المنكرين الكافرين، ثمّ نتبعهم الأخرين أي نلحق الأخرين بالأوّلين فأنّ حكم الأمثال واحد و أنّه تعالىٰ علىٰ كلّ شئٍ قدير و ملاك العذاب فيهم موجود، فإستحقاق العذاب ثابت للأخرين كما كان ثابتاً للأوّلين.

كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أي مثل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركي قريش إمّا بالسّيف و إمّا بالهلاك، ويلٌ بالمكذّبين، أي يوم القيامة للمكذّبين.

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ، فَجَعَلْنٰاهُ فى قَرٰارٍ مَكِينٍ، إِلىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فَقَدَرْنٰا فَنِعْمَ ٱلْقٰادِرُونَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

الإستفهام للإنكار أي خلقناكم من ماءٍ مهين، أي من نطفةٍ، و المهين الضّعيف و الحقير وصف اللّه تعالىٰ النُّطفة بالحقارة و هى كذلك و فى الآية دلالة واضحة علىٰ أنّ خلق الجنين أنّما هو من ماء الرَّجل وحده و فيه ما لا يخفىٰ من الدّلالة علىٰ أنّ للإنسان مدّبراً و صانعاً و خالقاً فمن جحده كان كالمكابر عقله، فجعلناه، أي جعلنا الماء و هو النُّطفة، في قرارٍ مكينٍ، فالقرار

المكان الّذي يمكن أن يطول فيه مكث الشّيء، و المراد بالمكين الرَّحم أي جعلناه في مكانٍ حريز و هو الرَّحم.

إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ أي إلىٰ أن نصّوره، أو إلى وقت الولادة، فالقدر المعلوم الّذي لا زيادة فيه و لا نقصان فكأنّه قال إلىٰ مقدارٍ من الوقت المعلوم.

أقول القَدر بفتح القاف و سكون الدّال و الرّاء ما يقدّره اللّه من القضاء و بفتح الدّال ما صدر مقدوراً عن فعل القادر.

قال الرّاغب في المفردات و تقدير منّي الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات فتقدير اللّه علىٰ وجهين:

أحدهما: بالحكم منه أن يكون كذا و لا يكون كذاإمّا علىٰ سبيل الوجوب و إمّا علىٰ سبيل الإمكان و علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: **قَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا**(1).

الثّاني: بإعطاء القدرة عليه فقوله: **فَقَدَرْنٰا فَنِعْمَ ٱلْقٰادِرُونَ** فيه تنبيهٌ علىٰ أنّ كلّ ما يحكم به فهو محمودٌ في حكمه أو يكون من قوله: **قَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** و قرئ **فَقَدَّ**رنا بالتّشديد و ذلك منه أو من إعطاء القدرة و كيف لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ كلّ شيئ بل الحقّ أنّه لا قدرة إلاّ قدرته كما لا لم إلاّ علمه و لا حياة إلاّ حياته **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** أي يوم القيامة للمكذّبين.

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفٰاتًا، أَحْيٰآءً وَ أَمْوٰاتًا، وَ جَعَلْنٰا فيهٰا رَوٰاسِىَ شٰامِخٰاتٍ وَ أَسْقَيْنٰاكُمْ مٰآءً فُرٰاتًا، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

الهَمَزة أيضاً للإنكار و المعنىٰ جعلنا الأرض كفاتاً، و الكفاة الغمام أي ضامّة تضّم الأحياء علىٰ ظهورها و الأموات في بطنها، و هذا يدلّ علىٰ وجوب واراة الميّت و دفنه في الأرض حتّىٰ الإمكان هكذا قيل و إلىٰ ذلك أشار بقوله **أَحْيٰآءً وَ أَمْوٰاتًا** أي أنّ الأرض تضّم الأحياء و الأموات و الكفت في الأصل الضمّ و الجمع و إلىٰ هذا المعنىٰ أشار الشّاعر بقوله:

١- الطّلاق = ٣

كرامُ حين تنكفت الأفاعى إلىٰ أحجارهنّ من الصَّفيع

و قال أبو عبيد الكفاة الأوعية و منه قول الشّاعر:

فأنت اليوم فوق الأرض حيّاً و أنت غداً تضُمك في كفاةٍ

وَ جَعَلْنا فيها أي في الأرض **رَواسِيَ شامِخاتٍ** أي الجبال الثّابتات الطُّوال، فالشّامخات الطَّوال، و قد مرَّ الكلام فيه غير مرَّةٍ.

أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتًا فالفرات الماء العذب يشرب و يسقىٰ منه الزّرع **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** قال بعض المحقّقين أنّ هذه الأمور أعجب من البعث إلاّ أنّه لا يقدر عاقلٌ علىٰ إنكارها لكونها من الأمور المحسوسة ولو تأمّل فيها متأمل يراها أعجب من البعث ولكن ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار فأنّ اللّه القادر على المذكور في تلك الأيات كيف لا يقدر علىٰ البعث، ثمّ كيف يعبد غيره.

اِنْطَلِقُوا إِلىٰ ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

الإنطلاق الإنتقال من مكانٍ إلىٰ مكانٍ أخر من غير مكثٍ الإنتقال و هو مأخوذ من الإطلاق خلاف التَّقييد، فالإنتقال من حالٍ إلىٰ حالٍ أو من إعتقادٍ إلىٰ إعتقادٍ لا يسمّىٰ إنطلاقاً و حيث أنّ الكفّار ينتقلون من غير النّار إلىٰ النّار قال تعالىٰ: **اِنْطَلِقُوا** أي إنتقلوا إلىٰ جهنَّم الّتى كنتم بها من المكذّبين و بعبارةٍ أخرىٰ إنتقلوا إلىٰ النّار الّتى أنكرتموها في الدُّنيا جزاءً علىٰ المعاصي ثمّ ذكر اللّه الموضع الّذي أمرهم بالإنطلاق إليه.

اِنْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَليلٍ وَ لا يُغْني مِنَ اللَّهَبِ، إِنَّها تَرْمي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

لمّا أمرهم اللّه بالإنطلاق إلىٰ ما كذّبوه و هو النّار بيَّن في هذه الأيات أوصافها و هى ثلاثة أو أربعة فقال أنّها ظلٌّ له ثلاث شعب، فالظّل دخانٌ من

جهنّم ينقسم ثلاث شعب كما قال تعالىٰ: **أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها**[١].

لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ الظّليل المانع عن الأذىٰ بستره عنه و هو من الظِّلة و هى السِّترة و المراد به ها هنا الدُّخان لا يغني من حرّ النّار شيئاً و بيَّن ذلك بقوله: **وَ لا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ** و اللَّهب إرتفاع الشَّرر و هو إضطرام النّار و محصّل الكلام في معنىٰ الآية إنطلقوا الىٰ ظلٍ أي دخانٍ لا يغني و لا يدفع من حرّ النّار شيئاً.

و الشُّعبة الثّانية: قوله: **إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** يغني النّار ترمي بشررٍ كالقّصر، و **الشَّرَر** بفتح الشّين و الرّاء واحدها، شررة، كما أنّ الشّرار، و احدته، شرارة، فالشَّرر ما تطاير من النّار في كلّ جهةٍ واصلة من شررت الثَّوب إذا بطشه للشّمس ليجفّ، و المقصود أنّ شرار النّار ترميهم و قوله: **كَالْقَصْرِ** و **القَصر** بفتح القاف و سكون الصّاد البناء المرتفع العالي و هو في معنى الجمع علىٰ طريق الجنس و على هذا فالمعنىٰ الحصون و المدائن شبَّه اللّه تعالىٰ شرر النّار بالقصر في علّوه و إرتفاعه، و قيل، القصر. جمع، قصرة، ساكنة الصّاد، مثل، جمرة و جمرٍ، و ثمرة و ثمر، و القصرة الواحدة من جزل الحطب الغليظ و عن البخاري عن إبن عبّاس في قوله: **تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** كما ترفع الخشب ثلاثة أذرع أو أقَّل فترفعه للشّتاء فتسميّه القصر و عن سعد بن جبير و الضّحاك هي أصول الشَّجرة و النّخل العظام إذا رفع و قطع و قيل أعناقه، و قال مجاهد و غيره **كالقَصر** بفتح الصّاد أي أعناق النَّخل، و القصرة، العنق، جمعها، قصر و قصرات، و قال قتادة، أعناق الأبل، و الأقوال كثيرة و المشهور عند المفسّرين هو القول الأوّل.

الشّعبة الثّالثة: قوله تعالىٰ: **كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ** قرأ حفص و حمزة و الكسائي **جِمالَة** بكسر الجيم بصيغة المفرد و بقية الشّعبة (جمالات) بصيغة

١- الكهف = ٢٩

الجمع و المصاحف كلّها علىٰ القراءة الأوّلىٰ ثمّ أنهم إختلفوا فقال الفرّاء يجوز أن يكن (جمالات) جمع، جمال، كما يقال، رجل و رجل و رجلات، و قرأ بعضهم (جُمالات) الجيم و هى الجبال الغلاظ و علىٰ أيّ التّقادير فالجمالات الصفر، و هى الأبل السُّود و العرب تسمّىٰ السُّواد من الأبل صفراً قال الشّاعر:

وتلك خيلي منه و تلك ركابى هنَّ صفرٌ أولادها كالزبيب

و أنمّا سميّت السُّود من الأبل صفر لأنّه يشوب سوادها شئ من صفرةٍ و بعضهم ضعَّف هذا القول و قال إنّا لا نعلم شيئاً منها في اللُّغة و وجّه عندنا أنّ النّاس خلقت من النُّور فهي نارٌ مضيئة ثمّ إسودَّت وإزدادت حدّة و صارت أشدَّ سواداً من النّار و من كلّ شئٍ سواداً، و الشَّرر أسود لأنّه من نارٍ سوداء فإذا رقت النّار بشررها ترمي الأعداء به **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ** أي يوم القيامة للمكذّبين و قد مضىٰ معناه.

هٰذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ، وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

هذا، يوم القيامة **يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ** أي لا يتّكلمون، إختلفوا في معنىٰ هذا اللَّفظ، فقال قومٌ لا يتكّلمون من هول محشر و خوفه و قيل يوم القيامة له مواطن و مواقيت فهذا من المواطن الّتى لا يتّكلمون فيها **وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** أي لا يؤذن لهم، في الإعتذار أيضاً.

و قيل إنّهم لا ينطقون بحجّةٍ نافعة و من نطق بما لا ينفع و لا يفيد فكأنّه ما نطق عليه السلام.

أقول معنىٰ الكلام ظاهر يستفاد من قوله لا يوذن لهم فيعتذرون، فالمعنىٰ لا كلام لهم لينطقوا به لأنّ الحجّة قد تمّت عليهم، أو المعنىٰ لا يوذن بالنّطق كما لا يوذن لهم بالإعتذار **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**.

هٰذٰا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنٰاكُمْ وَ ٱلْأَوَّلِينَ، فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

هذا، إشارة إلىٰ يوم القيامة و هو اليوم الّذي هم فيه، يقول اللّه تعالىٰ هذا يوم الفصل، أي يوم الحكم بين الخلائق، و الفصل قطع غلق الأمور بتوفية الحقوق **جَمَعْنٰاكُمْ وَ ٱلْأَوَّلِينَ** أي جمع اللّه تعالىٰ الّذين كذّبوا محمّداً صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و الّذين كذّبوا النّبيين من قبله و بعبارةٍ أخرىٰ جمع اللّه المكذّبين من الأوّلين و الأخرين و ذلك لوحدة الملاك و هى التّكذيب و لا فرق فيه بالنّسبة إلىٰ جميع الأنبياء **فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ** أي حيلة في الخلاص من العقاب و الهلاك **فَكِيدُونِ** أي فكيدوني حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه رعايةً للسّجع و المعنى فإحتالوا لأنفسكم و فيه توبيخٌ من اللّه لهؤلاء الكفّار و من لا يقدر من دفع العذاب من نفسه فهو علىٰ دفعه عن غيره أعجز و أضعف، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ثمّ بعد ذلك أشار اللّه تعالىٰ إلىٰ أحوال المتّقين.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلٰالٍ وَ عُيُونٍ

أي أنّ الّذين إتّقوا معاصي اللّه و أتوا بطاعاته و طلبوا ثوابه فهم في ظلالٍ، و هو جمع ظلّ و هو الحجاب العالي المانع من كلّ أذى و المراد بالظّلال ظلال الأشجار و ظلال القصور فكان الظّل في الشّعب الثّلاث (و عيون) و هى ينابيع الماء الّتى تجري في ظلّ الأشجار.

وَ فَوٰاكِهَ مِمّٰا يَشْتَهُونَ

فواكه، جمع فاكهة و الفواكه ثمار الأشجار الّتى من شأنها أن تؤكل إذ قد يكون من الثّمر ما لا يؤكل كالثّمر المرّ فأنّه ليس من الفاكهة.

كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أي يقال لهؤلاء المتّقين كلوا و أشربوا أي كلوا من الثّمار و أشربوامن العيون.

إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

أي يثيب الّذين أحسنوا في إيمانهم باللّه و رسوله **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**.

كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ

هذا مردودٌ إلىٰ ما تقدّم قبل المتّقين و هو وعيدٌ و تهديدٌ و هو حال من المكذّبين، أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم.

كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا أنّكم مجرمون أي كافرون **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ

فالرّكوع هو الإنخفاض على وجه الخضوع و قد يعبّر به عن نفس الصّلاة و المراد به هاهنا الصّلاة و المعنىٰ إذا قيل لهؤلاء الكفّار صلّوا، لا يصلّون و قيل أنّه يقال لهم ذلك في الأخرة كما قال تعالىٰ: **يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**[1] و قيل يقال لهم ذلك في الدّنيا.

و إنّما ذكر الصّلاة من بين الواجبات لأنّها فارقة بين الكفر و الإيمان **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**.

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

و ذلك لأنّ القرآن أتى بأظهر البرهان فمن كفر به فليس ممّن يفلح بالإيمان بكلام غيره فأنّ من لم يؤمن بما فيه من المعجزة و هو القرآن كيف يؤمن بما ليس فيه إعجاز ك و هو ظاهر و الحمد للّه ربّ العالمين.

■

۱- القلم = ۴۲

الفهرست

سُورَةُ ٱلْمُجَادَلَةِ ٩

الآيات ١ الى ٢٢ .... ٩

اللّغة ١٢

الإعراب........ ١٢

التّفسير ١٣

■

سُورَةُ الحَشْرِ........ ٣٩

الآيات ١ الى ٢٤ .... ٣٩

اللّغة ٤٢

الأعراب........ ٤٣

التّفسير ٤٣

■

سُورَةُ ٱلْمُمْتَحَنَةِ ٧٩

الآيات ١ الى ١٣ .... ٧٩

اللّغة ٨١

الإعراب ٨٢

التّفسير ٨٢

■

سُورَةُ الصَّفِّ ١١١

الآيات ١ الى ١٤ .... ١١١

اللّغة ١١٢

الإعراب ١١٣

التّفسير ١١٣

■

سُورَةُ ٱلْجُمُعَةِ ١٢٥

الآيات ١ الى ١١ .... ١٢٥

اللّغة ١٢٦

الإعراب ١٢٦

التّفسير ١٢٧

■

سُورَةُ ٱلْمُنٰافِقوُنَ ۱۴۷

الآيات ۱ الى ۱۱ ۱۴۷
اللّغة ۱۴۸
الإعراب ۱۴۹
التّفسير ۱۴۹

■

سُورَةُ ٱلتَّغٰابُنِ ۱۶۱

الآيات ۱ الى ۱۸ ۱۶۱
اللّغة ۱۶۳
الإعراب ۱۶۳
التّفسير ۱۶۳

■

سُورَةُ ٱلطَّلاٰقِ ۱۸۵

الآيات ۱ الى ۱۲ ۱۸۵
اللّغة ۱۸۷
الإعراب ۱۸۷
التّفسير ۱۸۸

■

سُورَةُ ٱلتَّحْرِيمِ ٢٠٩

الآيات ١ الى ١٢ .... ٢٠٩

اللّغة ٢١١

الإعراب ٢١١

التّفسير ٢١٢

■

سُورة المُلك ٢٣٥

الآيات ١ الى ٣٠ .... ٢٣٥

اللّغة ٢٣٧

الإعراب ٢٣٨

التّفسير ٢٣٩

■

سُورة القَلَم ٢٥٩

الآيات ١ الى ٥٢ .... ٢٥٩

اللّغة ٢٦١

الإعراب ٢٦٣

التّفسير ٢٦٣

■

سُورَةُ ٱلْحَاۤقَّةِ ٢٩١

الآيات ١ الى ٥٢ .... ٢٩١
اللّغة ٢٩٣
الإعراب ٢٩٤
التّفسير ٢٩٥

■

سُورَةُ ٱلْمَعَارِجِ ٣١٩

الآيات ١ الى ٤٤ .... ٣١٩
اللّغة ٣٢١
الإعراب ٣٢١
التّفسير ٣٢٢

■

سُورَةُ نُوحٍ ٣٤٣

الآيات ١ الى ٢٨ .... ٣٤٣
اللّغة ٣٤٤
الإعراب ٣٤٥
التّفسير ٣٤٦

■

سُورَةُ اَلْجِنِّ ٣٦٣

الآيات ١ الى ٢٨ .... ٣٦٣
اللّغة ٣٦٥
الإعراب ٣٦٥
التّفسير ٣٦٥

■

سُورَةُ اَلْمُزَّمِّلِ ٣٨٧

الآيات ١ الى ٢٠ .... ٣٨٧
اللّغة ٣٨٨
الإعراب ٣٨٩
التّفسير ٣٨٨

■

سُورَةُ اَلْمُدَّثِّرِ ٤٠٥

الآيات ١ الى ٥٦ .... ٤٠٥
اللّغة ٤٠٧
الإعراب ٤٠٨
التّفسير ٤٠٨

■

سُورَةُ ٱلْقِيٰمَةِ ۴۲۷

الآيات ۱ الى ۴۰ .... ۴۲۷
اللّغة ۴۲۸
الإعراب ۴۲۹
التّفسير ۴۲۹

■

سُورَةُ ٱلْإِنْسٰانِ(الدّهر) ۴۵۱

الآيات ۱ الى ۳۱ .... ۴۵۱
اللّغة ۴۵۳
الإعراب ۴۵۴
التّفسير ۴۵۴

■

سُورَةُ ٱلْمُرْسَلاٰتِ ۴۷۹

الآيات ۱ الى ۵۰ .... ۴۷۹
اللّغة ۴۸۰
الإعراب ۴۸۲
التّفسير ۴۸۲

■